مدرسة السيرة النبوية



رقم الإيداع : ١٨٣٧ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولي : ٦-٩٧-٠-٤٢٩-٩٧٧

الطبعة الأولى

٢٠٠٧ / ١٤٢٨

مكتبة سوق الآخرة

هاتف : ٠١٠١٦٥٧١٧٣ - ٣٢٨٧١٨٩

دار التقوى

للنشر والتوزيع

شبرا الخيمة

هاتف : ٢٢٣١١٠٣ - ٤٧٣١٨٢٤ - ٤٧١٥٥٠٣




مدارسة
السيرة النبوية
«الجزء الأول»
جمع وترتيب
مُحَمَّدُ بنُ حُسَيْنِ آلَ يَعْقُوبَ


بسم الله الرحمن الرحيم
yaqob.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ، ونعوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أنفسِنا، ومِنْ سَيِّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلِلْ فلا هَادِيَ له، وأَشْهَدُ أَنْ لا إلَه إلَّا الله، وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أصْدَقَ الحديثِ كِتابُ الله، وأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة، وكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّار.

ثُمَّ أمَّا بَعْدُ،

فإخوتي في الله..

والَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ؛ إنِي أُحِبُّكُم في اللهِ، وأسألُ اللهَ جَلَّ جلالُه أن يجمعنا بهذا الحُبِّ في ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه، اللَّهُمَّ اجعلْ عملَنا كله صالحا، واجعلْهُ لوجهِكَ خَالِصًا، ولا تجعلْ فيهِ لأحَدٍ غَيْرِكَ شيئًا.

احبني في الله..

الله تعالى يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٨-٩].

فالحمد لله الذي تفضل علينا بخالص فضله، وأكرمنا بتمام كرمه، وأسبغ علينا عظيم نعمه؛ فأرسل إلينا مصطفاه من خلقه، وأمينه علىٰ وحيه، خاتمَ النبيين، وإمامَ المرسلين، وقائدَ الغُرِّ المُحَجَّلين، صاحبَ لواء الحمد، والمقامِ المحمود، والحوضِ المورود، سيِّدَ ولدِ آدمَ يوم القيامة، آدم والنبيون خلفه، وهو أول من يُحَرِّكُ حِلَقَ الجنة، ﷺ من يعجز القلم عن تعداد محامده، ويقصر الفكر عن إدراك مناقبه، ﷺ بعثتُهُ رحمةٌ، وكلامُه حكمة، وحياته أُسوة، فكُلُّهُ نعمة، وما أعظمَها من نعمة!! صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

وبعد؛ فإن خير ما يتدارسه المسلمون في هذا الزمن العجيب والوقت العصيب بعد القرآنِ الكريم، كلام الله، كتابِ الله: السيرةُ المحمديةُ؛ إذ هي خيرُ مُعَلِّم ومُثَقِّفٍ، ومُهَذِّبٍ ومُؤَدِّبٍ، وأصلُ مدرسةٍ تخرَّج فيها الرعيلُ الأول من المسلمين والمسلمات صحابة النبي الأمين، الذين قلما تجود الدنيا بأمثالهم رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

ففيها ما ينشده المسلمُ، وطالبُ الكمال من دين ودنيا، وإيمانٍ واعتقاد، وعلم وعمل، وآداب وأخلاق، وسياسة وكياسة، وإمامة وقيادة، وعدل ورحمة، وبطولة وكفاح، وجهاد واستشهاد في سبيل العقيدة والشريعة، والمُثُلِ الإنسانية الرفيعة، والقيم الخُلُقية الفاضلة.

ولقد كانت السيرةُ النبوية مدرسةً حقيقية وصورة واقعية نرى من خلالها كيف تخرجت أعظمُ النماذج البشرية ، وهم الصحابة ﭫ ؛ فكان منهم الخليفة الراشد ، والقائد المحنّك ، والبطل المِغْوارُ ، والسياسيُّ الدّاهية ، والعبقريُّ المُلهَم ، والعالم العابد العامل ، والقارئ المخبِت ، والفقيه المنظّر البارع ، والعاقل اللبيب الحازم ، والحكيم الذي تتفجر من قلبه ينابيع العلم والحكمة ، والتاجر الذي يحوّل رمال الصحراء ذهبًا ، والزارع والصانع اللذان يريان في العمل عبادة ، فينصرون دين الله ، ويخدمون عباد الله ، والكادح الذي يرى في الاحتطاب عملاً شريفًا يترفّع به عن التّكفُّفِ والتسوُّل ، والغني الشاكر الذي يرى نفسه مستخلَفًا في هذا المال ينفقه في الخير والمصلحة العامة ، والفقير الصابر الذي يحسبه من لا يعلم حاله غنيًا من التعفُّفِ ، فكان همهم الآخرة ، ولم ينسوا نصيبهم من الدنيا ، واستعملوا هذا النصيب أيضًا لخدمة دينهم .

كل ذلك كان من ثمرات الإيمان بالله ﻷ ، وبرسول الله ﷺ ، وتربية رسول الله ﷺ لهم بالمعايشة ، وبهذا كانوا الأمة الوسط ، وكانوا خير أمة أُخرجتْ إلى الناس ، هؤلاء خريجو مدرسة محمد ﷺ ، قال فيهم ربهم ﻷ : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال فيهم رسول الله ﷺ : «خَيرُ النَّاسِ قَرْنِي»[(١)] .

وتأمل هذا الثناء النبوي على بعض هؤلاء الأكابر تفقه عظمة المكانة التي كانوا عليها ، قال رسول الله ﷺ : «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكرٍ ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَأَقْرَؤُهُمْ

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٤٥١) ، ك : المناقب ، باب : فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ومسلم (٢٥٣٣) ، ك : فضائل الصحابة ﭫ ، باب : فضل أصحاب النبي ﷺ والذين يلونهم .

لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[١] .

ولذلك كان السلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية يدركون ما لسيرة خاتم الأنبياء ﷺ وسِيَرِ الصحابة النبلاء ﷺ من آثار حسنة في تربية النشء، وتنشئة جيل صالح لحمل رسالة الإسلام، والتضحية في سبيلها بالنفس والمال؛ فمن ثَمَّ كانوا يتدارسون السيرة، ويحفظونها، ويلقنونها للغلمان كما يلقنونهم السور من القرآن، روي عن زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما أنه قال: «كنا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ رسولِ الله ﷺ كما نُعَلَّمُ السورةَ من القرآن».

وهذا هو الإمام الزُّهْري عالمُ الحجاز والشام، وهو من قدماء من عُنوا بجمع السيرة، بل قيل: إن سيرته أول سيرة أُلفت في الإسلام، يقول: «في علم السيرة علم الدنيا والآخرة»، وإنها لكلمة صدق وحق.

ورُوِيَ عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان أبي يعلمنا المغازيَ والسرايا ويقول: «يا بُنيَّ، هذه شرف آبائكم، فلا تضيعوا ذكرها»، نعم والله إنها لشرف الآباء، والمدرسة التي يتربى فيها الأبناء.

ولسنا نريد من دراسة السيرة العطرة: سيرة النبي ﷺ، وسير الرعيل الأول وهم الصحابة الكرام، أن تكون مجرد مادة علمية وفقط، أو أن تكون حصيلة علمية ثقافية نتفيهق بها ونتشدق في المحافل والنوادي، وقاعات البحث والدرس، وفي المساجد، والمجامع؛ كي نحظى بالذكر والثناء، وننتزع من السامعين مظاهر الرضا والإعجاب.

ولكننا نريد من هذه الدراسة أن تكون مدرسة نبوية نتربى من خلالها ونتخرج فيها، كما تخرج السادة الأولون، وأن نكون مُثُلًا صادقة وأتباعًا حقيقيين

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١)، ك: المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي ابن كعب وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٨١).

لسيدنا النبي محمد ﷺ، وصحابته الكرام ﷺ في إيمانهم وعقيدتهم، وفي علمهم وعملهم، وأخلاقهم وسلوكهم، وسياستهم وقيادتهم؛ حتىٰ يعتز بنا الإسلام كما اعتز بهم، ونكون في حاضرنا - كما كانوا - خير أمة أخرجت للناس.

ولن أَقْصُرَ دراستي في السيرة النبوية - بإذن الله وحوله وقوته - علىٰ السرد التاريخي فحسب، كما صنع معظم المتقدمين وبعض المتأخرين، ولا علىٰ التعليق على مواقف من السيرة أو جُلِّها، مع إغفال الهيكل الأصلي أو الجانب التاريخي كما صنع بعض الفقهاء والمحدِّثين؛ وإنما سأجتهد ولا آلو - إن شاء الله - أن أجمع بين الحسنيين: الهيكل التاريخي مع تحري الحقيقة، والتعليق علىٰ المواقف، ولاسيما الحاسمة في تاريخ الدعوة، وانتزاع العبر النافعة والدروس المفيدة منها.

وما أذكر أني تركت حدثًا مهمًا، أو موقعة فاصلة، أو سريَّة مهمة، أو عملاً بارعًا، أو سياسة راشدة، أو قيادة حكيمة، أو أيَّ تصرف كريم للنبي ﷺ، أو لأحد أصحابه إلا وقفت عنده وقفة أو وقفات؛ ليتبين لك أخي المسلم وحبيبي في الله فرقُ ما بين أخلاق النبي الرسول محمد ﷺ، وسياساته الحكيمة الرشيدة في السِّلْم والحرب، ومع الأصدقاء والأعداء، وما بين غيره، مهما بلغ ذلك الغير من العقل، والعلم، والكِياسة، والسياسة، والقيادة، والعدل، والرحمة؛ ذكرت هذا لكي أَخْلُصَ من ذلك إلىٰ الفرق البعيد ما بين النبوة وغير النبوة، والبشر الرسول وغير الرسول.

إنه نبيك ﷺ (محمد رسول الله)،

إنه ﷺ فوق أيِّ عبقري، وأجلُّ من أيِّ زعيم، وأعظم من أيِّ قائدٍ، وأشجع من أيِّ بطلٍ، وأسمىٰ من أيِّ مُصلح، فلقد جمع الله له من صفات هؤلاء خيرَها وأفضلَها وأعدلَها وأرحمها، وإنه فوق هؤلاء جميعًا؛

إنه نبيُّ الله يوحىٰ إليه، ورسول الله يبلِّغ عن ربه، وهذا ما لا يُدرك ولا يُنال،

وإني تدبرت في سيرته ﷺ، فرأيت أنه لا غنىٰ للمسلم عن دراستها، وانتهاج منهجها؛ فهي الواقع العملي التطبيقي لكل ما بُعِثَ به النبيُّ ﷺ.

وإذا كنا بصدد كتابة السيرة، أو دراسة السيرة، أو قراءة السيرة، فليس الغرض من دراستها وفقهها مجرد الوقوف علىٰ الوقائع والأحداث التاريخية، ولا سرد ما طَرُفَ أو جَمُل من القصص والأحداث.

فلا ينبغي أن نعتبر دراسة فقه السيرة النبوية كأي دراسة تاريخية، شأنها شأن الاطلاع علىٰ سيرة خليفة من الخلفاء، أو عهد من العهود التاريخية الغابرة.

إنما الغرض منها أن يتصوَّرَ المسلمُ الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجَسِّدَةً في حياته ﷺ، بعد أن فهمها مبادئ وقواعد وأحكامًا مجردة في الذهن.

وهذا يعني أن تكون دراسة السيرة النبوية بمثابة عملٍ تطبيقيٍّ يُراد منه تجسيدُ الحقيقةِ الإسلاميةِ كاملةً، في مَثَلِها الأكمل والأمثل والأعظم محمد ﷺ.

إنني أريد أن يتعرف الناس علىٰ النبيِّ محمد ﷺ.

وكيف لا يتعرف المرء علىٰ نبيه ﷺ وهو خير خلق الله؟!

وهو سيد ولد آدم ولا فخر..

وهو الرحمة المهداة..

وهو خاتم الأنبياء والمرسلين..

وهو صاحب المقام المحمود..

وهو صاحب الحوض المورود..

وهو أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة..

وهو الماحي الذي محا الله به الكفر..

وهو أول من ينشَقُّ عنه القبر..

وهو أول من يدخل الجنة ولا فخر..

صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا..

أهداف دراسة السيرة:

إذا كان الأمر والشأن كما قدمنا ؛ فلابد من وجود أهداف وبواعث وغايات لدراستنا وقراءتنا للسيرة ، وإذا أردنا أن نحدِّدَ أهدافنا من دراسة السيرة النبوية ؛ وذلك لاتخاذها نياتٍ نتقرب بها إلى الله عز وجل . .

فإنه من الممكن حَصْرُهَا في الأهداف التفصيلية التالية:

(١) زيادة الإيمان بأن محمدًا ﷺ رسولُ الله ، وتحصيل اليقين بنبوة النبي محمد ﷺ ، وذلك من خلال فهم شخصية الرسول ﷺ (النبوية) ومعايشة حياته وظروفه التي مر بها ، وذلك ليزداد اليقين للمؤمن أن محمدًا ﷺ لم يكن مجرد عبقريٍ سَمَتْ به عبقريته بين قومه ، ولكنه قبل ذلك رسولٌ أيَّده الله بوحيٍ من عنده وتوفيقٍ من لدنه .

(٢) أن يجد الإنسانُ بين يديه صورةً للمثل الأعلى في كل شأنٍ من شئون الحياة الفاضلة ؛ كي يجعلَ منها دستورًا يستمسكُ به ويسير عليه ، ولا ريب أن الإنسان مهما بحث عن مَثَلٍ أعلى في ناحيةٍ من نواحي الحياة ، فإنه واجدٌ كل ذلك في حياة رسول الله ﷺ على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال والصفاء والنقاء والرفعة والسمو مع الواقعية في الحياة ؛ ولذا جعله الله قدوةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ؛ إذ قال عز وجل : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

(٣) أن يجد المسلم في دراسة سيرته ﷺ ما يعينه على فهم كتاب الله عز وجل ، وتذوُّق روحه ومقاصده ؛ إذ إن كثيرًا من آيات القرآن إنما تفسرها وتجلّيها الأحداث التي مرت برسول الله ﷺ ومواقفه منها .

(٤) أن يتجمع لدى المسلم من خلال دراسة سيرته ﷺ أكبر قدر من العلم الشرعي النافع ، والمعارف الإسلامية الصحيحة ؛ سواء ما كان منها متعلقًا بالعقيدة أو الأحكام أو الأخلاق ؛ إذ لا ريب أن حياته ﷺ كانت صورة مُجَسَّدَةً نَيِّرَةً

لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه ؛ فتتعلم منها كثيرًا من أصول الإيمان وكثيرًا من الأحكام الفقهية والدروس التربوية والسياسات الشرعية .

٥ أن يكون لدىٰ المعلِّم والداعية الإسلامي نموذجٌ حيٌّ عن طرائق التربية والتعليم ؛ فلقد كان رسول الله ﷺ معلِّمًا ناصحًا ، ومربيًا فاضلًا ، لم يَألُ جهدًا في تَلَمُّسِ أجدىٰ الطرق الصالحة إلىٰ : التربية ، والتعليم ، والتوجيه والإرشاد والنصح ، وغيرها خلال مراحل دعوته المتعددة ﷺ .

وإن من أهم ما يجعل سيرته ﷺ وافيةً بتحقيق هذه الأهدافِ كلِّها ؛ أنَّ حياتَه شاملةٌ لكل النواحي الإنسانية والاجتماعية التي توجد في الإنسان ، من حيث كونه فردًا مستقلًا بذاته أو من حيث إنه عُضوٌ فعَّال في المجتمع .

فحياتُه ﷺ تقدم إلينا نماذج سامية للشَّاب المستقيم في سلوكه ، الأمينِ مع قومه وأصحابه ، كما تقدم النَّموذج الكاملَ للعالِم المسلم الداعي إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، الباذلِ منتهىٰ الطاقةِ في سبيل إبلاغ رسالته ، وتقدم لنا أيضًا النموذج الأمثل لرئيس الدولة الذي يَسُوسُ الأمورَ بِحِذْقٍ وحكمةٍ بالغة ، وللزوج المثاليِّ في حسن معاملته ، وللأب الشفوق في حُنُوِّ عاطفته ، مع تفريقٍ دقيقٍ بين الحقوق والواجبات ، وللقائد الحربيِّ الماهر ، والسياسيِّ الصادق المُحَنَّك ، وللمسلم الجامع - في دقةٍ وعدلٍ - بين واجب التعبد والتبتُّلِ لربه ، والمعاشرةِ الطيبةِ والفكاهة اللطيفة مع أهله وأصحابه .

لا جَرَمَ إذن أن يحتاج كل مسلم إلىٰ دراسةِ سيرةِ الرسول ﷺ دراسةً وافيةً تتناول كل جوانب الحياة ؛ فإن دراسةَ سيرته ﷺ ليست إلا إبرازًا لهذه الجوانبِ الإنسانية كلِّها مجسدةً في أرفع نموذج وأتمِّ صورة .

٦ ندرسُ السيرة كي نحبَّ رسولَ الله ﷺ ؛ فإن من أراد أن يحبَّ أحدًا لابد أن يعرفه ، ويستحيلُ الحبُّ دون معرفة عن قرب ، فلابد - أيها الحبيب - أن تعيشَ السيرةَ النبويةَ ، أن تعيشَها حقيقةً وأنت تقرؤها ؛ فليس المقصود هنا - كما ذكرت -

سردَ الأحداثِ التاريخية ؛ وإنما المقصود أن تعيشَ مع رسولِ الله ﷺ حياتَه لحظةً بلحظة ، وتنفعلَ معه في أحداث حياته ومراحل عمره ؛ فتفرح لفرحه ، وتحزن لحزنه ، وتتألم لألمه ، وتقلق لقلقه ، كأنك تصاحب أنفاسُك أنفاسَه ، وتحيا مواقفَه بكِيانك كأنك معه ؛ حينئذٍ يتملكك حبُّه فيملأ جوانحك وقلبك ، وكلما ازددت منه قربًا ازددت له حبًا .

إنني أريدك أن تتسارع نبضاتُ قلبِك وأنت تقرأُ رحلتَه في الهجرة عندما وقف المشركون على رأس الغار ، أو عندما طارده سُراقة ، وأريدك أن تحزن وتتألم وتتفجع عندما تقرأ حادثة الإفك ، أو تقرأ مشهد قتل أسدِ اللهِ حمزةَ ﷺ عم النبي ﷺ في غزوة أحد . . . حقيقة أريدك أن تشعر بما شعر به وتعيش ما عاش فيه ﷺ .

فدراسة السيرة النبوية هنا لتنفعل ، وتتفاعل ، ويزيد الحب . .

⑦ السيرةُ ذاتُها معجزةٌ من معجزات النبي ﷺ ، وآيةٌ من آيات النبوة ، فأنت تدرُسُ السيرة لزيادة الإيمان ، وتكميل اليقين بنبوة النبي محمد ﷺ ، فهذه السيرةُ العظيمةُ للنبي محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقَه ضرورةً ، وتشهد له بأنه رسول الله حقًا ، فلو لم تكن له معجزةٌ غيرَ سيرته لكفى .

وأنت حين تقف على معجزاته - ومعجزاته كثيرة - يزيد إيمانك بصدقه ويزداد تعظيمك له ﷺ .

⑧ معرفةُ عظمةِ النبيِّ ﷺ ؛ فإن الذي يعايشُ حياتَه ﷺ ويعيش معه ؛ يعرف عظمةَ هذه الشخصيةِ وقدْرَها عند الله ، حين تعيشُ معه الليل قائمًا وساجدًا ، تاليًا وراكعًا يسبقُ أعظمَ الرهبان ، وتعيش معه النهار زوجًا وأبًا ، داعيًا ومربيًا ، نبيًا يتلقى الوحيَ ورسولاً يبلغه ويفسره للناس ، وقائدًا يقودُ الجيوش ، ويبعث السرايا ، وسياسيًا يستقبل الوفود ، وبطلًا يضربُ في الشجاعة أعلى الأمثلة ، ويفر أمامه الأبطال ، وكريمًا يضرب في الجود أروعَ الأمثال ، تعرف حينئذٍ أن هذه شخصية يُخْضَعُ لها .

٩ دراسةُ السيرة النبوية متعةٌ روحية ، وغذاءٌ للقلوب الزَّكِيَّةِ ، وكيف لا تكون كذلك وأنت تدرس سيرته ﷺ ، فتسعد حين ينتصر ، وحين تتنزل الملائكة ويأتيه الوحي والآيات والبشارات والرحمات ؛ فتبتهج لفرحه ، وتأسىٰ لحزنه حين يقع في الضيق وحين تَرِقُّ القلوب في الكرب باللجأ إلىٰ الله ؛ فيرق حينها قلبك ، وفي كل الأحوال تكثر الصلاةَ عليه ﷺ ، فيصلي الله عليك بكل مرة عشرًا !!

فيزداد إيمانك وتعيش حياة إيمانية أثناء هذه الدراسة المباركة.

١٠ في دراسة السيرة معايشةٌ لذلك الزمنِ الجميلِ الذي اتصلت فيه الأرض بالسماء ، ويكىٰ بعده الصحابة علىٰ انقطاع الوحي ، وفيها معايشةُ نزول الآيات ، وحصول المواقف عند التحديث بالحديث ؛ فتعيش أسباب النزول ، وأسباب ورود الحديث الشريف ؛ فتحيا في قلبك هذه النصوص في صورتها الحقيقية التي وردت من خلالها .

١١ دراسة السيرة النبوية تعرفنا قدر الجهد المبذول للتمكين للدين ، وشدة جهاد الرسول ﷺ ، وهذه المسألة من النقاط المهمة في دراسة السيرة النبوية ؛ وذلك حين نعرف كيف مكَّن الله لهذا الدين في الأرض علىٰ يد هذا النبي ﷺ ، كيف ربىٰ أصحابه رجالاً يحملون الراية معه وبعده ، وكيف واجه المشركين والأعداء المتحزبين والمنافقين الخائنين ، كيف واجه كل هؤلاء ، كيف وكيف وكيف ؟ كل أولئك نريد أن نعرفه ولا سبيل لذلك إلا في تفاصيل دراسة السيرة ؛ لعلها تكون ومضة جديدة تضيء لنا طريق التمكين والوراثة الحضارية في هذا الزمان .

١٢ دراسة السيرة النبوية تَشْحَذُ الهِمَمِ وتُقَوِّي العزائمَ حين نرىٰ الهمّة العالية للنبي ﷺ وأصحابه ، ونعرف الجهود العظيمة التي بذلت لإعزاز الدين ورفع رايته .

١٣ التعمق في سيرة النبي ﷺ يساعد علىٰ التعرُّف علىٰ الرصيد الخلُقي الكبير الذي تميَّز به رسول الله ﷺ عن كل البشر ، والتعرف علىٰ صفاته الحميدة التي عاش بها في دنيا الناس .

(١٤) دراسة السيرة تفيدنا خبرةً عملية واقعية في التعامل مع البشر ، وكيفية الاتصال بهم والتواصل معهم ، كما نتعلم من مواقف الرسول ﷺ كيف نكتشف الطاقات البشرية ، وكيف ننمّي المهارات والقدرات ونوظفها للأحسن والأقوم .

وبعد . .

فهذه بعض أهداف دراسة سيرة الرسول ﷺ ، وليس الغرض من كتابة سيرة الرسول ﷺ أن أصف لك شخصيةً أسطوريةً أو عبقريةً تنالُ الإعجاب ؛ فلسنا بصدد حكاية قصة «أبو زيد الهلالي» ، أو «عنترة بن شداد» ، أو بلغة عصرنا لا أريد أن أسرد لكم مغامرات «الرجل الأخضر» أو «سوبر مان» كما يقولون ؛ إنما هي قصة حياة نبي الله ، خليل الله ، سيد ولد آدم ﷺ ، نعيشها حقيقة ؛ طلبًا للأسوة والقدوة والمثل الأعلىٰ في سلوكياتنا وممارساتنا .

وأخيرًا أخي وحبيبي في الله :

لابد أن تعلم أن السيرة النبوية غنيّة في كل جانب من جوانب الحياة التي تحتاجها مسيرة الدعوة الإسلامية ، فالنبي ﷺ لم يلحق بالرفيق الأعلىٰ إلا بعد أن ترك نماذج كثيرة لمن يريد أن يقتدي به في الدعوة ، والتربية ، والثقافة ، والتعليم ، والجهاد ، وكل شئون الحياة .

فإليكم - إخوتي وأحبتي - سيرة نبيكم الأعظم ﷺ ، فاستحضروا النيات السابقة في دراستها وقراءتها ، والتزموا قدوتكم وأسوتكم ﷺ ، وكونوا معه في الدنيا تكونوا معه في الآخرة ، إن شاء الله ﷻ .

وَفِي النِّهَايَةِ أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ العَلِيَّ العَظِيمَ وكَتَبَ

مُحَمَّدُ بْنُ حُسَيْنٍ آلِ يَعْقُوبَ

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وزَوْجَاتِهِ وَأَوْلَادِهِ والمُسْلِمِينَ والمُسْلِمَات

وَكَانَ خِتَامُهُ فِي لَيْلَةِ الإِثْنَيْن غُرَّةُ المُحَرَّم ١٤٣٠ هـ ، المُوَافِق ٢٦ دِيسَمْبِر ٢٠٠٨ م

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وبَارَكَ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وعَلَىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِين

صَلِّ عَلَىٰ النَّبِيِّ

أخي وحبيبي في الله..

سيكثر معنا -بالطبع- ذكر النبي ﷺ، فحاشاك أخي الحبيب أن تغفل عن الصلاة والسلام عليه كلما ذكر، أو إياك أن تمل من كثرة الصلاة والسلام عليه، الله صلِّ وسلم وزد وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

ولذا أحب قبل الشروع في ذكر سيرة الرسول ﷺ أن أذكر لك أهم الأحاديث التي تحض علىٰ الصلاة علىٰ النبي ﷺ وتحذر من تركها، ولاشك أن مسألة الصلاة علىٰ النبي تحتاج إلىٰ كتاب، ولكن فقط سأشير إشارة، واللبيب بالإشارة يفهم:

(١) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(٢) قال النبي ﷺ: «البَخِيلُ الذِي مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[١].

(٣) وقال ﷺ: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ خَطِئَ طَرِيقَ الجَنَّةِ»[٢].

(٤) وقال ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَىٰ نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٦)، ك: الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: قول رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل»، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١١).

(٢) أخرجه ابن ماجة (٩٠٨)، ك: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: الصلاة علىٰ النبي ﷺ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجة» (٧٤٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠)، ك: الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٩١).

كتابة السيرة

كيف وصلت إلينا سيرة الرسول ﷺ؟
هذا سؤال لابد من الإجابة عنه قبل سرد السيرة، فتعال لنأتي بالقصة من أولها:

عرف الناسُ التاريخَ وتوارثوه بالروايةِ، وكانت لكتابة التاريخ أهدافٌ كثيرةٌ، ولكن لم يكن قط منها إثباتُ ونقلُ الخبرة المجردة وخدمة البشرية؛ وإنما كانت دائمًا تعظيمًا لشخص أو فئة أو حضارة، وهذا في الأعم الأغلب، ومضىٰ الأمر علىٰ ذلك حتىٰ عند العرب، فقد كان تاريخهم مسايرًا لطبيعة حياتهم؛ ففيه مفاخر الآباء والأجداد، وفيه الأخبار التي تدور حول الأنساب والأحلاف.

ثم جاء الإسلام فإذا هذه الأخبار تروىٰ، وتلك الأنباء تُؤثَر، وكما غيَّر الإسلام مجرىٰ التاريخ غيَّرَ كذلك كتابة التاريخ؛ فقد صار التاريخ دينًا، وكتابته ليست لمجرد سردِ الحوادث والأحداث، أو نفاقًا لشخص أو أشخاص؛ وإنما صيَّر الإسلام كتابةَ التاريخ لحفظ الدين وبيان هدي النبي ﷺ في تخلق الأشخاص بهذا الدين، وحملهم له، ولما صار التاريخ دينًا اهتم كُتَّاب التاريخ في الإسلام بالأسانيد، والتي جعلها الله ﷻ خاصيةً من خصائص هذه الأمة دون بقية الأمم، فما تجد أمة لديها سندٌ متصل إلىٰ نبيها غيرَ أمة الإسلام، فاهتم كُتَّاب التاريخ بالإسناد كيلا ينتقل إلينا الدينُ مجرد قصص وأساطير وحكايات؛ بل إنَّ الأمر دينٌ، يحتاج إلىٰ التوثيق والتدقيق، حيث سينبني علىٰ كل جزئية من هذا المنقول أعمالٌ وأخلاق وسلوكيات وعبادات وقُرُبات، فلابد من الثقة واليقين في كل ما يصل إلينا خبرُهُ منه.

فكانت الأسانيد؛ وهي أن يذكر كل راوٍ من حدَّثه بهذا الكلام ويَتوثَّق أنه حافظ، وثقة، ولقي من حدثه وسمع منه.

وفي أهمية الإسناد يقول ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ : «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[١]، وكان يقول : «بيننا وبين القوم القوائم»[٢]، أي : الأسانيد، فلا يقبل قول القائل إلا إذا كان لقوله دليلٌ وسندٌ صحيح متصل، فشأن الإسناد عظيم، وعلىٰ هذا كُتبت السيرة .

فالسيرةُ النبويةُ هي الدينُ نفسُهُ، فكتابة قصة حياة الرسول ﷺ هي كتابة قصة هذا الدين؛ بل هي المثال الواقعيُّ للعقيدة والأخلاق، وهي التطبيق العملي للدين في واقع الحياة، إنها المَعينُ الصافي الذي نجد فيه الأمثلة الحية التي تشرح حقائق الدين وتبين مبادئه في صورة أعمال، إن قصة السيرة هي النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يُحتذىٰ به في الرضا والغضب، في النصر والهزيمة، إنها نموذج لكل أب ولكل ابن، ولكل معلم ولكل مُرَبٍّ، بل ولكل جار، ولكل زوج، ولكل ذي رحم، نموذجٌ ينادي كلَّ أفراد الأمة :

هلُمُّوا فهذه أخلاق نبيكم، فخذوا بها ..

أقبِلوا فهذه سنة رسولكم ﷺ، فاستمسكوا بها ..

هذه حبالُ النجاةِ الواصلةُ بكم إلىٰ السعادة في الدنيا، وإلىٰ الجنة في الآخرة، فعضُّوا عليها بالنواجذ واعملوا بها تغنموا : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

لذلك اهتم العلماء والمُحَدِّثون بكتابة وسرد حياة الرسول ﷺ بالأحاديث والروايات الصحيحة منذ بعثته ﷺ إلىٰ يوم قُبض، واستمرت هذه الكتابةُ كذلك بعد أن تُوفي رسولُ الله ﷺ إلىٰ يومنا هذا .

وإذا كنا بصدد كتابةِ سيرة نبينا الأعظم ﷺ ونبتغي في ذلك الدقة والمنهجية ؛ فلابد أن نرجع إلىٰ الأصول التي كتبها الصحابةُ في حياةِ الرسول ﷺ ونبدأ من عندها .

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (٣٢) عن عبد الله بن المبارك، باب : في أن الإسناد من الدين .

(٢) أخرجه مسلم في المقدمة (٣٣) عن عبد الله بن المبارك، باب : في أن الإسناد من الدين .

وإن كنا نجد في بداية البعثة أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن كتابة شيء إلا القرآن ، فقد ورد في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا تَكْتُبُوا عَنِّي ، وَمَنْ كَتَبَ شَيْئًا سِوَىٰ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»[1] .

وقد كانت الحكمةُ في هذا ظاهرةً ، وهي الخشية من أن يختلط الوحي بحديث رسول الله ﷺ أثناء نزول القرآن ، وكان يُقصد به المحافظة علىٰ القرآن الكريم فلا يختلط بغيره ولا يدخل فيه كلام غير كلام الله عز وجل ؛ ليكون الاهتمام بكلام الله وحده والتركيز عليه وحده ؛ ولذلك كان هذا النهي بلا ريب موقتًا بوقت بداية نزول القرآن الكريم علىٰ قلب النبي محمد ﷺ ومقيدًا بهذه العلة وربما لعللٍ أخرىٰ الله يعلمها .

لذلك لما عرف الناس القرآن ، وكتبوه وأُثبِتَ الوحي ، وعُرِف الفرق بين كلام الله عز وجل وكلام النبي ﷺ وحين انتفت العِلّةُ أذِنَ النبي ﷺ لبعض أصحابه بكتابة الحديث ، كعبد الله بن عمرو بن العاص في صحيفته الصادقة ، وصحيفة جابر وأنس ، وقال النبي ﷺ : «اكْتُبُوا لِأَبِي شَاهٍ»[2] ، وكتب أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم في خلافتهم ، لكن هذه الكتابة لم تأخذ الشكلَ الرسميَّ ، ولم تحفظ حفظًا دقيقًا .

حتىٰ دخلت أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، الذي ولي الخلافة من سنة ٩٩هـ إلىٰ سنة ١٠١هـ ، ويذكرون أنه ظل يستخير الله أربعين يومًا في تدوين الحديث ، فخار الله له ، وأذن لأبي بكر بن محمد بن حزم رحمه الله في تدوين الحديث ، فدوَّن ما كان يحفظه في كتاب ثُمَّ بعث به إلىٰ عمر ، فبعث به عمر إلىٰ الأمصار ، وكان أبو بكر هذا قاضيًا وواليًا علىٰ المدينة ، وتوفي سنة ١٢٠هـ .

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٤) ، ك : الزهد والرقائق ، باب : التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٢٣٠٢) ، ك : اللقطة ، باب : كيف تعرف لقطة أهل مكة ؟ ومسلم (١٣٥٥) ، ك : الحج ، باب : تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد .

كما أنَّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ أمر كذلك محمد بن مسلم بن شهاب الزُّهْرِيَّ شيخَ مالكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ أن يدوّن حديث رسول الله ﷺ؛ فجمع في ذلك كتابًا .

واستمرّ المسلمون بعد ذلك يُؤلفون في الحديث ، لا تتقيد كتبهم بنهجٍ خاصٍ في التنسيق والترتيب ، بل يجمعونها كيفما اتفق ، قد يُصنِّف أحدُهم كتابًا في بابٍ خاصٍ من أبواب التشريع ككتاب «الخَرَاجِ» لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم تلميذ أبي حنيفة ، وكتاب «الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سَلَّام ، ثم تدرَّج التصنيف فألفيناهم يُبَوِّبُون كتب الحديث ويُفرِدُون من ذلك أبوابًا خاصةً لأخبار الرسول ﷺ ، يذكرون ما كان من أمر ولادته ورَضَاعِه وما بعدهما إلىٰ البعثة ، ثم يفصّلون أحواله بعد ذلك في مكة ، من دعوته قريشًا إلىٰ دين الله ، وصبره علىٰ إيذائهم له ولأصحابه ، ويتناولون أخبار الغزوات والسرايا وما أشبه ذلك من أمور الجهاد .

وانطلق المسلمون بعد ذلك يخصُّون سيرة رسول الله ﷺ بالبحث والتأليف ، وعندهم هذه الثروة الضخمة من الأحاديث والأخبار التي لم تَتْرُك حركةً ولا سكنة في حياته بعد البعثة إلىٰ أن مات ﷺ إلا وعندنا منها خبر ؛ ولكنْ جمعُ ذلك في تصنيف مُفْرَد لم يَتِمَّ إلا في وقتٍ لاحق .

مؤلفو السِّيَر

يذكر لنا المؤرخون والمهتمون بالمخطوطات والكتب أن أوّل كُتَّاب السيرة مطلقًا هو عروة بن الزبير بن العوام رَحِمَهُ اللَّهُ ، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة المشهود لهم بالفقه ، المتوفىٰ سنة (٩٤) هـ ، وذكر الذهبي في «التاريخ» والسيوطي في «الأوائل» أنه أول من صنف غزوات الرسول ﷺ .

ثم أَبَان بن عثمان بن عفان رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفىٰ سنة (١٠٥) هـ .

ثم وهب بن مُنَبِّه رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفىٰ بعد سنة (١١٠) هـ .

ثم شُرَحْبيل بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٢٣) هـ.

ثم ابن شهاب الزُّهْرِي رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٢٥) هـ.

ثم عبد الله بن أبي بكر بن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٣٥) هـ.

وقد بِيدَت كتب هؤلاء جميعًا، لم يبق منها إلا أشلاء مُتَناثِرَة في بطون كتب التاريخ كتاريخ الطبري، وإلا قطعة من كتاب وهب بن مُنَبِّه وهي مازالت محفوظة مخطوطة في مكتبة مدينة «هيدِلْبِرج» بألمانيا إلى الآن.

ثم جاءت بعد ذلك طبقة أخرى من المؤلفين، كان أشهر رجالها :

موسى بن عقبة رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٤١) هـ.

ثم مَعْمَر بن راشد رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٥٤) هـ.

ثم محمد بن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٥٢) هـ.

ثم جاءت طبقة أخرى كان منها زياد البَكّائي رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (١٨٣) هـ.

ثم الواقدي محمد بن عمر صاحب المغازي رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (٢٠٧) هـ، وليُعلم أن الواقدي متروك ضعيف، خاصة إذا انفرد.

ثم ابن هشام رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفى سنة (٢١٨) هـ.

ثم محمد بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب الطبقات المتوفى سنة (٢٣٠) هـ.

ثم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفي سنة (٣١٠) هـ، والإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ هذا هو الذي جمع شتات كل ما سبق وزاد عليه في كتابه الكبير «تاريخ الرسل والملوك» المشهور بـ «تاريخ الطبري».

وهكذا تناقل المسلمون السيرة جيلاً بعد جيل، وعكف علماء المسلمين على توثيق أسانيدها وتنقيح أصولها، حتى وصلتنا صورة صادقة لحياة النبي ﷺ وأصحابه، إنها الحقيقة مجردة لمسيرة دين الإسلام بوضوح وصدق ونقل العدول الصادقين.

سيرة ابن إسحاق:

وكان أشهر هذه الكتب وأعلاها مقامًا وأشدها وثوقًا:

سيرة محمد بن إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفي سنة (١٥٢) هـ، التي ألفها في أوائل أيام العباسيين، ويروىٰ أنه دخل علىٰ المنصور ببغداد، وبين يديه ابنه المهدي، فقال له المنصور: أتعرف هذا يا ابن إسحاق؟ قال: نعم، هذا ابن أمير المؤمنين، قال: إني أريد أن أعلمه، اذهب فصنّف له كتابًا منذ خلق الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ يومك هذا، فذهب ابن إسحاق فصنّف الكتاب الذي أراد، ولما عرضه علىٰ أمير المؤمنين قال له: لقد طوّلته يا ابن إسحاق، أنّىٰ لهذا أن يُنهي هذا؟ اذهب فَاخْتَصِرْهُ، وأُلقِيَ الكتابُ الكبير في خزانة أمير المؤمنين.

وعاد ابن إسحاق فاختصره فقط علىٰ سيرة الرسول ﷺ وعاد بها؛ فكانت هذه السيرة أشهر السير وعليها المعتمد عند كل من ألَّفَ بعد ذلك في سيرة الرسول ﷺ، وسنقف عنده نحن كذلك في ذكر مؤلفات السيرة المطهرة.

بصائر

(١) ثَبِّتْ العرش ثم انقش، فالأساس قبل البناء، والأصل قبل الفرع، فلابد قبل سرد التاريخ من الرجوع إلىٰ الأصول والمصادر الصحيحة الموثوقة المأمونة.

(٢) لا يقبل قول بغير دليل، ولا ادعاء بغير حجة أو برهان، ومن هنا كانت أهمية الإسناد، وهو ذكر رجال السند بالإحالة إلىٰ من ذكره حتىٰ يصل إلىٰ قائله.

(٣) أصول ديننا كتاب ربنا عَزَّوَجَلَّ وسنة نبينا ﷺ، والسنة كل ما ورد عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة؛ ولكن لابد أن ينضبط فهم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالحين.

(٤) العلم صيدٌ والكتاب قيده، فاكتب ما سمعت من علم فسوف تنتفع به يومًا ما.

كيف هيأ الله الأرض لاستقبال رسول الله ﷺ؟

كثيرًا ما يعمد كُتَّابُ السيرة إلىٰ ذكر فصل في حالة العرب قبل الإسلام، وقد تعمدت أن أثبت هذا الفصل ولكن بعنوان: كيف هيأ الله الأرض لاستقبال رسول الله ﷺ؟

وذلك لأمرين:

أولاً: لإنصاف العرب؛ لأن كل من يذكر العرب يذكر همجيتهم ووحشيتهم وجاهليتهم، ولكن من الإنصاف أن نشير إلىٰ مناقب العرب وفضائلهم وأخلاقهم أيضًا؛ فقد صار حب العرب بعد الإسلام من الدين.

ثانيًا: لتوضيح وتأكيد وتوثيق أن من سنة الله عز وجل في هذا الدين ألا يقوم علىٰ الخوارق والمعجزات وحدها؛ وإنما الأصل أن يقوم علىٰ الأسباب الواقعية، بل والمادية والحسية في التمكين لهذا الدين، ولعل هذا المعنىٰ يشير إليه قول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ؛ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]، فالمعجزات والكرامات حاصلة في سيرة النبي ﷺ ومسيرة دعوته بلا شك، ومسيرة دعوة الإسلام من بعده أيضًا، ولكنه ﷺ لم يكن يعتمد عليها؛ بل كان يسارع في الأسباب ويتحراها متوكلاً علىٰ ربه، وسترىٰ معنا أنه ﷺ كان يأخذ بالأسباب في كل شيء، وتأمل الهجرة والغزوات مثلاً.

فأردتُ أن أذكر كيف صنع الله للنبي محمد ﷺ قومَه الذين يتلقون هذا الدين ويحملونه، وكيف صنع الله له دار بعثته ولغته وأخلاق قومه.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري: (٤٦٩٦)، ك: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ومسلم (١٥٢)، ك: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ.

وكيف هيأ له دار هجرته وأهل نصرته ، كان ذلك كله قبل أن يُبْعَث بسنين إثباتًا لهذه السُّنَّة ، وتعليمًا لهذه الأمة .

وفي هذا أيضًا إشارة خطيرة ومهمة لأهل عصرنا الذين يطلبون التمكين ويحلمون به ويتمنونه ، ويسألون الله ليلَ نهارَ أن يُقِرَّ أعينهم به ؛ إلى أنه لابد من الأخذ بالأسباب ، ولابد من تهيئة الأرض بكل كائناتها الحية لتصلح لحمل هذا الدين ولاستقبال ذاك التمكين .

الإعداد للبعثة:

اعلم -حبيبي في الله- أن من سُنَن الله تَعَالَى الكونية والشرعية ألا يُترك الناسُ بغير قائدٍ يقودهم ولا سائسٍ يسوسهم ؛ فعلى مدار الحياة البشرية على ظهر الأرض لم تخلُ أمةٌ من نبي لإقامة الحجة ، وتعبيد الناس لرب الناس ، وإصلاح الأرض ، والبشارة والنذارة ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

وهكذا كان تعاقب الأنبياء على مدار التاريخ يدعون إلى الله ويذكِّرون بالله ، ويوقظون الفطرة السليمة في البشر ، ويُصْلِحُونَ ما أفسد الناس منها ، قال تعالى : ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وقال رسول الله ﷺ : «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمْ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي»[1] ، وقد دامت النبوة في بني إسرائيل قرونًا طويلة حتى كان آخرَهم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ومرت بعد رفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء خمسةُ قرون من الظلام .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري : (٣٢٦٨) ، ك : أحاديث الأنبياء ، باب : ما ذكر عن بني إسرائيل ، ومسلم (١٨٤٢) ، ك : الإمارة ، باب : وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول .

قال رسول الله ﷺ مشيرًا إلىٰ هذه الفترة : «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ»(١) ، نعم لقد مَقَتَ الله سُكَّانَ هذا الكوكب الأرضيِّ أشد المقت في هذا الوقت ؛ فالظلام الذي ران علىٰ الأفئدة والعقول في غَيْبَةِ أنوار التوحيد طوىٰ في سواده كُلَّ خير ؛ فكان المقت ، لقد عَمَّت الدنيا حينها قبل بعثة النبي محمد ﷺ حيرةٌ وبؤسٌ فكانت الأرض مَذْأَبَةً يسود فيها الشرُّ كله .

أَتَيْتَ وَالنَّاسُ فَوْضَىٰ لا تَمُرُّ بِهِمْ   إِلَّا عَلَىٰ صَنَمٍ قَدْ هَامَ فِي صَنَمِ

فَعَاهِلُ الرُّومِ يَطْغَىٰ فِي رَعِيَّتِهِ   وَعَاهِلُ الفُرْسِ مِنْ كِبْرٍ أَصَمُّ عَمِي

إن الوثنيَّة التي سادت الأرض في ذاك الزمان المظلم اغتالت النفس البشرية ، وفرضت عليها السقوط في هذه الوَهْدَةِ الرَّزِيَّةِ ، وهكذا دائمًا إذا غاب توحيد الله عز وجل عن مكانٍ حل فيه المقت والغضب والشنآن ، ولما طال الأمد وغاب عن الأرض الأنبياء وتبدل التوحيد شركًا صار الناس أجسادًا ممسوخة وأبدانًا جوفاء لا روح فيها ولا إيمان ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

إن الوثنيةَ هوانٌ يأتي من داخل النفس لا من خارج الحياة ، فكما يفرض المحزون كآبته علىٰ من حوله ، وكما يتخيلُ المرعوبُ الأجسادَ القائمةَ أشباحًا جائمةً ، كذلك يفرض المرءُ الممسوخُ صَغَارَ نفسه وغَبَاءَ عَقْلِهِ علىٰ البيئة التي يحيا فيها ؛ فيُؤَلِّه من جمادها وحيواتها ما يشاء ، وهذا هو السر في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إليه وتبغي مرضاته ، قال جل جلاله : ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) أخرجه مسلم : (٢٨٦٥) ، ك : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار .

عَمَّت الوثنية في هذه الأثناء على الأرض كلها : فالمجوسية في فارس طليعة عنيدة للشرك الفاشي في الهند والصين وبلاد العرب وسائر المجاهيل ، والنصرانية التي تناوئ هذه الجبهة قَبَسَتْ أبرزَ مآثرِها من خُرافات الهنود والمصريين القدامى ، فهي تجعل لله ﷻ صاحبةً وولدًا ، وتغري أتباعها في روما ومصر والقسطنطينية بلونٍ من الإشراك كأنها أرقى مما أَلِفَ عُبَّاد النيران وعُبَّاد الأوثان .

شركٌ مَشوبٌ بتوحيدٍ يحاربُ شركًا محضًا ، جزءٌ من الحق في أجزاءٍ من الباطل ، في سياق يصرف الناس آخر الأمر عن الله ويُعَبِّدَهُم لخشبةٍ أو لبشرٍ أو لنارٍ أو لصنم ، كأنهم آلهة يحرِّمون ويحلِّلون ، ويأمرون وينهون ، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١] .

إذا تأملت هذا السياق الذي ذكرته لك من حال الأرض يومها تشعر أنك تفتح عينيك في ظلام فلا ترى شيئًا ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا تلمست طريقًا لم تكد تراها .

وهنا كان من حكمة الله العظيم ، أن يأذن وهو الرحيم الجليل ﷻ في فتح طاقةٍ من النور بإنزال وحيٍ يضيء به هذا الكوكب الأرضي المظلم ؛ لتأتي الهداية من السماء بعد أن ضلَّت الأرض وأظلمت ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٢-١٣] ، وقال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] .

ولكن قبل أن نُذلِفَ إلى النُّور وبداية نزوله إلى الأرض لابد من نظرةٍ إلى مظاهر وأصول هذا الشرك ؛ لنتحاشاه ، ونعرف أسبابه فنحذرها ، ونستدرك لأول وَهْلَةٍ أن تعظيم البشر وطاعتهم مطلقًا بغير إذن الله سببُ كلِّ شر .

لذلك إذا نظرنا إلىٰ أصول الشرك ، وكيف دخل إلىٰ جزيرة العرب ؛ فإننا نجد أن عمرو بن لُحَيّ هو أول من غَيَّرَ دين الحنيفية دينَ إبراهيم عليه السلام ، وقد كان عمروٌ في قومه شريفًا سيِّدًا مطاعًا ، يُطعم الطعام ، ويحمل الغَريم ، وكان قوله فيهم دينًا متبعًا لا يُخالَف ، وكان أمره بمكة بل في جميع العرب مطاعًا لا يُعْصَىٰ ، وكان إبليس يُلْقِي علىٰ لسانه الشيء الذي يغير به الحنيفية والفطرة ، فيستحسنُه عمرو ؛ فيعمل به ، فيعملُهُ أهل الجاهلية .

وهو الذي بَحَرَ البحيرة ، ووصَل الوَصِيلَة ، وحمىٰ الحامي ، وسَيَّبَ السائبة ، ونصب الأنصاب حول الكعبة ، وجاء بِهُبَل من هِيت «موضع بشاطئ الفرات» من أرض الجزيرة ، فنصبه في بطن الكعبة ، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام ، وهو الذي غيَّر تلبية إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وكان الناس عليها إلىٰ عهده ، فبينما هو يسير علىٰ راحلته في بعض مواسم الحج وهو يلبِّي ؛ إذ تمثل له إبليس في صورة شيخ نَجْدِي علىٰ بعير أَصْهَب (لونه أحمر إلىٰ سواد) ، فسايره ساعة ، ثم لَبَّىٰ إبليس ، فقال : لبيك اللَّهُمَّ لبيك ، فقال عمرُو بنُ لُحَيّ مثل ذلك ، فقال إبليس : لبيك لا شريك لك ، فقال عمرو مثل ذلك ، فقال إبليس : إلا شريكًا هو لك ، فقال عمرو : وما هذا؟ قال إبليس -لعنه الله - : إن بعد هذا ما يصلحه : إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك ، فقال عمرُو بنُ لُحَيّ : ما أرىٰ بهذا بأسًا ، فلبَّاها ، فلَبَّىٰ الناس علىٰ ذلك ، وكانوا يقولون : لبيك اللَّهُمَّ لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، تملكه وما ملك ، فلم تزل تلك تلبيتهم حتىٰ جاء الله بالإسلام ، ولبَّىٰ النبي ﷺ تلبية إبراهيم عليه السلام الصحيحة : **«لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ ، لَا شَرِيكَ لَكَ»**[1] ، فلبَّاها المسلمون .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري : (٥٥٧١) ، ك : الحج ، باب : التلبية ، ومسلم (١١٨٤) ، ك : الحج ، باب : التلبية وصفتها ووقتها .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ بْنِ خِنْدِفَ أَبَا بَنِي كَعْبٍ هَؤُلَاءِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ ، هُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ ، وَحَمَى الحَامَ ، وَنَصَبَ الأَوْثَانَ حَوْلَ الكَعْبَةِ ، وَغَيَّرَ الحَنِيفِيَّةَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»[1] .

وهكذا دخل الشرك إلى جزيرة العرب ، وانتشرت الأصنام في كل مكان ، وعبد الناس آلهةً من دون الرحمن ، قال تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]، وحكى عنهم أنهم قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

إنك عربي:

ثم لما آذن الله عز وجل بفضله وجوده وعفوه وكرمه ورحمته أن يُنْزِلَ قبسًا من النور يُبَدِّدُ به ظلمات هذه الأرض ، قدّر تعالى أن تكون في الفرع العربي من ذرية إبراهيم الخليل من نسل إسماعيل عليه السلام ، وأصلُهم كما تعرف من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن قبيلة «جُرْهُم» اجتمعت مع إسماعيل عليه السلام على ماء زمزم عند البيت الحرام ، فعاش العرب هناك وكثروا وتكاثروا ، والله عز وجل عليمٌ حكيم ، قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فالعليم عز وجل يصطفى ويختار ما شاء لما شاء بعلمه ، وهو الحكيم تعالى يضع الشيء في موضعه اللائق به والمناسب له ، وهو تعالى بعلمه وحكمته إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه .

ولما كان في علم الله الواسع أنه سيرسل في هؤلاء العرب نبيًا رسولاً ، وهذا النبي آخر الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات ، وهي عامة باقيةٌ معمولٌ بها

---

(١) الجزء الأول من الحديث حتى السوائب متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٣٣٣) ، ك : تفسير القرآن ، باب : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ومسلم (٢٨٥٦) ، ك : الكسوف ، باب : صلاة الكسوف ، وبقية الحديث صحيح في مسند أحمد (٢/ ٣٦٦ ، ٥/ ١٣٧) .

إلىٰ يوم القيامة ؛ هيأ الله العرب لحمل هذه الرسالة مع النبي ﷺ وبعده .

لذلك لابد أن تعتقد وتوقن أيضًا أنه لم تكن بعثة النبي محمد ﷺ ليكون إمامًا لقبيلٍ من الناس يصلحون بصلاحه ، فإذا مات ذهبوا بعده وانقطعوا ؛ بل أُرسل رسول الله ﷺ عِوضًا كاملاً عن إرسال جيشٍ من النبيين والمرسلين يتوزع علىٰ الأعصار والأمصار ، بل وإن رسالته ﷺ سدّت مسدّ إرسالِ مَلَكٍ كريم إلىٰ كل إنسان تدُبُّ علىٰ الأرض قدماه ما بقيت علىٰ الأرض حياة .

إنَّ النبي ﷺ لم يُبعث لنفسه ولقومه خاصةً ؛ وإنما أرسل للعالمين إلىٰ يوم الدين ، قال الله عز وجل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤-١٧٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، فالخطاب في الآيتين لكل الناس منذ بعث النبي محمد ﷺ إلىٰ أن تقوم الساعة ، وصح عنه ﷺ قوله : «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً»[1] ، وفي رواية لمسلم : «وَبُعِثْتُ إِلَىٰ كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ» .

إن رسالةَ نبينا ﷺ كانت هي الشمسُ التي بددت الظلماء ، والنورُ الذي قضىٰ علىٰ الجاهلية الجهلاء ، فكانت الرحمةُ المهداةُ ، التي زرعت في قلوب الناس معنىٰ الحياة ، فجعلت الأبصار تبصر بعد عماها ، وتميز الحقيقة الكبرىٰ في هذا الوجود بعدما غشّاها ما غشّاها ، وتُبرز حقيقةَ أن الناس ما خلقوا من أجل التلذذ بمتع الدنيا فحسب ؛ بل خَلق ربُّنا الخلق لغاية ، وأوجدهم تعالىٰ

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٢٨) ، ك : التيمم ، باب : قوله تعالىٰ : ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟﴾ [المائدة: ٦] ، ومسلم (٥٢١) ، ك : المساجد ومواضع الصلاة .

لحكمة، فوراء الموتِ بعثٌ، وبعد البعث إما جنةٌ أو نار، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لذا أراد الله العليم الحكيم سبحانه وتعالى أن يهيئ هؤلاء العربَ لحمل هذه الرسالة العظيمة، فهيأ سبحانه الأسباب بالإعداد والإمداد والتأهيل والترتيب ليحملوا هذه الرسالة؛ ولكن كيف كان ذلك؟ تعال نتأمل..

المؤهلات التي أهلت العرب لحمل الرسالة:

إنك تتعجب حين تجد أن أغلب من تكلم عن العرب قبل البعثة يُصَوِّرهم همجًا رعاعًا، يسفكون الدماء ويغتصبون الأموال ويقطعون الطريق ويشربون الخمور؛ ولكن يجب أن تعلم أن الأمر لم يكن على هذا النحو من السوء وحده؛ بل كانت هناك جوانب خير ونور وبر في حياة العرب إلى جانب ذلك، وقد علَّمنا الله تعالى الإنصاف والعدل في الحكم والتقييم فقال عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

فبالعدل نقول: إنهم كان لديهم أيضًا من الصفات والمؤهلات التي أُعدُّوا بها خِصِّيصًا لحمل هذه الدعوة ما جعلهم يحملونها ويكونون أحق بها وأهلها، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «لقد جاء الإسلام وفي العرب بضع وستون خصلة كلها زادها الإسلام شدة، منها قِرَى الضيف، وحسن الجوار، والوفاء بالعهد»[1]، فكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهَّلتهم لحمل راية الإسلام، وإن كانوا كسائر البشر حين يفقدون ويعدمون الهداية الربانية تظهر

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٣٥).

فيهم وحشية الصفات التي ذُكرت كثيرًا عنهم قبل الإسلام ؛ ولكن لكي تكتمل الصورة لابد أن أنقل لك الوجه الآخر ، فمن تلك الصفات الحسنة والخصال الطيبة والسمات الجميلة :

١ الذكاء والفطنة.

فقد كانت قلوبهم طيبة صافية لم تدخلها الفلسفات والأساطير كالحاصل في الشعوب الهندية ، والرومانية ، واليونانية ، والفارسية ، فكأن قلوبهم كانت تُعَد لحمل أعظم رسالة في الوجود فظلت على الفطرة ، فهم طِيلَة تاريخهم لم يلتفتوا إلىٰ الأساطير والفلسفات ؛ وإنما عكفوا علىٰ لغتهم العربية ولم ينشغلوا بغيرها ، وقد كان من عمل الله لهذا الدين اعتزازهم بعربيتهم وبلغتهم ، فلم يلتفتوا إلىٰ غيرها ، وإن شئت فقل : لم يُعْجَبُوا بغيرها ولم يَسْتَهْوِهِم غيرُها ، فأقبلوا علىٰ لغتهم فجعلوها كُلَّ شأنهم .

وكان هذا الإعداد من الأهمية بمكان لحفظ هذا الدين قرآنًا وسنة ؛ فلصفاء قلوبهم وبقائها علىٰ الفطرة انقدحت عندهم قريحة الحفظ والذكاء في هذا الاتجاه فحسب ، فكان أحدهم من المهتمين بالشعر والأدب يحفظ القصيدة الطويلة المكونة من مائة بيت فيلقيها في مجلس أو في الأسواق ، وتجد من يسمعها إذا سمعها مرة واحدة حفظها أيضًا .

فلما جاء الإسلام وَجَّه هذه القريحة في الحفظ والذكاء إلىٰ حفظ الدين وحمايته ؛ فكانت قواهم الفكرية ومواهبهم الفطرية مدفونة فيهم لم تستهلك في فلسفات خيالية ، ولا في جدل بيزنطيٍّ عقيم ، ولا في مذاهب كلامية معقدة ، ولك مثلاً أن تعلم من اتساع لغتهم الذي هو دليلٌ علىٰ قوة حفظهم وذاكرتهم وحدَّة ذكائهم ؛ أنه كان عندهم للعسل ثمانون اسمًا ، وللثعلب مائتان ، وللأسد خَمْسُمِائةٍ ، وللجمل ألف اسم ، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلىٰ ذاكرة قوية حاضرة وقَّادة ، وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلىٰ الفهم بالإشارة وبأقل إشارة فضلاً عن العبارة ، والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة ؛ ولكن المقصود هنا

هو قولي : إن الله منحهم الذكاء والفطنة وحباهم من الفهم والحفظ ما أهّلهم به لحمل دعوة الإسلام بإتقانٍ وقوةٍ وأمانة ، وهذا ما تُحفظ به أي دعوة .

٢ كانوا أهل كرم وسخاء.

وكان هذا الخلق متأصّلاً في العرب ، حتىٰ إن الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه أو ناقته فيأتيه الضيف فيُسارع بنحرها له ، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كانوا يذبحون الذبائح ويُلقونها فوق رءوس الجبال للوحوش والطيور ، حتىٰ سارت بأخبار كرمهم الركبان وضربت بهم الأمثال ، ومن عجيب ما ورد عن حاتم الطائي أنه نهىٰ ولده عن ضرب كلبةٍ لهم وقال : «إن لها عليّ يدًا ؛ إنها تدل الضّيفان عليّ» .

وهذا الخُلق مطلبٌ رئيسٌ لحمل الدعوة ؛ لأن جود الرجل وطهارة نفسه من الشح والبخل من أصول حَمَلَةِ الرسالة ؛ ولذلك لما سأل النبي ﷺ قبيلة بني سلمة : «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلَمَةَ؟» قالوا : الجَدُّ بن قيس ، إلا أن فيه بُخلاً ، قال : «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَىٰ مِنَ الْبُخْلِ ، بَلْ سَيِّدكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ»[1] .

٣ كانوا أهل شجاعة ومروءة ونجدة.

لمّا عَلِمَ الله وقدّرَ وشاء أن هذا الدين سيبدأ غريبًا في وسط العالم وما في هذا العالم من الظلمة والنشاز ؛ كان لابد لحملته أن يكونوا من الشجعان الأقوياء الأبطال ، الذين هم بطبيعتهم وفطرتهم لا يهابون الموت ، وسبحان الملك ! خلق الله العرب وكأنهم أُعِدُّوا لذلك ، فقد كانوا يتمادحون بالموت قتلاً ويتهاجَوْن بالموت علىٰ الفراش !! قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه : «إن يُقْتَل فقد قُتِلَ أبوه وأخوه وعمُّه ، إنا والله لا نموت حَتْفًا ، ولكن قطعًا بأطراف الرماح ، وموتًا تحت ظلال السيوف» .

---

(١) صحيح ، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٦) ، باب : البخل ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله .

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلَىٰ حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ عَلَىٰ غَيْرِ الظُّبَاةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدمون شيئًا علىٰ العزةِ وصيانة العرض ، وحماية الحريم ، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم ، قال عنترة :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِي الحُتُوفَ كَأَنَّنِي ... أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الحُتُوفِ بِمَعْزِلِ

فَأَجَبْتُهَا : إِنَّ المَنِيَّةَ مَنْهَلٌ ... لَابُدَّ أَنْ أُسْقَىٰ بِكَأْسِ المَنْهَلِ

فَاقْنَيْ حَيَاءَكِ لَا أَبَا لَكِ وَاعْلَمِي ... أَنِّي امْرُؤٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

وكانوا بفطرتهم أصحابَ شهامةٍ ومروءة ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضعيفَ أو العاجزَ أو المرأةَ أو الشيخَ ، وكانوا إذا استنجد بهم أحدٌ أنجدوه ، ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم .

هذه أخلاق كأنها كلُّها خُلِقت للإسلام ؛ فإن هذا الدين لا يقوم إلا بها ، وانظر إلىٰ أحوال القوم حين ذهبت منهم تلك الشمائل والخصال فذهبوا ، والمجتمع العربي الأول كان يقوم علىٰ العصبيات القبلية الحادة ، وفي العصبيات تفنىٰ القبيلةُ كلُّها دفاعًا عن كرامتها الخاصة ، وكرامة من يَمُتُّ إليها بِصِلة ، وقد ظل الإسلام حينًا من الدهر يعيش في حِمىٰ تلك التقاليد المرعية ، حتىٰ استغنىٰ بنفسه كما تستغني الشجرة عمَّا يحملها بعدما تَغْلُظ وتستوي .

ولك أن تفهم ذلك أيضًا بتأمل حال لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ في بعثته قبل النبي ﷺ ؛ فإن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ افتقدها في قومه ، وكان يتمنىٰ شيئًا من هذه التقاليد عندما أحس بالخطر علىٰ الأضياف النازلين به ، ولم يجد عشيرةً تدفع عنه ، أو أهلًا تهيجهم الحمية والحمية فقط ؛ لنصرته والدفاع عنه ، فقال لقومه : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، ثم قال لهم : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

④ عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل.

كان العربي بفطرته يعشق الحرية ، يحيا لها ، ويموت من أجلها ؛ فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحدٍ عليه ؛ ولذلك يأبىٰ أن يعيش ذليلًا ، أو يُمسّ في شرفه وعرضه ولو كلّفه ذلك حياته ، فكانوا يأنفون من الذل ويأبون الضَّيم والاستصغار والاحتقار ، قال عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة :

إذا ما الْمَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

وكذلك فإن دعوة الإسلام تأبىٰ إلا أن تكون كذلك : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩] ، هكذا دومًا ، وهكذا كانوا هم .

⑤ الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق.

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه ، وكانوا أهل وفاءٍ شديد ، والإسلام ودعوته يحتاجون إلىٰ هذا الخلق الكريم لاستدامة حمل الرسالة ، ورعاية ذمة الإسلام ، والوفاء لاسم الإسلام وباسمه ، فكانوا لا يكذبون ، وكانوا أوفياء صادقين .

وقصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ وكانت الحروب بينهم قائمة ؛ قال في أحرج المواقف وعندما كان أحوج ما يكون إلىٰ الكذب : «فَوَاللهِ لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ»[1].

وعن وفاء العرب: قال النعمان بن المنذر لكسرىٰ : «وإن أحدَهم يلحظُ اللحظةَ ويومئ الإيماءةَ فهي عُقدةٌ لا يَحُلُّها إلا خروجُ نَفْسِهِ ، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض ، فيكون رهنًا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر (تنتهك) ذمته ، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلًا استجار به وعسىٰ أن يكون نائيًا عن داره ، فيصاب فلا يرضىٰ حتىٰ يُفنِيَ تلك القبيلةَ التي أصابته أو تَفنىٰ قبيلته لما أُخْفِرَ من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المُحْدِث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالُهم دون ماله» .

---

(١) أخرجه البخاري (٧) ، ك : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ .

والوفاء خلق متأصِّل بالعرب فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة ، فغلَّظ علىٰ من آوىٰ محدثًا مهما كانت منزلته وقرابته ، قال النبي ﷺ : «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَىٰ مُحْدِثًا»[1] .

ومن القصص الدالة علىٰ صدق وفائهم : أن الحارث بن عَبَّاد قاد قبائل بَكْرٍ لقتال تَغْلب وقائدهم المُهَلْهَل الذي قتل ولد الحارث ، وسميت تلك الحرب بحرب البَسُوس ، فأسر الحارثُ الذي قُتِلَ ولدُه مُهَلْهَلاً – وهو القاتل – وهو لا يعرفه ، فقال له : دلني علىٰ مهلهل بن ربيعة وأُخَلِّي عنك ، فقال له مهلهل : عليك العهد بذلك إن دللتك عليه ؟ قال : نعم ، قال : فأنا هو ، فجز ناصيته وتركه .

وهذا وفاءٌ نادرٌ ورجولةٌ تستحق الإكبار ، فإن قاتل ابنه كان بين يديه ؛ ولكن لما وعده أن يخلي عنه تركه ؛ وفاءً لوعده .

ومن وفائهم النادر أيضًا : أن النعمان بن المنذر خاف علىٰ نفسه من كسرىٰ لما منعه من تزويج ابنته ، فأودع أسلحته وحرمه إلىٰ هانئ بن مسعود الشيباني ، ورحل إلىٰ كسرىٰ فبطش به ، ثم أرسل كسرىٰ بعد ذلك إلىٰ هانئ يطلب منه ودائع النعمان ، فأبىٰ ، فسيَّر إليه كسرىٰ جيشًا لقتاله ، فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال :

«يا معشر بكر ، هالكٌ معذور خيرٌ من ناجٍ فَرور ، إن الحذرَ لا ينجي من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنيَّةُ ولا الدنيَّة ، استقبالُ الموتِ خيرٌ من استدباره ، الطعنُ في ثغر النحور أكرمُ منه في الأعجاز والظهور ، يا آل بكر قاتلوا فما من المنايا بُدٌّ» .

واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار ؛ بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة ولم يُبَالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود .

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨) ، ك : الأضاحي ، باب : تحريم الذبح لغير الله تعالىٰ ولعن فاعله .

٦ الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير

كانوا يقللون من الأكل ويقولون: البِطنة تذهب الفِطنة، ويعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم «الشنفرىٰ»:

وَإِنْ مُدَّتِ الأَيْدِي إِلَىٰ الزَّادِ لَمْ أَكُنْ ... بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَلُ

وكانت لهم قدرة عجيبة علىٰ تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وُعورَةِ الطريق، ولا بُعْد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا في الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر والتحمل، وكانوا يرضَون باليسير؛ فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيًا بتمرات يقيم بها صُلْبه، وقطراتٍ من ماءٍ يُبَرِّد بها كبده كما سترىٰ معنا في سياق الأحداث بإذن الله.

٧ قوة البدن وعظمة النفس

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلىٰ البطولة الجسمانية صنعتا العجائب،وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

٨ العفو عند المقدرة وحماية الجار

وكانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتىٰ إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، ويأبون أن يُجهِزوا علىٰ الجَرْحَىٰ، وكانوا يرعون حقوق الجِيرَةِ، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة علىٰ العرض، قال عنترة:

وَأَغُضُّ طَرْفِيَ إِنْ بَدَتْ لِيَ جَارَتِي ... حَتَّىٰ يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا

وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيدًا ضخمًا في نفوس العرب ، فجاء الإسلام فنمّاها وقوّاها ، ووجّهها وجهة الخير والحق ، فلا عجب إذًا حين تراهم بعد ذلك انطلقوا بالإسلام من صحاري مكة كما تنطلق الملائكة الأطهار ، ففتحوا الأرض ، وملأوها إيمانًا بعد أن مُلِئَتْ كُفْرًا ، وعدلاً بعد أن مُلِئَتْ جَوْرًا ، وفضائل بعد أن عَمّتها الرذائل ، وخيرًا بعد أن طفحت شرًّا .

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي ، لذلك بحق نستطيع أن نقول ويصدق : إن المجتمع العربي وقتها كان أفضل المجتمعات وإن لم يكن أرقاها ؛ لهذا اختير رسول الله ﷺ منه ، واختير له هذا المجتمع العربي ، وهذه البيئة النادرة ، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان ، إذ لم تكن تصلح أمة من هذه الأمم لتحمل رسالة الله إلىٰ خلقه إلا الأمة العربية ؛ لما أسلفناه من صفاتهم وأخلاقهم .

فلم يختر من الفرس علىٰ سعة علومهم ومعارفهم ، ولا من الهنود علىٰ عمق فلسفاتهم ، ولا من الرومان علىٰ تفننهم ، ولا من اليونان علىٰ عبقرية شاعريتهم وخيالهم ؛ وإنما اختير من هذه البيئة البِكْر النقية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء ، لماذا ؟ !

لأن أولئك الأقوام وإن كانوا علىٰ ما هم عليه وما هم فيه من علوم ومعارف ؛ إلا أنهم لم يصلوا إلىٰ ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة ، وحرية الضمير ، وسمو الروح ، وعمومًا وفي النهاية فالحكم لله العليّ الكبير وهو العليم القدير : ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] .

ولا تملك في النهاية إلا أن تقول :

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] .



بصائر

① هذا الدين دينٌ عظيم، «ياله من دين لو أن له رجالاً!!».

② هذا الدين العظيم لا يقوم على الخوارق والمعجزات وحدها؛ وإنما الأصل أن يقوم على الأسباب الواقعية، بل والمادية والحسية في التمكين لهذا الدين.

③ يجب أن يعلم الذين يطلبون التمكين، ويحلمون به، ويتمنونه؛ أنه لابد من تهيئة الأرض بكل كائناتها الحية؛ لتصلح لحمل هذا الدين، واستقبال ذاك التمكين.

④ من سنن الله الكونية والشرعية ألا يترك الناس بغير قائد يقودهم ولا سائس يسوسهم، لذلك قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ»[1].

⑤ تعظيم البشر وطاعتهم مطلقًا بغير إذن الله سبب لكل شر.

⑥ حين يفقد البشر الهداية الربانية تظهر فيهم وحشية الصفات.

⑦ بقاء الإنسان على الفطرة ونقائها فيه مجلبة لكل خير، لذا اختار الله عز وجل العرب لتكون الرسالة فيهم؛ لبقائهم على سلامة الفطرة.

⑧ جاء الإسلام وفي العرب كثير من الأخلاق الحميدة المرضية، فنماها وقواها ووجهها وجهة الخير والحق، وهذه هي حقيقة التزكية: «التطهير والنماء».

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٨)، ك: الجهاد، باب: في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٧٢).

تهيئة مكة لاستقبال النبوة

إذا علمنا كيف هيأ الله العرب لاستقبال الرسالة ؛ فلابد أن ننظر كيف هيأ الله البلد والأرض والقبيلة لاستقبال النبوة ، كان من إعداد الله عز وجل لرسوله ﷺ أيضًا تعظيم قبيلته ، وتعظيم البيت الذي نشأ فيه وخرج منه ، وإذا كان الله عز وجل قد دلَّ إبراهيم عليه السلام على قواعد البيت ليرفعها هو وإسماعيل عليه السلام ، وكان مُقامُ إسماعيل عليه السلام هناك تمهيدًا لبعثة النبي ﷺ ؛ فإنه تعالى دلَّ عبد المطلب جد النبي ﷺ أيضًا على أصول بئر زمزم ، حتى حفرها واستخرجها ، فكان لعبد المطلب القدر المعظم عند أهل مكة ، والمكان الأعلى فيهم ، حتى سلَّموا له في كل شيء ، وإليك قصة حفر زمزم تشهد ؛ ففيها معانٍ يجب أن تُتَبع :

قصة حفر زمزم:

عن عبد الله بن زُرَيْر الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحدث حديث زمزم حين أُمِرَ عبد المطلب بحفرها قال :

قال عبد المطلب : إني لنائمٌ في الحِجْر إذ أتاني آتٍ فقال : احفر طَيْبَة ، قلتُ : وما طيبة؟ قالَ : ثم ذهبَ عني .

فلما كان الغدُ رجعتُ إلى مَضجعي فنمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفُر بَرَّة ، فقلتُ : وما بَرَّة؟ قال : ثم ذهبَ عني .

فلما كان الغدُ رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفر المضْنُونة ، فقلت : وما المضنونة؟ قال : ثم ذهب عني .

فلما كان الغدُ رجعتُ إلى مضجعِي فنمتُ فيه ، فجاءني فقال : احفر زَمْزَمْ ، قلت: وما زَمْزَمْ؟ قال: لا تَنْزِفُ (تغيض) أبدًا ولا تُذَمُّ (تنقص) ، تَسقِي الحجيجَ الأعظمَ ، وهي بَيْنَ الفَرْثِ والدَّم ، عِندَ نَقْرَةِ الغُرَابِ الأعْصَم ، عِنْدَ قريةِ النملِ (أي ينقر غدًا غرابٌ جناحاه أبيضان بمنقاره في مكان البئر) .

قال : فلمّا بيّن له شأنها ودلّ علىٰ موضِعِهَا ؛ عرفَ أنهُ قد صَدَق ؛ فغَدَا بِمِعْوَلِهِ ومعه ابنُه الحارثُ بنُ عبد المطلب ليس له يومئذٍ ولدٌ غيرُه ، فحفر فيها ، فلما بَدَا لعبد المطلب الطَّيُّ (حجر تطمر به البئر أو تنزح) كبَّر ، فعرفتْ قريشٌ أنه قد أدرك حاجتَه ، فقاموا إليه فقالوا : يا عبدَ المطلبِ ، إنها بِئْرُ أبينا إسماعيلَ ، وإنَّ لنا فيها حقًّا فأشركنا معك فيها ، قال : ما أنا بفاعل ، إنَّ هذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دُونكم ، وأُعطيتُه من بينِكم ، فقالوا له : فأنصِفْنَا ؛ فإنَّا غيرُ تَارِكِيك حتىٰ نُخَاصِمَك فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينَكم مَنْ شِئْتُم أحاكمُكم إليه ، قالوا : كاهنة بني سعد بن هُذَيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف (علىٰ مشارف أو أطراف) الشام .

فركب عبد المطلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر ، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز ، حتىٰ إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام فني ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتىٰ أيقنوا بالهَلَكَةِ ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأَبَوْا عليهم وقالوا : إنا بمفازة ونحن نخشىٰ علىٰ أنفسنا مثل ما أصابكم ، فلما رأىٰ عبدُ المطلب ما صنع القوم وما يتخوّفُ علىٰ نفسه وأصحابه قال : ما ترون؟ قالوا : ما رَأْيُنَا إلا تَبَعٌ لرأيك ، فمُرنا بما شئت ، قال : فإني أرىٰ أن يحفر كلُّ رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة ، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ، ثم واروه حتىٰ يكون آخرُكم رجلاً واحدًا ، فضيعةُ رجلٍ واحد أيسرُ من ضيعةِ ركبٍ جميعًا ، قالوا : نِعْمَ ما أمرت به !

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته ، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا ، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت - لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا - لعجز ؛ فعسىٰ الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتحلوا ، فارتحلوا حتىٰ إذا فرغوا ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، تقدم عبد المطلب إلىٰ راحلته .

فلما انبعثت به انفجرت من تحت خُفِّهَا عينُ ماءٍ عذبٍ ، فكبَّر عبد المطلب وكبَّر أصحابُه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتىٰ ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال : هَلُمَّ إلىٰ الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك في زمزم أبدًا ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم فارجع إلىٰ سقايتك راشدًا ، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلىٰ الكاهنة وخلوا بينه وبين زمزم[١] .

حادثة الفيل:

ثم كان من إعداد الله ﷻ الأقرب والأدنىٰ أيضًا لبعثة النبي محمد ﷺ ما كان في عام مولده من أمر حادثة الفيل ، وكان هذا الحدث إرهاصًا لبعثة هذا النبي الخاتم ، فقد بان فيه تعظيم الله للكعبة وحمايته لها ، ودفاعه عنها ﷻ بعد أن تخلىٰ الجميع عنها ، وخلَّوا بين أبرهة والكعبة ، فأنزل الله ﷻ علىٰ أصحاب الفيل عذابًا من عنده ، فكانت فيه إشارة إلىٰ حماية الله للمكان ومَنْ فيه ، وإليك القصة بسياقها :

كان من شأن الفيل أن ملكًا كان باليمن غلب عليها ، وكان أصله من الحبشة يقال له : أبرهة ، بنىٰ كنيسةً بصنعاء فسماها «القُلَّيس» وزعم أنه يصرف إليها حج العرب ، وحلف أنه يسير إلىٰ الكعبة فيهدمها ، فخرج ملك من ملوك حِمْيَر فيمن أطاعه من قومه يقال له : ذو نفر فقاتله فهزمه أبرهة وأخذه ، فلما أُتِيَ به قال له ذو نفر : أيها الملك ، لا تقتلني فإن استبقائي خير لك من قتلي ، فاستبقاه وأوثقه ثم خرج ثائرًا يريد الكعبة ، حتىٰ إذا دنا من بلاد خَثْعَم خرج إليه النُّفَيْلُ ابنُ حبيب الخَثْعَمي ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه فهزمهم وأخذ النفيل ، فقال النفيل : أيها الملك ، إني عالم بأرض العرب ، فلا تقتلني ، وهاتان يداي علىٰ قومي بالسمع والطاعة ، فاستبقاه وخرج معه يدله .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح (١/ ١٤٣ - ١٤٥) .

حتىٰ إذا بلغ الطائف خرج معه مسعود بن مُعَتّبٍ في رجال من ثَقيف فقال : أيها الملك ، نحن عبيد لك ليس لك عندنا خلاف وليس بيتُنا بيتَك الذي تريد - يعنون : اللات - ؛ إنما تريد البيت الذي بمكة ، نحن نبعث معك من يدلك عليه ، فبعثوا معه مولىٰ لهم يقال له : أبو رُغَال ، فخرج معهم حتىٰ إذا كان بالمُغَمَّسِ (موضع من مكة) مات أبو رغال ودفن هناك ، وهو الذي رُجِمَ قبره ؛ لأنه خان العرب ودل الأعداء علىٰ بيت الله ، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً يقال له : الأسود بن مقصود علىٰ مقدمة خيله .

فجمع إليه أهل الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير بالأراك (موضع بعرفة من ناحية الشام) ، ثم بعث أبرهة حُناطة الحِمْيريَّ إلىٰ أهل مكة فقال : سل عن شريفها ، ثم أبلغه أني لم آت لقتال ؛ إنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حناطة حتىٰ دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال : إن الملك أرسلني إليك ليخبرك أنه لم يأتِ لقتال إلا أن تقاتلوه ؛ إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما عندنا له قتال ، سنخلي بينه وبين البيت ، فإن خلّىٰ الله بينه وبين بيته فوالله ما لنا به قوة !

قال : فانطلِق معي إليه ، فخرج معه حتىٰ قدم المعسكر ، وكان ذو نفر صديقًا لعبد المطلب فأتاه فقال : يا ذا نفر ، هل عندكم من غَناء فيما نزل بنا؟ فقال : ما غَناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة وعشية ، ولكن سأبعث لك إلىٰ أنيس سائس الفيل فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ، ويعظم خطرك ومنزلتك عنده ، فأرسل إلىٰ أنيس فأتاه فقال : إن هذا سيد قريش صاحب عين مكة الذي يُطعم الناسَ في السهل والوحوشَ في الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه ؛ فإنه صديق لي .

فدخل أنيس علىٰ أبرهة فقال : أيها الملك ، هذا سيد قريش وصاحب عين الكعبة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال ، يستأذن عليك ، وأنا أحب أن تأذن له ؛ فقد جاءك غير ناصب لك ولا مخالف عليك ؛ فَأْذَنْ لَهُ .

وكان عبد المطلب رجلاً عظيمًا جسيمًا وسيمًا ، فلما رآه أبرهة عظَّمه وأكرمه ، وكَرِهَ أن يُجْلِسَهُ معه علىٰ سريره أو أن يجلس عبد المطلب تحته ، فهبط إلىٰ البساط فجلس عليه معه ، فقال له عبد المطلب : أيها الملك ، إنك قد أصبت لي مالاً عظيمًا فاردده عليّ ، فقال له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ولقد زهدت فيك ، قال : ولم؟ قال : جئت إلىٰ بيت هو دينك ودين آبائك وعصمتكم ومنعتكم لأهدمه فلم تكلمني فيه ، وتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك! قال : أنا رب هذه الإبل ، ولهذا البيت رب سيمنعه ! قال : ما كان ليمنعه مني ! قال : فأنت وذاك !

فأمر بإبله فردت عليه ، ثم خرج عبد المطلب وأخبر قريشًا الخبر ، وأمرهم أن يتفرقوا في الشّعاب ، وأصبح أبرهة بالمُغَمَّسِ قد تهيَّأ للدخول ، وعبَّأ جيشه ، وقرَّب فيله وحمل عليه ما أراد أن يحمل وهو قائم ، فلما حرّكه وقف وكاد أن يَرْزُم (يسقط) إلىٰ الأرض فيبرك ، فضربوه بالمِعْوَل في رأسه فأبىٰ ، فأدخلوا محاجنهم تحت أقرانه ومرافقه فأبىٰ ، فوجهوه إلىٰ اليمن فهرول ، فصرفوه إلىٰ الحرم فوقف وأراد أن يبرك ، ثم فر الفيل ولحق بجبل من تلك الجبال .

فأرسل الله الطير من البحر كالبَلَسَانِ ، مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجليه وحجر في منقاره ، ويحملن أمثال الحمص والعدس من الحجارة فإذا غشين القوم أرسلنها عليهم ، فلم تُصِبْ تلك الحجارةُ أحدًا إلا هلك ، وليس كل القوم أصاب ، فذلك قول الله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل: ١-٥]، وبعث الله علىٰ أبرهة داءً في جسده ، ورجع الناجون سراعًا يتساقطون في كل بلد ، وجعل أبرهة تتساقط أنامله ، كلما سقطت أنملة أتبعها مِدَّةٌ من قَيْح ودم ، فانتهىٰ إلىٰ اليمن وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه .

ثم مات وماتوا جميعًا . . .

كان هذا في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، فكانت رسالة واضحة من الله عز وجل إلى العالم أجمع أن الله يحمي هذا البلد لنبي سيولد ، وكان هذا إرهاصًا بعظمة هذا البلد ولفتًا لأنظار العالم كله إليه ، فمن أفضل البلاد سيكون أفضل الرسل ﷺ .

إعداد المدينة دارًا للهجرة:

وكان كذلك من إعداد الله عز وجل لبعثة النبي ﷺ أن أعد له دار هجرته التي تقام بها دولته ، وينتشر منها أمره ، وإعداد الأنصار الذين يحملون هذا الدين ، قال ابن إسحاق رحمه الله عن الأنصار :

وكان مما صنع الله عز وجل لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهلَ شركٍ وأصحابَ أوثانٍ ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أظَلَّ زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرَم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلمون والله إنه للنبي الذي تَوَعَّدَكُم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقَبِلُوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ؛ فعسىٰ أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، وهم : ستة نفرٍ من الخَزْرَج .

وهكذا ساق الله اليهود من أطراف الأرض إلى يثرب قبل البعثة بمدة مديدة ؛ ليتحدثوا إلى مشركي يثرب عن نبيٍّ مرتقب ، ويتوعدوهم به ، فيكون ذلك حافزًا لأهل يثرب أن يسبقوهم إلى الإيمان بهذا النبي ؛ ليكون لهم نصرةٌ عليهم وغلبة ، وهذا أيضًا من إعداد الله لنبيه ﷺ بأن جهَّز له أنصاره في دار هجرته قبل ولادته .

فانظر كيف يُعِدُّ العليم الحكيم السميع البصير العزيز القدير الأمورَ كلَّها جملة واحدة ، فقبل ولادته يرتب الله له أنه سيهاجر ، وكيف سيهاجر ، ومن سينصره . .

وهكذا يغرس الله لهذا الدين غرسًا بعد غرس ، ويهيئ الأرض لاستقبال أفضل مخلوق وأطهر قلب : النبي محمد ﷺ .

بصائر

(١) من رحمة الله بالخلق أنه ما ترك أمة إلا وأرسل إليها رسولاً يهديها بوحي الله إلىٰ صراط الله المستقيم ، إذ لا هداية إلا بوحي من السماء .

(٢) إنما تَنْبُتُ حشائش الوثنية في أرض الجهل ، وتُسقىٰ بماء التقليد للآباء والتعصب للأعراق ، وطاعة المخلوق طاعة مطلقة .

(٣) غياب الدين والتوحيد عن بلدٍ علامةٌ علىٰ مقت الله لها وغضبه عليها ، ومؤذن بعقاب قريب لها إن لم ترجع إلىٰ الله ، قال ﷻ : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

(٤) الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فينتقي الله للرسالة الطاهرة أرضًا طاهرة ، وأناسًا يصلحون لتحملها وإن طالت مدة دعوتهم ؛ لكنهم في النهاية يثوبون إلىٰ الخير ، ويحققون مراد الله منهم .

(٥) فضيلة اللغة العربية علىٰ غيرها من اللغات ؛ فهي وعاء الإسلام ، وهي لغة القرآن والسنة ، ولغة أهل الجنة ، والعداء للغة العربية عداءٌ للإسلام ، ونصرة اللغة العربية نصرة للإسلام .

(٦) يُؤَهَّلُ الإنسان لمكانةٍ ومنزلةٍ توافق ما عنده من إمكانيات وركائز

رُكِّزت فيه ؛ فمن كان كريمَ الأصل ، شجاعَ النفس ، وَفِيَّ العَهْدِ ، صادقَ الحديث ؛ كان أهلاً لنشر الدعوة وتبليغ الدين .

(٧) في سعةِ الأخلاق كنوزُ الأرزاق ؛ فمن حسُنت أخلاقُه كان أهلاً لإقبال الناس عليه ، وحبهم له ، وثقتهم فيه .

(٨) الله يحفظ قرآنه ويحفظ دينه ويحفظ بيته ؛ فكن علىٰ يقين بأن دينك منصور بنصر الله ، كن صادقًا واعمل ، ودع النتائج إلىٰ الله ؛ فهو أعلم وأحكم وأرحم بخلقه من أنفسهم .

(٩) الله يصطفي من خلقه ما يشاء ، ولكن لا يجتبي الله إلا من كان أهلاً للاصطفاء جديرًا بالاجتباء ، فامتلك ما استطعت من مؤهلات وسابق إلىٰ ربك يؤتك الله علىٰ قدر سعيك .

(١٠) الانتساب إلىٰ العرب لغة وشعبًا انتساب إلىٰ الإسلام وأصوله ، وازدراء العرب ازدراء للدين ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي اصطفاهم لحمله والقيام بإبلاغه .

اللَّهُمَّ استعملنا ولا تستبدل بنا ..

ثم تعال -أخي الكريم- ننتقل نقلة أخرىٰ ..

اختيار الرسول ﷺ

كانت الشائعات قد فاضت بين أهل الكتاب وبين المشركين علىٰ حدٍّ سواء ؛ أن نبيًا قد اقترب ظهوره ، ولهذه الشائعات ما يبررها ، فإن عهد الناس بالرسل أن يتتابعوا ، فلا تطول فترة الانقطاع بين أحدهم والآخر ، وكثيرًا ما تعاصر المرسلون ، فجمعتهم أقطار واحدة أو متجاورة .

لكن الأمر تغير بعد عيسىٰ عليه السلام ، فكادت المائة السادسة تتم بعد رفعه إلىٰ السماء ولمَّا يأتِ نبيٌّ جديد ، فالكل منتظر ، والكل مُتَرَقِّب ، وأيضًا كلما رأىٰ الناس أن الأرض اكتظَّت فعلاً بالمفاسد والضلالات زاد التطلع إلىٰ مَقدِمِ هذا النبيِّ المرتقب .

واعلم - أيها الأخ الكريم - أن العرب لم يكونوا وقتها كلُّهم مشركين ، بل قد وجد قبل البعثة من نظر إلىٰ وثنية العرب نظرة استهزاء وإنكار ، ومنهم من عرف أن قومه يلتقون علىٰ أباطيلَ مفتراةٍ ، ولكنه لم يجد الطريق أو الطاقة إلىٰ كفِّهم عنها ومنعهم منها ، من هؤلاء «زيد بن عمرو بن نفيل» ؛ ودليل ذلك فيما أخرجه البخاري رحمه الله أن ابن عمر رضي الله عنهما حدَّث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ -قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيُ- فَقُدِّمَتْ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ سُفْرَةٌ ، فَأَبَىٰ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ : إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَىٰ أَنْصَابِكُمْ ، وَلا آكُلُ إلا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ .

وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَىٰ قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ وَيَقُولُ : الشَّاةُ خَلَقَهَا اللهُ وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ الكَلأَ ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَىٰ غَيْرِ اسْمِ اللهِ !! إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ[1] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٤) ، ك : المناقب ، باب : حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَىٰ الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ فَقَالَ : إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي ، فَقَالَ : لَا تَكُونُ عَلَىٰ دِينِنَا حَتَّىٰ تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ ، قَالَ زَيْدٌ : مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللهِ ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللهِ شَيْئًا أَبَدًا ، وَأَنَّىٰ أَسْتَطِيعُهُ ! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَىٰ غَيْرِهِ؟ قَالَ : مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا ، قَالَ زَيْدٌ : وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ : دِينُ إِبْرَاهِيمَ ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ .

فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَىٰ فَذَكَرَ مِثْلَهُ ، فَقَالَ : لَنْ تَكُونَ عَلَىٰ دِينِنَا حَتَّىٰ تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ ، قَالَ : مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللهِ ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللهِ وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا ، وَأَنَّىٰ أَسْتَطِيعُ ! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَىٰ غَيْرِهِ؟ قَالَ : مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا ، قَالَ : وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ : دِينُ إِبْرَاهِيمَ ، لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللهَ ، فَلَمَّا رَأَىٰ زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ[1] .

وهذا الحديث يبيِّن مقدار الحَيْرة التي سادت الدنيا ، وغطَّت بِضَبابِها الكثيف علىٰ الأديان الظاهرة : فاليهود يشعرون بأنهم مطاردون في الأرض ، منبوذون من أقطارها ، فعلىٰ الداخل في دينهم أن يحمل وِزرًا من المقت المكتوب عليهم .

والنصارىٰ وقع بينهم شقاقٌ رهيب في طبيعة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ووضعه ووضع أمه من الإلٰه الكبير -فيما يزعمون- ، وقد أثار هذا الخلاف بينهم الحروب المهلكة ، وقسمهم فرقًا يلعن بعضهم بعضًا .

وأخرج البخاريُّ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَتْ : رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو ابْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ يَقُولُ : يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ ، وَاللهِ مَا مِنْكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥)، ك : المناقب، باب : حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

عَلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي ، وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ : لا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَ مُؤْنَتَهَا ، فَيَأْخُذُهَا ، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لأَبِيهَا : إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مُؤْنَتَهَا[(١)].

وهكذا كان من أمثال هذا الرجل من الباحثين عن الحق كثير ، منهم أيضًا : وَرَقَةُ بن نَوْفَل ، الذي تعلَّم الكتاب العِبْراني وتنصَّر في الجاهلية بحثًا أيضا عن الحق والصواب ، وقد قال فيه النبي ﷺ : **«لا تَسُبُّوا وَرَقَةَ ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ»**[(٢)].

وكان هناك أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلت الذي حفل شِعْرُهُ بالتحدث عن الله ، وما يجب له من محامد ، وقد ورد أن أمية أسلم شِعْرُهُ لكن كفر قلبُهُ حين أدرك بعثة النبي ﷺ ، فلم يُسْلِمْ حسدًا لرسول الله ﷺ ، وقد كان يظن في نفسه أنه سيكون هو نبي ذلك الزمان .

وكذلك قُسُّ بن ساعِدة الإيادي ، وله خطبة مشهورة معروفة في كتب الأدب .

وكان هؤلاء وأمثالهم كثيرون ، طال بحثُهم عن الحق ، وتأكد علمهم بأنه قد أظلهم زمان نبي ، فظلوا يتطلعون إلى هذا المنصب الجليل .

أضف إلى ذلك اليهود الذين كانوا لا يترددون لحظة في ادِّعاء أن النبي القادم منهم : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

كان الكل يتطلع ويستشرف ويتمنى ؛ لكن يأبى الله إلا أن يكون مرادُهُ ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٦) ، ك : المناقب ، باب : حديث زيد بن عمرو بن نفيل .

(٢) أخرجه الحاكم (٤٢١١) ، ك : تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ، باب : ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ ، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٣٢٠) .

وأن يقع قَدَرُه كما أراد: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢].

إن الله عز وجل بقضائه وقدره، وحُكْمِه وحكمته، لم يشأ أن يجعل النبوة في أولئك المتطلعين من أهل الكتاب، أو الحنيفيين، من شعراء وناثرين، وألقىٰ بالأمانة الكبرىٰ إلىٰ رجل لم يتطلع إليها ولم يفكر فيها: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

إن الاصطفاء للرسالات العظيمة والمقامات الرفيعة، والأمجاد العالية ليس بالأمل فيها، ولكن بالطاقة عليها، وكم في الحياة من طامحين لا يملكون إلا الجرأة على الأمل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وكم من رانحين يطويهم الصمت، حتىٰ إذا كُلفوا شأنًا أو حُمّلوا أمرًا أتوا بالعجب العجاب، ولا يعلم أقدارَ النفوس إلا بارئها.

كان الله عز وجل يريد هداية العالم أجمع، فاختار جل جلاله للغاية العظمىٰ نفسًا عظيمة، وكان الله عز وجل يعد لهذه الرسالة الضخمة رجلها الضخم، والعظائم كفؤها العظماء.

الله العليم الحكيم اختار لهذه الرسالة رجلاً يُبْصِرُ الحق، ويملك من الطاقة ما يدفعه بها إلىٰ آفاق العالمين، في وجه مقاومةٍ من المشركين وكفار أهل الكتاب، وسائر طوائف أهل الأرض، يسترخصون النفس والنفيس للإبقاء على الضلال، والإمساك بليله البارد الثقيل: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]

كان اصطفاء الله عز وجل محمدًا ﷺ للرسالة مفاجأة لم تلبث روعتها أن تكشفت عنه، وثبت الكاهل الجَلْد لما أُلقي عليه، ومضىٰ محمد ﷺ علىٰ النهج مُسَدِّدًا مؤيدًا: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

وإن كان العرب في جاهليتهم كانوا يرمقون محمدًا ﷺ قبل الرسالة بالإجلال، ويحترمون في سيرته شارات الرجولة الكاملة، إلا أنهم لم يتخيلوا قط أن مستقبل الحياة قد ارتبط بمستقبله، وأن الحكمة ستنفجر من هذا الفم الطهور، إنهم لم يَرَوا منه وقتها إلا ما يراه الطفل من سطح البحر، تشغله الصفحة الهادئة عن الغور البعيد.

ثم بعد هذه المقدمة تعال أعرِّفْكَ محمدًا ﷺ، تعالَ لننظر إليه من بعيد.. من أصوله ﷺ، تعالَ نعرف عراقةَ نَسَبِهِ وطِيبَ أصله، وصفاء معدنه.

محمد رسول الله ﷺ..

اختار الله عز وجل رسولَه ﷺ من أشرف بيت من بيوت العرب؛ فهو من أشرف فروع قريش وهم بنو هاشم، وقريش أشرف قبيلة في العرب وأزكاها نسبًا وأعلاها مكانة، وقد روىٰ العباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا؛ فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا»[1].

لكنَّ محمَّدًا ﷺ - علىٰ كرم أصله - لم يُرزَق حظًّا وافرًا من الثَّراء، فكانت قِلَّةُ مالِهِ مع شرف نسبه سببًا في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من مَيْزات؛ لأن أبناء الأغنياء أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطو، فإن افتقدوا هذا السلاح - الثروة - وكانت لهم تقاليد كريمة، بذلوا جهودًا مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشَمَمِهم بغير المال؛ ولكن العظماء منهم يطوون همومهم في هِمَّتهم، ثم يبرزون للدنيا مشمِّرين ليحافظوا علىٰ شرفهم وأصولهم دون مال أو ثروة، كذا كان الحال في هذا الوقت للنبي الأمين الكريم ﷺ حيث وُلِدَ فقيرًا وعاش كريمًا ﷺ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢١٠)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

ولادة النبي ﷺ.

قَالَ رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(١) .

هكذا اصطفىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ نبيَّه محمدًا ﷺ في أشرف النسب ، وأطيب المعادن ، وهكذا الأنبياء ، كما في حديث أبي سفيان أن هرقل قَالَ لَهُ : كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قال : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ ، فقال لَهُ : فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا(٢) .

لابد أن يكون اعتقادك يقينيًا -يا مسلم- أن النبي ﷺ أشرفُ الناس نسبًا مطلقًا ، وأكملُهم خَلْقًا وخُلُقًا ؛ فقد ولد من أسرة زكيةِ المعدن ، نبيلة النسب ، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل ، وترفعت عما يشينهم من أوضار ، وكان منبت محمدٍ ﷺ في أسرة لها شأنها ، وهذا مما أعده الله له ولرسالته ؛ فطِيبُ المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ، ويجعله يهتم بعاليها وأسماها وأفضلها ، والرسل والدعاة يحرصون علىٰ تزكية أنسابهم ، وطُهْرِ أصلابهم ، ويُعْرَفُون عند الناس بذلك فيحمدونهم ويثقون بهم .

وقد ذكر الإمام البخاري نسب النبي ﷺ فقال : هو : أبو القاسم مُحَمَّدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ ابْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ ابْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ(٣) .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ بعد ذكر النسب إلىٰ عدنان : إلىٰ هنا معلوم الصحة متفق عليه بين النسّابين ، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ(٤) .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) ، ك : الفضائل ، باب : فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر .

(٢) أخرجه البخاري (٧) ، ك : بدء الوحي .

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥١) ، ك : المناقب ، باب : مبعث النبي ﷺ .

(٤) «زاد المعاد» ١/ ٧١ .

وهذا النسب أرفع نسب، وأشرف نسب، ولقد كان ومازال شرف النسب له المكانة في النفوس؛ لأن النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة.

أبوه وأمه:

كان عبدُ المطلب جدُّ النبي ﷺ سيدَ مكة، بَيْد أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به، ولم تستقر في عقبه، وكان لعبد المطلب عشرة رجال وست نسوة، هم أبناؤه من صلبه، وكان أصغرُهم عبدَ الله والدَ الرسولِ ﷺ، وكان لعبد الله في قلب أبيه منزلة جليلة، فقد نجا من الذبح، وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، ثم زوجه من أشرف نساء مكة نسبًا وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زُهْرة بن كلاب، ثم خرج عبد الله وهو عروس - بعد أشهر من بنائه بآمنة - يمشي في مناكب الأرض ابتغاء الرزق، لقد ذهب في رحلة الصيف إلى الشام، فذهب ولم يعد، بل عادت القافلة تحمل أنباء مرضه، ثم جاء بعد قليل نَعْيُه، فقد تخلف يُمَرَّضُ عند أخواله بالمدينة ثم لم يلبث أن مات هناك.

وبينما كانت آمنة تنتظر رجلها الشاب لتبشره بأن في أحشائها جنينًا يوشك أن تقر به عينهما، مرض عبد الله، ومات هناك عند أخواله بالمدينة بعيدًا عنها، وهكذا قضى الله أن يخرج هذا المولود المُنْتَظَر إلى هذه الدنيا يتيمًا.

مات عبدُ الله وعمرُه خمسٌ وعشرون سنة، ولم يعلم بحمل زوجته، ومضت شهور الحمل طيبة، ولكن رأت آمنة رؤيا عجيبة، قالت: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي خَرَجَ مِنِّي نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ.

قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَىٰ عِيسَىٰ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّامِ**»[1]، فاستبشرت الأم خيرًا، وظلت تترقب، ثم ولد النبي محمد ﷺ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٢)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

مولد الهادي ﷺ:

ولد رسول الله ﷺ بمكة يوم الاثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والمجمع عليه أنه ولد في عام الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشِعب بني هاشم، وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط بشيء من الشريعة؛ فليس الاحتفال بتاريخ المولد النبوي من الشرع في شيء؛ بل هو بدعة محدثة لا يجوز الاحتفاء والاحتفال بها كما هو حال كثير من الناس في هذه الأيام.

وُلِدَ رسول الله ﷺ، واستقبل عبد المطلب ميلاد حفيده باستبشار وحفاوة، ولكن الحقيقة برغم حفاوة الجد الحنون إلا أن محمدًا يتيم!!!

نعم... لقد برز إلى الدنيا بعدما غادر أبوه الدنيا فولد يتيمًا ﷺ.

ولكن تعال معي لنتأمل: ليكن ما يكون، ولنفترض أنه قد بقي عبد الله حيًا، فماذا عساه كان يفعل لابنه؟

أكان يربيه ليهب له النبوة؟ لا، والله ما كان له ذلك.

إن الأب عنصر واحد من عناصر كثيرة وضخمة وطويلة تتحكم في مستقبل الطفل بأمر ربها، وتحفر له في الحياة مجراه، وحتى لو كانت النبوة بالاكتساب لما قرَّبتها حياةُ الوالد شبرًا، فكيف وهي اصطفاء؟! وما الأب والجد، وما الأقربون والأبعدون، وما الأرض والسماء إلا وسائل مُسَخَّرة لإتمام قدر الله وإبلاغ نعمة الله إلى مَنْ اصطنعه الله.

وستعرف معي قريبًا لماذا ولد يتيمًا؟ فاصطبر ولا تتعجل الأحداث.

أقبلت آمنة على ابنها تحنو عليه، وكانت حاضنته أم أيمن بركة الحبشية، وأم أيمن هذه كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب، فلما ولدتْ آمنةُ محمدًا ﷺ بعدما توفي أبوه، كانت أم أيمن تحضنه حتى كبر النبي ﷺ فأعتقها ثم أنكحها

زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة ، وقد توفيت بعدما توفي النبي ﷺ بخمسة أشهر ، وكانت أول من أرضعته ثُويبة أَمَةُ (جاريةُ) عمه أبي لهب ، ثبت ذلك في صحيح البخاري ، قال رسول الله ﷺ : «أَرْضَعَتْنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوَيْبَةُ»[1] .

وانتظرت آمنة المراضع المُقْبِلات من البادية اللاتي يلتمسن تربية أولاد الأشراف ؛ ولكن دعنا نسوق الحديث علىٰ لسان تلك المرضعة رضي الله عنها التي أقام عندها محمد ﷺ قريبًا من أربع سنين :

رسول الله ﷺ في بني سعد :

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : «كانت حليمة ابنة أبي ذُؤَيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته ، تُحَدِّث أنها خرجت من بلدها ، معها زوجها وابنٌ لها ترضعه في نسوةٍ من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرُّضعاء ، قالت : وذلك في سنةٍ شهباء (مجدبة) لم تُبق شيئًا ، قد جاع الناس حتىٰ خَلُصَ إليهم الجَهْد ، فخرجتُ علىٰ أتانٍ (أنثىٰ الحمار) لي قَمْرَاء ، ومعي زوجي الحارث ابن عبد العزىٰ ، قد أذمت (أبطأت) أتاننا ، معنا شارفٌ (ناقة مُسِنَّة) لنا ، والله ما تَبِضُّ (ترشح) بقطرة لبن ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معي من بكائه من الجوع ، وما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذِّيه ؛ ولكنا كنا نرجو من الله الغيث والفرج .

فخرجت علىٰ أتاني تلك ، فلقد أذَمَت بالركْب حتىٰ شقَّ ذلك عليهم ضعفًا وعَجَفًا (هُزَالاً) ، حتىٰ قدمنا مكة نلتمس الرُّضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها : إنه يتيمٌ ؛ وذلك أنَّا إنما نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيمٌ !! ما عسىٰ أن تصنع أمه وجده ؟! فكنا نكرهه لذلك ؛ فما بقيت امرأةٌ قدمت معي إلا أخذت رضيعًا ، غيري ،

---

(1) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٤٨١٣) ، ك : النكاح ، باب : ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ ، ومسلم (١٤٤٩) ، ك : الرضاع ، باب : تحريم الربيبة وأخت المرأة .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : إني لأكره أن أرجع من بين صواحباتي ولم آخذ رضيعًا ، والله لأذهبن إلىٰ ذلك اليتيم فلآخذنه ، قال : لا عليك أن تفعلي ؛ فعسىٰ الله أن يجعل لنا فيه بركة ! قالت : فذهبت إليه فأخذته ، وما حملني علىٰ ذلك إلا أني لم أجد غيره .

قالت : فلما أخذته رجعت به إلىٰ رحلي ، فلما وضعته في حَجْري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتىٰ رَوِي ، وشرب معه أخوه حتىٰ رَوِي ، ثم ناما - وما كان ينام قبل ذلك - ، وقام زوجي إلىٰ شارفنا تلك ، فنظر إليها فإذا هي حافل (اجتمع لبنها في ضرعها وكثُر) ، فحلب منها حتىٰ شرب وشربت ، حتىٰ انتهينا ريًا وشِبَعًا ، فبتنا بخير ليلة ، فقال لي صاحبي حين أصبحت : أتعلمين ! والله يا حليمة لقد أخذتِ نَسَمَةً مباركة ، قلت : والله إني لأرجو ذلك .

قالت: ثم خرجنا وركبت أتاني تلك ، وحملته عليها معي ، فوالله لقد قطعت بنا الركب ما يقدم عليها شيءٌ من حُمُرِهم ، حتىٰ إن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ارْبَعِي علينا (ارفقي وتمهلي) ، أليس هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن : بلىٰ والله ، إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها لشأنًا !! قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبّنًا (ممتلئة لبنًا) ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسانٌ قطرةً ولا يجدها في ضرع ، حتىٰ إن كان الحاضر من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم !! اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذُؤَيْب !

فتروح أغنامهم جياعًا ما تَبُضُّ بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعًا لُبّنًا ، فلم نزل نتعرف من الله زيادة الخير به ، حتىٰ مضت سنتان وفَصَلْتُه (فطمته) ، وكان يَشِبُّ شبابًا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتىٰ كان غلامًا جَفْرًا (عظُم بطنُه وَأَكَلَ) ، فقدمنا به علىٰ أمه ونحن أحرص شيء علىٰ مكثه فينا ؛ لما كنا نرىٰ من بركته ، فكلمنا أمه وقلنا لها : يا ظِئْرُ ، لو تركت ابني عندي حتىٰ يغلظ ،

فإني أخشىٰ عليه وباء مكة ! قالت : فلم نزل بها حتىٰ رددناه معنا .

قالت : فرجعنا به ، فوالله إنه - بعد مقدمنا به بأشهر - مع أخيه في بَهْم (غنم) لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتدُّ (يعدو مسرعًا) ، فقال لي ولأبيه : ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاه وشقا بطنه وهما يسوطانه ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نشتدُّ ، فوجدناه قائمًا مُنْتَقِعًا (متغيرًا) وجهُه ؛ قالت : فالتزمته والتزمه أبوه ، وقلنا له : ما لك يا بني؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو ! قالت : فرجعنا به إلىٰ خِبائنا ، قالت : وقال لي أبوه : والله يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر به ذلك .

قالت : فاحتملناه ، فقدمنا به علىٰ أمه ، فقالت : ما أقدمكِ به يا ظِئر ، وقد كنتِ حريصةً عليه وعلىٰ مكثه عندكِ ؟ قالت : قلت : قد بلغ الله بابني ، وقد قضيت الذي عليّ وتخوفت الأحداث عليه ، فأديته إليك كما تحبين ، قالت : ما هذا بشأنِك ، فاصدقيني خبَرَك ، قالت : فلم تدعني حتىٰ أخبرتها الخبر ، قالت : فتخوفتِ عليه الشيطان؟ قالت : فقلت : نعم ، قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه سبيل ، وإنَّ لابني لشأنًا ، أفلا أخبرك خبره؟ قالت : قلت : بلىٰ ، قالت : رأيْتُني حين حملت به أنه خرج مني نورٌ أضاء لي قصور بُصْرَىٰ من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قطُّ كان أخف منه ولا أيسر منه ، ثم وقع حين ولدته وإنه لواضعٌ يديه بالأرض ، رافعٌ رأسه إلىٰ السماء ! ! دعيه عنك وانطلقي راشدة .

هكذا عرفته أمه وبشرت به ، وهكذا نشأ رسول الله ﷺ في مضارب بني سعد ، وقد ذكر لنا حديث حليمة السابق تلك الفترة التي قضاها رسول الله ﷺ قرابة الثلاث سنين ، بان فيها من بركاته علىٰ حليمة وقومها ، ما جعلها حريصة عليه ، فلم ترده إلىٰ أمه بعد سنتين كعادة العرب ، بل استَبْقَتْهُ عندها للسنة الثالثة حتىٰ حدثت حادثة شق الصدر ، فأعادته حليمة إلىٰ أمه .

الحكمة في حادثة شق الصدر

واعلم - أيها الحبيب المحب - أن حادثة شق الصدر حقيقة مادية صريحة صحيحة ، روىٰ الإمام مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ لأَمَهُ ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَىٰ أُمِّهِ -يَعْنِي ظِئْرَهُ- فَقَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ ، قَالَ أَنَسٌ : وَقَدْ كُنْتُ أَرَىٰ أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ[1] .

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إعداد مبكر للنبوة ، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله ، ولعل المقصود أيضًا كان إعلان أمر الرسول ﷺ وتهيئته للعصمة والوحي ؛ بأن يَرىٰ محمدٌ ﷺ جبريلَ عليه السلام منذ صغره فيعتاد ذلك ، واتخذت حادثة شق الصدر هذا الشكل المادي الحسي تحت أسماع الناس وأبصارهم ؛ ليكون ذلك أقرب إلىٰ إيمان الناس به ، وتصديقهم برسالته فيما بعد .

وقد كان إخراج العلقة من قلبه تطهيرًا له من حالات الصِّبا اللاهية العابثة ؛ فصار متصفًا منذ طفولته بصفات الجِد والحزم والاتزان وغيرها من صفات الرجولة الصادقة ، وهذا إن دل فإنما يدل علىٰ عناية الله به ، وحفظه له ، وأنه ليس للشيطان عليه سبيل منذ ولادته ﷺ .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩) ، ك : الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ إلىٰ السماوات .

وفاة آمنة:

وعاد رسول الله ﷺ إلىٰ أمه يتمتع بحنانها في أهم حِقبة من عمر الطفل، التي يحتاج فيها إلىٰ الارتباط بالأم أكثر فيما دون الثالثة إلىٰ ما دون السادسة، ظل مستمتعًا بحضنها وحنانها، فكان لا يفارقها ولا تفارقه، ثم كان ما كان وهو ابن ست سنين بدا لها أن تعرِّفه علىٰ أخواله من بني عدي بن النجار، وتُزيره إياهم، فقدمت عليهم به، وبقيت عندهم نحو شهر، ثم احتملته راجعةً إلىٰ مكة ومعهما حاضنته أم أيمن، فماتت أمه وهي راجعةٌ به إلىٰ مكة، وحزن عليها حزنًا شديدًا، ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة، وقد زار رسول الله ﷺ بعد النبوة قبرها وبكىٰ عنده، ولم يُؤذَن له بالاستغفار لها.

وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يُؤْثِره علىٰ أبنائه - أي أعمام النبي ﷺ -، وكان جده يحبه حبًا عظيمًا، «وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها، وذاتَ يوم أرسله في طلب إبل فتأخر عنه، فخاف عبد المطلب وأسرع يطوف بالبيت وهو يرتجل ويقول:

لَاهُمَّ رُدَّ رَاكِبِي مُحَمَّدَا ... ارْدُدْهُ رَبِّ وَاصْطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

أَنْتَ الَّذِي جَعَلْتَهُ لِي عَضُدَا ... لَا يَبْعُدُ الدَّهْرُ بِهِ فَيَبْعُدَا

ولما رجع الطفل محمد ﷺ وجاء بالإبل قال له عبد المطلب: «يا بني، لقد حزنت عليك كالمرأة فلا تفارقني أبدًا»[(١)].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٥٢٤)، وصححه إبراهيم العلي في «صحيح السيرة النبوية» ص (٥٦).

أمارة للقيادة:

قال العباس ﷺ: كان عبد المطلب أطول الناس قامة، وأحسن الناس وجهًا، وما رآه أحدٌ قطُّ إلا أحبه، وكان له مِفْرَش في الحِجْر لا يجلس عليه غيره، ولا يجلس عليه معه أحد، وكان النَّدِيُّ (أهل المجالسة والشورىٰ) من قريش حربُ بن أمية فمَنْ دونه يجلسون حوله دون المفرش، فجاء محمد ﷺ وهو صغير لم يبلغ، فجلس علىٰ المفرش فجبذه رجل، فبكىٰ محمد ﷺ، فقال عبد المطلب - وذلك بعدما كُفَّ بصره -: مال ابني يبكي؟! قالوا له: أراد أن يجلس علىٰ المفرش فمنعوه، فقال عبد المطلب: «دعوا ابني يجلس عليه؛ فإنه يُحِسُّ من نفسه بشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغ عربيٌّ قبله ولا بعده»[1].

وقد تأخرت سن عبد المطلب حتىٰ قيل: إنه توفي وله مائة وعشرون سنة؛ إلا أنه فارق الحياة وعمر النبي ﷺ لم يبلغ الثامنة، وأوكل قبل وفاته كفالة محمد ﷺ إلىٰ عمه أبي طالب، فكفله عمه وحَنَّ عليه ورعاه، وظل فوق أربعين سنة يُعز جانبه، ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله.



---

(١) إسناده حسن، أخرجه الأزرقي في «تاريخ مكة» (١/ ٣١٤ - ٣١٥).

بصائر

① إذا اشتدت الأزمات وقويت الكروب ؛ فهذا دليلٌ علىٰ قرب انفراجها ، وأشد ساعات الليل ما يعقبها طلوع الفجر .

② الإسلام دين عظيم ؛ إذ ليس فيه حملٌ للآصار والأغلال ، ولا تكليف فيه بغير مستطاع ، أما اليهودية والنصرانية فقد أثقلت الأغلالُ والآصارُ أتباعهما ، فلليهود نصيب من غضب الله ، وللنصارىٰ نصيب من لعنته ، والنجاة من هذا وذاك في الإسلام .

③ يكون اصطفاء الله واجتباؤه للعبد علىٰ قدر ما فيه من صفات ومواهب وطاقات وإمكانيات ، لا بمجرد الأمل العريض والأمنيات والأوهام والأحلام .

④ المهام العظيمة والرسائل الضخمة يكون لها العظماء ، فتناط المهام الشاقة الصعبة بأصحاب النفوس الكبيرة ، والعزائم القوية ؛ فكن عظيمًا توفق إلىٰ المهام العظيمة .

⑤ لا يوزن الرجال بالثراء والأموال ؛ إنما يوزنون بأخلاقهم وإيمانهم وأعمالهم ومواقفهم النبيلة ؛ فالمرء يقاس بعمله وقلبه ولسانه .

⑥ عجب ربك من قوم يقادون إلىٰ الجنة في السلاسل ، ويُرغَمون علىٰ نيل الخير ، فبعد إعراض حلِيمة عن أخذ رسول الله رضيعًا لفقره ، اضطرت لأخذه حيث لم تجد غيره ؛ فنالت البركة والسعادة وخلود الذكر في الصالحين ، وإلا فأين ذكر أسماء بقية المرضعات؟! فسبحان من يصطفي ويختار!!

⑦ للقيادة والريادة أماراتٌ تلوح علىٰ صاحبها ، وتبدو من تصرفاته ، والوالد الذكي مَنْ لمح أماراتِ النبوغ في ولده ؛ فنماها وثمَّرها حتىٰ يوظفها في مجالها اللائق بها .

(٨) خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام ، وصفاء القلب ونقاء العقل والضمير نابعٌ من صفاء الأصل ، فمن طاب أصله طاب فرعه .

(٩) النسب الرفيع والأصل العريق لا تنكر عليه الصدارة والسبق إلىٰ كل نبل وشرف .

(١٠) السماء والأرض والدنيا وما فيها ما هي إلا وسائل مسخرة لإتمام قدر الله ، وإبلاغ نعمة الله إلىٰ من اصطنعه الله واختاره واجتباه ، فطوباه وبُشراه عبدٌ أحبه الله واصطفاه !!

(١١) ماء زمزم ماء مبارك له أثر عظيم في الطهارة الحسية والمعنوية ، لذلك غُسِلَ به قلب النبي محمد ﷺ في حادثة شق الصدر .

(١٢) الاصطفاء والاستعمال لإنجاز المهمات العظيمة باختيار الله العليم الحكيم ؛ فتوسل إلىٰ الله أن يستعملك ويؤهلك .

(١٣) لا يعلم أقدار النفوس إلا بارئها ، فلا تحتقر أحدًا ، ولا تغتر .

(١٤) لِيَكْمُل يقينك ويثبت اعتقادك بلا ريب أن النبي محمد ﷺ أشرف الناس نسبًا مطلقًا ، وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا ، ولن يستطيع أحد من البشر أن يبلغ مبلغه ، ولا أن يدرك منزلته ، وأيضًا لن ينال منه أذىٰ المؤذين ولا استهزاء المستهزئين ، ما كان ذلك ولن يكون ، قال الله عز وجل : ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

لماذا نشأ النبي ﷺ يتيمًا؟

كان هذا لحكمةٍ عظيمة، أو إن شئت فقل: لحكَم عديدة جليلة منها:

❁ أن الله عز وجل أراد أن ينشأ رسولُه ﷺ يتيمًا، يتولاه هو سبحانه وتعالىٰ وحده بعنايته بعيدًا عن الذراع التي تُمْعِن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتىٰ لا تميل به نفسه إلىٰ مجد المال والجاه، وحتىٰ لا يتأثر بما حوله من معاني الصدارة والزعامة، فتلتبسَ علىٰ الناسِ قداسةُ النبوة بجاه الدنيا، وحتىٰ لا يحسبوه يصطنع الأولَ: النبوة، ابتغاء الوصول إلىٰ الثاني: الصدارة والزعامة.

ولقد كانت المصائب التي أصابت النبي ﷺ منذ طفولته بقدر الله أيضًا، كموت أمه ثم جدِّه بعد أن حُرِم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مَرَّةً بعد مَرَّة؛ كان كلُّ ذلك من صناعة الله له، فقد جعلته تلك المحن رقيقَ القلب مرهفَ الإحساس؛ فإن الأحزانَ تصهرُ النفوس وتخلصها من أدران القسوة والكِبْر والغرور، وتجعلها أكثر رقةً وتواضعًا.

واعلم أيضًا أن وفاة والديه في العشرينيات من حياتهما ليست ناشئةً عن هُزالهما أو ضعف بنيتهما، كلا، ولم يكن محمدٌ ﷺ قطُّ سليلَ أبوين سقيمين؛ وإنما توفاهما الله بعد أن قاما بالمهمة التي وُجدا من أجلها؛ وهي إخراجه إلىٰ هذه الدنيا فقط، وكأنهما قد خلقا لذلك.

أما يُتْمُهُ هو ﷺ فليتأسّ به كلُّ من فَقَدَ والديه أو أحدهما وهو صغيرٌ، وأيضًا ليكون أدبه ﷺ وخُلُقُه مع يُتْمِهِ دليلًا علىٰ أن الله تولىٰ رعايته وتأديبه وحده، فلم يتدخل في ذلك أحدٌ بتشكيل فكر أو صياغة هُوية، وكان ذلك أيضًا حتىٰ ينشأ ﷺ قويَّ الإرادة، ماضيَ العزيمة، غير معتمد علىٰ أحدٍ في شئونه، وحتىٰ لا يكون لأبويه أيُّ أثر في دعوته، وحتىٰ لا تتدخل يدٌ بشرية في تربيته وتوجيهه؛ فيكون الله وحده هو الذي يتولىٰ تربيته، ولا يتلقىٰ أو يَتَلَقَّن من مفاهيم الجاهلية

وأعرافها شيئًا ؛ إنما يتلقىٰ من لدن الحكيم الخبير ابتداءً ، فالله آواه ، وسخر له جده وعمه لتهيئة الجانب المادي فقط ؛ بينما كانت التربية النفسية والخُلُقِيَّة والفكرية تعهدًا ربانيًا ، ورعايةً إلهيةً تامةً به ﷺ .

محمد ﷺ يواجه الحياة.

مات أبوه وماتت أمه ، ومات جدّه ، وانتقل محمد ﷺ إلىٰ عمه أبي طالب ، وكان أبو طالب رجلاً كثير العيال قليل المال ، ولم يكن أيضًا أبو طالب صاحب ذلك المنصب وتلك الهيبة التي كان يتبوأُها عبدُ المطلب ، وبانتقال محمد ﷺ إليه كان عليه ﷺ أن يواجه الحياة ، وكان عمره إذ ذاك ثمانِ سنين ، وكما اعتمدنا منذ البداية في هذا الكتاب أن ننظر في الأسباب التي أعدها الله لنزول الرسالة علىٰ محمد ﷺ في هذه الأمة ؛ فتعالوا لننظر :

كيف علَّم الله النبيَّ محمدًا ﷺ..

إن الذي يطالع سيرة النبي ﷺ لابد له من أن يُوقِنَ أنه ﷺ كان علىٰ مستوىٰ رفيع من الفكر الصائب والنظر السديد ؛ فقد كان يعيش يَقِظَ القلب في أعْمَاءِ الصحراء ، منتبهًا متأملاً صاحيًا بين السُّكارىٰ والغافلين .

والأنبياء - وإن لم يتعلموا بالطُرُق التي يتعلم بها سائر البشر - لهم من سلامة فكرهم واستقامة نظرهم ما يجعلهم في طليعة العلماء ؛ وإن لم يتعلموا بما نعهد من أساليب ؛ لأن الله خلقهم أنبياء في الأصل ، قال ﷺ : «إِنِّي عَبْدُ اللهِ لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ»[1] . .

ولكن تعالَ لنعرف أولاً ، ما العلم الذي ترقىٰ به النفس؟

أهو حفظ الدروس واستيعاب القواعد والقوانين؟

أهو ذاك العلم النظري الذي يتباهىٰ به العقل؟

أهو الذي يردده الإنسان بلا وعي ولا فهم ولا نفع ولا عمل ولا فائدة ولا خبرة؟

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/١٢٧) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط وقال : صحيح لغيره .

إن هناك بَبْغاواتٌ كثيرة تردد ما تسمع دون وعي ، وكثيرًا ما ترىٰ أطفالاً صغارًا يلقون بإتقان وتمثيل خطبًا دقيقة لأشهر الساسة والقادة والعلماء والدعاة ، فلا الأطفال - بما استُحْفِظوا من كلام الأئمة - أصبحوا رجالاً ، ولا البَبْغاوات تحولت بشرًا ؛ بل قد تجد من يحفظ ويفقه ويجادل ويَغْلِب ، ولكن العلم في نفسه كعروق الذهب في الصخور المهملة ، لا يبعث علىٰ خير ولا يزجر عن شر ، فبماذا يفيده هذا العلم إذًا؟!

وقد شبَّه الله ﷻ أحبار اليهود الذين يحملون التوراة ولا يتأدبون بها بالحمير فقال : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وهذه الطبائع التي تحمل العلم ولا تَصْلُحُ به ؛ إنما تسيء إليه ، ولذلك يحسُن الضنُّ به عليها ، قال علي بن أبي طالب ﷺ: «مثل الذي يعلِّم أولاد السفهاء العلم كمثل الذي يقلد الخنازير اللؤلؤ» .

وجو الجزيرة العربية يزيدُ خمولَ الخامل وحِدَّةَ اليقظان ، كالشعاع الذي ينمي الأشواك والورود معًا ، وقد كان محمد ﷺ في بداية حياته وريْعان شبابه يستعين بصمته الطويل ، صمته الموصول بالليل والنهار ، صمته المُطْبِق علىٰ الرمال الممتدة والعمران القليل ، كان يستعين بهذا الصمت علىٰ طول التأمُّلِ ، وإدمانِ الفكر ، واستكناه الحق ، ثم درجة الارتقاء النفسي التي بلغها من هذا النظر الدائم كل ذلك صار أرجح يقينًا من حفظٍ لا فهم فيه ، أو فهم لا أدب فيه ، ومِثْلُه في احترام حقائق الكون والحياة أولىٰ بالتقديم من أولئك الذين اعتنقوا الأوهام وعاشوا بها ولها .

ولا شك أن الله قد أحاطه أيضًا بما يحفظ عليه هذا الاتجاه الفذّ ، فحتىٰ عندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض مُتَع الدنيا - وذلك من قبيل الصغائر التافهة - يعصمه الله بالحيلولة بينه وبين هذه الأمور ، قال ﷻ :

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

روىٰ ابن الأثير : قال رسول الله ﷺ : «مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانُوا فِي الجَاهِلِيَّةِ يَعْمَلُونَهُ غَيْر مَرَّتَيْنِ ، كُلُّ ذَلِكَ يَحُولُ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بِهِ حَتَّىٰ أَكْرَمَنِي اللهُ بِالرِّسَالَةِ ، قُلْتُ لَيْلَةً لِلْغُلَامِ الَّذِي يَرْعَىٰ مَعِي بِأَعْلَىٰ مَكَّةَ : لَوْ أَبْصَرْتَ لِي غَنَمِي حَتَّىٰ أَدْخل مَكَّةَ وَأَسْمُرُ بِهَا كَمَا يَسْمُرُ الشَّبَاب ، فَقَالَ : أَفْعَلُ ، فَخَرَجْتُ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُ عِنْد أَوَّلِ دَارٍ بِمَكَّةَ سَمِعْتُ عَزْفًا فَقُلْتُ : مَا هَذَا؟ فَقَالُوا : عُرْسُ فُلَانٍ بِفُلَانَة ، فَجَلَسْتُ أَسْمَعُ فَضَرَبَ اللهُ عَلَىٰ أُذُنِي فَنِمْتُ فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا حَرّ الشَّمْس ، فَعُدْتُ إِلَىٰ صَاحِبِي ، فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ لَيْلَةً أُخْرَىٰ مِثْل ذَلِكَ وَدَخَلْتُ مَكَّةَ فَأَصَابَنِي مِثْل أَوَّل لَيْلَة ، ثُمَّ مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُ بِسُوءٍ»[(١)] .

كيف تعلم محمد ﷺ؟

اعلم -أخي وحبيبي في الله- أن مراتب التعليم المختلفة هي مراحلُ جهدٍ متصل لتهذيب العقل وتقوية ملكاته ، وتصويبِ نظرته إلىٰ الكون والحياة والأحياء ، فكل تعليم يَقصُرُ بأصحابه عن هذا الشأن لا يُؤبه له مهما وُسِمَ بالشهادات والإجازات ، وأحقُّ منه بالحفاوة ، وأسبقُ منه إلىٰ الغاية المنشودة ، أن ينالَ المرء حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكر ، وسداد الوسيلة والهدف ، وقد أشار ربنا في القرآن الكريم إلىٰ نصيب إبراهيم عليه السلام من هذه الخصال عندما قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢] .

ومحمد ﷺ في هذا المنهج كَجَدِّه إبراهيم عليه السلام ، إنه لم يتلق عِلمًا عن راهبٍ أو كاهن أو فيلسوف ممن ظهروا علىٰ عهده ؛ ولكنه بعقله الخِصْب وفطرته الصافية طالع صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات ،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٧٢) ، ك : التاريخ ، باب : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن النبي ﷺ كان علىٰ دين قومه قبل أن يوحىٰ إليه ، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

فعافَ ما ساءه من خُرافة ونأىٰ عنها ، ثم عاشر الناس علىٰ بصيرةٍ من أمره وأمرهم ، فما وجده حسنًا شارك فيه بقدر ، وإلا عاد إلىٰ عزلته العتيدة يتابع النظر الدائم في ملكوت السموات والأرض ، وذلك أجدىٰ عليه من علوم هي بالجهل المركَّب أشبه ، ومن مجتمع فَقَدَ الهداة من زمن ، فهو يضم ضلالاً جديدًا إلىٰ الضلال القديم كلما مرت ليلة وطلع صباح .

ولكن.. كيف علَّمه الله وربَّاه وهو غلام؟

١- التربية بالعمل:

عَمَلُهُ ﷺ كان في رعي الغنم ، وقد مر معنا في قصة سيدنا موسىٰ عليه السلام في كتاب قصص الأنبياء كيف أن الله عز وجل لمّا أراد أن يربيه ويعلمه أخرجه من جو القصور ولبس الحرير إلىٰ الصحراء وتربية الغنم ؛ لِيُمَرَّنَ علىٰ تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها ، فللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والمعاناة مع جماهير الناس ، قال رسول الله ﷺ : «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًا إِلَّا رَعَىٰ الْغَنَمَ» ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ؟ فَقَالَ : «نَعَمْ ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ»[(١)] .

إنَّ رَعْيَ الغنم كان يتيح للنبي ﷺ الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة ، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء ، كما يتيح له التطلع إلىٰ مظاهر جلال الله في عظمة الخلق ، ويتيح له المناجاة في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأسحار ، ويتيح له لونًا من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف وردع المعتدي ؛ فتقوىٰ عزيمته ويأخذ الحق للضعيف ويسير بسيره ، وارتياد مشاعر الخصب والري وتجنب الهلكة ومواقع الخوف ، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف ، وحماية جماعته وقطيعه من التفرق والتشرذم ، وكل هؤلاء تربية نفسية وعقلية وبدنية وتعليم أيضًا .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٦٢) ، ك : الإجارة ، باب : رعي الغنم علىٰ قراريط .

بل وتُذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه التي تُوَجِّه المسلمين نحو الإحسان للحيوانات ؛ فكان رعي الغنم للنبي ﷺ دُرْبَةً وَمِرَانًا له علىٰ سياسة الأمم .

لقد تعلم من رعي الأغنام عدة خصال تربوية منها :

(١) الصبر : فالصبر علىٰ الرعي من طلوع الشمس حتىٰ غروبها من أهم لوازم الراعي ؛ نظرًا لبطء الغنم في الأكل والحركة من مكان إلىٰ مكان ، فيحتاج راعيها إلىٰ الصبر والتحمل ، وكذا تربية البشر .

ثم إن الراعي لا يعيش في قصر مُنِيفٍ ولا في ترف وسرف ؛ وإنما قد يعيش في جوٍّ صحراويٍّ قاريٍّ حارٍّ شديد الحرارة نهارًا شديد البرودة ليلاً ، وبخاصة في الجزيرة العربية ، ويحتاج إلىٰ الماء الغزير لِيُذْهِبَ ظمأه ، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش ، فينبغي أن يحمل نفسه علىٰ تَحَمُّلِ هذه الظروف القاسية ، ويألفها ويصبر عليها ، وهكذا أصحاب الدعوة لابد أن يحملوا أنفسهم علىٰ أقسىٰ الظروف ، ويوطِّنوا أنفسهم علىٰ الصبر وعدم الاستعجال ، وهذا مما تعلمه النبي محمد ﷺ في هذه الفترة التي طالت ، فنفعته إذ ذاك .

(٢) التواضع : إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم والإشراف علىٰ ولادتها ، والقيام بحراستها والنوم بالقرب منها ، وربما أصابه ما أصابه من رَذاذ بولها أو شيء من رَوْثها فلا يتضجَّر من هذا ، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء ويتركز في نفسه خُلُقَ التواضع ، قال رسول الله ﷺ : «**الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَالْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ**»[(١)] ؛ ولذلك أذن رسول الله ﷺ بالصلاة في مَرابض الغنم دون غيرها ، فقد نهىٰ عن الصلاة في مبارك الإبل وأخبر أنها مأوىٰ الشياطين ، وأيضًا أمر

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣١٢٥) ، ك : المناقب ، باب : قول الله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣] ، ومسلم (٥٢) ، ك : الإيمان ، باب : تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه .

بالوضوء من لحوم الإبل دون لحوم الغنم ؛ فدل ذلك على فضل الغنم وفضل رعايتها والاهتمام بها ؛ فكان أن قدّر الله لكل نبيٍّ أن يرعى الغنم .

③ **الشجاعة** : فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة ، فلابد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة ؛ تؤهله لمواجهة الأخطار لمنع الوحوش من افتراس أغنامه ، وأيضًا يتعلم من الشجاعة ما يجعله لا يفر لينجو بنفسه ، ويترك أغنامه وما يرعاه للخطر ، وهذه من الأهمية بمكان لكل من يحمل الدعوة ، أنه مسئول عمن يرعاه ، وليس مطالبًا أن يحمي نفسه فقط ، وألا يكون همه نفسه فحسب ؛ وإنما شجاعته تكمن في إنجاء الأمة ، وإن تعرضت نفسه للأخطار .

④ **الرحمة والعطف** : إن الراعي يقوم بمقتضى عمله في مساعدة الغنم إن هي مرضت أو كُبِرَت أو أُصِيبَت ، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها وعلاجها والتخفيف من آلامها ، فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان وبخاصة إذا كان رسولاً أرسله الله ﷻ ؛ لتعليم الإنسان وإرشاده وإنقاذه من النار وإسعاده في الدارين .

⑤ **حب الكسب من عرق الجبين** : إن الله قادر على أن يُغني رسوله عن رعي الغنم ؛ ولكن هذه تربيةٌ له ولأمته للأكل من كسب اليد وعرق الجبين ، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد ، قال رسول الله ﷺ : «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ** عليه السلام **كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[1] ، يخبرنا ﷺ أن نبي الله داود عليه السلام رغم كونه مَلِكًا ؛ كان يعمل ! وهكذا تعوَّدَ رسول الله ﷺ العملَ منذ بداية أمره حتى يأكل من خير الكسب ، وهذا مطلبٌ رئيسٌ لكل من يحمل الدعوة ؛ ألا يمد يده لأحد ، ولا يحتاج أن يسأل أحدًا ، هكذا قال الأنبياء لجميع الأمم : ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ [هود: ٢٩]، ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [هود: ٥١].

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٦٦)، ك : البيوع ، باب : كسب الرجل وعمله بيده .

وهناك فوائد أخرى لرعي الغنم.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري» (٤/ ٤٤١) : «قال العلماء : الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التَّمَرُّنُ برعيها على ما يُكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مَسْرَح إلى مسرح، ودفع عدوها من سَبُع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها؛ فيكون تحملهم لمشقة ذلك مع البشر أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك من أول وهلة؛ لما يحصل لهم من التدريب على ذلك تدريجيًا برعي الغنم، وخُصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها؛ ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر؛ لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرق الغنم إلا أنها أسرع انقيادًا من غيرها».

وفي ذكر النبي ﷺ للصحابة بعد البعثة أنه رعى الغنم أجيرًا في مكة بعد أن علم أنه أكرم الخلق على الله، فيه دليل على ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمِنَّتِهِ عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولم يترك النبي ﷺ رعي الغنم حتى بعثه الله؛ مما جعله يتشرَّب تلك الصفات بالمداومة على ذلك مدة طويلة، فعن نصر بن حَزْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَرْعَىٰ غَنَمًا عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَبُعِثْتُ أَنَا وَأَنَا أَرْعَىٰ غَنَمًا لِأَهْلِي بِأَجْيَادٍ**»[1].

وقال الحافظ أيضًا: «والذي قاله الأئمة: أن الحكمة في رعاية الأنبياء للغنم؛ ليأخذوا أنفسهم بالتواضع، وتعتاد قلوبُهُم الخَلْوَة، ويترقَّوْا من سياستها إلى سياسة الأمم، وبيَّنَ الخَطَّابي أن الله لم يضع النبوة في أبناء الدنيا والمترفين منهم؛ وإنما وضعها في أهل التواضع كرعاء الشاة وأصحاب الحِرَف».

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٧٧)، وقال عنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: صحيح.

فإن الروم إذا عرفوه بالصفة سيقتلونه ، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الروم ، فاستقبلهم ، فقال : ما جاء بكم؟ قالوا : جاءنا أن هذا النبي خارجٌ في هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بُعِثَ إليه بأناس ، وإنا قد أُخْبِرْنا خبره ، فَبُعِثْنا إلىٰ طريقك هذا ، فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا : إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا ، قال : أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحدٌ من الناس رده؟ قالوا : لا ، قال : فبايَعوه وأقاموا معه ، قال : أَنْشُدُكم الله أيكم وَلِيُّه؟ قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتىٰ رجع أبو طالب دون القافلة ، ورجع محمد ﷺ معه .

وذُكِرَ أن بحيرا توفي قتيلاً بدسيسة اليهود .

ومما يستفاد من قصة بحيرا عدة أمور منها:

(١) أن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن محمدًا ﷺ هو الرسول للبشرية ، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أمارات وأوصاف عنه في كتبهم ، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] .

(٢) إثبات سجود الشجر والحجر للنبي ﷺ ، وتظليل الغمام له ، وميل فيء الشجرة عليه قبل البعثة .

(٣) أن النبي ﷺ استفاد من سفره وتجواله مع عمه وبخاصة من أشياخ قريش ؛ حيث اطلع علىٰ تجارِب الآخرين وخبرتهم ، والاستفادة من آرائهم ؛ فهم أصحاب خبرة ودراية وتجرِبة لم يمر بها النبي ﷺ في سِنّه تلك .

(٤) عداوة وحسد وحقد الذين كفروا من أهل الكتاب للنبي محمد ﷺ ، وحرصهم علىٰ قتله والقضاء علىٰ دعوته من بدايتها ، حتىٰ قبل أن يبعث ﷺ .

حرب الفِجَار:

عاد أبو طالب بالنبي ﷺ إلى مكة وعزم ألا يخرج به منها بعد ذلك، واستمرت حياة الكدح التي بدأها برعي الأغنام، ثم لما تمت له أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة اندلعت حرب الفِجَار بين قريش وهوازن، وسُمِّيَتْ بيوم الفجار بسبب ما استُحِلَّ فيه من حرمات مكة التي كانت مقدَّسةً عند العرب، وشهد محمد ﷺ بعض أيامهم حيث أخرجه أعمامه معهم، قال ﷺ: «**كُنْتُ أُنَبِّلُ عَلَىٰ أَعْمَامِي**»[1] أي: كنت أدفع عنهم السهام لئلا تصيبهم، وبذلك اكتسب النبي ﷺ الجرأة والشجاعة والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه.

حلف الفضول:

ثم مرت بضع سنوات أُخَر بعد رجوع قريش من حرب الفِجَار؛ فكان حلف الفُضُول أو ما يسمى بحلف «المُطَيَّبِينَ»، قال رسول الله ﷺ: «**شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ؛ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ**»[2]، وقال ﷺ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَىٰ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ**»[3].

وسبب هذا الحلف أن رجلاً من زَبيد (باليمن) قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزَّبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فِهْر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢١-٢٢٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ١٩٠) وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٢٨٥٩)، ك: قسم الفيء والغنيمة، باب: إعطاء الفيء على الديوان وما يقع به البداية، وصححه الألباني في «صحيح فقه السيرة» (١/ ٦٧).

يَا آلَ فِهرٍ لِمَظلُومٍ بِضَاعَتُهُ ... بِبَطنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ
وَمُحرِمٍ أَشعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... أَمْسَىٰ يُنَاشِدُ حَوْلَ الْحِجْرِ وَالحَجَرِ
هَلْ مُخْفِرٍ مِنْ بَنِي سَهمٍ يَقُولُ لَهُمْ ... هَلْ كَانَ فِينَا حَلَالاً مَالُ مُعْتَمِرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ ... وَلَا حَرَامَ لِثَوبِ الْغَادِرِ الْفَجِرِ

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: والله ما لهذا مَتْرَكٌ، فاجتمعت بنو هاشم، وزُهْرَة، وبنو تَيْم بن مُرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهرٍ حرام وهو ذو القَعْدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم؛ حتىٰ يُرَدَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صوفة، وما بقي جبلا ثَبير وحِراء مكانهما، ثم مشوا إلىٰ العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه، وسمَّت قريش هذا الحلف: حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضلٍ من الأمر، وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب:

إِنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ... أَلَّا يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمُ
أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا ... فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِمُ

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان، وبهذا الحلف أضاف رسول الله ﷺ إلىٰ علمه علمًا جديدًا.

المصطفى ﷺ ومرحلة الشباب.

عندما انتهت حربُ الفِجَار وأُبرِمَ حِلْفُ الفضول كان محمد ﷺ يستقبل المرحلة الثالثة من عمره، وهذه الفترة هي عهد الشباب الحار، والغرائز الفائرة، والطموح البعيد، ومحمدٌ ﷺ رجلٌ قويُّ البدن، عالي الهمة، رفيع المكانة، ومثل هذا الرجل تقبل عليه الحياة ولو لم يقبل هو عليها.

لكن محمدًا ﷺ علىٰ ما يملك من وسائل المتاع، ما أُثِرَتْ عنه قطُّ شهوة

عارضة ، أو نزوةً خادشة ، أو حُكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو اصطياد ثروة ؛ بل علىٰ العكس بدأت سيرته تُومِضُ في أنحاء مكة بما امتاز به علىٰ أقرانه من خِلالٍ عذبة ، وشمائلَ كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين .

وليس شرفُ النفس أن تنتفي شهوة الإنسان من الحياة ، أو توجد الشهوةُ وتنتفي وسائلُ بلوغها ؛ بل الشرف أن تكون قوّة العفاف أعظم وأكبر من نوازع الهوىٰ ، وقد تجد رجلًا تحسبه قويًا لا يخفي له طمعًا ولا يسيطر علىٰ شهوة ، لو قِسْتَ غرائزه المُنْفَلِتَةَ بغرائز مضبوطة لأشخاصٍ غيره ما بلغت عشر قوتها ؛ لكنها عند الكريم وجدت زمامًا من الرشد فكظمها ، وعند اللئيم لم تجد عقلًا يردع ، ولا خلقًا يعصم ، ولا نفسًا تَرْعَوِي ؛ فثارت وتمرّدت .

وقد كانت رجولة محمد ﷺ في القمة ؛ بَيْدَ أن قواه الروحية وصفاءه النفسي جعلا هذه الرجولة تزدان بمحامد الأدب والاستقامة والنزاهة ، ثم إنه ﷺ كان معافىً من العُقَد الكريهة التي تزيِّن للشاب مطاردة الشهوات طلبًا لهوىٰ النفس ، أو تعشُّق العظمة عن طريق التظاهر والرياء ، أو تطلُّب الرياسة عن طريق المداهنة واشتراء العواطف .

فإذا انضم لهذا كرهه الشديد للأصنام التي عكف عليها قومه ، وازدراؤه للأوهام والأهواء التي تسود الجزيرة وما وراءها ، وإدراكه أن الحق شيء آخر وراء هذه الخرافات الغالبة . . تبين لك السر في استئناسه للجبال والفضاء ، واستراحته إلىٰ رعي الغنم في هذه النواحي القصية ، مكتفيًا بالقليل الذي يعود عليه من كسبها ، ليس زهدًا في المال أو إعراضًا عن الحياة الدنيا ؛ وإنما انشغالاً بالحقائق العليا التي تصلح بها الحياة ، ويسخِّر فيها المال لخدمة الأهداف العليا السامية لهذه الحياة ، والرجال الكبار لا تُشْبِعُهم كنوز الذهب والفضة إذا ظمئوا إلىٰ الحق ، ولا يريحهم أن يكونوا ملوك قومهم أو ملوك الحياة ، إذا رأوا المساخر الشائنة تسيرُ بالحياة كلها إلىٰ منحدرٍ تسقط فيه أقدارُ الناس ، وتتعرّىٰ فيه الدنيا جمعاء من كل خير وبِرٍّ .

وبالرغم من ذلك لم ينقطع محمد ﷺ عن قومه في أعمالهم الجماعية إذا كانت تتعلق بالتعاون علىٰ خير يقومون به ؛ فإذا كانوا علىٰ أمر جامع ذهب إليه ، وشارك فيه ما وسعته المشاركة من غير أن يرضىٰ بباطل ، أو من أجل أن يدافع عن حق ؛ فكان دائمًا مع الحق يستبشر به ، وضد الباطل يأباه في نفسه ولا يشغل به رأسه بل ينكره في نفسه ، من غير صخب ولا شحناء مع أحد من البشر ؛ فما كانت الشحناء من شأنه ، ولا المباغضة من خُلُقه ؛ بل هو في كل أحواله الودود الحليم ، ذو النفس الطيبة الواسعة ؛ فكان يحضر دار الندوة إذا انعقدت ويستمع إلىٰ كُبَراءِ العرب ، فما يرضيه من قول الحق يستشرفُ إليه ويستبشرُ به ، وما لا يكون حقًّا يبدو نفورُهُ منه ، ولا يرتضيه .

حضر في إحدىٰ المرات في دار الندوة ندوةً لقريش ، وقد حضر من اليمن كبارهم ، فنظر إليه قَيْلٌ من أقيالهم ، ورأىٰ فيه نظرات قوية أحيانًا ، وهادئة مستبشرة أحيانًا أخرىٰ ، فقال : «مالي أرىٰ هذا الغلام ينظر إليكم نظرتين ، والله لو أن نظرته الأولىٰ كانت سهامًا لانتظمت أفئدتكم ، فؤادًا فؤادًا ، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيمًا لأنشرت أمواتكم» .

هكذا لم يكن منقطعًا عن الحياة الجماعية ؛ إذ إنه سيكون رسولاً إلىٰ الخلق كافَّة يدعو إلىٰ الرحمة والمحبة وتأليف الجماعات ، فلابد أن يكون بينهم في الكريهة والرخاء ، لا يفترق عنهم إلا إذا كانوا علىٰ إثم ، فإنه يجانبه من غير مباعدة كُلِّيَةٍ لأهله ؛ بل يهديهم إلىٰ الحق ، واجتناب الأذىٰ والباطل والشر .

وهكذا عاش رسول الله ﷺ هذه المرحلة السَّنِيَّة من عمره يتعلم ويشارك ويعمل بيده ويكتسب رزقه ، ويتقدم به السن ، ويتقدم هو على قريش في كل شيء من العلم والرزانة والخلق إلا المال ، فلم يرد الله أن ينشأ محمد ﷺ في أسرة ثرية مرفَّهة فيخرج مُدَلَّلًا ؛ فإن ذلك ينافي المهام الصعبة والخشنة في الدعوة والتي تتطلب تربية من نوع آخر ؛ لكن هاهنا بدا شيء آخر يَنْقص كل رجل ، ويتطلع إليه كل إنسان ، وهو الزواج . . فكيف كان زواجه ﷺ ؟

الزواج

لم يُعرَفْ أن محمدًا ﷺ تكلم في صغره ولا في باكورة شبابه في أمر الزواج، ولا طلبه ولا سعىٰ إليه إلا بعد أن نُبِّهَ إليه ﷺ، وصار ﷺ مطلوبًا، فلم يكن قط طالبًا له..

بلغ محمد ﷺ سن الزواج؛ ولكنه لم يتزوج في سن مبكرة كغيره من الشباب بل استمر لا يتجه إلىٰ الزواج، أو لا يفكر فيه حتىٰ بلغ الخامسة والعشرين.

وهنا يبدو سؤال مهم وهو:

لماذا لم يفكر محمد ﷺ في الزواج من قبل هذا السن؟

والجواب: أن رسول الله ﷺ كان عفًّا كريمًا، حتىٰ أنه لم يقع منه في طفولته حتىٰ ما يَشِينُ الكرام، بل قد عصمه الله عَزَّوَجَلَّ يوم همَّ - وهو طفل - أن يلهو بالوقوف عند عُرْس؛ حتىٰ لا يغشىٰ حرامًا، فصانه الله بأن ضرب علىٰ أذنه فنام، نام تلك الليلة كلها حتىٰ أيقظته الشمس في ضحاها.

وهو ليس حصورًا، كما دلت علىٰ ذلك حياته من بعد، وما كان خاملًا في قومه؛ بل هو الذي إذا خطب لا تُرد خطبته، وكان فيه خلقٌ قويم يجعل القلوب تهفو إليه، وفيه جمال أيضًا يجعل الأنظار تتعلق به وتشرئب الأعناق إليه، وفوق كل ذلك قريش كلها تحبه وترضاه بل وتتمناه صهرًا.

لكن هل كان فقيرًا مُعْدِمًا لا يجد ما يَبُوءُ به علىٰ أهله؟

كلا بل كان مَكْفِيًا، نعم إنه لم يكن غنيًا، ولكنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملًا، فقد رعىٰ الغنم، ثم اتَّجر، وإذا كان الاتِّجار لم يرفعه إلىٰ الثراء، فقد كان فيه الاكتفاء.

فلماذا إذن تأخر في الزواج؟

إن الذي نلمسه من تاريخ حياته ﷺ في ابتدائها ، منذ طفولته حتىٰ صار شابًا ممتلئ الشباب ؛ أنه ما كان يُعيرُ شهوات البدن اهتمامًا ؛ فليس للنساء موضعٌ في تفكيره ؛ وذلك لأنه بالنساءِ والطعامِ إنما يُشْغِلُ القلبَ الفارغُ ، وما كان محمد ﷺ في أي دور من أدوار حياته تشغل قلبَه لذاتُ الجسم ، وشهواتُ النفس ، لا عن ضعف في النفس ، ولكن عن قوة فيها ، وهمة عالية تتجه إلىٰ معالي الأمور ، وعزيمة صادقة ، وإرادة قوية ، لا تجعل لِلَّهْوِ سلطانًا عليها ؛ بل تجعل كل العواطف تحت سلطانها ، والغايات العليا هي التي تجذبها ، فلا تجذبه امرأة مهما يكن فيها من جمال ، ولا تستولي علىٰ نفسه أية غاية يتغيّاها تتعلق بالبدن ، ولا أيّ مطلب من مطالب الجسد ، ولم يكن يتجه إلىٰ ذلك في ذاته كما لم يقصده أو يتطلبه .

وكأنه ﷺ كان لا يعيش إلا في حياة زُوحية ، فهو لا يشعر بشيء من الاحتياج أو الحاجة الشهوانية ، فليست نفسه مثقلة بهموم الجسد ، وإن شئت قلت : إنه الملَك المُريد المُكَلَّف ، الذي لا يعصي الله ؛ لأنه يريد ألا يعصي ؛ فليس هو الذي لا يعصي لامتناع المعصية عليه كالملائكة ، بل هو الذي لا يعصي لأنه يكف النفس عنها كنبلاء البشر ، فله في الكف فضل ، وليس كالملائكة يمتنع عليه العصيان ؛ وإنما يترك العصيان أَنَفَةً ، ولا يريد العصيان تعاليًا عليه ! !

وكما صنع الله لمحمد ﷺ في كل أموره طيلة حياته ، دَبَّر له أمر الزواج أَحْسَنَ تدبيرٍ وأَتَمَّ تدبيرٍ .

وتعال لأسوق لك السياق منذ البداية،

اشتهر محمد ﷺ في مكة كلها بالأمانة والخلق الكريم ، وتحدثَ بأمانته أهلُ مكة في سَمَرِها ومجالسها ، وكان قد مارس التجارة في دائرة محدودة في داخل مكة علىٰ قدر طاقته وقدر ما يملك ، وإنه لقليل ، وكان في مكة امرأة أرملة ثَرِيَّة من سيدات قريش المرموقات ، وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّىٰ ابن قُصَيّ ، امرأة حازمة جَلْدة شريفة ، أوسط قريش نسبًا وأكثرهم مالاً .

وقد كان لخديجة مالٌ كثير، حتىٰ إن عِيرَها التي تحمل بضائعها، كانت تكاد تعادل أحيانًا عير قريش كلها في حجمها، ونفاسة ما اشتملت عليه من بضائع التجار، وكانت حكيمة حصيفة في قومها، تحتفظ بجمال وشباب، وكانت أرملة لرجلين متتاليين قد ماتا عنها، وما كانت تتولىٰ تجارتها بنفسها؛ لأن ذلك لم يكن شأنًا من شئون النساء؛ بل السفر والترحال للاتجار كان من شئون الرجال.

وكانت خديجة مع قوة شخصيتها ولهذه الاعتبارات أيضًا، لا تذهب بتجارتها إلىٰ الشام، بل كانت تسلك إحدىٰ طريقتين:

إحداهما: أن تؤجر أناسًا يكونون وكلاء عنها في التجارة علىٰ أجر معلوم تعطيهم إياه، علىٰ مقدار ما يبذلون من جهد في الرحلة، يبيعون ويشترون باسمها، ولا شأن لهم في كسب التجارة، وإنما لهم أجر معلوم يأخذونه كَسَدت التجارة أو ربحت، وأجرهم مقدر بالأمانة، أو بالعمل، أو بهما معًا.

الثانية: طريقة المضاربة الشرعية، وذلك بأن يتجروا في المال بعقد بينها وبينهم، علىٰ أن يكون الربح بينها وبينهم مقسومًا بحصص شائعة كالربع أو الثمن أو السدس، أو نحو ذلك، وملكيتها قائمة، وإذا خسرت التجارة تكون الخسارة عليها وحدها؛ لأن المال باق علىٰ ملكيتها، ويسمىٰ هذا العقد: المضاربة أو القِرَاضُ.

ولا شك أن الطريقتين كانتا تحتاجان إلىٰ أمانة كاملة، فكانت تتحرىٰ في أولئك العاملين الأمانة الشديدة؛ لأنهم في عملهم ينوبون عنها، ولا تلقاهم إلا عند ذهابهم ومجيئهم، وكانت مع ذلك ترسل من قِبَلِهَا من يكون معهم كَمَيْسَرَة مولاها.

ولما كان محمد ﷺ يعمل في تجارة محدودة، وقد بلغها أمانته، وشرفه، وعفته، واستقامة نفسه؛ اتجهت إليه، وكان هو محط أنظارها، والظاهر أنه بمجرد أن خطر علىٰ خاطرها، لم ترض غيره بديلًا؛ لأنه لم يكن له نظير

بين العرب ؛ في أمانته ، وعفته ، وشرف نفسه ، وخلقه الكريم ، وأدبه الجم ، ويُبْعده عن التدلِّي إلىٰ مهوىٰ الرذيلة .

فأرسلت إليه خديجة وقالت له : يا ابن عمي ، إني قد رغبت فيك أن تخرج لتجارتي هذه لقرابتك ، وسِطَتِكَ (شرفك ورفعتك) في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، وأعطيك أفضل مما أعطيتُ غيرك من التجار .

وعند هذا العرض الكريم أعلن القبول ، فأعطته مالها ، وأرسلت معه غلامها ميسرة ، فرحل ﷺ إلىٰ الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة مرتين ، فحالفه التوفيق وعاد إلىٰ خديجة بأرباح مضاعفة ، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم ترَ قبل هذا ، ورأت في شخصه من الأمانة التامة والنبل العظيم ما لم ترَ في غيره ، وكذلك أخبرها غلامُها ميسرةُ ببعض ما رأىٰ من خصائص النبي ﷺ وعظيم أخلاقه مما ملأ قلبه دهشةً له وإعجابًا به ؛ فثبت كل ذلك في قلبها أيضًا ؛ وهنا وقع في نفس خديجةَ أمرٌ : قررت أن تعرض عليه الزواج منه .

خير زوجة لخير زوج :

وخديجة مثلٌ طيب للمرأة التي تكْمُل بها حياة الرجل العظيم ، وإن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية ، ويلقون غَبْنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون نشره ، وهم أحوج ما يكونون إلىٰ من يتعهد حياتهم الخاصة بالراحة والترفيه ، بل الإدراك والمعونة! وحقًا كان محمد ﷺ يحتاج إلىٰ امرأة من هذا النوع ، وكانت خديجةُ سَبَّاقَةً إلىٰ هذه الخصال ، وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم ، إنها امرأة عريقة النسب ، ممدودة الثروة ، وقد عُرِفت بالحزم والعقل ، ومثلها مطمعٌ لسادة قريش لولا أن السيدة خديجة كانت تحقر في كثير من الرجال أنهم طلاب مال لا طلاب نفوس ، وأن أبصارهم ترنو إليها بُغْيَةَ الإفادة من ثرائها وإن كان الزواج عنوان هذا الطمع!

لكنها عندما عرفت محمدًا ﷺ وجدت ضربًا آخر من الرجال؛ وجدت رجلًا لا تستهويه ولا تدنيه حاجة، ولا ينظر إلىٰ مالها ولا يطمع في ثرائها؛ بل عاملها وكأنه لا يرىٰ هذا كله، ولعلها عندما حاسبت غيره في تجارتها وجدت الشُّحّ والاحتيال، أما مع محمد ﷺ فقد رأت رجلًا توقفه كرامته الفارعة موقف النُّبل والتجاوز.

فما تطلَّع إلىٰ مالها ولا إلىٰ جمالها، لقد أدَّىٰ ما عليه ثم انصرف راضيًا مرضيًا.

مراسم الزواج المبارك:

ووجدت خديجة ضالتها المنشودة؛ فتحدثت بما في نفسها إلىٰ صديقتها (نُفيسة بنت مُنْيَه) وهذه ذهبت إلىٰ محمد ﷺ تفاتحه أن يتزوج من خديجة، فلم يُبطِئ في إعلان قَبوله، ثم كلَّم أعمامه في ذلك، فذهب أبو طالب وحمزة وغيرهما إلىٰ عم خديجة عمرو بن أسد - إذ إن أباها كان قد مات في حرب الفِجَار - وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليها الصداق عشرين بَكْرَة، والبكرة هي الناقة.

ويوم العقد اجتمع رؤساء مُضَر، وكبراء مكة وأشرافها لإتمام العقد، وكان وكيل الزوجة عمُّها، وأبو طالب كان المتكلم باسم محمد ﷺ، وقف أبو طالب خطيبًا وقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضِئْضِئ (أصل) مَعَدٍّ، وعنصر مُضَر، وجعلنا حَضَنَةَ بيته، وسُوَّاس حرمه، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحاكم علىٰ الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، وإن كان في المال قُلٌّ (قِلَّة) فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وقد بذل لها من الصداق ما آجِلُه وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهبًا وَنشًّا (نصف أوقية)، وهو والله بعد هذا له نبأٌ عظيم، وخطرٌ جليل.

ثم وقف بعد ذلك ورقة بن نوفل ، ويظهر أنه كان له ما يسوغ أن يعقد مِنْ قِبَلِها ، وخطب قائلاً فقال : الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفَضَّلَنَا علىٰ ما عددت ، فنحنُ سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لا تُنكِر العشيرةُ فضلَكم ، ولا يردُّ أحدٌ من الناس فخرَكم ولا شرفَكم ، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم ، وشرفكم ؛ فاشهدوا - يا معشر قريش - بأني قد زوجتُ خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله .

ولكن أبا طالب أراد أن يتكلم عمُّها بالقَبول ؛ لأنه أقرب إليها من ورقة ، فقال: قد أحببت أن يشركك عمُّها ، فقال عمها : اشهدوا يا معاشر قريش ، أني قد أنكحت محمدَ بن عبد الله خديجةَ بنت خويلد ، وشهد علىٰ ذلك صناديدُ قريش ، ومن هذا كله يتبين أن الذي تولىٰ تزويجها عمُّها عمرو بن أسد ، وشَرَكه ابنُ عمِّها ورقة بن نوفل .

الحياة الزوجية لخير البرية ﷺ

كان محمد ﷺ في الخامسة والعشرين عندما تزوج خديجة ، وكانت هي قد ناهزت الأربعين ، وظل هذا الزواج قائمًا حتىٰ ماتت خديجة عن خمسة وستين عامًا ، كانت طوالها محل الكرامة والإعزاز ، وقد أنجب محمد ﷺ أولاده جميعًا منها ما عدا إبراهيم ، ولدت له أولاً القاسم وبه كان يُكنىٰ حتىٰ بعد النبوة ، ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله -يلقب بالطَّيِّب والطاهر- ، ومات القاسم بعد أن بلغ سنًا تمكنه من ركوب الدابة والسير علىٰ النجيبة (الناقة) ، ومات عبد الله وهو طفل ، ومات سائر بناته في حياته ﷺ ، إلا فاطمة فقد ماتت رضي الله عنها بعده بستة أشهر فلحقت به .

كان زواج محمد ﷺ بخديجة خيرًا لها وله ، ولا شك أن هذا البيت الجديد قد اصطبغ بروح ربِّ البيت ، روح التطهر من أدران الجاهلية ، والترفُّع عن تقديس الأوثان .

وقد استأنف محمد ﷺ ما ألفه بعد زواجه من حياة التأمل والعزلة ، وهجر ما كان عليه العرب في أحفالهم الصاخبة من إدمان ولهو ولغو وقمار ونفار وشجار ، وإن لم يقطعه ذلك عن إدارة تجارته ، وتدبير معايشه ، والضرب في الأرض والمشي في الأسواق ، ولا شك أن حياة الرجل العاقل وسط جماعة طائشة تقتضي ضروبًا من الحذر والرويّة ، وخصوصًا إذا كان الرجل على خلق عظيم يتقاضاه لين الجانب وبسط الوجه .

ولك أن تتأملَ كيف وُلد محمدٌ ﷺ يتيمًا ، وعاش يتيمًا ، ثم آتاه الله الذراع العامل ، وكفاه العيش الكادح ، رعىٰ الغنم ودبَّر التجارة ، ثم بسط الله له الرزق ، وآتاه الزوجة الوفية الرضية ، فأكمل الله بها إنسانيته ، وأكمل لها أمومتها ، وتوافقا في قطع فيافي هذا الوجود ، وكَمَّلَ كلٌّ منهما ما ينقصه بما عند الآخر ، هي امرأة شريفة ، ذات ثراء ، وهو رجل مكتملٌ عامل قوي أمين ، فأغناها بأمانته ، وكفلها برجولته ، ووجَّه مالها إلىٰ الخير ، بحسن نيته وطيب طويّته ، وإذا كان قَدْ فَقَدَ عطف الأم الرءوم في صدر حياته في وقت الحاجة ، فقد عوضه الله خديجة زوجًا مخلصة وفية ، وأمًّا رءومًا حنونًا ، ورفيقة مُعينة علىٰ الحياة .

أغنىٰ الله اليتيم ، كان عائلًا فأغنىٰ ، فهل طغىٰ لما استغنىٰ ؟!
هل عبث وتلهىٰ ؟! هل اتخذ الحياة لهوًا ولعبًا ؟! هل أخذ في التكاثر والمكاثرة ؟!

لا شيء من ذلك كُلّه ؛ إنما يفعل ذلك من اتخذ المال غاية ، ولم يتخذه سبيلًا للخير وعونًا لأخيه الإنسان ، ومحمد ﷺ ما اتخذ المال بُغْيَةً يبتغيها ، ولا غاية يتطلع إليها ويتغياها ، فما أراد التكاثر ، وما عرفه في أي دور من أدوار حياته ؛ إنما اتخذه وسيلة للمكرُمات يقوم بها ، وللخير يُسديه .

فكان يُطعم الكَلّ ، ويُعين علىٰ نوائب الدهر ، ولا يجد ذا حاجة إلىٰ العون إلا أعانه ، ولا ذا خَصاصة إلا سَدَّهَا ، ولا ذا مَسْغَبَةٍ إلا أشبعه ، ولا ذا مَتْرَبَة إلا رفعه ، كان يبحث عن مواضع الحاجة ، فَيَرْأَبُ ثُلْمَتَهَا .

تلفَّت فيمن حوله ، فرأىٰ كافلَه وحبيبه أبا طالب في ضيقٍ وَعَيْلَة ، فجاء إلىٰ عمه العباس وكان ذا ثراء ، وقال له : هَلاَّ أخذنا بعض ولد أبي طالب ليتخفف من ضيق ، فعرضا عليه الأمر ، فقال : اتركا لي عَقِيلاً ، وخذا من شئتما ، فأخذ ﷺ عَلِيًا ، وأخذ العباسُ جعفرًا ، فكان عَلِيٌّ ولدَهُ الذي تربىٰ في مهد النبوة .

وكلُّ من حول محمد ﷺ كانوا ممدودين بعونه وفضله ، وخُلُقه ، فكأنه رُزِقَ مال خديجة ليوزع في الخير ثمراته وليكون خيرُهُ عميمًا ، وفضله كثيرًا ، فلما قالت له ما قالت يوم بدء الوحي ما كَذَبَتْ ولا جَامَلَتْ ، لقد قالت ما عرفت ، وشهدت بما علِمت ، حين قالت بصدقٍ : « إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ »[1] .

كانت قريش تكسب بالربا وبالبيع الحلال ، وتشبِّه أحدهما بالآخر ، فتقول : البيع مثل الربا ؛ ولكنَّ محمدًا كان ﷺ يتَّجر في الحلال ، ولا يكسب من إثم ، ويعين ويغيث به الملهوف ، والكسب مع ذلك وفير والرزق واسع .

وهكذا استمرت حياةُ رسولِ الله ﷺ بعد الزواج هادئة طيبة ، يشارك في الخيرات ، ويستعمل المال في المَكْرُمات ، ويتفضل علىٰ أهله وذويه ومن حوله بالطيبات ، ويعلو شأنه بين أهله وعشيرته ، وتتمخَّضُ الأيام دومًا عن أفضاله ومناقبه ، ويُقِرُّ الناس بطيب أصله وعنصره وطهارة مَحْتِدِهِ (أصله وطبعه) .

❊ ❊ ❊

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣) ، ك : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ، ومسلم (١٦٠) ، ك : الإيمان ، باب : بدء الوحي لرسول الله ﷺ .

بصائر

(١) كل إنسان يأخذ من أخلاق أبيه ويكتسبها ؛ فتنعكس تصرفات الأب من خير أو شر على الابن ، ولأن الأب بشر يخطئ ويصيب اختار الله عز وجل لرسوله ﷺ أن ينشأ يتيمًا ليتولى الله تعالى تربيته بنفسه .

(٢) الذكر الحسن في الناس إنما يعطاه المرء بقدر علو همته ، ويقظة روحه ، أما الخامل الكسول فليس له ذكر في الأرض ولا في السماء ؛ فأيُّ الرجلين أنت ؟!

(٣) العلم الذي ينفع صاحبه هو الذي يقوده إلى العمل وتزكو به نفسه ، أما مجرد حفظ النصوص مع العُرِيّ عن الأعمال فما ذلكم بعلم ؛ فاعمل بما علمت ؛ توفق للعلم ؛ فاطو هَمَّك في همتك ، واجعل سعيك لسعادتك ، وحوّل علمك لعملك ؛ تفز في الدارين .

(٤) لابد لكل عظيم من وقت يخلو فيه بنفسه يجمع فيه همه ويخلو فيه بربه ؛ فاحرص على هذه الخلوات واملأها بالذكر ؛ تُذكر في السماء بذكرك لربك .

(٥) الله يحفظ أولياءه ويمنعهم مما يضرهم في دينهم وإن كان مالاً أو عَرَضًا دنيويًا ؛ فحُفظ النبي ﷺ في طفولته ومُنع أن يسمع المعازف ؛ لأن رسالته العصماء جاءت لتقضي على اللهو ، وتُثَبِّت في الناس الجِد .

(٦) لكل صاحب مهنة حظ من مهنته ؛ فمن الناس من يعمل أعمالاً تدفعه إلى الكبر والرياء ، ومنهم من يعمل في مهنة تغرس فيه التواضع والقيادة ، وفي رعي الأغنام مدرسة لتعليم القادة الشجاعة والرحمة والتواضع والصبر .

(٧) كان أهل الكتاب يعرفون صفة النبي ﷺ كما كان أحدهم يعرف ولده ؛ فقد جاءت صفته ﷺ في التوراة والإنجيل ؛ بل وصفه أصحابه رضي الله عنهم أيضًا .

(٨) من مفاخر العرب النجدة ؛ حيث اتفق حلفهم (المطيِّبين) علىٰ نصرة المظلوم وحمايته ؛ فابذل الخير ؛ تكن من أهله .

(٩) مجالسة أهل الخبرة تكسب المرء من خبرتهم وتفيده من تجاربهم: فجالس الكبار ؛ تكن كبيرًا .

(١٠) الحفظ في الطفولة عونٌ علىٰ الاستقامة في الكبر ، فصيانة الأطفال من الحرام - وإن لم يكونوا مُكَلَّفِينَ - كسماع الموسيقىٰ ، ومشاهدة المعاصي ومخالطة العصاة ؛ حفظٌ لهم في الأصل ، فهذا حفظ لقلوبهم وعقولهم وأفكارهم وأذهانهم ، وكل ذلك نافع لهم في مستقبل أمرهم ؛ ولذا عُصِمَ النبي ﷺ طفلًا وشابًا قبل النبوة .

(١١) ينبغي لمن يحمل هم الدعوة أن يعلم أنه مسئولٌ عمن يرعاه ، وليس مطالب أن يحمي نفسه فقط ، وألا يكون همه نفسه فحسب ؛ وإنما شجاعته تكمن في إنجاء الأمة وإن تعرضت نفسه للتلف .

(١٢) في الأسفار توسيع للمدارك ، وإزالة للهموم ، وصقل للمعارف ، وتربية علىٰ الصبر ، وزيادة في الخبرات .

(١٣) المضاربة بالمال جائزة شرعًا ، وقد قام بها رسول الله ﷺ في شبابه ، ومعناها أن تعطي رأس المال لمن يتاجر به علىٰ أن يكون الربح مشتركًا بنسبة يتفق عليها الطرفان .

(١٤) لك في رسول الله ﷺ أسوة ، تَأَخَّرَ سن زواجه إلىٰ الخامسة والعشرين ، ثم تزوج ثيبًا ، فلا تستنكف أن تتزوج زيجة تحفظ بها نفسك من الفتن ، لاسيما إذا كانت ذاتَ دِينٍ .

(١٥) لقد عمل النبي ﷺ بساعده ، واكتسب المال الحلال ، وواجه شظف الصحراء ووعثاء الأسفار ، وما كان زواجه إلا من ماله .

فيا أيها الشباب ، أما لكم في رسولكم ﷺ أسوة؟!

مشاركة النبي ﷺ في بناء الكعبة

عاش رسول الله ﷺ بين أهل مكة عضوًا فعّالاً مؤثرًا في المجتمع، يشهد له الجميع بالخيرية والفضل، فما من أمر جامع قبل بعثته فيه خير في ذاته وللناس كافة؛ إلا اشترك فيه ﷺ بفضلٍ من المال والعمل.

واعلم -أخي الحبيب- أن قريشًا -بل العرب أجمعين- رغم تفرقهم الشديد وتعصبهم لأنفسهم وقبائلهم؛ إلا أنهم كان يربطهم رباطٌ جامعٌ لا ينكرونه ولا يُفَرِّطون فيه ولا يتنكرون له، رباط لا يَهِي ولا ينقطع؛ بل يتجدد آنًا بعد آنٍ ويزداد قوة ومتانة مع الزمن، وهو يتكون من عنصرين لا ثالث لهما:

أحدهما: الكعبة المكرمة التي بناها أبو الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام، وهي أول بيت وُضِع للناس، وجُعِلَ الحج إليها، وإقامة المناسك فيها.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَأَلَهُ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، فَقَالَ: «**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**»، قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الْمَسْجِدُ الأَقْصَىٰ**»، قال: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «**أَرْبَعُونَ عَامًا، ثُمَّ الأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ فَحَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ فَصَلِّ فَثَمَّ مَسْجِدٌ**»[1].

وجعل الله بقاء الكعبة علامة علىٰ بقاء الدين، قال عز وجل:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

ثانيهما: اعتقادهم أن الله عز وجل خالق السماوات والأرض، وقد كانوا حريصين علىٰ تلك الرابطة، لا يتركونها، ولا يقطعونها، وخصوصًا قريشًا؛

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣١٨٦)، ك: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، ومسلم (٨٠٩)، ك: المساجد ومواضع الصلاة.

إذ وجدوا فيهما عزهم الذي به يعتزون، وشرفهم الذي إليه يتنافرون أمام العرب جميعًا، فيجعل لهم سيادة وحكمًا على الجميع، وحسبهم أن العرب كانوا يتقاتلون إلا في أرضهم، فإذا جاءوا إليهم كانوا في حرم آمن، كما مَنَّ الله عز وجل عليهم بذلك فقال تعالت كلماته: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقد أصاب الوَهَنُ بناء الكعبة المشرفة، فأرادت قريش أن تجدد بناءها، وكان ذلك بعد عشر سنين من زواجه ﷺ من أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وكان النبي ﷺ قد بلغ الخامسة والثلاثين أي إنه كان رجلًا سويًا.

وقد كثرت الروايات والقصص حول بناء الكعبة المشرفة، واشتراك محمد ﷺ قبل بعثته في ذلك، وقد جمعتُ لك أشتاتها وأطرافها بأسانيدها الصحيحة جمعًا شاملًا كافيًا مع توثيق تلك الأسانيد وتوفيق السياق؛ لأنني عند عهدي معكم لا أنقل إلا ما صح إسناده وصدق قائله، فهلم إليه دون تعليق.

وصف الكعبة:

هذا الحديث أخرجه بطوله الأزرقي في تاريخ مكة (١/ ١٥٥) قال: حدثني جدِّي قال: حدثنا مسلم بن خالد الزَّنْجي عن أبي نَجيح قال: «جلس رجالٌ من قريش في المسجد الحرام فيهم حُويطب بن عبد العزَّىٰ، ومَخْرَمَةُ بن نوفل، فتذاكروا بنيانَ قريشٍ الكعبةَ وما هاجهم علىٰ ذلك، وذكروا كيف كان بناؤها قبل ذلك؛ قالوا:

كانت الكعبةُ مبنيَّةً برَضْم يابس (صُخورٌ عِظامٌ بعضُها فوق بعضٍ في الأبْنِيَةِ قد جفت) ليس بمَدَر (الطين الصلب) وكان بابُها بالأرض، ولم يكن لها سقفٌ، وإنما تُدَلَّىٰ الكسوة علىٰ الجُدُر من خارج وتربط من أعلىٰ الجدر من بطنها، وكان الركن الأسود موضوعًا علىٰ سورها تأدبًا، وكانت ذات ركنين كهيئة هذه الحلقة: ⊃، وكان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جُبٌّ (جِراب)،

يكون فيه ما يُهْدَىٰ إلىٰ الكعبة من مال وحِلْية ، كهيئة الخزانة ، وكان هناك علىٰ ذلك الجُبُّ حَيَّة تحرسه ، بعثها الله منذ زمن جُرْهُم (هي القبيلة التي جاورت هاجر وإسماعيل) ؛ وذلك أنه عدا علىٰ ذلك الجب قوم من جرهم ، فسرقوا مالها وحليتها ، مرة بعد مرة ، فبعث الله تلك الحية ، فحرست الكعبة وما فيها خمسمائة سنة ، فلم تزل كذلك حتىٰ بنت قريش الكعبة .

وكان قرنا الكبش - الذي ذبحه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الرحمن - معلقين في بطنها بالجدار تلقاءَ مَن دخلها ، يطيَّبان إذا طُيِّب البيت ، وكان فيها معاليق من حِلْيَةٍ كانت تُهْدَىٰ إلىٰ الكعبة ؛ فكانت علىٰ ذلك من أمرها .

ثم إن امرأة ذهبت تُجَمِّرُ الكعبة (تُطَيِّبها بطيب مشتعل) ، فطارت من مِجْمَرَتها شرارة ، فاحترقت كِسوتها ، وكانت الكِسوة عليها ركامًا ، بعضها فوق بعض ، فلما احترقت الكعبة تَوَهَّنَتْ جدرانها من كل جانب وتصدَّعت ، وكانت الخُرُفُ الأربعة عليهم مظللةً والسيولُ متواترة ، ولمكةَ سيولٌ عوارِم ، فجاء سيل عظيم علىٰ تلك الحال فدخل الكعبة ، وصدَّع جدرانها ، ففزعت من ذلك قريش فزعًا شديدًا ، وهابوا هدمها ، وخشوا إن مسُّوها أن ينزل عليهم العذاب .

قصة بناء الكعبة قبل البعثة:

فبينا هم علىٰ ذلك يتناظرون ويتشاورون إذ أقبلت سفينة للروم ، حتىٰ إذا كانت بالشُّعَيْبَةِ - وهي يومئذ ساحل مكة قِبَلَ جدة - انكسرت السفينة ؛ فسمعت بها قريش ، فركبوا إليها ، فاشتروا خشبها ، وكانت السفينة تريد الحبشة ، وأذنوا لأهلها أن يدخلوا مكة ، فيبيعون ما معهم من متاعهم علىٰ أن لا يَعْشُرُوهم ، وكانوا يَعْشُرُون من دخلها من تجار الروم ، كما كانت الروم تعشر (يَعْشُرُون : أي يأخذون عُشر ثمن التجارة ممن دخل منهم بلادهم) .

وكان في السفينة رومي نجار بنَّاء يسمىٰ «باقوم» ، فلما قدموا بالخشب مكة ، قالوا : لو بنينا بيت ربنا ، فأجمعوا لذلك وتعاونوا عليه وترافدوا في النفقة ،

وربّعوا قبائل قريش أرباعًا، ثم اقترعوا عند هُبَل في بطن الكعبة علىٰ جوانبها، فطار قدح بني عبد مناف وبني زهرة علىٰ الوجه الذي فيه الباب وهو الشرقي، وقدح بني عبد الدار وبني أسد بن عبد العزي وبني عدي بن كعب علىٰ الشق الذي يلي الحِجْر وهو الشق الشامي، وطار قدح بني سهم وبني جُمَح وبني عامر ابن لؤي علىٰ ظهر الكعبة وهو الشق الغربي، وطار قدح بني تَيْم وبني مخزوم وقبائل من قريش ضُمُّوا معهم علىٰ الشق اليماني الذي يلي الصفا وأجياد، فنقلوا الحجارة من الضواحي وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي.

ورسول الله ﷺ يومئذ لم ينزل عليه الوحي، ينقل معهم الحجارة علىٰ رقبته من أجياد وعليه إزاره، فبينما هو والعباس ينقلان الحجارة إذ ضاقت عليه النَّمِرَة (مِثْلَ السروال)، وكان قد انفردت قريش رجلين رجلين ينقلون الحجارة، فكان العباس وابن أخيه، وكانوا يضعون الأُزُرَ علىٰ مناكبهم، ويجعلون عليها الحجارة، فإذا دنوا من الناس لبسوها، فقال له العباس: يا ابن أخي، لو حللت إزارك فجعلته علىٰ منكبك دون الحجارة، فحلَّهُ وجعله علىٰ مَنْكِبِهِ، فبينما هو يمشي أمام العباس نودي: «يَا مُحَمَّد، عَوْرَتَكَ»، وذلك أول ما نودي والله أعلم، فما رُؤِيَ بعد ذلك عُريانًا، فَلُبِجَ (صُرِعَ) محمد ﷺ من الفزع حين نودي فسقط مغشيًا عليه، وخَرَّ إلىٰ الأرض، وطَمَحَتْ عيناه إلىٰ السماء، ثم أفاق، فقال: «إِزَارِي إِزَارِي»، فشد عليه إزاره، وقال له العباس: ما شأنك؟ فقال: «نُهِيتُ أَنْ أَمْشِي عُرْيَانًا»[(١)]، فكان العباس يكتمها الناس مخافة أن يقولوا: مجنون، ثم قال محمد ﷺ: «مَا أَصَابَنِي هَذَا إِلا مِنَ التَّعَرِّي»، فَشَدَّ محمدٌ ﷺ إزاره وجعل ينقل معهم.

وكانوا ينقلون الحجارة بأنفسهم تَبَرُّرًا (طاعة وبرًا) وتبركًا بالكعبة، فلما اجتمع لهم ما يريدون من الحجارة والخشب، وما يحتاجون إليه، غَدَوْا علىٰ هدمها، فخرجت الحية التي كانت في بطنها تحرسها، علىٰ سور البيت

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٢٩٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٨٣).

مثل قطعة الجائز (الخشبة المعترضة بين حائطين) سوداء الظهر، بيضاء البطن، رأسها مثل رأس الجَدْيِ، تمنعهم كلما أرادوا هدمها، فجعلت كلما دنا أحد من البيت ليهدمه، أو يأخذ من حجارته، سعت إليه فاتحةً فاها، فلما رأوا ذلك اعتزلوا عند مقام إبراهيم، وهو يومئذ بمكانه الذي هو فيه اليوم، فقال لهم الوليد بن المغيرة: يا قوم، ألستم تريدون بهدمها الإصلاح؟ قالوا: بلىٰ، قال: فإن الله لا يُهلك المصلحين، ولكن لا تُدْخِلُوا في عمارة بيت ربكم إلا من طيبِ أموالكم، ولا تُدْخِلُوا فيه مالاً من ربا، ولا مالاً من ميسر، ولا مَهْرَ بغي، وجنبوه الخبيث من أموالكم؛ فإن الله لا يقبل إلا طَيِّبًا.

ففعلوا، ثم وقفوا عند المقام، فقاموا يدعون ربهم، ويقولون: ربنا لم تُرَعْ، ربنا إنا أردنا عمارة بيتك، أردنا تشريف بيتك وترتيبه، فإن كنت ترضىٰ بذلك وإلا فما بدا لك، اللَّهُمَّ إن كان لك في هدمها رضًا فأتمه، واشغل عنا هذا الثعبان، فسمعوا خُوارًا في السماء فأقبل طائر من جو السماء كهيئة العُقاب أعظم من النسر، ظهره أسود، وبطنه أبيض، ورجلاه صفراوان، والحية علىٰ جدار البيت فاغرة فاها، فغرز مخالبه في قفا الحية فأخذ برأسها، ثم طار بها، حتىٰ أدخلها أجياد الصغير، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ قد رضي عملكم، وقَبِلَ نفقتكم فاهدموه.

فهابت قريشٌ هدمه، وقالوا: من يبدأ فيهدمه؟ فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمه، أنا شيخ كبير، فإن أصابني أمر كان قد دنا أجلي، وإن كان غير ذلك لم يرزأني (يصيبني)، فَعَلَا البيت وفي يده عَتَلَةٌ يهدم بها، فتزعزع من تحت رجله حجرٌ، فقال: اللَّهُمَّ لم تُرَعْ؛ إنما أردنا الإصلاح، وجعل يهدمه حجرًا حجرًا بالعتلة، فهدمه يومه ذلك، فقالت قريش: إنَّا نخافُ أن ينزل به العذاب إذا أمسىٰ، فلما أمسىٰ لم تر بأسًا، فأصبح الوليد بن المغيرة غاديًا علىٰ عمله، فهدمت قريشٌ معه حتىٰ بلغوا الأساس الأول، الذي رفع عليه إبراهيمُ وإسماعيلُ عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ القواعدَ من البيت، فأبصروا حجارة

كأنها الإبل الخَلِفَة (الحامل)، لا يطيق الحجر منها ثلاثون رجلاً، يُحَرّكُ الحجرُ منها فترتَجُّ جوانبها، قد تشبك بعضها ببعض، فأدخل الوليد بن المغيرة عتلته بين الحجرين فانفلقت منه فلقة عظيمة فأخذها أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، فَنَزَتْ (اضطربت) من يده حتىٰ عادت في مكانها، وطارت من تحتها بَرْقَةٌ كادت أن تخطف أبصارهم، ورجفت مكةُ بأسرها، فلما رأوا ذلك أمسكوا عن أن ينظروا ما تحت ذلك.

فلما جمعوا ما أخرجوا من النفقة، قَلَّت النفقة عن أن تبلغ بهم عمارة البيت كله، فتشاوروا في ذلك، فأجمع رأيهم علىٰ أن يقصروا عن القواعد، ويحجروا ما يقدرون عليه من بناء البيت، ويتركوا بقيته في الحِجْرِ، عليه جدار مُدَار، يطوف الناس من ورائه، ففعلوا ذلك، وبنوا في بطن الكعبة أساسًا يبنون عليه من شق الحِجْر، وتركوا ما وراءه من فناء البيت في الحِجْر ستة أذرع وشبرًا فبنوا علىٰ ذلك، فلما وضعوا أيديهم في بنائها، قالوا: ارفعوا بابها من الأرض، واكبسوها حتىٰ لا تدخلها السيول، ولا تُرقىٰ إلا بسُلَّم، ولا يدخلها إلا من أردتم، إن كرهتم أحدًا دفعتموه.

ففعلوا ذلك، وبنوها بسافٍ (صف) من حجارة، وسافٍ من خشب بين الحجارة حتىٰ انتهوا إلىٰ موضع الركن، وما يرىٰ الحَجَرَ أحدٌ؛ فإذا هو وسط الحجارة مثل رأس الرجل، يكاد يتراءىٰ منه وجه الرجل، فاختلفوا في وضعه وكثر الكلام فيه، وتنافسوا في ذلك؛ فقالت بنو عبد مناف وزهرة: هو في الشق الذي وقع لنا، وقالت تَيْم ومخزوم: هو في الشق الذي وقع لنا، وقالت سائر القبائل: لم يكن الركن مما اسْتَهَمْنَا (اقترعنا) عليه، حتىٰ كاد أن يكون بينهم قتالٌ بالسيوف، فقال أبو أمية بن المغيرة: يا قوم، إنما أردنا البِرَّ، ولم نُرِد الشر، فلا تحاسدوا، ولا تنافسوا؛ فإنكم إذا اختلفتم تشتتت أمورُكم، وطَمِعَ فيكم غيركم؛ ولكن حكِّموا بينكم أول من يطلع عليكم من هذا الفَجّ، قالوا: رضينا وسلَّمنا.

رسول الله ﷺ يتولى وضع الحَجَر الأسود في مكانه.

فطلع رسول الله ﷺ من باب بني شَيْبَة ، فقالوا: «هذا الأمين ؛ قد رضينا به فحكِّموه» ، فبسط رداءه ثم وضع فيه الركن ، فدعا من كل رُبُعٍ رجلًا ، فأخذوا بأطراف الثوب ، فكان من بني عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زَمْعَة بن الأسود وكان أَسَنَّ القوم ، وفي الربع الثالث العاص بن وائل ، وفي الربع الرابع أبو حذيفة بن المغيرة ، فرفع القومُ الركن ، وقام النبي ﷺ على الجدار ثم وضعه بيده ، فذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي ﷺ حجرًا ليشد به الركن ، فقال العباس بن عبد المطلب : «لا» ، فناول العباسُ النبيَّ ﷺ حجرًا فشدَّ به الركن ، فغضب النجدي حيث نُحِّيَ وقال : «واعجباه لقومٍ أهل شرف ، وعقول ، وسن ، وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سنًّا ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحوزهم ، كأنهم خدمٌ له!! أما والله ليفوتنهم سبقًا ، وليقسمنْ عليهم حُظوظًا وجُدودًا!!» .

أحداث البناء.

فبنوا حتى رفعوا أربعة أذرع وشبرًا ، ثم كبسوها ووضعوا بابها مرتفعًا على هذا الذراع ، ورفعوها بمِدْمَاك (طبقة أو سطر) خشب ومدماك حجارة ، حتى بلغوا السقف ، فقال لهم باقوم الرومي: أتحبون أن تجعلوا سقفها مكبسًا أو مسطحًا؟ فقالوا: بل ابنِ بيت ربنا مسطحًا ، فبنوه مسطحًا وجعلوا فيه ست دعائم في صفين ؛ في كل صف ثلاث دعائم ، من الشق الشامي الذي يلي الحِجر إلى الشق اليماني ، وبين العمودين من السطر المقدم مرمرة حمراء كما نقطت في هذا التربيع : [⁚ ⁚] وجعلوا ارتفاعها من خارجها من الأرض إلى أعلاها ثمانية عشر ذراعًا ، وكانت قبل ذلك تسعة أذرع ، فزادت قريش في ارتفاعها في السماء تسعة أذرع أُخَر ، وبنوها من أعلاها إلى أسفلها بمِدْمَاك

من حجارة، ومِدْمَاك من خشب، وكان الخشب خمسة عشر مدماكًا، والحجارة ستة عشر مدماكًا، وجعلوا ميزابها يسكب في الحِجر، وجعلوا درجة من خشب من بطنها في الركن الشامي يُصعد منها إلىٰ ظهرها.

وزوَّقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها، وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء، وصور الشجر، وصور الملائكة، فكان فيها صورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الرحمن عَزَّوَجَلَّ شيخ يستقسم بالأزلام! وصورة إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي يده الأزلام! وصورة عيسىٰ ابن مريم وأمه، وكان تمثال مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ مزوقًا وفي حجرها عيسىٰ ابنها قاعدًا مزوقًا، في العمود الأوسط من الأعمدة اللاتي تلين الباب، وصورة الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أجمعين، وكان فيها حمامة من عَيْدَان، وجعلوا لها بابًا واحدًا، فكان يغلق ويفتح، وكانوا قد أخرجوا ما كان في البيت من حلية ومال وقرني الكبش وجعلوها عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزىٰ ابن عثمان بن عبد الدار بن قصي، وأخرجوا هُبَل وكان علىٰ الجُبِّ الذي نصبه عمرو بن لحي هنالك، ونُصب عند المقام، حتىٰ فرغوا من بناء البيت فردوا ذلك المال في الجب، وعلقوا فيه الحلية وقرني الكبش، وردوا الجب في مكانه فيما يلي الشق الشامي، ونصبوا هبل علىٰ الجب كما كان قبل ذلك، وجعلوا له سُلَّمًا يصعد عليه إلىٰ بطنها، وكسوها حين فرغوا من بنائها حَبِرَات (أثواب مخططة) يمانية، ولم يكن حول البيت حائط وكان حوله ثلاثمائة وستون صنمًا.

وكان بين بناء الكعبة وبين ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ رسوله ﷺ خمس سنين.

وكان في الكعبة حِلَقٌ أمثال لُجُم البَهْم (جمع لجام البهيمة)، يُدْخِلُ الخائف فيها يده فلا يريبه أحد، وحدث مرة أنهم كانوا قعودًا في فناء الكعبة، إذ جاءت امرأة خائفة لتدخل يدها تعوذ بالكعبة من زوجها، فجاء زوجها فمد يده إليها فاجتبذها، فيَبِسَتْ يدُه، وبقي إلىٰ أن جاء الإسلام وهو أَشَلُّ.

وكان المقام إذ ذاك ملصقًا بالكعبة ، ووجد في المقام كتاب فيه : «هذا بيت الله الحرام بمكة ، توكل الله برزق أهله من ثلاثة سبل ، مبارك لأهله في اللحم والماء واللبن ، لا يحله أول من أهله» ، ووجدوا كتابًا أسفل المقام ، فدعت قريش رجلاً من حِمْيَر ، بعد بعثة النبي ﷺ فقال : إن فيه لحرفًا ، لو أحدثكموه لقتلتموني ، قال الأسود بن خلف بن عبد يَغُوث : فظننا أن فيه ذكر محمد فكتمناه .

وَوُجِدَ حَجَرٌ نُقِشَ عليه : «أنا الله ذو بكة الحرام (صاحب مكة البلد الحرام) ، وضعتها يوم صُغْتُ الشمسَ والقمرَ ، وحَفَفْتُهَا بسبعة أملاك حنفاء ، لا تزولُ حتىٰ تزولَ أخشابُها (جبالها) ، مباركٌ لأهلها في اللحم والماء» .

لقد أتموا بناء البيت الحرام ، وكان ارتفاعه الذي بنوه ثمانية عشر ذراعًا وأخرجوا منه الحِجْر ، وهو ستة أذرع ، أو سبعة من ناحية الشام ؛ لأنهم قد قصرت نفقتهم فلم يتمكنوا أن يبنوه علىٰ قواعد إبراهيم عليه السلام .

هكذا تمت الرواية من كتب السيرة والتاريخ ولا تعليق ؛ فإنها مفصلة ومدعمة برسوم من كتاب تاريخ مكة للأزرقي بسنده إلىٰ أبي هريرة رضي الله عنه، وإلىٰ أبي الطُّفَيْل عامر بن واثِلَة الصحابي رضي الله عنه.

لماذا قصرت النفقة بقريش؟

وقد يسأل سائل : المفترض أن قريشًا كانوا من أغنياء العرب ، ويجوارهم ثَقِيف وهم أغنياء ، وكان من الممكن أن يعلنوا اكتتابًا عامًا يجمعون به ما يريدون ، فكيف تقصر بهم النفقة عن البناء ؟

والجواب عن ذلك أنهم لم يُشْرِكوا العرب في بنائهم ؛ ليبقىٰ لهم الاختصاص بسَدَانة البيت وشرفه ، وإنشائه ، وفوق ذلك هم أرادوا ألا ينفقوا في بنائه إلا بمال مكسوب من طَيِّبٍ حلال ، وليس بمكسوب مما يجري فيه كسب خبيث أو فيه شبهة خبث قط ، ويظهر أن الطيب من المال عندهم لم يكن كثيرًا ؛ إذ كَثُرَ فيهم الربا والميسر وثمن الخمر وغير ذلك ، ومن الصعب إخراج الطيب من بين هذا كله .

أهم ما تعاقب على الكعبة من الهدم والبناء:

بُنِيَت الكعبةُ خلال الدهر كلّه أربع مرات بيقين، ووقع الخلاف والشك فيما قبل هذه المرات الأربع.

فأما المرة الأولى منها: فهي التي قام بأمر البناء فيها إبراهيم عليه السلام يعينه ابنه اسماعيل عليه السلام؛ وذلك استجابةً لأمر ربه عز وجل، ثبت ذلك بصريح الكتاب والسنة الصحيحة؛ أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وأما السُّنة فقد وردت أحاديث كثيرة، منها ما رواه البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما وجاء فيه: «ثم قَالَ -أي إبراهيم عليه السلام-: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ (هضبة) مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾»[1].

ونقل الزَّرْكَشي عن تاريخ مكة لِلأَزْرَقِي أن إبراهيم عليه السلام جعل طول بناء الكعبة في السماء سبعة أذرع، وطولها في الأرض ثلاثين ذراعًا، وعرضها في الأرض اثنين وعشرين ذراعًا، وكانت بغير سقف، وحكى السُّهَيْلي أن طولها في السماء كان تسعة أذرع.

وإن الذي يتصور كيف كان بناء الكعبة في البداية طولاً وعرضًا وارتفاعًا، ويعلم أن الذي رفع هذا البناء شيخ وصبي؛ يتبين له الجهد العظيم المبذول لرفع الكعبة.

فصلِّ الله وسلم وبارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنه حميد مجيد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٨٤)، ك: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

وأما المرة الثانية : فهي تلك التي بنتها قريش قبل الإسلام ، واشترك في بنائها النبي ﷺ كما ذكرنا ، فجعلوا طولها في السماء ثماني عشرة ذراعًا ، ونقصوا من طولها في الأرض ستة أذرع وجزءًا من الذراع ، تركوها في الحِجْر .

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ فيما روته عنه عائشة رضي الله عنها : «يَا عَائِشَةُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًا وَبَابًا غَرْبِيًا وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتْ الْكَعْبَةَ» ، وفي رواية : «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَةٍ لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ»[1] .

وأما المرة الثالثة : فقد كانت عندما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزتها جيوشُه ، وخلاصة ذلك أنهم حاصروا عبدَ اللهِ بن الزُّبير بمكة في آخر سنة ستٍّ وثلاثين بأمرٍ من يزيد ، ورَمَوْا البيت بالمَنجنيق ؛ فتهدَّم واحترق ، فانتظر ابن الزبير حتىٰ قدم الناس المَوْسم فاستشارهم قائلاً : أيها الناس ، أشيروا عليَّ في الكعبة ، أنقضُها ثم أبني بناءها؟ أو أُصْلِحُ ما وَهَىٰ منها؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما : أرىٰ أن تُصْلِحَ ما وَهَىٰ منها ، وتدعَ بيتًا أسلمَ الناسُ عليه ، وأحجارًا أسلم الناس عليها ، فقال ابن الزبير : لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتىٰ يُجِدَّه ، فكيف بيت ربكم؟ إني مستخيرٌ ربي أولاً ، ثم عازم علىٰ أمري .

ثم باشر نقضه بعد ثلاثة أيام حتىٰ بلغوا به الأرض ، فأقام ابن الزبير أعمدة من حوله وأرخىٰ عليها الستور ، ثم باشروا في رفع بنائه ، وزاد فيه الأذرع الستة التي قد أخرجت منه ، وزاد في طوله إلىٰ السماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين أحدهما يدخل منه والآخر يُخرج منه ، وإنما جرَّأه علىٰ هذه الزيادة حديث عائشة رضي الله عنها السابق عن رسول الله ﷺ .

---

(١) الروايتين لمسلم (١٣٣٣) ، ك : الحج ، باب : نقض الكعبة وبنائها .

وأما المرة الرابعة : فقد كانت بعد مقتل ابن الزبير ، روىٰ الإمام مسلم بسنده عن عطاء أنه لما قُتِلَ ابنُ الزبير كتب الحجاج إلىٰ عبد الملك بن مروان يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء علىٰ أسٍّ نظر إليه العدول من أهل مكة ، فكتب إليه عبد الملك : إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ، أمَّا ما زاد في طوله فأقره ، وأما ما زاد فيه من الحِجْر فرده إلىٰ بنائه ، وسُدَّ البابَ الذي فتحه ؛ فنقضه وأعاده إلىٰ بنائه الأول الذي كانت بَنَتْهُ قريش .

قالوا : وقد عزم الرشيد بعد ذلك علىٰ أن ينقضها ويعيدها كما بناها ابن الزبير ، فقال له مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ : أَنْشُدُكَ الله يا أمير المؤمنين ، لا تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك من بعدك ، لا يشاء أحد منهم أن يُغَيِّرَهُ إلا غيَّره ؛ فتذهبَ هيبتُه من قلوب الناس ، اتركه كما هو ؛ فصرفه عن رأيه فيه .

قريش والحرم :

من هذا نرىٰ أن قريشًا كانت حريصة علىٰ البيت الحرام ، وأن تُعليَه ؛ لأنها ترىٰ فيه علوها وشرفها ، وشَدَّدَتْ في القيام عليه حيث لم يسمحوا لأحد غيرهم أن يشاركهم شرف بنائه أو المشاركة في أي شيء منه مطلقًا ، حتىٰ ولو أن يناولهم حجرًا ، ومعلوم أنه كلما اشتد تعصب الإنسان لشيء غلا فيه ، وخرج به ذلك عن حَدِّ الاعتدال ، وهكذا كانت قريش تعظِّم البيت بِغُلُوٍّ .

فتعال أخي الحبيب لترىٰ معي كيف أخرجهم الغلو إلىٰ العدوان والمخالفة :

الحُمس :

كان منسك الحج للبيت قائمًا في الجاهلية ، وكان كلُّ العرب - بل وغيرهم - يحجون البيت ؛ ولكن قريشًا لكونهم يعتبرون أنفسهم سدنة البيت وحُجَّابه وأهله ابتدعوا في الحج بدعة تخالف ما كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في قيامه بمناسك الحج ، وذلك لأنهم عظَّموا الحرم تعظيمًا زائدًا ، حتىٰ إنهم لِفَرْطِ تحمسهم له

التزموا ألا يخرجوا من جواره ليلة عرفة ؛ ولذلك سُمُّوا الحُمْس ، فكانوا يقولون : نحن أبناء الحرم وقُطَّان (سكان) بيت الله ، لا نخرج إلىٰ الحِل ونترك الحرم ، فكانوا لا يقفون بعرفات ، مع علمهم أنها من مشاعر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ عُرْوَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَىٰ النَّاسِ ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا ، وَتُعْطِي الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا ، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الْحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا[1] .

قال سفيان رَحِمَهُ اللهُ : الأحْمَس : الشديد علىٰ دينه ، سُمِّيَتْ به قريش لِتَشَدُّدِهَا فيما كانت عليه من تقاليد دينية في الجاهلية ، وكان الشيطان قد استهواهم ، فقال لهم : إن عظَّمتم غير حَرَمِكم (يعني ووقفتم بعرفة خارج الحرم) استخف الناس بحرمكم ، فكانوا لا يخرجون من الحرم .

وَكَانَتِ الْحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : الْحُمْسُ هُمُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، قَالَتْ : كَانَ النَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَاتٍ وَكَانَ الْحُمْسُ يُفِيضُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ يَقُولُونَ : لَا نُفِيضُ إِلَّا مِنَ الْحَرَمِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ رَجَعُوا إِلَىٰ عَرَفَاتٍ[2] .

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ : حَجَجْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نُفِيضَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ قَالَ : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَقُولُونَ : أَشْرِقْ ثَبِيرُ (جبل في المزدلفة ، وهو أعظم جبال مكة) كَيْمَا نُغِيرَ ، والمعنىٰ لتطلع عليك الشمس

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤٨) ، ك : الحج ، باب : الوقوف بعرفة ، ومسلم (١٢١٩) ، ك : الحج ، باب : في الوقوف بعرفة وقوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ ، وهذه رواية البخاري .

(٢) أخرجه البخاري (١٥٨٢) ، ك : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ .

حتىٰ ندفع من مزدلفة ، وَكَانُوا لَا يُفِيضُونَ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فأنزل الله في الحُمْسِ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ، يعني من عرفة ، فَخَالَفَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَفَاضَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ[(١)] .

وكما حفظ الله رسولَه ﷺ وحماه قبل البعثة من الشرك ، حفظه وحماه من البدع أيضًا ، وكما عهدناه يشارك قومه في الخير ويعتزلهم ويخالفهم في الشر كله ، خالفهم في هذه البدعة أيضًا .

انظر إليه كيف كان حنيفًا علىٰ دين إبراهيم عليه السلام؟!!

فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : «أَضْلَلْتُ بَعِيرًا لِي فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاقِفًا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَمِنَ الْحُمْسِ ، فَمَا شَأْنُهُ هَاهُنَا؟ وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُعَدُّ مِنَ الْحُمْسِ»[(٢)] .

أي : فما باله يقف في عرفة والحُمْسُ لا يقفون فيها ؛ فإن قريشًا كانت لا تخرج من الحرم يوم عرفة ، وعرفة عندهم ليست من الحرم .

وهكذا عاش محمد ﷺ بريئًا من الشرك ، طاهرًا من الرَّفَث والمُجُون ، متعاليًا علىٰ البدع ، متطلعًا إلىٰ معالي الأمور ، متحريًا الفطرة .

هذه الأحداث كانت تجري حول النبي محمد ﷺ ويعيش فيها ساميًا نزيهًا ؛ ففي الخير مشارك وفي الشر مجانب ؛ لكن تعال معي الآن لندخل حياته الخاصة ، ونستقرأ ما في داخله ﷺ ؛ لنشاركه أفراحه وأتراحه في هذه الفترة .

وفاة أولاده الذكور:

كانت وفاة الذكور من أبناء النبي ﷺ من خديجة مما يؤلم قلبيهما ؛

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٠) ، ك : الحج ، باب : متىٰ يدفع من جمع؟

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري (١٥٨١) ، ك : الحج ، باب : الوقوف بعرفة ، ومسلم (١٢٢٠) ، ك : الحج ، باب : في الوقوف ، وقوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ .

فهما يريدان ولدًا يبقىٰ لهما ، وكان الأسىٰ يغزو قلب محمد ﷺ وهو يُودِعُ أبناءه الثرىٰ ، فيجدد الثُكلُ ما رَسَبَ في أعماقه من آلام اليُتم ، إن غصنه هو استطاع أن يتشبث بالحياة ؛ فاستطاع البقاء والنماء برغم فُقدانه أبويه ، وها هو ذا يرىٰ أغصانه المُنبَثِقَة عنه تَذْوِي مع رغبته العميقة ورغبة شريكة حياته في أن يرياها مزهرة مثمرة ، وكأن الله عَزَّوَجَلَّ أراد أن يجعل الرقة الحزينة جزءًا من كيانه !

فإن الرجال الذين يسُوسُون الشعوب لا يجنحون إلىٰ الجبروت إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت علىٰ القسوة والأثرة ، وعاشت في أفراحٍ لا يخامرها كَدَر ؛ أما الرجل الذي خَبَرَ الآلامَ وعركته الأحزان ؛ فهو أسرعُ الناس إلىٰ مواساة المحزونين ، ومداواة المجروحين .

تبنّيه ﷺ لزيد بن حارثة.

فجاءت في هذه الفترة حادثة تَبَنِّي رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ، وكأنها تعويض لفقدانه الذكور من أبنائه ، وقصة زيد أصلها أن أباه حارثة بن شُرَاحيل تزوج امرأة في طَيِّئٍ من نَبهان ، فأولدها جَبَلَة وأسماء وزيدًا ، فتُوفيت ، وأخلفت أولادها في حجر جدهم لأمهم ، وأراد حارثةُ حملهم ، فأتىٰ جدَّهم ، فقال : ما عندنا فهو خيرٌ لهم ، فتراضَوْا إلىٰ أن حمل جبلة وأسماء ، وخلَّف زيدًا ، وجاءت خيل من تِهامة من بني فزارة ، فأغارت علىٰ طَيِّئٍ ، فَسَبَتْ زيدًا فصيروه إلىٰ سوق عُكاظ ، فاشترته خَدِيجَةُ وَوَهَبَتْهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَزَوَّجَهَا[1] .

ما أريد بمحمد ﷺ بدلاً!!

ويذكر أن سبب تبني رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة ؛ أن حارثة أباه قَدِمَ وَعَمَّهُ فِي فِدَائِهِ ، فَسَأَلَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَقِيلَ : هُوَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَقَالَا : يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا ابْنَ هَاشِمٍ ، يَا ابْنَ سَيِّدِ قَوْمِهِ ، أَنْتُمْ أَهْلُ حَرَمِ اللَّهِ وَجِيرَانِهِ ،

---

(١) صحيح السيرة (١/١٦٩) .

تَفُكُّونَ الْعَانِيَ ، وَتُطْعِمُونَ الأَسِيرَ ، جِئْنَاكَ فِي ابْنِنَا عِنْدَكَ ؛ فَامْنُنْ عَلَيْنَا وَأَحْسِنْ إِلَيْنَا فِي فِدَائِهِ ، قَالَ : «وَمَنْ هُوَ؟» قَالُوا : زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «فَهَلاَّ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قَالُوا : مَا هُوَ؟ قَالَ : «أَدْعُوهُ فَأُخَيِّرُهُ ؛ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَوَاللَّهِ مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَى مَنِ اخْتَارَنِي أَحَدًا» قَالاَ : قَدْ رَدَدْتَنَا عَلَى النَّصَفِ وَأَحْسَنْتَ ، فَدَعَاهُ فَقَالَ : «هَلْ تَعْرِفُ هَؤُلاَءِ؟» قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : «مَنْ هَذَا؟» قَالَ : هَذَا أَبِي وَهَذَا عَمِّي ، قَالَ : «فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ وَرَأَيْتَ وَعَرَفْتَ صُحْبَتِي لَكَ ؛ فَاخْتَرْنِي أَوِ اخْتَرْهُمَا» قَالَ : مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَدًا أَبَدًا ، أَنْتَ مِنِّي مَكَانُ الأَبِ وَالْعَمِّ ، فَقَالاَ : وَيْحَكَ يَا زَيْدُ! أَتَخْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ؟! قَالَ : نَعَمْ ، قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئًا مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا أَبَدًا ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَلِكَ أَخْرَجَهُ إِلَى الْحِجْرِ فَقَالَ : «أُشْهِدُكُمْ أَنَّ زَيْدًا ابْنِي يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ» فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ طَابَتْ نُفُوسُهُمَا فَانْصَرَفَا ، وَدُعِيَ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ ، حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالإِسْلاَمِ فَنَزَلَتْ : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، فَدُعِيَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ[١].

وهكذا مضت بمحمد ﷺ الحياة بِحُلوِهَا وَمُرِّهَا ، وكلما علتْ سِنُّهُ ازدانت حياته بالرُّوح الظامئة لمعرفة الحق ، والقلبِ اليقظ المتلهِّف ليتلقى صوابًا يتبعه أو هديًا يسير عليه أو إليه ، وهنا حين اقتربت سِنُّهُ من الأربعين . .

وقبل أن ندخل في حياة النبي والرسول ﷺ لابد من وقفةٍ هامة نريد فيها وصفة خَلْقية وخُلُقية ، نفسية وفكرية ، علمية وعملية ؛ لنعرف إجمالاً من هو محمد ﷺ عند الأربعين .

ولنعرف من هو محمد ﷺ حين نزلت عليه الرسالة .

---

(١) الروض الأنف (١/ ٤٢٧) .

الله أعلم حيث يجعل رسالته

محمد ﷺ المثال الكامل للبشر عند البعثة.

إن أربعين سنة من حياة رسولنا العظيم ﷺ هي الأرضية التي أقيمت عليها نبوته الشامخة :

- النسب الأصيل لأمه وأبيه في بيئة ترفض الهجناء والمختلطين والمخلطين .
- اليتم السريع للأب والأم ولمَّا يتجاوز المولود عهد طفولته .
- الفقر والحرمان في صحراء تزيد نار الفقر والحرمان اشتعالاً .
- رحلتان بعيدتان إلىٰ الشام إحداهما صبيًا برفقة عمه أبي طالب والأخرىٰ شابًا مسئولاً عن تجارة السيدة خديجة رضي الله عنها .
- الإسهام الحريص في عدد من الأحداث المهمة التي شهدتها مكة : حرب الفجار ، حلف الفضول ، بناء الكعبة .
- الزواج بالسيدة خديجة رضي الله عنها بعد عودته من رحلته الثانية إلىٰ الشام .
- الرفض الحاسم لقيم الوثنية وعاداتها وأخلاقياتها وتقاليدها .
- ثم فترات من العزلة والتأمل في غار حراء بعيدًا عن صخب مكة وضجيجها .

إن البطل في التاريخ - نبيًا أو غير نبيّ - لكي يلعب دوره الحاسم ، لابد أن يستكمل شرطين أساسيين ؛ أحدهما يتعلق بتكوينه الذاتي الخاص ، والآخر بالعالم الذي يضطرب فيه عبر دوائره التي تبدأ بعلاقاته الضيقة ، ثم تتسع عبر الإقليم والوطن والجماعة والشعب والأمة ؛ لكي تشمل العالم كله .

فأما ما يتعلق بالجانب الذاتي لسيرة الرسول ﷺ قبل البعثة فيبدو أن الظروف البيئية والوراثية التي تسهم معًا في تكوين الإنسان وتمنحه صفاتِه الخِلْقِيَّةَ والخُلُقِيَّةَ ، وتصوغ بنيانه الجسدي والنفسي ، وتحدد قدراته العقلية واستجاباته العاطفية ؛ قد جمعها الله وهيأها وسخرها لكي تجعل من محمد ﷺ الإنسانَ المهيأ لتحمُّل المسئولية التي أنيطت به بعد أربعين سنة من ميلاده ، أربعة عقود في حياة الإنسان المحدودة ، تمثل امتدادًا زمنيًا طويلًا أريد به أن يستكمل محمد ﷺ كل مساحات تكوينه الذاتي ونضجه البشري قبل أن يتاح له أول لقاء مع الوحي الأمين .

وما أصعب اللقاء الأول بين ممثلي الأرض والسماء ، وما أشق الحوار !!

طيلة هذه العقود الأربعة ومحمد ﷺ يأخذ ويتلقىٰ ويجابه ويهضم ويتمثل شتىٰ المؤثرات الوراثية والبيئية لكي يُحوّلها إلىٰ خلايا تبني كِيانه ، وسمات روحية ومادية تُهيئه لليوم العظيم .

❁ فعن أصالة أبيه وأمه أخذ الرسول ﷺ في دمه وأعصابه أصالة الشخصية ووضوحَها ونقاءَها ، وكسب علىٰ المستوىٰ الاجتماعي احترامًا وتقديرًا في بيئةٍ كانت تستهجن مجهولي الأنساب وتحتقر الخلطاء .

❁ ومن مرارة اليتم ووحشة العزلة وانقطاع معين العطف والحنان ؛ قبس رسول الله ﷺ الصلابة والاستقلال والقدرة علىٰ التحمل ، والإرادة النافذة ، والتحدي الذي لا تنكسر له قناة .

❁ وبالفقر والحرمان تربىٰ ﷺ ونما ، بعيدًا عن ترف الغنىٰ ، وميوعة الدلال ، واتكاليَّة الواجدين .

❁ وعبْر رحلته الأولىٰ إلىٰ الشامِ في رعاية عمه ، فتح محمد ﷺ عينيه ووعيه تجاه العالم الذي يتجاوز حدودَ الصحراء وسكونَها إلىٰ حيث المجتمعات المدنية التي تضطرب نشاطًا وقلقًا ، والجماعات العربية التي فصلتها عن شقيقاتها

في الصحراء الأم سلطات أجنبية أحكمت قبضتها على الأعناق، وساقت الشيوخ والأمراء العرب إلى ما تريد هي وتهوى لا ما يريدون ويهوون .

❁ وفي رحلته الثانية إلى الشام مسئولاً عن تجارة السيدة خديجة رضي الله عنها ؛ تعلَّم محمد ﷺ الكثير والكثير ؛ فعمَّق في حسه مُعْطَيات الرحلة الأولى وزاد عليها إدراكًا أكثر لِما يحدث في أطراف عالمه العربي من علاقات بين الغالب والمغلوب، والسيد والمَسُود، وإفادةً أغنى من كل ما يتعلمه الذين يرحلون من مكان إلى مكان، فيتعلمون من رحيلهم طبائع الجماعات والشعوب، وكُنْهَ العلاقات بينها، واختلاف البيئات والأوضاع، ويزدادون مرونةً وقدرة على التعامل المنفتح الذي لا ينقطع له خيط مع شتى الطبائع .

وفوق هذا وذاك، أتيح للرسول ﷺ في رحلته هذه تنميةُ وامتحانُ قدراتِهِ الخاصة التي تعلمها أيام الرعي صبيًا، وهو الآن يدير تجارةً لسيدة تملك الكثير، فيعرف كيف يُحيل القليل كثيرًا، ويصمد إزاء إغراء الذهب والفضة أمينًا لا تلحق أمانته ذرةٌ من غبار، قديرًا على الارتفاع فوق مستويات الإغراء إلى آخر لحظة .

❁ ثم يجيء إسهامُه في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك متنوعًا شاملاً، مغطيًا جميع مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء ؛ أن يُسْهِمَ عاملاً في كل اتجاه، وأن يبنيَ عبر نشاطاته المتنوعة جميعًا شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة، والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقًا أو يقيم عدلاً :

❁ في حرب الفِجَار مارس الرسولُ ﷺ شئونَ القتال .

❁ وفي حِلف الفضول شارك في تجربة السياسة والحكم .

❁ وفي بناء الكعبة أعرب عن بداهته المثيرة للإعجاب في حل المشاكل التي تلعب فيها المعتقدات والقيم والمقدسات دورًا كبيرًا .

❁ وخلال هذا وذاك يتزوج الرسول ﷺ ؛ فيمارس في أعقاب زواجه كبرىٰ التجارب الاجتماعية في حياة الإنسان ، وينجح في التجربة ، ومن وراء نجاحه تقف السيدة البرّة التي وضعها الله في طريق رسوله ﷺ ؛ لكي تكون سنده النفسي واليقيني الأول في السنين الصعبة الطويلة التي تطيش معها ألباب الثائرين الذين بُعثوا لتغيير العالم والانقلاب علىٰ الأوضاع والمألوفات .

هكذا تبدو حياة رسولنا الكريم ﷺ قبل مبعثه ، سلسلة مترابطة الحلقات ، منطقية التعاقب من التجارب والخبرات في شتىٰ المساحات : عائلية ونفسية واقتصادية وحركية وحربية وسياسية ودينية واجتماعية .

أما الجانب الأخلاقي في حياة الرسول ﷺ المديدة هذه ؛ فيتمثل واضحًا نقيًا في انسلاخه الحاسم عن كل ممارسات الجاهليين اللاأخلاقية التي كانت تَعِجُ بها الحياة العربية في المدينة والصحراء : شربًا للخمر ، واستمراءً للزنا ، ولعبًا للميسر ، وتصعيدًا للربا ، وتهافتًا علىٰ مال اليتيم ، ووأدًا للبنات ، وظلمًا للذين لا يقدرون علىٰ رد الظلم ، واستعبادًا محزنًا للذين لا يعرفون طعم الحرية ، ممارسات شتىٰ لا يحصيها العدُّ ، ويغدو من تكرارها وتعاقبها أن تصبح إلفًا وعادة ، ثم تتجاوز هذا لكيما تلبث أن تصبح مفاخر ومكرمات يتبارىٰ العرب في الإتيان بالمزيد منها .

ومحمد ﷺ بعيدٌ عن هذا كله ، مُنْسَلِخٌ منه ، ولقد منحه موقفُه النبيلُ هذا نظافة وطهرًا لم يعرفهما إنسان قبله قط ، وعلَّمه في الوقت نفسه كيف يكون الرفض والتمرد علىٰ الوضع الدنيء ، مهما حمل هذا الوضع من تبريرات انتقلت به من كونه إثمًا وفسقًا وفجورًا إلىٰ مرتبة الإلف والعادة والتقليد ، ثم تبلغ إلىٰ مصافِّ القيم والمفاخر والمعتقدات ، ورغم كل سَوْآتها .

هذا البعد الأخلاقي في حياة النبي محمد ﷺ قبل البعثة كان له أثر أن يشهد له الجميع بالصدق والأمانة .

وأما الجانب الروحي الفكري ، وهو أشد الأبعاد ثقلًا وخطرًا في حياة الإنسان ؛ فإن عزلة الرسول ﷺ بعيدًا عن صخب مكة وضجيجها حينًا بعد حين ، وانقطاعه في الصحراء وحيدًا ، متأملًا ، باحثًا ، ومنقبًا ، مقلبًا وجهه في أنحاء السماوات والأرض ؛ كل ذلك كان إمدادًا له لمواجهة رفض الجاهلية والتمرد علىٰ قيادتها وأعرافها وسلطاتها ، واتصاله عبر البحث والقلق والتقلب الطويل بالقدرة الواحدة القاهرة التي تشرف علىٰ الكون وتحرك الإنسان والخلائق في ساحاته الكبرىٰ وَفق أقدار غاية في الدقة والإتقان ، اتصال بالمصدر الوحيد لكل شيء في هذا الكون ؛ بالله الذي أعطىٰ كل شيءٍ خَلْقه ثم هدىٰ .

بعد هذا العرض السريع للخطوط العريضة في حياة النبي محمد ﷺ قبل البعثة نريد في هذا الفصل أن نُجْمِلَ صفات النبي محمد ﷺ تحديدًا عند أو قُبيل بعثته ، وهي أيضًا في سياق إعداد الله الكون لاستقبال رسالة الإسلام ، فإن من ذلك إعدادَ وتهيئة الرسول ﷺ نفسه ، وإنَّ سرد هذه الصفات الكمالية إنما هو دعوة لكل حَمَلَةِ الرسالة أن يتخلقوا ويتصفوا بها ، ويجتهدوا في التحلي بها دومًا ؛ فوالله كأنها شرائط ولزومات لا تنفصل عن حامل الرسالة .

وقد اخترنا أن نكتب تلك الصفات قبل تكليفه ﷺ أداء الرسالة ؛ لتعلم -أيها الأخ الحبيب المحب- :

مَنِ الذي كلفه الله أداء الرسالة ؟

ومن الذي اختاره ليكون بشيرًا ونذيرًا للناس كافة ؛ عربهم وعجمهم ؟

وليعلم الناس أنه ﷺ لم يكن في مجموع صفاته وكمالاته قبل البعثة كسائر الناس - وإن كان من الناس - ، وأنه ليس ككل واحد من البشر بمجموع أخلاقه وتكوينه ، - وإن كان من البشر - ؛ ولكنه كان في أعلىٰ كمالات البشر ؛ ولذلك كان أليق الناس بالرسالة وأجدر بها من الخلق أجمعين ، وفي النهاية هي إعدادٌ من الله له واصطفاء ، ولا تستطيع إلا أن تقول :

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

١ الكمال العقلي:

قبل أن نتحدث عن كمال عقل نبينا ﷺ، ووفوره وجِدَّته ورُجْحانه، أريد أولاً أن أسوق لك أهمية هذا العقل الذي حبانا الله به، ولأي مدىٰ يمكننا استخدام عقولنا؛ لنضع قيمة وقدر العقل في الحجم الصحيح له دون غلو أو تفريط.

فإن المعوِّلين علىٰ العقل وحده في البحث عن الهداية في القضايا الكبرىٰ المصيرية واللازمة لصلاح الإنسان؛ لم يصلوا فيها إلىٰ نتائجَ مُرْضِيَةٍ، أو حلولٍ ثابتة؛ بل هم في أمرٍ مريج.

وفي ذلك قال ابن قُتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان يجب -مع ما يَدَّعونه (المقدِّسون للعقل) من معرفة القياس، وإعداد آلات النظر-؛ ألا يختلفوا كما لا يختلف الحُسَّاب والمُسَّاح المهندسون؛ لأن آلاتهم لا تدل إلا علىٰ عددٍ واحد، وإلا علىٰ شكل واحد، فما بالهم أكثر الناس اختلافًا! لا يجتمع اثنان من رؤسائهم علىٰ أمرٍ واحد في الدين!».

وقال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليُعلم أن الخوض في حكاية اختلاف الفلاسفة تطويل؛ فإن خبطهم طويل، ونزاعهم كثير، وآراءهم منتشرة، وطرقهم متباعدة متدابرة، فلنقتصر علىٰ إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق عندهم «أرسطوطاليس» وقد رد علىٰ كل من قبله، حتىٰ علىٰ أستاذه الملقب عندهم بـ «أفلاطون الإلهي»؛ ليُعْلَم أنه لا تَثَبُّت ولا إتقان لمذهبهم عندهم، وأنهم يحكمون بظن وتخمين، من غير تحقيق ويقين، ولو كانت علومهم الإلهية متقنةَ البراهين نقيةً عن التخمين كعلومهم الحسابية؛ لَما اختلفوا فيها كما لم يختلفوا في الحسابية».

لذلك فاعلم أن حالة هؤلاء المقدِّسين لعقولهم تدل دلالة واضحة علىٰ هشاشة التعويل علىٰ العقل في التوصل إلىٰ الهداية، فقد عاشوا في ظل عقولهم الضالة عيشة الحائر القلق المضطرب، الذي يبحث عن طوق للنجاة ينقذه من لُجَّةِ الضياع.

إذا كانت العقول متفاوتة، فعقل من نعتمد؟

عقل مَنْ نعتمد في حسم المسائل التي يختلف فيها الناس؟

وما هو المعيار على أن عقل فلان من الناس هو الصواب وعقل فلان هو الضلال؟

لا إجابة على هذه الأسئلة إلا ببعثة الرسل؛ فهي التي تحسم الخلاف بين العقول؛ إذ المغترون بعقولهم لا يقبلون إلا بما تقول به آراؤهم.

ولو كانت العقول متكافئة لأصبح الناس على درجة واحدة من الذكاء، ولاتفقت جميع تصرفاتهم، ولانتفى التفاوت بين البشر؛ ولكن الذي يشهد الحس بوقوعه أن الناس متفاوتون تفاوتًا بينًا في قدراتهم العقلية؛ بل الشخص الواحد نفسه قد تتفاوت قدراته العقلية من مرحلة لمرحلة، ومن وقت لآخر، ومن أمر لآخر، فلا يأتي على الباحث زمان إلا وقد تطور علمه في أمرٍ ما لم يكن قد عَقَلَه من قبل.

فمَنْ يخضع لِمَنْ إذا قدس كلٌّ عقله؟

فالعقول مهما بلغت قوتها، واحتد ذكاؤها؛ فإنها تتنازع في مسائل كثيرة، فكيف السبيل لإلزامها بالصواب إذا كان عند غيرها؟ وكيف يمكن أن نحمل عقلًا كبيرًا - عند نفسه - على متابعة قول غيره؟

قال الماوَرْدِيّ: «إن العقول ربما استكبرت من موافقة الأكفاء، ومتابعة النظراء، فلم يجمعهم عليه إلا طاعة المعبود فيما أدّاه رسلُه، فصارت المصالح بهم أعم، والإتقان بهم أتم، والشمل بهم أجمع، والتنازع بهم أمنع».

قصور العقل عن المعارف الضرورية.

إن غاية ما يمكن للعقل أن يَجْنِيه من ثمرات بحثه المستقل بعد معاونة الفطرة السليمة له أن يعلم: أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دَبَّرَهُ، وأنه لم يخلقه باطلًا؛ بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدل، فلابد أن يعيده كَرَّةً أخرى لينال كل عامل جزاء عمله؛ إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر.

هذه غاية العقل وهذه نهايته وهذه ثمرته ، وقد انتهت بذلك مهمته .

عجز العقول عن إدراك تفاصيل الشرع:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : «العقل يدرك حُسْن العدل ، وأما كون هذا الفعل المعيَّن عدلاً أو ظلمًا فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد .

فمن أين للعقل معرفة الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته ؟

ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده ؟

ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهر الله عليه أحدًا إلا من ارتضاه من رسله ؟

إلىٰ غير ذلك مما جاءت به الرسل وبلَّغته عن الله وليس في العقل طريق إلىٰ معرفته» .

ولذلك ضل كثير من الناس في التحريم والتحليل بعقولهم ؛ فكثير من الناس إلىٰ يومنا هذا يحللون لأنفسهم الخمر والزنا والميتة والدم ولحم الخنزير ، فالعقول إذًا عاجزة عن معرفة مدارك الأحكام الشرعية .

عجز العقول عن غذاء القلوب:

وإن العقل من جهة أخرىٰ عاجز عن إدراك غذاء القلوب ومداواة النفوس ، وهذه حاجات ضرورية لا ينفك عنها الإنسان إلا إذا أراد أن ينفك عن آدميته ، فَأنَّىٰ للعقل أن يُشبع كل تلك الحاجات الضرورية وهو ليس من أهلها ؟

موقع العقل من مصادر المعرفة:

وبالحق نقول : الحقُّ إن العقل ليس هو المصدر الوحيد للمعرفة ؛ وإنما هو أحد روافدها ، وهو يشبه إلىٰ حدٍّ بعيد سائر الملكات والمواهب التي مَنَّ الله بها علىٰ عباده ، فالعقل يعتريه الضعف كما يعتري غيره من آلات الإنسان الأخرىٰ ، كما أنه محدود القدرات كسائر الآلات الأخرىٰ ؛ فقوة البصر والسمع مثلاً

يضعفان ويقفان عند حدٍّ معين يستحيل عليهما أن يتجاوزاه مهما كانت قوتهما، ولا يسعهما أن يسمعا ويبصرا كل شيء في الكون، وكذلك العقل.

يقول «كانت» - فيلسوف ألماني -: «إن عقل الإنسان مركب تركيبًا يؤسف له!! فإنه مع شغفه بالبحث في مسائل لا تدركها حواسنا؛ لم يستطع أن يكشف عن معمياته».

ونقول: ليس تركيب العقل هو الذي يؤسف له؛ لأن الله خلقه لحكمة ضلوا عنها، وإنما الذي يؤسف له هو ضلالهم عن خالقهم وبُعدهم عن هداه، ودخولهم في مسارب ليس لهم أن يدخلوها.

وخلاصة القول في موضوع عجز العقول عن أن تكون مصدرًا للهداية؛ أن يقال في العقل - وهو عين البصيرة - ما يقال في العين - وهي وسيلة البصر الحسية -؛ فكلاهما أداة للنظر، لكنهما يحتاجان إلىٰ نورٍ يأتيهما من الخارج فيكشف لهما مختلف القضايا الغائبة عنهما لكي يقفا عليها.

ونعود إلىٰ نبينا محمد ﷺ وكماله العقلي عند نزول الرسالة؛

الكمال العقلي لنبينا ﷺ:

إن من أهم ما يَتَجلَّىٰ من صفات محمد ﷺ التي يلحظُها كلُّ من يخالطُه: العقل الراجح؛ فما كانت الرسالة تجيء لغير عقل كامل، وفكر مُدرِك، وشخصية كريمة اختارها الله عز وجل لموضع رسالته وحمل أمانته، ولم تكن أيضًا الكفاية العقلية في أسمىٰ علوها بِمُغْنِيَةٍ عن الرسالة قطُّ؛ لأن العقل لا يمكن أن يكون وحده كافيًا في تدبير الحاضر والقابل إلىٰ يوم الدين.

إنما العقل يدبر ما يحيط به، وهو من غير هداية الوحي يَضِل ويُضِل، فلابد من علم الله يَمُدُّه، وهو عالِمُ الغيب والشهادة، فمهما تكن قوة العقل، فإنه لا يستطيع أن يصلح دائمًا بغير ضلال، وكل شيء عند ربك بمقدار.

ومنذ نشأ محمد بن عبد الله ﷺ والعقل المكتمل حليته العليا التي سما بها علىٰ الغلمان أترابه ، فمنذ استوىٰ غلامًا والعقل يزينه ، ولقد بدا ذلك لجَدِّه عبد المطلب الذي أخذه ليعوِّده أخلاق الرجال المكتملين ، ولكمال عقله كان وهو شاب يحضر مجتمعات قريش ، فهو يحضر ندوتها ، فاحصًا ما يقال فيها من حق يرضاه ، وباطل يجفوه ولا يقرُّه ، ويحضر حلف الفضول ، ويرىٰ لعقله الكامل المدرك أنه لا يسره به حُمْرُ النَّعَم ، ولا يرىٰ نصرة للحق أقوىٰ منه ، ولو دُعي به في الإسلام - بعد أن عم الحقُّ - لأجاب تكريمًا له وإعلاءً لقدره .

وهكذا نراه ﷺ قد أوتي عقلاً مدركًا ، وعمل علىٰ تغذيته بالتجارِب والاتصال بالمجتمع ليعرف خيره وشره ، ويعمل علىٰ علاج أدوائه إن واتاه الله عز وجل بفضلٍ من عنده .

وإننا - ونحن نتكلم عن وفور عقله ﷺ - نتكلم عن قوته العقلية النافذة إلىٰ الحقائق ؛ لا إلىٰ الظاهر فحسب ، يتضح ذلك جليًا في نفوره من التقليد من غير دليل ، فهو قد نفر من عادات الجاهلية التي كانت تحرم وتحلل من غير بينة ولا علم قائم علىٰ الحقائق المقررة الثابتة ، فلم نره يسجد لصنم قط ؛ لأن حكم العقل يتقاضاه ألا يسجد لمن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا ، ويكره ذكر الأصنام ، وعبادتها ، وحين يستحلفه الراهب باللات والعزىٰ ، فيقول: ما كرهت شيئًا كما كرهتهما .

وتجده يختلف مع تاجر ، فيستحلفه التاجر باللات والعزىٰ ، فيمتنع ، فيسلِّم له التاجر بحقه من غير حلف لأمانته ، وأي عقل أكمل من أن يرىٰ قومه ينحرفون عن إبراهيم عليه السلام في حَجِّهِ ، ويذهب فرط حرصهم واعتزازهم بالبيت ألا يقفوا بعرفات ، فيجيء الرجل العاقل المكتمل محمد بن عبد الله ﷺ ويتعرف مناسك إبراهيم عليه السلام ، فيقف بعرفات في ميقاته ، إن ذلك كُلَّه لا يكون إلا من رجل عاقل يُعْمِلُ عقله في هَدْأةٍ من غير مجادلة ؛ لأن المجادلة تُحْدِثُ المنازعة ، وحيث كانت المنازعة كان الرِّيَبُ ، وتبددت الحقائق بين المتنازعين .

لقد علمت قريش كلُّها بكمال عقله ، وقوة إدراكه ، فرضيت به حكمًا ساعة أن احتدم الجدل ، وكادت السيوف تُمْتَشَقُ ، والمعارك أن تُنْصَب ، فلما نادته القُرْعَة أن : أَقْدِم ، وافصل بين الناس بالحق ، رضوا بحكمه ؛ لأنه سيكون حكم العقل والحق ، وأي شخص غير عاقل وحكيم كان يهتدي إلىٰ الحكم الذي يُرضيهم جميعًا ، فيشركهم جميعًا في فضل حمل الحجر الأسود إلىٰ موضعه من غير مشاحنة ولا خصومة ولا تفضيل بينهم ، ويحمله هو بيده ابتداء فلا ينازعونه لفضل عقله ، ثم يحمله هو وحده انتهاء ، ويضعه في موضعه بيديه الكريمتين ، فيرضون ما يفعل .

وإنك إن تأملت هذا الموطن فقط بان لك رجحان عقل النبي ﷺ علىٰ ما سواه ، تعال معي لتعيش الموقف : هذا رسول الله ﷺ يدخل وهم يبنون الكعبة ، فيفاجأ بالقوم قد غمسوا أيديهم في الدم وتنازعوا واستعدوا للحرب ، ثم يفاجأ بقولهم : رضينا بالأمين حكمًا ، ويسألونه سؤالاً محددًا ، ويطلبون منه حكمًا آنيًا سريعًا : من أحق القوم أن يضع الحجر في موضعه؟

إنها مفاجأة تُنهِت ،

ومفاجأة تُذهِل أي إنسان يُطلَبُ منه الحكم في الحال بين متنازعين ومتحاربين .

فَيَبِينُ هنا أثرُ عقله ﷺ ، فلا يتردد ، ولا يتلكأ ، ولا يتلعثم ، ولا يؤجل ، ولا يشاور ، ولا يخيرهم بين أمور ، بل يجيب ويمنتهىٰ الحزم وبالفعل لا بالقول : يبسط رداءه ويضع الحجر ، ويأمرهم بحمل الرداء من أطرافه ، ثم يضع الحجر بيديه موضعه وينهي القضية دون اعتراض منهم ، ولم يدع لهم فرصة لذلك ، فقد وُضِعَ الحجرُ وانتهىٰ الأمر ، ولا يمكن نَزْعُهُ مرة أخرىٰ ، ولا النزاع حوله .

أيُّ عقلٍ هذا؟! وأي توفيقٍ هذا؟! وأي حزمٍ وحسمٍ هذا؟!
هذا محمد ﷺ قبل الرسالة ، فما بالك به بعد الرسالة؟!!

ولكمال عقله أيضًا لم يَخُضْ مع الخائضين في العصبية الجاهلية ، فلم ينطق بها ،

ولم يجادل حولها ، وكان يحب الوئام والسلام ، ولا يحب الحرب والخصام ؛ ولذلك لم يشارك في حرب الفِجَار ، إلا بتنضيل (إخراج) السهام عن أعمامه حماية لهم ورحمة بهم ، بموجب الرحم الواصلة ، لا بموجب الحرب التي أُحِلَّتْ فيها الحُرُمات والأشهر الحرم .

وإنه من المؤكد أن محمد بن عبد الله ﷺ كَبَحَ جِماح هواه طول حياته قبل البعثة ، فلم يفعل ما يفعله الغلمان وهو غلام ، ولا ما يفعله الشبان في باكورة شبابه ، ولا بعد أن صار رجلاً سويًا ، اكتملت أخلاقه كما اكتمل جسمه ، فكان القويّ الذي يسيطر علىٰ أهوائه ، فلا ينحرف مع هوًىٰ ، ولا تجمح به شهوة ؛ لأنه إذا ضعف سلطان الهوىٰ قويَ سلطان الحق ، وإذا قلَّت حدة الشهوة ؛ استقام حُكْمُ العقل ، فالعقل حكمه يناقض حكم الهوىٰ والشهوة ، والعاقلُ السَّيِّدُ هو الذي يسيطر علىٰ أهوائه وشهواته ويكون عقله هو المسيطر ، وما تضل العقول إلا إذا داخلت النفوسَ الأهواءُ وعكَّرت صفاءها ، ومحمد ابن عبد الله ﷺ كان أعقل قريش ؛ لأنه لم يسيطر عليه هوًىٰ كسائر سادات مكة .

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فضل عقله ﷺ ، وآثاره في الإسلام : «وأما وُفُور عقله ، وذكاء لُبِّه ، وقوة حواسه ، وفصاحة لسانه ، واعتدال حركاته ، وحسن شمائله ؛ فلا مِرْيَة أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمْرَ بَوَاطِنِ الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة ، مع عجيب شمائله ، وبديع سيره ؛ فضلاً عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع ، دون تَعَلُّم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه ؛ لم يَمْتَرِ (يشك) في رُجحانِ عقله ، وثقوب فَهمه ، لأول بديهة ، وهذا مما لا يُحتاج إلىٰ تقريره لتحققه» .

ولقد قال وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «قرأت في أحدٍ وسبعين كتابًا ، فوجدت في جميعها أن النبيَّ ﷺ أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم رأيًا» ، وفي رواية أخرىٰ : «فوجدت في جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلىٰ انقضائها من العقل في جنب عقله إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا» .

ويقول ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (٦/ ٦٥) : «معلوم لكل ذي لُبٍّ أن محمدًا ﷺ من أعقل خلق الله عز وجل ؛ بل أعقلهم وأكملهم على الإطلاق في نفس الأمر» اهـ .

فبهذا العقل الحكيم استقبل رسالة ربه ، وإذا شئنا ذِكْرَ بعضِ أمثلةِ وفورِ عقلِهِ بعد البعثة ؛ فلن نحصيَها عددًا ولا نستطيع أن نُوفيها مدحًا ولن نُعطيَها حقها وقدرها أبدًا ؛ وإنما كان كل ذلك هبة من الله مع الرسالة ، وما كان قبل الرسالة فهو تهيئة وتوطئة لحمل الرسالة .

٢ بلاغته ﷺ

وأما فصاحته وبلاغته ﷺ فقد كان رسول الله ﷺ قرشيًّا نشأ في قريش ، ولهجة قريش أفصح اللهجات العربية ، وكان يحضر أسواق مكة في موسم الحج ، ويتذوق ما يُنْشَدُ فيها من شعر ، وقد تَفَصَّحَ في بني سعد بهوازن ، وهوازن من أفصح العرب أيضًا ، فالتقت في بيانه لغةُ العقل والحضارة النسبية في مكة المكرمة ، وسذاجةُ البداوة مع حلاوة اللفظ وسهولته في لهجة أفصح أهل البادية ؛ ولذلك كان النبي محمد بن عبد الله ﷺ أفصح الناس منطقًا ، ينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، فهو إذا أرشد كانت ألفاظه كالجوهر تنثر بين الناس من غير بَهْرَجَةٍ ، وفيها جوامع الكلم وفصل الخطاب .

وإذا تحدث في معاملات الناس وفي سمرهم الذي لا مُجون فيه ، كان كلامه النمير العذب ، يسري في النفوس سريان النسيم العليل ، والماء الزلال ، يُنعش القلوب ، ويروي ظمأ النفوس ، وقد وصفتْ حديثَه أمُّ معبد بعد البعثة فقالت :

«إِذَا صَمَتَ فَعَلَيْهِ الوَقَارُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاهُ البَهَاءُ،
حُلْوُ المَنْطِقِ، فَصْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ،
وَكَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ» .

هذا وصف لكلام النبي ﷺ بعد أن بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهو غاية ما كان منه قبل البعثة ، فحال ما قبل البعثة ابتداء ، وما بعدها هو الانتهاء ، وهو اصطفاء الله عَزَّ وَجَلَّ له ؛ ليكون موضع رسالته ، ومُبَلِّغ وحيه ، كان يجمع بين الإيجاز والوضوح ، فألفاظه قليلة ، ومعانيه كثيرة من غير تعقيد ولا إعضال ، بل هو السهل الذي لا تَوَعُّرَ فيه ، ترىٰ في كلامه جمال الألفاظ من غير تكلف ، وحلاوة المنطق أو الكَلِم من غير تحسين ولا تزيين ، فهو الجمال الطَّبْعِيُّ الذي لا طراوة فيه ، ولا جفوة ، ولا خشونة ، وكأن فيه معاني الإلهام ، وجَمَّلَه الله عَزَّ وَجَلَّ بالصفاء ؛ لأنه خرج من نفسٍ صافية ، وقلبٍ مُفْعَم بالإيمان والصدق ، فكان كلامه صافيًا كنفسه ، خاليًا من الشوائب خُلُوَّ نفسه منها .

هذا إلىٰ جانب الإعجاز الذي أوتيه ، فصدق مقاله ﷺ :

«وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»[1]

وقد وصف بلاغته ﷺ الجاحظ فقال : «كلامه ﷺ الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وَجَلَّ عن الصنعة ، ونُزِّهَ عن التكلف ، استعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي ، ورَغِبَ عن الهَجِين السُّوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّدَ بالتأييد ، ويُسِّرَ بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ المحبة عليه ، وغَشَّاهُ بالقَبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حُسْن الإلهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلىٰ معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زَلَّت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خَصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يَبُذُّ الخُطَبَ الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٢٨١٥) بلفظ «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ» ، ك : الجهاد والسير ، باب : قول النبي ﷺ : «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» ، ومسلم (٥٢٣) ، ك : المساجد ومواضع الصلاة .

إسكات الخَصْم إلا بما يعرفه الخَصْمُ ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفَلْج (الفوز والظَّفَر) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلابة (الخداع) ، ولا يستعمل الموارَبة ، ولا يَهْمِزُ ولا يَلْمِزُ ، ولا يُبطئ ولا يَعْجل ولا يُسْهِب ، ولا يَحْصَر (يصيبه العَيُّ) ، ثم لم يسمع الناس بكلام قَطُّ أعم نفعًا ، ولا أقصد لفظًا ، ولا أعدلَ وزنًا ، ولا أجملَ مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح في معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ»[1] .

وإنه قد اجتمع له مع سلامة المعاني حسنُ اختيار الألفاظ المناسبة في الحال المناسبة من غير أن يقرع الأسماع بكلام له رنين ؛ بل بكلام يدخل على القلوب في أناة ورفق فينساب فيها انسياب النَّمير العذب ، ويكون ثمة تَنَاسُقٌ بين المعنى الكريم واللفظ الجميل من غير إعنات للأفهام ، ولا إرهاق للأسماع ، وكان في منطقه حلاوة طبعية ، فيخرج اللفظ من لسانٍ واضح بَيِّن ، تخرج الحروف من مخرجها ، وتقع في مواضعها ، والسامع مشدوهٌ من حلاوة الكلمة ، وطلاوة اللفظ ، والمعاني الأبكار ، في أسلوب لا توعُّرَ فيه ، ولا تَكَلُّفَ ، ولقد قالت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصف كلامه :

«ما كان رسول الله ﷺ يَسْرُدُ الكلامَ كَسَرْدِكُمْ هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيْنٍ فَصْلٍ ، يحفظه من جلس إليه» .

فقد كان ﷺ يتكلم بِأَنَاةٍ ، غير مندفع في القول ، ولا متابع له في استعجال ، حتى إن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تروي أن حديثه لو عَدَّ السامعُ حروفه عَدًّا لأحصاها .

وإن ذلك هو أفصح النطق ، وأبلغ الإلقاء ؛ ذلك لأن الإمهال في القول يجعل السامع يتذوق جمال الألفاظ ، ويتأمل المعاني ، ويستحفظ ما قال القائل ، ويتابعه في أفكاره من غير إعنات لنفسه ولا مَلال ، وإن المَلَلَ يعتري السامع إذا فاته تتبع المعاني ، وإدراك المرامي والغايات .

---

(١) «البيان والتبيين» (٢/ ١٧) .

ومنطق النبي ﷺ أيضًا كان معجزة وحده ؛ فقد كان نطقه ﷺ خاليًا من الفأفأة والثأثأة والتَّمْتَمَةَ ، وكل عيوب الكلام ، في صوت هادئ عميق يُجَمِّله الصدق ويُدْخله في مداخل النفس ، ويوجه الرشد إلىٰ الحق ، ونغمات صوته هادئه قوية في صوت غير أجشّ ، ولا جفوة به ، ولكن التقىٰ فيه عمق النغم الفِطْري بجمال الصوت ، وجهارته في غير ضجيج ولا صخب .

وهكذا كان ﷺ مؤهلًا لمنحة ربه عَزَّوَجَلَّ ، فقد قال ذاكرًا ما فضَّله الله به :

«وَأُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»[1] .

وقد أجاد القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف فصاحة محمد ﷺ وبلاغته حين قال : «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول ، فقد كان من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذي لا يجهل ، سلامة طبع ، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معانٍ ، وقلة تَكَلُّف ، أُوتي جوامع الكلم ، وخُصَّ ببدائع الحكَم ، وعَلِمَ ألسنة العرب ، فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها في منزع بلاغتها ، حتىٰ كان كثير من أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز فحسب ، بل نجد كلامه مع طهفة النَّهْدي ، وقَطَن بن حارثة العليمي ، والأشعث بن قيس ، ووائل بن حُجْر الكِنْدِي وغيرهم من أقْيَال (سادات وكبراء)

أصحابه يسألونه في موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه ، وليس مع قريش والأنصار وأهل

وصف خلقته الشريفة ﷺ

وهنا.. بعد أن تكلمنا عن الكمال العقلي، والكمال الخُلُقي، والكمال العلمي العملي لسيدنا رسول الله ﷺ، نهدي صفحة خطيرة موثقة لأحباب النبي ﷺ بوصف كماله الجسدي..

يا أحباب النبي ﷺ..

تعالوا لأصف لكم صورة النبي محمد ﷺ؛ لكي تتخيلوها وتتصوروها، وتعيشوا هذه الصورة حيّة متيقظة داخل كل محب..

تعالوا لأصف لكم: فمه وأنفه وعينيه.. يديه ورجليه.. شعره وأذنيه؛ لكي تصبح هذه الصورة متمثلة في أذهانكم، عامرة بالحياة في قلوبكم.

تعالوا لأصف لكم هيئة رسول الله ﷺ؛ لتروه في المنام على الحقيقة فتعرفونه ﷺ حقًا وتفوزوا بجائزة: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي»(١)، وفي رواية: «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي اليَقَظَةِ»(٢).

هذه الصفحة خاصة للأحباب إخوان النبي ﷺ الذين قال فيهم: «مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»(٣).

وحين تقرأ معي -أخي الحبيب- صفات النبي ﷺ الخَلقية التي سأسردها؛ لن تملك من نفسك إلا الإعجاب به، وحبه، والانبهار بجماله وحلاوة مطلعه، وقد حدَّث الصحابة فقالوا: «من رآه بديهة أحبه»، وقال الأعرابي بفطرته لما نظر إليه: «أشهد أن هذا الوجه ليس بوجه كذاب».

تعال معي لتسرح بخاطرك وتتصور بعقلك حبيبك الذي تشتهي أن تراه..

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٣)، ك: التعبير، باب: من رأى النبي ﷺ في المنام.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٩٢)، ك: التعبير، باب: من رأى النبي ﷺ في المنام.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣٢)، ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فيمن يود رؤية النبي ﷺ بأهله.

صفة رأسه ووجهه ﷺ

كَانَ ﷺ ضَخْمَ الرَّأْسِ، أَزْهَرَ اللَّوْنِ، لَيْسَ بِأَبْيَض أَمْهَق (شديد البياض وليس فيه حمرة)، وَلا آدَمَ (شديد السمرة)، بَيَاضهُ إِلَىٰ السُّمْرَةِ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةٍ، وَكَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا، وَكَانَ وَجهُهُ كَالقَمَرِ والشَّمْسَ، وَكَانَ مُسْتَدِيرًا، أَبْيَض مَلِيحَ الوَجْهِ، إِذَا سُرَّ تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ، فَيَسْتَنِيرُ كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكَانَ يُعْرَفُ ذَلِكَ مِنْهُ، وَمَا رُئِيَ شَيءٌ أَحْسَنَ مِنْهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي في جَبْهَتِهِ، وَكَانَ أَشدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ في وَجْهِهِ.

وَكَانَ عَظِيمَ العَيْنَيْنِ، أَهْدَبَ الأَشْفَارِ (حَرْفُ جَفْنِ العَيْنِ)، مُشْرَبَ العَيْنَيْنِ حُمْرَةً، أَسْوَدَ الحَدَقَةِ، أَدْعَجَ (شدة سواد العين في شدة بياضها)، أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ.

وَكَانَ دَقِيقَ الحَاجِبَيْنِ سَابِغَهُمَا، أَزَجَّ (أي مع تقوس ووصول إلى آخر العينين)، أَقْرَنَ فِي غَيرِ قَرَنٍ، أَبْلَجَ، بَيْنَهُمَا عِرْقٌ يَدُرُّهُ الغَضَبِ.

مفَاضَ الجَبِينِ وَاسِعَهُ، أَغَرَّ أَجلَىٰ كَأَنَّهُ يَتَلألأُ، وَكَانَ العَرَقُ في وَجْهِهِ كَاللُّؤلُؤ.

وَكَانَ أَسْيَلَ الخَدَّيْنِ سَهْلَهُمَا، أَقْنَىٰ الأَنْفِ (طول الأنف وَرِقَّةِ أَرْنَبَتِهِ مَع حَدَبٍ في وسطه)، ظَلِيعَ الفَمِ (أي عظيمه والعرب تمدح عظم الفم وتذم صغره)، أَفْلَجَ الأَسْنَانِ أَشْنَبَهَا (البياض والبريق والتحديد في الأسنان)، حَسَنَ الثَّغْرِ، بَرَّاق الثَّنَايَا.

إِذَا ضَحِكَ كَادَ يَتَلألأُ.

وَكَانَ كَثِيرَ شَعْرِ اللِّحْيَةِ أَسْوَدَهُ، ذَا لِحْيَةٍ عَظِيمَةٍ حَسَنَةٍ كَادَتْ تَمْلأُ نَحْرَهُ، إِذَا تَكَلَّمَ في نَفْسِهِ، عُرِفَ ذَلِكَ مِنْ خَلْفِهِ بِاضْطِرَابِ لِحْيَتِهِ مِنْ عَظَمَتِهَا.

وَأَمَّا شَارِبُهُ فَكَانَ يُحْفِيهِ (يبالغ في قَصِّهِ).

صفة شعره ﷺ

وَأَمَّا شَعْرَهُ فَلَيْسَ بِجَعْدٍ (مُتَلَوٍّ أو مُلْتَفٍّ) قَطَط (شديد الجعودة كشعر الزنوج) وَلا سَبِط (ممتد ليس فيه تعقد)، رَجِل، أَسْوَدَ اللَّوْنِ، يَبْلُغُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ، وَأَحْيَانًا مِنْكَبَيْهِ، وَأَحْيَانًا إِلَىٰ أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ، وَأَحْيَانًا بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعَاتِقِهِ، فَيَكُونُ فَوْقَ الجُمَّةِ (شعر الرأس إذا وصل إلىٰ المنكبين)، وَدُونَ الوَفْرَةِ (شعر الرأس إذا وصل إلىٰ شحمة الأذن)، وَأَحْيَانًا يَجْعَلُهُ أَرْبَعَ غَدَائِرٍ أَوْ ضَفَائِرٍ، وَكَانَ يَسْدِلُهُ، ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ.

صِفَةُ جِذْعِهِ ﷺ

فِي عُنُقِهِ سَطَعٌ (أي طول) كَأَنَّهُ إِبْرِيقُ فِضَّةٍ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ المِنْكَبَيْنِ وَأَعَالِي الصَّدْرِ، طَوِيلُ المَسْرُبَةِ (ما دق من شعر الصدر سائلاً إلىٰ السرة)، مَوْصُولُ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ (المنحر) وَالسُّرَّةِ بِشَعْرٍ يَجْرِي كَالخَطِّ، عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ وَالبَطْنَ مِمَّا سِوَىٰ ذَلِكَ.

لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ (ضخم بطن)، سَوَاءُ البَطْنِ أو الصَّدْرِ، أَنْوَرَ المُتَجَرِّدِ، شَدِيدُ البَيَاضِ، وَكَانَتْ عُكَنُهُ (ما انطوىٰ وتثنىٰ من لحم البطن سِمنًا) كَأَسَارِيعِ (سبائك) الذَّهَبِ.

أَبْيَضَ الإِبِطِ أَعْفَرُهُ (بياض ليس بالناصع)، وَكَانَ كَثِيرَ العَرَقِ، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطِّيبِ، لاسِيَّمَا إِذَا نَامَ، وَكَانَ عَرَقُهُ كَأَنَّهُ اللُّؤْلُؤُ.

وَأَمَّا ظَهْرُهُ فَكَأَنَّهُ سَبِيكَةُ فِضَّةٍ، فِيهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، عِنْدَ نَاغِضَ (أعلىٰ الكتف) كَتِفِهِ اليُسْرَىٰ جَمْعًا، عَلَيْهِ خيلانٌ (الشامة في الجسد) كَأَمْثَالِ الثَّآلِيلِ (الحبة التي تظهر في الجلد كالحُمُّصَة فما دونها)، مِثْلُ بَيْضِ الحَمَامَةِ، يُشْبِهُ جَسَدَهُ كَغُدَّةٍ حَمْرَاءَ، أَوْ بَضْعَةٍ نَاشِزَةٍ، أَوْ مِثْلِ زِرِّ الحِجْلَةِ (بيت كالقُبَّة يستر بالثياب وتكون له أزرار كبار)، وَعَلَيْهِ شَعَرَاتٌ مُجْتَمِعَاتٌ.

صفة أطرافه ﷺ:

وكان ﷺ شَبِحَ الذِّرَاعَيْنِ أَشْعَرَهُمَا (طويل الذراعين)، شَثْنَ (أي ضخم) الكَفَّيْنِ بَسِيطَهُمَا، مَا مَسَّ حَرِيرٌ وَلا دِيبَاجٌ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّهِ، كَانَتْ أَبْرَدَ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبَ رَائِحَةً مِنَ المِسْكِ، وَكَأَنَّمَا أَخْرَجَهَا مِنْ جَوْنَةِ عَطَّارٍ (التي يُعَدُّ فيها الطيب).

سَاقُهُ كَأَنَّهَا جُمَّارَةٌ (قلب النخلة)، لَهَا وَبِيصٌ (بريق ولمعان) يَرَاهُ النَّاظِرُ، مَنْهُوسُ العَقِبِ (أي قليل لحم العقب)، شَثْنُ القَدَمَيْنِ، يَطَأُ الأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ جَمِيعًا، لَيْسَ لَهُ أَخْمص (الموضع الذي لا يلتصق بالأرض عند الوطأ).

صِفَاتٌ عَامَّةٌ:

كَانَ رَبْعَةً (متوسط بين الطول والقصر) مِنَ القَوْمِ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ البَائِنِ وَلا بِالقَصِيرِ.

وَكَانَ كَأَنَّمَا صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ، وَإِذَا مَشَى تَكَفَّأَ (يُسْرِعُ لكن في اعتدال فلا هو بالسريع ولا هو بالبطيء) كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا، وَمَا رُئِيَ أَحَدٌ أَسْرَعَ مَشْيًا مِنْهُ، كَأَنَّ الأَرْضَ تُطْوَى لَهُ، وَإِنَّ مَنْ مَعَهُ لَيَجْهَدُ أَنْ يُدْرِكَهُ، وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ.

وَلا شُمَّ رِيحٌ قَطُّ أَوْ عَرْفٌ قَطُّ، وَلا عَنْبَرٌ وَلا مِسْكٌ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِهِ أَوْ عَرْفِهِ، وَكَانَ مُفَضَّدًا (أي ليس بجسيم ولا نحيف) حَسَنُ الجِسْمِ.

لَمْ يُرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلُهُ.

وَقَدْ كَانَ أَشْبَهَ النَّاسِ بِأَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ يُحَدِّثُ بِالحَدِيثِ لَوْ عَدَّهُ العَادُّ لأَحْصَاهُ، لا يَسْرِدُهُ سَرْدًا، وَلَكِنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلامٍ بَيِّنٍ، فَصْلٍ، يَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ، وَكَانَ فِي صَوْتِهِ صَحَلٌ (أي بحة خفيفة).

محمد ﷺ والخُلُق الكامل

الأخلاق سر الإنسان:

إن محمدًا ﷺ بشر مثلنا ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]؛ لكن الوجود لا يعرف تفاوتًا بين أفراد جنس واحد كما يعرف ذلك في جنس الإنسان ، إن بعضهم أرقىٰ من الأفلاك الدائرة ، وبعضهم علىٰ الطرف الآخر لا يساوي بَعْرَةً ، وإن كان الكلُّ بشرًا ، وذاك التفاوت وقع بين أفراد البشر جميعًا فعلًا ، حتىٰ أن هناك تفاوتًا ما أيضًا بين الأنبياء ، قال تعالىٰ : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .

وهذا التفاوت بات حقيقةً واقعةً ، ولك أن تتخيل كيف إذا اصطفىٰ الله إنسانًا ، وزاده فوق أطوار كماله المعتاد أطوارًا أخرىٰ ، تُومِضُ فيه أشعة التسديد والتوفيق والإرشاد والإمداد ، ذاك هو محمد ﷺ معجزة الله إلىٰ خلقه .

تعال إلىٰ أخلاقه ﷺ قبل البعثة ولنا - والله - أن نقول وبالحق نقول:

إن من أعظم الخوارق التي كانت لمحمد ﷺ : أخلاقه ؛ فقد كانت في ذاتها أمرًا خارقًا للعادة بين بني الإنسان ؛ فهي أعلىٰ من أخلاق الملائكة ؛ لأن الملائكة حَسُنَتْ أخلاقهم بمقتضىٰ كونهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]؛ ولكنه ﷺ كانت فيه الرُّوحانية الإنسانية ، بما في الإنسان من مطالب الجسم ، وتجرد الروح ، فمحمد ﷺ بين الناس «الإنسان» الذي تتجلىٰ فيه الإنسانية الكاملة ، وفي طبعه رُوحانية إرادية ، فكل ما فيه من أخلاق للتربية والإرادة داخل في تكوينه ، فهو ليس ملاكًا ؛ ولكنه عفيف لم يتدلَّ إلىٰ خَنا (فُحش) قط ، ففضيلته كَفُّ الشر وتجنبه .

والعفة من حَصور ليست كعفة من له شهواتٌ تغالبه ، وأهواء تعانده ،

وبمعركة بين القوتين تكون النصرة للعفة، والغَلَبةُ للفضيلة، وما يكون الوصول إليه بِغِلاب يكون أعلىٰ وأنفس، مما يجيء رخيصًا سهلاً، قال الله عز وجل لنبيه الكريم ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقال النبي ﷺ نفسه: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[١]، وقال أيضًا: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي»[٢].

وكمال الخُلُقِ لفظ قصير يتناول كثيرًا من المعاني في داخله.

فهو يشمل حب الفضيلة والتمسك بها والقيام بحقها.

ويشمل حسن العشرة ولطف المودة.

ويشمل صلة الرحم، والإحسان إلىٰ الجار القريب والبعيد.

ويشمل حب الناس والرفق بهم.

ويشمل التواضع وتوطئة الكَنَفِ لهم.

ويشمل البِشْرَ ولقاء الناس به.

ويشمل الأناة والحِلم ومنع الجَفْوة.

ويشمل كظم النفس واجتناب الغيظ.

ويشمل الحياء وإقراء السلام علىٰ من عَرَفَ ومن ولم يعرف.

ويشمل الجود بما عنده والزهد فيما ليس عنده، ويمنع الغلظة والفظاظة.

ويشمل العفو عن المسيء وإقالة عثرته.

ويشمل الرد علىٰ المسيء بالإحسان.

ويشمل تخليص القلب من الإِحَن (الأحقاد).

ويشمل الإعراض عن الجاهلين، وترك المهاترة، والمماراة والمجادلة.

ويشمل التيسير؛ وترك التعسير، والتبشير دون التنفير.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢٢١)، ك: تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، باب: من كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي آيات النبوة، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

(٢) ضعفه الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (٢٤٩) وقال: ولكن المعنىٰ صحيح كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوىٰ.

وفي الجملة، الْخُلُقُ الحسن يشمل تهذيب النفس، وتربية الوجدان، والتآلف مع الناس، والقرب إليهم، وتوطيء الكنف لهم، والتواضع، والرفق بالضعفاء، والقرب منهم، والألم لآلامهم، والسرور لسرورهم، والاندماج فيهم من غير تَأَثُّم، ولا تَجَانُفٍ (ميل) لإثم.

وإن الخُلُقَ الحَسَنَ يؤثِّر في الدعوة إلىٰ الحق، بما لا يؤثِّر البرهان وضُروب الأقيسة، وإنه من أوصاف النبوة، ولقد قال الله عز وجل في ثمرات الخلق المحمدي: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقد هيأ الله عز وجل محمدًا ﷺ ليكون الهادي إلىٰ الحق، وإلىٰ صراطٍ مستقيم، فوهبه الخُلُقَ الكاملَ، الذي يؤلف القلوب، ويجمع النفوس، إلا مَنْ طغىٰ واستكبر، وآثر الهوىٰ علىٰ الحق، وكان ﷺ قبل البعثة يحب العشير، ويقرِّب الصديق، ولا يعنِّت أحدًا بعداوة؛ بل كان الملاكَ الطاهرَ بينهم، يعف عن قول الخَنا وفعله، ويبتعد عن الهوىٰ وجموحه، لا يعادي، ولا يصخب، ولا يَفْحُشُ في قول أو عمل، وهو الصادق، وهو الأمين، وهو الذي يحمل الكَلّ، ويُغيث الضعيف، ويُعين علىٰ نوائب الدهر، يعفو عمن ظلمه إلا أن يكون في ذلك انتهاكٌ لحرمة من حرمات الله، أو اعتداء علىٰ فضيلة.

وهكذا كانت أخلاقه ﷺ في أعلىٰ درجات البشرية، لم يطاوله فيها إنسان، ولم يُدَانِهِ فيها بشر؛ بل كان صاحب الخلق الكامل ﷺ.

حياة محمد ﷺ:

من أخلاقه أيضًا أن حياته ﷺ قبل البعثة كانت فيها البشرية الكاملة في كل أحوالها، في سرّائها وضرّائها، في كريهتها، ومنشطها، في ضيقها ورخائها، فلم يُتْرِبه الفقر، ولم يُذِله القُلّ، بل صبر عزيزًا، وقنع كريمًا، وجَدّ ليكسب قُوتَهُ،

الصفحة غير متوفرة حاليا

وفوق كل ذلك أيضًا تراه ﷺ قد أخذ يدرس الكون وما فيه ومن فيه، وما وراء الكون من أسرار الوجود، مبتعدًا عن الوثنية وما حولها، مستنكرًا عبادتها، غير مستسلم لتوهُّم أن فيها تأثيرًا علىٰ الإنسان، فما سجد لصنم قط، وما أغواه شرٌّ قط؛ بل كان الطيب الوادع الأمين.

ثم إنه ﷺ كان قويًا في بدنه، غير مسترخ في عضله، فهو يصارع «رُكانة» أقوىٰ أهل مكة فيصرعه من غير اعتداء؛ فعَنْ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ رُكَانَةَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ رُكَانَةَ صَارَعَ النَّبِيَّ ﷺ فَصَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ[1].

وإليك قصة ركانة.. وقد حدثت بعد البعثة..

جَاءَ رُكَانَةُ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ (وَهُوَ بِمَكَّةَ) وَمَعَهُ ثَلاثُمِائَةٍ مِنَ الغَنَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا رُكَانَةُ، أَسْلِمْ**»، فَأَبَىٰ، فَقَالَ ﷺ: «**أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ - لِشَجَرَةٍ قَائِمَةٍ - فَأَجَابَتْنِي، تُجِيبُنِي إِلَىٰ الإِسْلَامِ؟**» قَالَ: نَعَمْ، فَدَعَاهَا؛ فَأَقْبَلَتْ حَتَّىٰ وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهَا: «**ارْجِعِي مَكَانَكِ**»، فَرَجَعَتْ إِلَىٰ مَكَانِهَا، فَقَالَ رُكَانَةُ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ لَكَ أَنْ تُصَارِعَنِي؟ قَالَ: «**وَمَا تَجْعَلُ لِي إِنْ صَرَعْتُكَ؟**» قَالَ: مِائَةً مِنَ الغَنَمِ، فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ لَكَ فِي العَوْدِ؟ فَقَالَ: «**مَا تَجْعَلُ لِي؟**» قَالَ: مَائَةً أُخْرَىٰ، فَصَارَعَهُ فَصَرَعَهُ، وَذَكَرَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا وَضَعَ جَنْبِي فِي الأَرْضِ أَحَدٌ قَبْلَكَ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْكَ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَقَامَ عَنْهُ، وَرَدَّ عَلَيْهِ غَنَمَهُ[2].

ورغم هذه القوة والعنفوان في الشباب، واستطاعته إلحاق الهزيمة بركانة، وهو من المصارعين العرب الذين لم يصرعهم أحد كما قال ركانة نفسه للنبي ﷺ: «مَا وَضَعَ جَنْبِي فِي الأَرْضِ أَحَدٌ قَبْلَكَ»؛ ومع ذلك ما عُرِفَ عنه قبل البعثة

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٧١)، وحسنه الشيخ الألباني في «غاية المرام» (٣٧٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٩٥٤٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح السيرة النبوية» (١/ ٢١٧) وقال: رواه أبو بكر الشافعي بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أو بعدها أنه اعتدىٰ علىٰ إنسان ، وما تناول بيده مخلوقًا قط ، وما عُرِفَ أنه دخل في شحناء ؛ لأنها لم تكن من شأنه ، وما أَشِرَ (بَطِرَ) ، وما تكبر ، وما طغىٰ .

نبينا.. حبيبنا ﷺ..

وكان النبي ﷺ أميًا ، لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، وكان يصل الرحم ، ويَقري الضيف ، ويحمل الكَلَّ ، ويَكْسِبُ المعدوم ، ويُعين علىٰ نوائب الحق ، وكان أبو بكر نديمًا له (صاحبًا ومسامرًا) في الجاهلية ، وكان ﷺ أحبَّ رجلٍ في الناس إلىٰ حكيم بن حزام في الجاهلية ، وقبل بعثته بعشرين سنة أو قريبًا من عشرين سنة أتت قريشٌ كاهنةً ، فقالوا لها : أخبرينا بأقربنا شبهًا بصاحب هذا المقام (إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ) ، فقالت : إن أنتم جررتم كساءً علىٰ هذه السهلة ، ثم مشيتم عليها أنبأتكم ؛ فجرُّوا ، ثم مشىٰ الناس عليها ، فأبصرت أثر محمد ﷺ ، فقالت : هذا أقربكم شبهًا به .

وحَدَّثَ جَارٌ لِخَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ لِخَدِيجَةَ : «**أَيْ خَدِيجَةُ ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ، وَاللهِ لَا أَعْبُدُ أَبَدًا**» قَالَ : فَتَقُولُ خَدِيجَةُ : خَلِّ اللَّاتَ ، خَلِّ الْعُزَّىٰ ، -قَالَ : كَانَتْ صَنَمَهُمُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَ- ، ثُمَّ يَضْطَجِعُونَ[١] .

العزلة في غار حراء صنعت قلبًا.

حين قارب سن محمد ﷺ الأربعين كان لابد من تهيئة خاصه لقلبه وعقله وروحه ؛ لاستقبال الرسالة واحتمال تكاليفها ، وتهيئة جسده أيضًا لتلقِّي الوحي ، فكان أن نشأ لديه حبٌّ للعزلة والانفراد والبعد عن الناس ، وفي هذه العزلة كان يقضي وقته في النظر إلىٰ الكون والتأمل والتدبر والتفكر .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٦٢) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط وقال : إسناده صحيح رجاله رجال الشيخين .

فكان يهجر مكة ويمضي إلىٰ غار حراء، وهو غار علىٰ بُعْدِ بضعة أميال من تلك القرية الصاخبة بشركها ودنياها وتجارتها وصراع أهلها وشهواتهم، كان يدخل هذا الغار وهو في رأس جبل من الجبال المشرفة علىٰ مكة، والتي ينقطع عندها لغو الناس وحديثهم الباطل، ويبدأ السكون الشامل المستغرق في هذه القمة الساحقة المنزوية.

كان محمد ﷺ يأخذ معه زاده من طعامه وشرابه لليالي الطوال، وينقطع هناك عن العالمين متجهًا بفؤاده إلىٰ رب السمٰوات والأرض والجبال الذي فطرهن وهو بكل شيء عليم، في هذا الغار المهيب كانت نفسه الكبيرة الطاهرة تُطِلُّ من عليائها علىٰ ما تَمُوج به الدنيا من فتن ومغارم واعتداء واستكبار، ثم تتقطع نفسه حسرة وحيرة؛ لأنها لا تجد من ذلك مخرجًا، ولا تجد له علاجًا، ويقضي وقته في العبادة والتفكر فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة وإبداع.. وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المُهَلْهَلَةِ، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه سبيل واضحة، ولا يعرف من نفسه منهجًا محددًا، ولم يدله أحد علىٰ طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله له؛ ليعدّه لما ينتظره من الأمر العظيم؛ ففي هذه العزلة كان يخلو إلىٰ نفسه، ويخلُص من زَحْمَةِ الحياة وشواغلها الصغيرة؛ ويفرغ لتأمُّل عظمة الكون، ودلائل الإبداع، وتَسْبَحُ روحه في هذا الوجود، وتتعانق مع هذا الجمال وتلك المتعة وذلكم الإبداع، وتبحث عن الحقيقة الكبرىٰ للوجود والحياة، وتمرَّن علىٰ التعامل مع الخلق والكون في إدراكٍ وفَهم.

ولابد لأي رُوح يراد لها أن تؤثِّر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرىٰ.. لابد لهذه الروح من خَلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض، وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

لابد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة.

فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستنيم له ، فلا تحاول تغييره ، أما الانخلاع منه فترة ، والانعزال عنه ، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل التافهة ؛ فهو الذي يؤهل الروح الكبيرة لرؤية ما هو أكبر ، ويُدَرِّبه علىٰ الشعور بتكامل ذاته دون حاجة إلىٰ عُرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العُرف الشائع !

وهكذا دبَّر الله لمحمد ﷺ وهو يُعِدُّه لحمل الأمانة الكبرىٰ ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ . . دبَّر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ، ينطلق في هذه العزلة شهرًا من الزمان ، مع معاني الوجود الطليقة ، ويتدبر ما وراء الوجود من غيبٍ مكنون ، حتىٰ يحينَ موعدُ التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

وفي غار حراء كان محمد ﷺ يَتَعَبَّد ويُصَقِلُ قلبه ، وينقي روحه ، ويقترب من الحق جَهْده ، ويبتعد عن الباطل وُسعه حتىٰ وصل من الصفاء إلىٰ مرتبة عالية انعكست بها أشعة الهداية علىٰ صفحة قلبه المجلوَّة بهذه الخَلوَة ؛ فأصبح لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِئ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ- اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا(١) .

أشعة الهداية قبل أنوار البعثة :

وكان مما بشَّره الله به قبل نزول الوحي عليه أنه ظل مدة يسمع صوتًا ويرىٰ نورًا ، وحدَّث بذلك خديجة فطمأنته .

---

(١) أخرجه البخاري (٣) ، ك : الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي لرسول الله ﷺ .

فَعَنْ عَمَّارِ بْنِ أَبِي عَمَّارٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «**إِنِّي أَرَىٰ ضَوْءًا وَأَسْمَعُ صَوْتًا، وَإِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ بِي جَنَنٌ**»، قَالَتْ: لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ أَتَتْ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنْ يَكُ صَادِقًا فَإِنَّ هَذَا نَامُوسٌ مِثْلُ نَامُوسِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ بُعِثَ وَأَنَا حَيٌّ فَسَأُعَزِّزُهُ وَأَنْصُرُهُ وَأُومِنُ بِهِ[1].

من تلك الأشعة أيضًا قول رسول الله ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»[2]، قيل: هو الحجر الأسود.

وثبت أيضًا أنه كان يذهب لحاجته إلىٰ المُغَمَّس - وهو علىٰ بعد ميلين أو ثلاثة من مكة - فجعل لا يمر علىٰ شجر أو حجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله، وظل علىٰ ذلك مدة ستة أشهر قبل الأربعين، فلما تمت له أربعون سنة نزلت عليه الرسالة.

وقبل أن ندخل إلىٰ خِضَمِّ البعثة وانطلاقة الرسالة؛ تعالوا لنلقي نظرة علىٰ وجه الأرض وعمق التاريخ قبل نزول الوحي مباشرة؛ وذلك من خلال نصوص الشرع بغير تعليق:

حالُ الأرض عند بعثته

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ؛ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ**»[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣١٢)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٧)، ك: الفضائل، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر.

(٣) صحيح مسلم (٢٨٦٥)، ك: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

❁ لقد بُعث ﷺ علىٰ أشد حال بعث عليها نبي قبله في فترة عمياء، وجاهلية سوداء، إلىٰ قوم لا يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان.

❁ وكان رسول الله ﷺ يوم بعثته تمامَ الثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً، هو خيرُهم وأحبُهم إلىٰ الله.

❁ وكانت أمته تمام سبعين أمة، هم خير هذه الأمم وأكرمها علىٰ الله.

❁ قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّىٰ كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»[1].

❁ وبعث كما أخبر فقال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»[2].

❁ وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة، وأُرْسِلَ رسول الله ﷺ للناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

❁ وخُتِمَ به النبيون؛ فهو خاتمهم، وختمت به النبوة والرسالة، قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَىٰ بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُطِيفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ مِنْهُ وَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا بُنْيَانًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِلَّا مَوْضِعَ هَذِهِ اللَّبِنَةِ، فَكُنْتُ أَنَا هَذِهِ اللَّبِنَةَ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤)، ك: المناقب، باب: فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١٠٠)، ك: الإيمان، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٣٤٥).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري: ٣٣٤٢)، ك: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، ومسلم (٢٢٨٦)، ك: الفضائل، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين.

بصائر

① الكعبة أول بيت وُضِعَ للناس ، والحج إليها وإقامة المناسك فيها من شعائر هذا الدين ، ووجود الكعبة أمان للناس ؛ فالدين قائم وباقٍ بوجودها وبقائها وتعظيمها ، فإذا ترك الناس الحج سَنَةً لم يُنْظَرُوا أن يهلكوا .

② كل ما كان لله ينبغي أن يُنَزَّه عما يدنسه من شوائب الدنيا ، والله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبًا ، فمن شاب عملَه بما لا يليق بجلال الملك عَزَّوَجَلَّ رُدَّ عليه عملُه ولم يقبل ؛ كذلك لا يقبل الله من العمل إلا ما كان له خالصًا وابْتُغِيَ به وَجْهُه .

③ فطنة النبي ﷺ وذكاؤه في صغره مع تسديد الله له . . . صَنَعَ له كلُّ ذلك رصيدًا في قلوب الناس ، وثقتهم فيه .

④ لا إيثار في الطاعة ولا في القربات فمتىٰ لاح لك خير فسارع إليه ، وإن استطعت ألا يسبقك إلىٰ الله أحدٌ فافعل ، أراد أهل مكة الاستئثار ببناء الكعبة ، وإن قصرت بهم النفقة ؛ ليكون الفضل في ذلك لهم وحدهم دون سائر الناس ، والفضل لصاحبه يُنسب .

⑤ اصطفىٰ الله العليمُ الحكيمُ أكملَ الخلقِ وأزكىٰ الخلق ليقوم بأعباء أخطر رسالة ؛ حيث سيتحمل أتباعه دورًا كان منوطًا من قبل بالأنبياء ، وقد كان ؛ حيث ربىٰ رسول الله ﷺ جيلًا كان الواحد منهم أمة ، ومن بعدهم يبقىٰ علىٰ مر الزمان علماء يجدِّدون للناس ما اندرس من دينهم ويذكرونهم سبيل ربهم ، وهؤلاء هم ورثة النبي محمد ﷺ ؛ فهل أنت منهم؟!

انْوِ ذلك واعمل ، تُوَفَّقْ له إن شاء الله .

٦ بالنصيحة الخالصة الصادقة تُحْفَظُ الحرمات ، وَتُعَظَّمُ الشعائر ، وَتَخْضَعُ لها الملوك ، فكن صادقًا مخلصًا إذا نصحت ، ولا تغفل عن تقديم النصح لإخوانك أبدًا .

٧ بحسن المعاملة يكون تعلق الناس بك وحرصهم علىٰ قربك ؛ لأنهم يرون في إيمانك ومعاملتك رِيًّا لظمئهم ، وشبعًا لمسغبتهم ، وأُنسًا لوحشتهم .

٨ لا يمكن للعقل المجرد أن يعرف الغيب ولا الحلال من الحرام ، فبالعقل وحده يضل الإنسان ، فلابد من نور الشرع ، والاستسلام الكامل لِحُكْمِ الله ، فيلتقي نور الشرع بنور العقل فيحصل الاهتداء .

٩ إذا ضعف سلطان الهوىٰ قوي سلطان الحق ، وإذا انتصر المرء علىٰ شهوة نفسه استقام له حكم عقله ، فالعقل يناقض حكمه حكم الهوىٰ والشهوة .

١٠ كان النبي ﷺ فصيحًا بليغًا ، فصل الكلام ، حلو المنطق ، فاقتدِ بنبيك واسلك سبيله في ذلك ، وكن مخلصًا في السر تكن فصيحًا في العلانية .

١١ إن الخُلق الحسن يؤثر في الدعوة إلىٰ الحق بما لا يؤثر البرهان العقلي والحجة القوية ، فالخلق الحسن أقوىٰ برهان ، وأساس الحجة الدامغة .

١٢ القويُّ الكامل في قوته من يُسَخِّر قوته في نصرة الحق وأهله ، ولا يستكبر بقوته وشجاعته ، والقوي حقًّا من يملك نفسه عند الغضب .

١٣ أَمْلَكُ الخَلْقِ لنفسه رسولُ الله ﷺ ، فقد تحمَّل أذىٰ قريشٍ ، وما علمنا أنه دخل في مشاجرة مع كافر آذاه ، وهذا برغم القوة البدنية التي أوتيها رسول الله ﷺ ؛ فنفسه أكبر وأعلىٰ من ذلك .

١٤ لابد لكل نفس مؤثرة داعية من عزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة ؛ ليحقق في خلوته جمعية القلب علىٰ الله .

بَدْءُ الوَحْيِ

ستة أشهر مضت على هذه التربية الربانية والإعداد الروحي لتلقي الأمر العظيم . .

ستة أشهر يرى ضوءًا ويسمع صوتًا وتسلم عليه أحجار وأشجار ، ويرى رؤى كفلق الصبح . .

ستة أشهر ومحمد ﷺ مستغرب خائف وَجِلٌ يخشى أن يكون ما به شيء من الكهانة أو الجنون - وكلها بغيضة إلى نفسه - ، وكلما شكا لخديجة زوجه الحنون طمأنته وبشرته وثبتته .

وكلٌّ يترقب . . . ماذا بعد هذه الرؤى ؟ وماذا بعد هذه الرؤيا التي رآها في المنام ؟

وكان في هذا الزمان قد استشعر حبًا وألفة لغار حراء ؛ فزاد مُكْثه به ولَبْثُهُ فيه ، فكان يأخذ الطعام والماء ويخلو فيه ، يتعبد الليالي ذوات العدد ، وهي التي لا تطول فتُمَلّ ، ولا تقصر فتُكَلّ ، فكانت تؤتي ثمرتها ، ثم يعود كل مدة يتزود لمثلها .

وغار حراء هو غار في جبل النور ، وهذا الجبل يبعد عن مكة بأقل من خمسة عشر كيلو مترًا الآن على يسار المارّ إلى مِنى ، له قُلّة مشرفة على الكعبة منحنية ، والغار في تلك الحَنْيَة ، وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع ، وعرضه ذارع وثلاثة أرباع الذراع .

وفي يوم الاثنين الرابع والعشرين من رمضان ، وقد وافق هذا اليوم العاشر من شهر أغسطس سنة ستمائة وستة عشر ، نزلت أول الآيات ، وأشرقت الأرض بأول هالات النور الربانيّ ، قال رسول الله ﷺ : «**أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَلاثَ عَشْرَةَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ ، وَأُنْزِلَ القُرْآنُ لأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ**»[1] .

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣٧٤٠) ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٩٧) .

فبينما النبي ﷺ يجلس وحده في الغار، حيث لا أنيس ولا جليس ولا حس ولا صوت هناك إلا صوت السكون والريح، وحيث لا وجود به للبشر ولا غيرهم؛ إذا به يفاجأ بنور يملأ المكان، ويدخل عليه جبريل عليه السلام،
عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَىٰ خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء.

جَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي (ضمَّني وعصرني حتىٰ حبس نفسي) حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَىٰ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» (أي: لفوني وغطوني)، فَزَمَّلُوهُ حَتَّىٰ ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي»، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ:

كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ[(١)].

وقبل الاسترسال في سرد هذه الوقائع المتلاحقة، وشرح هذا الحديث بكامله لأهميته؛ لابد لي من وقفة مع قصة بدء الوحي؛ وذلك للفت النظر لأهمية قضية الوحي، واتصال الأرض بالسماء.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣)، ك: بدء الوحي، ومسلم (١٦٠)، ك: الإيمان، باب: بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ.

فما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟

حقيقته أن الله العظيم الجبار القهار المتكبر القاهر فوق عباده ، مالك الملك كله ، قد تكرم في عليائه علىٰ هذه الخليقة المسماة بالإنسان ، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكادُ يُرىٰ والمسمىٰ بالأرض ، وكَرَّمَ هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها مرةً أخرىٰ وأخيرةً ليتلقىٰ وحيه وكلامه ويكون مُستودع حكمتِه ، ومهبِط كلماتِه ، ونموذجًا للعبد الذي يريده ، وهذه حقيقة كبيرة ، تَتَكَشَّفُ جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان -إذا استطاع أن يتصور قدر طاقته- حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية ، ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية ، ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ، ويتذوق حلاوة الشعور باهتمام الله به ، ويبعث محمد ﷺ له ، ويتذوق حلاوة الشعور بإنزال الله كلامه إليه ، وتفهيمه إياه ، وعنايته به ، وأن دله علىٰ صراطه المستقيم وما يحبه ويرضاه ، وأن وصف له جنته بكلامه ، فيتلقىٰ كل ذلك بالخشوع والشكر والفرح والابتهال .

يالها من لحظات وهو يتصور كلمات الله تتجاوب بها جنبات الوجود كله ، مُنَزَّلَة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة!

ثم ما دلالة هذا الحادث؟

دلالته – في جانب الله ﷻ – أنه ذو الفضل الواسع ، والرحمة السابغة ، الكريم الودود المنان ، يُفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة ، غير أن الفيض والعطاء تكرمًا منه ﷻ لا استحقاقًا من العبد ؛ فلا أهل الأرض ولا غيرهم من المخلوقات يستحقون هذه العناية والرعاية الكريمة من الله العظيم .

ودلالته – في جانب الإنسان – أن الله قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها ، ولا يملك أن يشكرها . .

وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضىٰ عمره راكعًا ساجدًا .

وعمومًا : فإنه ومنذ هذه اللحظة -لحظة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾- عاش أهل الأرض ؛ الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة ، حقيقة الوحي ، وحقيقة الرسالة ، وحقيقة الهداية ، وحقيقة اتصال السماء بالأرض ؛ عاشوا في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة ، يتطلعون إلى أوامر الله مباشرة في كل أمرهم ، كبيره وصغيره ، يحسون ويتحركون على مراد الله ، وآيات الوحي تنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة ، تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب ، وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتنزلَ عليهم من الله وحيٌ يحدثهم بما في نفوسهم ، ويَفْصِلُ في مشكلاتهم ، ويقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك !

لقد كانت فترة عجيبة حقًا ، فترة الثلاثة والعشرين عامًا التالية ، والتي استمرت فيها هذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملأ الأعلى ، فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها ، وأحسوها ، وشهدوا بدايتها ونهايتها ، وذاقوا حلاوة هذا الاتصال ، وأحسوا آيات الله تنقل خطاهم في الطريق ، ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا ، وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض ، المسافة بين التلقي من الأرض والتلقي من السماء ، بين الاستمداد من الهوى والاستمداد من الوحي ، بين الجاهلية والإسلام ، بين البشرية والربانية .

إن الذين عاشوها والذين يعيشونها اليوم هم الذين يعرفون مذاقها ، ويدركون حلاوتها ، ويشعرون بقيمتها ، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقًا ، ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

عن أنس رضي الله عنه قال : قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ رضي الله عنه : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ ، فَقَالَا لَهَا : مَا يُبْكِيكِ؟ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ؟!

فَقَالَتْ : مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ ؛ وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا[١] .

يالقلب ام أيمن رضي الله عنها !!

ويالفهمها وعمق إدراكها !!

ويالها من كلمة تستجلب الدموع !!

لقد وُلِدَ الإنسان من جديد باستمداد قِيَمِهِ من السماء لا من الأرض ، واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوىٰ ، لقد تحول خط التاريخ ، ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض ، وتبينت خطوطه ومعالمه ، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

فلا غموض ولا إبهام ؛ إنما هو الضلال عن علم ، والانحراف عن عمد ، والالتواء عن قصد ، قال رسول الله ﷺ : **«قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»**[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) ، ك : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أم أيمن رضي الله عنها .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٦/٤) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح بطرقه وشواهده ، وهذا إسناد حسن .

بصائر

(١) اختارَ الله لخيرِ أمةٍ خيرَ رسولٍ وأنزل عليه أفضل كتاب ، وَسَرَتْ هذه الخيرية في دماء الصحابةِ حتىٰ هاضوا الأمم وحملوا إليهم أنوار الهداية ؛ فهل تعود إلينا هذه الخيرية في الواقع العملي؟-ليتها تعود- ، أنت فرد من الأمة ، إذا عملت لذلك وعمل غيرك عاد للأمة خيريتها ، فما الأمة إلا مجموعة أفراد ، فخيرية الأمة مرهونة بخيريتك أنت ، وأنت بذاتك صورة من شخصية الأمة .

(٢) الزوجة العاقلة الصبور من أعظم ما يعين المرء علىٰ تحمل الأعباء الثقيلة والقيام بالمهام الجسيمة ، كذلك كانت خديجة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ خير نصير وناصح .

فليت الشباب يحرصون علىٰ توفر العقل الراجح والخلق القويم في شريكة الحياة .

(٣) من أعظم اللحظات التي مرت بها الأرض لحظةُ نزول الوحي ، ومجيء جبريل عليه السلام إلىٰ رسول الله ﷺ في غار حراء ، وأشد لحظة أصابت الأرض بالكآبة والحزن ؛ ساعة انقطع الوحي بوفاة رسول الله ﷺ .

(٤) صناعة الأخلاق وصَقْلُها في الداعية أهم وأوجب من تزويده بالمعلومات ؛ إذ إن الأخلاق والسلوكيات السديدة هي التي تأْسِرُ القلوب وتستميل النفوس إلىٰ الحق الذي يعتنقه ذلك الداعية .

(٥) كل امرئٍ مخبوء تحت لسانه ، فإذا تكلم عرفت حقيقته ، والبلاغة الآسرة علامة علىٰ صفاء النفس وقوة الروح ، فليت الدعاة ينهلون من بحور البلاغة القرآنية والنبوية ويجمِّلون بها منطقهم !!

(٦) لا يستغني العقل أبدًا عن نور الوحي ؛ فما العقل إلا كالعين لا يمكنها أن تبصر إلا في الضياء والنور ، فإذا حُجِبَتْ عن العقل أنوارُ الشرع تردَّىٰ في التيه والضلال ، وباء بالحيرة والوبال .

غَطَّةٌ مِن جَهْدٍ

وقد يقول قائل : لماذا كانت بداية الوحي بهذه الشدة والمعاناة التي عانىٰ منها النبي ﷺ حيث قال : «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّىٰ بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي» حتىٰ إنه قال في رواية : «فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ وَأَنَا نَائِمٌ بِنَمَطٍ مِنْ دِيبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ فَقَالَ : اقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَقْرَأُ؟ فَغَتَّنِي حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَنَّهُ الْمَوْتُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي»[1]؟!

والجواب : أنه كان لابد من هذه الغَطَّة التي تضع حدًا فاصلاً بين عهد الرَّخاوة وعهد حمل الأمانة بحزم وعزم ووفاء ، لقد غَطَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نبينا محمدًا ﷺ ثلاثًا في غار حراء في أول لحظات نبوته ، فضمه إلىٰ صدره ضمًا شديدًا حتىٰ استنفد كل طاقته ، وكأنه يضع في داخله قوة إلىٰ قوته وَيَنْزِعُ منه كل ضعف أو وهن ، بدليل أنه حين أرسله قال له بمنتهىٰ الثقة والحسم : اقرأ ، وكأنه يقول له : ستقرأ ، ولعل تكرار هذه الغطة ثلاثًا يوحي بشيء من ذلك ، فلما تأكد من رسوخ القوة والفهم عنده حين قال : ماذا أقرأ؟ بخلاف الجواب الأول : ما أنا بقارئ ، هنا عَلَّمَهُ شديدُ القوىٰ ، ذو مِرَّةٍ فاستوىٰ .

إنها غطة العزم.. غطة الحزم.. غطة الإفاقة.. غطة الانطلاقة..

ومما يدعو إلىٰ التأمل أيضًا أن أول كلمة تنزل من الوحي ﴿اقْرَأْ﴾ وهو النبي الأمي المرسل إلىٰ أمةٍ أميَّة ، قال رسول الله ﷺ : «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ»[2] ؛ ولكنها صارت أمة القراءة منذ ذلك اليوم ، وصار العِلْمُ دينًا ، وصار الدين علمًا .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في سيرته (١/ ١٠٠) ، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١/ ٨٧) .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري (١٨١٤) ، ك : الصوم ، باب قول النبي ﷺ : «لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ» ، ومسلم (١٠٨٠) ، ك : الصيام ، باب : وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال .

يقول جمال الدين القاسمي: «وإنما أوثرت بعثته ﷺ في الأميين العرب، فقد كانوا لا يُجيدون القراءة؛ لأنهم أحدُّ الناس أذهانًا، وأقواهم جَنانًا، وأصفاهم فطرة، وأفصحهم بيانًا، لم تفسد فطرتهم بغواشي المتحضِّرين، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين؛ ولذا انقلبوا إلىٰ الناس بعد الإسلام بعلم عظيم، وحكمة باهرة، وسياسة عادلة قادوا بها معظم الأمم».

نعم، عَلَّمَتِ الأمَّةُ الأميَّةُ الدنيا العلمَ وصارت أُمةَ العلم، يقول أحد المؤرخين الغربيين وهو من غير المسلمين: «والإنسان يقضي العجب من الهمة التي أقدم بها العرب علىٰ البحث، وإذا كانت هناك أمم قد تساوت هي والعرب في ذلك؛ فإنك لا تجد أمة فاقت العرب علىٰ ما يحتمل: فالعرب كانوا إذا ما استولوا علىٰ مدينة صرفوا هممهم إلىٰ إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، فإذا ما كانت تلك المدينة كبيرة أسسوا فيها مدارس كثيرة، ومنها المدارس العشرون التي روىٰ بنيامين التُّطِيْلي المتوفىٰ (١١٧٣م) أنه شاهدها في الإسكندرية، وهذا عدا اشتمال المدن الكبرىٰ كبغداد والقاهرة وطُلَيْطِلَة وقُرطبة وغيرها علىٰ جامعات محتوية علىٰ مختبرات ومَرَاصِد ومكتبات غنية، وعلىٰ كل ما يساعد علىٰ البحث العلمي، فكان للعرب في إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة، وكان في مكتبة الخليفة «الحَكَمُ الثاني» بقرطبة وحدها سِتُّمِائَة ألف كتاب، منها أربعة وأربعون مجلدًا من الفهارس، كما روىٰ مؤرخو الغرب أنفسُهم وهم الذين قالوا: إن شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمائة سنة أن يجمع في مكتبة فرنسا المَلَكِيَّة أكثر من تِسعمائة مجلد يكاد يكون ثُلثُها خاصًا بعلم اللاهوت».

فانظر كيف اهتم المسلمون بالعلم بعد أن كانت الأمةُ أميَّةً، فلما نزلت ﴿اقْرَأْ﴾ كانت نقطة التحول الكبيرة في تاريخ هذه الأمة؛ فصارت أمةَ العلم والثقافة والمعرفة، وفاقت كل دول العالم في كل شيء في هذا الجانب، وما العلوم الاجتماعية والفلكية، بل والطبية والهندسية التي لدىٰ أوربا اليوم إلا نتاج أصول اجتهادات العلماء العرب المسلمين، وكانت أوربا والغرب كله

عالةً علىٰ المسلمين أيام كان المسلمون يعيشون في كَنَفِ الدين ورعايته، فلما تخلوا عن هذا الدين وزهدوا فيه وتركوه؛ كان هذا التخلف الذي تراه اليوم.

ويوم يعود المسلمون للقرآن والسنة، ويعيشون بهما حياتهم ستعود إليهم مكانتُهم وريادتُهم وشرفُهم وعزُهم إن شاء الله تعالىٰ: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

يا لها من زوجة!!

ثم إن مما لا ينبغي تجاوزه أيضًا في قصة بدء الوحي: موقف السيدة خديجة رضي الله عنها لمّا قال لها: «زَمِّلُونِي» قامت إليه فزملته وأدفأته ولم تُلِحّ عليه في معرفة ما به حتىٰ أخبرها الخبر، وهذا من الأدب الراقي والنفسية السليمة المستقيمة للمرأة الصالحة في تعاملها مع زوجها أوقات المحن والشدائد.

ولما قال لها في بداية كلامه: «أَيْ خَدِيجَةُ مَا لِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسِي» بادرته بقولها: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا[1].

سبحان الملك!! والله إنني ليتملكني الإعجاب والدهشة بل والانبهار بهذه الجملة من تلكم المُوَفَّقَة أمي أم المؤمنين خديجة رضوان الله ورحماته وبركاته عليها، إن هذه الجملة وحدها لتسكب علىٰ قلب الإنسان ثباتًا هو أحوج الناس إليه، وإنه لمَرْهَمٌ نافعٌ يُطَيِّبُ قلب من يرجف فؤاده ويتزلزل جسده من هول موقف لا يعرف له تفسيرًا.

ثم تابعت قولها بالأدلة؛ لِتُطَمْئِنَ قلبه أكثر، إن هذا الكلام ليس مجاملة زوجة لزوجها؛ بل هي الحقيقة فعلاً التي هي علىٰ يقينٍ منها؛ ليزداد بذلك طمأنينة إلىٰ طمأنينة وثباتًا علىٰ ثبات، فقالت: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣)، ك: بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ ومسلم (١٦٠)، ك: الإيمان، باب: بدء الوحي لرسول الله ﷺ.

إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَىٰ نَوَائِبِ الْحَقِّ، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة.

يا لها من زوجة! ويا لها من أم!

إنها اختيار الله لنبيه، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا، قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»[1].

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل أيضًا علىٰ قوة قلبها، حيث لم تفزع من سماع الخبر من رسول الله ﷺ، وهو مفاجأة غير متوقعة، بل ومخيفة في الوقت نفسه؛ لكنها استقبلت الأمر بهدوء وسكينة، فلم تَزِدْ من ارتباك زوجها وخوفه؛ بل طيبت قلبه بالثناء الحَصِيفِ والبُشرىٰ الطيبة، وكان موقفها كذلك يدل علىٰ سَعَةِ إدراكها؛ حيثُ قارنت بين ما سمعت من النبي ﷺ وبين واقعه، فاستعملت عقلها وخبرتها في الحياة، ولم تستفزها العاطفةُ وحدَها لتتألم لألمه وتهتم لهمه بدون تفكر؛ وإنما أدركت أن مَنْ جُبِلَ علىٰ مكارم الأخلاق لا يُخزيه الله أبدًا، وسارعت فأخبرته بذلك.

كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلىٰ إيمانها الفطري، وإلىٰ معرفتها بسُنَنِ الله في خلقه، وإلىٰ يقينها بما يملك محمد ﷺ من رصيد الأخلاق، وفضائل الشمائل، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثلُه في حياته الطبيعية التي يعيش بها مع الناس، وإلىٰ ما ألهمت بسوابق العناية الربانية التي شهدت آياتها من حفاوة الله بمحمد ﷺ في مواقف لم تكن من مواقف النبوة والرسالة، ولا من إرهاصاتها المعجزة، وأعاجيبها الخارقة؛ ولكنها كانت من مواقف الفضائل الإنسانية السارية في حياة ذوي المكارم من أصحاب المروءات في خاصة البشر.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١١٧)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

كانت خديجة رضي الله عنها مُوقِنةً بأن زوجها فيه من خصال الفطرة الكمالية ومحاسن الأخلاق الرصينة، وفضائل الشيم المرضية، وأشرف الشمائل العلية، وأكمل النحائل (الهِبات) الإنسانية؛ ما يضمن له الفوز ويحقق له النجاح والفلاح، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة علىٰ الكمال المحمدي، لقد استنبطت خديجة من اتصاف محمد ﷺ بتلك الصفات علىٰ أنه لن يتعرض في حياته للخزي أبدًا؛ لأن الله فَطَره علىٰ مكارم الأخلاق، وضَرَبَتِ المَثَلَ بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها، لأن الإحسان إما إلىٰ الأقارب أو إلىٰ الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما علىٰ من يستقل بأمره أو لا يستقل، وذلك كله مجموع فيما وصفته به، ولم تعرف الحياة في سننها الكونية أن الله جَمّل أحدًا من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذاقه الخزي في حياته، ومحمد ﷺ بلغ من المكارم ذُروتها، فطرةً فَطَرَهُ الله عليها، لا تُطَاوَل ولا تُسَامَىٰ.

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدور مهم في حياة النبي ﷺ؛ لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم علىٰ الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والحكمة والحزم وغير ذلك من مكارم الأخلاق، والرسول ﷺ قد وفقه الله لهذه الزوجة المثالية؛ لأنه سيكون قدوة للعالمين.

ثم لم تكتفِ خديجةُ رضي الله عنها بإظهار يقينها وطمأنة قلب زوجها بكلامها، بل تحركت وأسرعت؛ لتبحث بعلم عن مصدر ما جرىٰ لزوجها، ولم يكن أقرب إليها وأعلم بهذا الحال في وقته وزمانه من ابن عمها ورقة بن نوفل.

لا أدري أهي فَرِحَةٌ بما توقعته من خير عظيم يجيء لزوجها ونور عميم ينبثق من بيته؟! أم هي فَرْحَةُ اللقاء دائمًا تدفع إلىٰ الحركة؟ تحركت وخرجت وبحثت وسألت، والظاهر أنها كانت تحكي لورقة عما تراه من زوجها وما يحدث معه وله بِنْ رؤىٰ وغيره، حتىٰ نقلوا عن ورقة قوله:

لَجِجْتُ وَكُنْتُ فِي الذِّكْرَىٰ لَجُوجًا ... لِهَمٍّ طَالَمَا بَعَثَ النَّشِيجَا

وَوَصْفٍ مِنْ خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍ ... فَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يَا خَدِيجَة

بِأَنَّ مُحَمَّدًا سَيَسُودُ يَوْمًا ... وَيَخْصِمُ مَنْ يَكُونُ لَهُ حَجِيجَا

إلىٰ آخر ما نقل عنه في ذلك، فكأنها كانت تتوقع وتترقب ذلك.

ومهما يكن فقد وَجَدَت من نفسها رغبة للعمل في الموضوع الذي طرأ، وتوقعت منه أن يغير مجرىٰ حياتها، قامت فجمعت ثيابها، ثم انطلقت مع محمد بن عبد الله ﷺ إلىٰ ورقة بن نوفل، وكان ورقة من الحنفاء الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله، واختار النصرانية؛ إذ كان يعرف العبرانية (لغة اليهود)، فدرسها، ودرس التوراة، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية، ويظهر أنه عَلِمَهَا ديانةً وحدانية.

وقد بلغ علم ورقة بالعبرية أنه كان يكتب بها ويقرأ ويدرس، فكان علىٰ علم بالبشارات التي جاءت في التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ، وهي تبشر برسولٍ اسمه أحمد، وقد بلغ ورقةُ الشيخوخةَ فنضج فكرُه، وقد جاءت إليه ابنة عَمِّه خديجة بنت خويلد، وكان بصره قد كُفَّ، قالت خديجة في هذا اللقاء: «يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَىٰ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَىٰ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا (شابًا)، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ»، قال النبي ﷺ متعجبًا -إذ كيف ينطق بالحق، ويخرجوه؟!-: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!»، وتلك هي براءة الفطرة، قبل أن يُمَرِّسَهُ الله بشدائد الدعوة، وقبل أن يلقىٰ الباطلَ في طَغْوائه بالحق في نوره.

قال ورقة الذي علم أخبار النبيين، وما لقوا من بأساء وضراء وشدائد: نَعَمْ - أي هم مخرجوك -؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.

إن هذه كلمة ورقة ، وهي ثمرة الدراسة العميقة لتجارب الأنبياء ، وهذا أيضًا موقف لا ينبغي أن نتركه بغير ما تعليق ؛ فإن به يتبين لنا كيف هيأ الله الأمر كاملاً للنبي محمد ﷺ ، فيسخّر له ورقة بن نوفل ليطمئن قلبه ويثبت يقينه ويصدّق قول زوجته ويبشره ، ويخبره في صراحة ووضوح وجزم أنه نبيُّ هذه الأمة ونبي آخر الزمان .

ثم مع هذه البشرىٰ العظيمة لابد أن يعلم بتبعاتها وآثارها ، بأنه سيخرجه قومه ، الضريبة المفروضة والثمن المبذول الذي لابد منه ، ويطمئن قلبه بأن المقصود ليس شخصه وإنما : «لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ» .

إنه عداء الباطل للحق ، وعداء الظالمين لمن يريد حق المظلومين ... وعداء .. وعداء .. عداء لا ينتهي .

وهكذا جاءت البشرىٰ لرسول الله ﷺ بالرسالة علىٰ هذا الهول أنه سيخرجه قومه ، وأن ذلك لابد أن يكون «لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ» ، قال تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

وكان موقف زوجه خديجة رضي الله عنها منه من أشرف المواقف التي تحمد لامرأة في الأولين والآخرين: طمأنته حين قلق ، وأراحته حين جَهِد ، وذكرته بما فيه من فضائل ، مؤكدة له أن الأبرار أمثاله لا يخذلون أبدًا ، وأن الله إذا طبع رجلاً علىٰ المكارم الجزلة والمناقب السمحة فَلِكَيْمَا يجعله أهلَ إعزازه وإحسانه ، وبهذا الرأي الراجح والقلب الواسع الصالح استحقت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها أن يُحَيِّيَها ربُّ العالمين ؛ فيرسل إليها بالسلام مع الروح الأمين عليه السلام .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : أَتَىٰ جِبْرِيلُ عليه السلام النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : «يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ (لؤلؤ مجوف) ،

لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ»[1] .

إنها أقامت بيتًا للنبي ﷺ فيه الهدوء والبركة والأمن والسلام يلقىٰ في خارجه غبار الصَّخَب ، وعناء النَّصَب ؛ فكتب الله لها بيتًا من قصب فيه الراحة التامة ، وفيه الرونق والجمال ، فيلتقي فيه جمال المنظر بلطف الهدوء بعد اللغوب ، والجزاء من جنس العمل .

شعاع الحق ينتشر

اطمأن رسول الله ﷺ علىٰ نفسه وتيقن من أنه الوحي ، وانطبعت الآيات التي تلقاها من جبريل عليه السلام علىٰ صفحة قلبه ، وبدا وكأنه إنسان جديد .

نعم إنه إنسان جديد ، إن الجنين بعد نفخ الروح فيه يُنشِئُهُ الله خلقًا آخر ، والأنبياء بعد اتصال الوحي بهم وسريان روحه الجديدة في أرواحهم يتحوّلون بشرًا آخرين ، لا يدانيهم غيرهم أبدًا في مَجَادَةٍ وإشراف (مكانةٍ ومنزلةٍ وشرفٍ) .

وهذا التغير الملحوظ سِرٌّ تذكير الله لمحمد ﷺ بقدرة الله عز وجل في خلق الإنسان من علق : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] .

إنَّ خَلْقَ الله سبحانه هذا الإنسان العجيب من علقة طفيلية ، هو سبحانه الذي سيسوق بنعمته الخير ليجعل محمدًا ﷺ بشرًا رسولاً ، يقرأ بعد ما كان أميًا ، ويقود ويسوس ويسود : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣] .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٦٠٩) ، ك : المناقب ، باب : تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ، ومسلم (٢٤٣٢) ، ك : فضائل الصحابة ، باب : فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها .

وكأن الأربعين عامًا السابقة من عمر النبي محمد ﷺ يومٌ واحدٌ ، وبدا الوحي صبيحة يوم جديد ، لقد كانت النقلة الجديدة في حياته ﷺ بعيدة المدىٰ ، إنها النبوة ! ! ألا ما أجمل هذا الفضل المُقْبِل ! لقد عَرَف محمد ﷺ معرفة اليقين أنه أضحىٰ نبيًا لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه إنما هو سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء ! إلا أن الروعة التي انتابته من هذه الصلة بين إنسان ومَلَكٍ ، تركت في نفسه أثرًا من الجَهْد ، كأنما كان يعالج عملاً مرهقًا صعبًا ، ولا عجب ؛ فقد ظل يعاني من التنزيل شدة ، أمدًا طويلاً !

وشاء الله أن يفتُر الوحيُ بعد ابتدائه مرة واحدة ؛ وذلك حتىٰ يكون تشوُّفُ وتشوقُ وتطلعُ الرسول ﷺ وارتقابُه لمجيئه سببًا في ثباته واحتماله عندما يعود ، ومع ذلك ؛ فإن الطاقة البشرية قد ناءت أمام وطأته .

والوحي قد يكون إلهامًا ينضح علىٰ القلب بمراد الله عز وجل ، وهذا أخف أنواعه ، ولكن له مراتب شتىٰ بعضها أصعب وأشد من بعض ، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **«أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»** ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا[1] ، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه إلىٰ فخذ زيد بن ثابت ، قَالَ زَيْدٌ : فَثَقُلَتْ فَخِذُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ فَخِذِي حَتَّىٰ خَشِيتُ أَنْ تَرُضَّهَا (تكسرها)[2] ، وقد يأتي أيسر من ذلك وأخف .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٢) ، ك : بدء الوحي ، ومسلم (٢٣٣٣) ، ك : الفضائل ، باب : عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ١٨٤) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «زاد المعاد»: وَكَمَّلَ اللَّهُ لَهُ -أي لرسول الله ﷺ- مِنْ مَرَاتِبِ الْوَحْيِ مَرَاتِبَ عَدِيدَةً:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ ﷺ، وَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ.

الثَّانِيَةُ: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوْعِهِ وَقَلْبِهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَىٰ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**»[1].

الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا، فَيُخَاطِبُهُ حَتَّىٰ يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ لَهُ، وَفِي هَٰذِهِ الْمَرْتَبَةِ كَانَ يَرَاهُ الصَّحَابَةُ أَحْيَانًا.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ﷺ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَيَتَلَبَّسُ بِهِ الْمَلَكُ حَتَّىٰ إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّىٰ إِنَّ رَاحِلَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ رَاكِبَهَا، وَلَقَدْ جَاءَ الْوَحْيُ مَرَّةً كَذَٰلِكَ وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِ زَيْدٍ رضي الله عنه فَثَقُلَتْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ كَادَتْ تَرُضُّهَا.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ ﷺ يَرَى الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُوحِيَهُ، وَهَٰذَا وَقَعَ لَهُ مَرَّتَيْنِ كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ ذَٰلِكَ، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣-١٤].

السَّادِسَةُ: مَا أَوْحَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ؛ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السَّابِعَةُ: كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ﷺ مِنْهُ إِلَيْهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ، كَمَا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ ثَابِتَةٌ لِمُوسَىٰ قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا ﷺ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٦٦)، وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» (٢٨٦٦).

ومرة أخرى نتساءل: لِمَ كانت أوائل الوحي بهذه المثابة من الشدة؟ ولماذا لَمْ يبدأ نزول القرآن إلهامًا في منام، أو إلهامًا في يقظة علىٰ نحوِ ما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوْعِي** (روحي) **أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّىٰ تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا؛ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[1].

أوليس هذا أبعد عن دواعي الفزع والإعياء؟؟

والجواب: إن نزول القرآن اتخذ هذه الطريقة أول الأمر، ونزول المَلَك به في هذا المظهر قطعًا لكل شبهة في أن القرآن - ألفاظًا ومعاني - من عند الله، وأن محمدًا ﷺ حُمِّلَهُ تحميلاً بعد أن اصْطُفِي له واخْتُصَّ به، فهو ليس افتعالَ عابد منقطع تخيَّل فخال، ولا صناعة فيلسوف يجيد سوق الأدلة وتنميق المقال؛ إنما هو كلام الأحد الحق الكبير المتعال، نزل بالحق علىٰ النبي ﷺ يقظة جهرة، قال ﷻ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١-١٢].

لكل شِرَّة فَتْرَة...

عَرَفَ النبيُّ ﷺ معرفةَ اليقين أنه أصبح نبيًا لله الكريم الرحيم، ولما بَشَّره وحذَّره ورقةُ بن نوفل علِم النبي ﷺ أيضًا أنه يحمل تكليفًا كبيرًا، وأنها منزلة كبيرة يعلو فيها بإنسانيته.

وإنَّ صِدْقَ النبي ﷺ أربعين سنة مع قومه واشتهاره فيهم بذلك؛ يستدعي أن يكون قبل ذلك صادقًا مع نفسه؛ ولذا توقف ﷺ وقضىٰ وقته الكافي في دراسته لحالة الوحي، حتىٰ حصل له اليقين العقلي والقلبي، فأصبح المرهوبُ محبوبًا مرغوبًا، وبعد أن كان يخشىٰ لقاءَ الرُّوح القُدُسِ جبريل عليه السلام صار يتمنىٰ أن يلقاه ويتلقىٰ أمر الله ويستجيب له، ويحمل الأمانة التي اختاره الله لها.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٦٦)، وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» (٢٨٦٦).

وكان يتوقع أنه سيراه مباشرة بعد أن يعود إلىٰ الغار ، وعاد النبي ﷺ إلىٰ الغار مرة أخرىٰ مسرعًا شغوفًا مشتاقًا مستشرفًا هذه المرة متطلعًا ، ولكن لم يجئ جبريل عليه السلام وفتر عنه ؛ فحزن ﷺ حزنًا شديدًا واغتم لذلك ، وطالت المدة وامتلأت نفسه ﷺ بالقلق والاضطراب ، حتىٰ كان يصعد إلىٰ رؤوس شواهق الجبال يتطلع إلىٰ السماء وكأنه يستمطرها الوحيَ ويطلب من الله عز وجل المدد .

طالت هذه المدة أيامًا عديدة ؟! لم تَطُلْ كثيرًا ؛ بل أيامًا معدودة ؛ ولكنها كانت ثقيلة طويلة علىٰ قلب رسول الله ﷺ ، وهي - والله أعلم - كانت أولاً امتحانًا لصبر رسول الله ﷺ وتدريبًا له عليه ، فتلقي الوحي معاناةٌ ، وانقطاعه معاناةٌ أيضًا .

ثم هي ثانيًا : إشارة له أن الأمر ليس بيده ولا علىٰ هواه إنما هو عبد : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢] ، فهو مَجلٌ فقط لفضل الله ورحمته ينتظر ما يُفيضُ الله الكريم به علىٰ عبده .

وفجأة وفي يوم من الأيام ذهب النبيُّ ﷺ إلىٰ غار حراء ينتظر أن ينزل عليه الروح القدس جبريل عليه السلام ، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : «ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الْوَحْيُ فَتْرَةً ، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ ؛ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧] ، فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ»[١] .

وهنا بنزول سورة المدثر نزل الأمر لرسول الله ﷺ بالإنذار والبلاغ ، وبدأت مرحلة جديدة خطيرة من حياة رسول الله ﷺ ، وسمع رسول الله ﷺ وأطاع ، وبدأ رحلة الدعوة الشاقة .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٤) ، ك : بدء الوحي ، باب : كيف كان بدء الوحي ، ومسلم (١٦٠) ، ك : الإيمان ، باب : بدء الوحي إلىٰ رسول الله ﷺ .

ولكن من أين يبدأ؟ عاد إلى أهل بيته؛ خديجة رضي الله عنها، وبناته رضي الله عنهن.

خديجة رضي الله عنها أول من آمن:

لقد آمنت خديجة رضي الله عنها منذ أن التقى محمد بن عبد الله ﷺ بروح القدس جبريل عليه السلام، وعاد إليها يرجف فؤاده، وأخبرها ورقة بن نوفل بمكانة محمد ﷺ، وأنه رسول هذا الزمان وأنه لا نبي بعده، آمنت به منذ الابتداء، وكان إيمانها أمنًا وسلامًا، فقد كانت هي السكن الذي يأوي إلى ما فيه من رحمة وسط عنف المعارضة، وشدة المقاومة، وآزرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وصدَّق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رَدٍّ عليه وتكذيبٍ له، فيحزنه ذلك؛ إلا فَرَّجَ الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدِّقه وتهوِّن عليه أمرَ الناس؛ وبذلك صارت لها منزلة فوق منزلة نساء الأنبياء أجمعين، بل صارت لها منزلة في الذروة بين نساء العالمين حتى صارت واحدة من فضليات النساء في الخليقة، مع مريم العذراء التي خاطبتها الملائكة من السماء، فقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ**»[1]، فقد حازت أعلى الدرجات، وتبوأت مراتب الفضل السامية التي لا تطال ولا تحصل إلا لمثلها رضي الله عنها.

وأخبر ﷺ أنها من خير نساء العالمين هي وبَضْعَةُ رسول الله ﷺ وبضعتها، فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ﷺ**»[2].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٦٠٤)، ك: المناقب، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضائلها رضي الله عنها، ومسلم (٢٤٣٠)، ك: فضائل الصحابة، باب: فضل خديجة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٩٥١)، ك: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: ذكر خديجة بنت خويلد بن أسد رضي الله عنها زوج رسول الله ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٣٢٨).

بيت النبوة سباق إلى الإسلام:

وكذلك سارع إلىٰ الإسلام بناتُ النبي ﷺ، كلٌ من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة، ورقية؛ فقد تأثرن قبل البعثة بوالدهن في الاستقامة وحسن السيرة، والتنزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام والوقوع في الآثام، وقد تأثرن بوالدتهن؛ فأسرعن إلىٰ الإيمان، وبذلك أصبح بيت النبي ﷺ أول أسرة مؤمنة بالله منقادة لشرعه في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانةٌ عظمىٰ في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ لما حباه الله به من مزايا وخَصَّه بشرف الأسبقية في الإيمان وتلاوة القرآن وإقام الصلاة؛ فهو:

❁ أول مكان تُلي فيه وحي السماء بعد غار حراء.

❁ وهو أول بيت ضم المؤمنة الأولىٰ سابقة السبق إلىٰ الإسلام رضي الله عنها.

❁ وهو أول بيت أقيمت فيه الصلاة.

❁ وهو أول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثلاثة السابقون إلىٰ الإسلام، خديجة وعلي وزيد بن حارثة.

❁ وهو أول بيت تعهد بالنصرة، ولم يتقاعس فيه فرد من أفراده كبارًا أو صغارًا عن مساندة الدعوة.

يحق لهذا البيت أن يكون قدوةً، ويحق لربَّتِه أن تكون مثالاً ونموذجًا حيًا لبيوت المسلمين ولنسائهم ورجال المؤمنين كافة، فالزوجة فيه طاهرة مؤمنة مخلصة، وابن العم الذي حضنه النبي ﷺ وكَفَلَهُ مستجيبٌ ومعضِّد ورفيق، والابن بالتبني مؤمن صادق مساعد ومعين، والبنات مصدقات مستجيبات مؤمنات ممتثلات، لقد اكتسىٰ هذا البيت بأبهىٰ حُلَلِ الإيمان وأضاء أركانه قبسُ نور التصديق، فكان بين الزوجين التجاوب والتكافل وتم بذلك تجسيد معنىٰ قوله عز وجل في محكم تنزيله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ

مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّنْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وفيه أيضًا تجسيد ما ورد عن رسول الله ﷺ في مجال التربية من قوله: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1]، ومن استقامة التربية كانت بناته رضي الله عنهن من السابقات إلىٰ التصديق والإيمان، وهكذا كان للبيت النبوي مكانته الأولىٰ، والواجب يدعو إلىٰ أن يكون هذا البيت هو قدوتنا، والأنموذج الذي نسير علىٰ هديه في المعاشرة ومثالية السلوك بالصدق والتصديق، في الاستجابة والعمل لكل من آمن بالله ربًا وبمحمد نبيًا ورسولاً، إن الحقيقة البارزة في المنهج الرباني تشير إلىٰ أهمية بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة، كأول حلقة من حلقات الإصلاح والبناء، ثم المجتمع الصالح.

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من اليوم الأول للإسلام علىٰ وجه الأرض، إذ كان من قدر الله أن يكون أول السابقين إلىٰ الإسلام:

امرأة: خديجة رضي الله عنها، إشادة بمنزلة المرأة في الإسلام، وأنه يرسي قواعده علىٰ الأسرة.

وصبي: علي رضي الله عنه، إشارة لحاجة الدعوة إلىٰ البراعم الجديدة، واهتمامها بالجيل الناشئ؛ لتسير في مراحلها الصحيحة لبناء المجتمع ثم الدولة ثم الحضارة.

ومولىٰ: زيد بن حارثة رضي الله عنه، إشارة لتوجيه الدعوة إلىٰ جميع أفراد الأمة بجميع طبقاتها وفئاتها الاجتماعية.

وإن التأمل في نقطة البدء بهذه الدعوة التي توجهت إلىٰ امرأة كخديجة،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٢٩٢)، ك: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم (٢٦٥٨)، ك: القدر، باب معنىٰ: «كل مولود يولد علىٰ الفطرة» وحكم موت أطفال الكفار.

ومولًى كزيد بن حارثة ، وصبي كعلي بن أبي طالب ، وبقية أسرة النبي ﷺ ؛ لتدل دلالة واضحة على أن الدعوة الإسلامية موجهة لكل الناس صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، وسيدهم ومولاهم ، فلكل هذه الشرائح الاجتماعية من الرجال والنساء والأطفال والموالي ، دوره المنتظر في البناء الاجتماعي ، وإقامة الدولة ، وانتشار الحضارة .

النور يسري إلى أبي بكر رضي الله عنه

ثم فاض النور من بيت محمد ﷺ وانبثق انبثاقًا كبيرًا خارج البيت ، ولكنه لم يذهب بعيدًا ، فالدعوة ما زالت في مهدها تسري كالنور يتسرب رويدًا رويدًا ، فقد ذهب يضيء قلوب أصدقائه الذين وُصِلَتْ نفوسُهم بِنَفْسِهِ ، وكان أولهم ومقدمهم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وهو رجل مكتمل يقارب الأربعين من عمره .

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول من آمن بالنبي ﷺ من الرجال الأحرار والأشراف ، فهو من أخص أصحاب رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وفيه قال رسول الله ﷺ : **«مَا دَعَوْتُ أَحَدًا إِلَى الإِسْلَامِ إِلَّا كَانَتْ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ ، وَتَرَدُّد وَنَظَر ، إِلَّا أَبَا بَكْرٍ ، مَا تَلَعْثَمَ حِينَ دَعَوْتُهُ ، وَلَا تَرَدَّدَ فِيهِ»**[1] ، فَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه صاحب رسول الله ﷺ ، وهو حسنة من حسنات النبي ﷺ ، لم يكن إسلامه إسلام رجل ، بل كان إسلامه إسلام أمة ، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها ؛ فقد كان :

- رجلًا مألوفًا لقومه محببًا سهلًا .
- وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر .
- وكان رجلًا تاجرًا مُوسِرًا من الأغنياء وأصحاب الوجاهة .
- وكان ذا خُلُقٍ ومعروفٍ وشمائلَ وسجايا آسرة .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٣) .

وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ويجالسونه لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته .

لقد كان أبو بكر ﷺ كنزًا من الكنوز ادخره الله لنبيه ﷺ ، وكان من أحب قريش لقريش ، فذلك الخلق السمح الذي وهبه الله إياه جعله من الموطئين أكنافًا ، من الذين يَألَفون ويُؤلَفون ، والخلق السمح وحده عنصر كاف لألفة القوم وهو الذي قال فيه ﷺ : «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبو بَكْرٍ»(١) .

وعلم الأنساب وعلم التاريخ هما أهم العلوم عند العرب ، ولدى أبي بكر الصديق ﷺ النصيب الأوفر منهما ، وقريش تعترف للصديق ﷺ بأنه أعلمها بأنسابها وأعلمها بتاريخها وما فيه من خير وشر ، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علمًا ولا تجد عند غيره غزارة ووفرة وسعة مثلما تجد عنده ، ومن أجل هذا كان الشباب النابهون والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائمًا ، إنهم الصفوة الفكرية المثقفة التي تود أن تلقى عنده هذه العلوم .

وهذا جانب آخر من جوانب عظمته ﷺ .

وطبقة رجال الأعمال ، ورجال المال في مكة ، هي كذلك من رواد مجلس الصديق ﷺ؛ فهو إن لم يكن التاجر الأول في مكة ، فهو من أشهر تجارها ؛ فأرباب المصالح هم كذلك قُصَّاده ، ولطيبته وحسن خلقه يأتيه عوام الناس ويرتادون بيته ، فهو المضياف الدَّمِثُ الخُلُق ، الذي يفرح بضيوفه ، ويأنس بهم ، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه ، فكان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيمًا .

تخرج الدفعة الأولى:

ولذلك كله عندما تحرك أبو بكر ﷺ في دعوته للإسلام ؛ استجاب له صفوة من خيرة الشباب وهم :

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١) ، ك : المناقب ، باب : مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي ابن كعب وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٨١) .

* عثمان بن عفان ﷺ، وكان في الرابعة والثلاثين من عمره.
* عبد الرحمن بن عوف ﷺ، وكان في الثلاثين من عمره.
* سعد بن أبي وقاص ﷺ، وكان في السابعة عشرة من عمره.
* الزبير بن العوام ﷺ، وكان في الثانية عشرة من عمره.
* طلحة بن عبيد الله ﷺ، وكان في الثالثة عشرة من عمره.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر ﷺ، دعاهم إلىٰ الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلىٰ رسول الله ﷺ فُرادىٰ، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدِّعامات الأولىٰ التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العُدَّة الأولىٰ في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزه الله وأيده وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، رجالاً ونساء، وكان كُلُّ واحدٍ من هؤلاء الطلائع داعيةً إلىٰ الإسلام، وأقبل معهم رعيل السابقين الأولين، الواحد، والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا علىٰ قلة عددهم كتيبةَ الدعوة وحِصْنَ الرسالة، لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام.

إنَّ تَحَرُّكَ أبي بكر ﷺ في الدعوة إلىٰ الله يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدين والاستجابة لله ورسوله، صورةَ المؤمن الذي لا يَقَرُّ له قرار، ولا يهدأ له بال، حتىٰ يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دَفعةً عاطفية مؤقتة سَرعان ما تخمد وتذبل وتزول؛ بل تبقىٰ وتستمر وتزداد توقدًا وحماسة، وقد بقي نشاط أبي بكر ﷺ وحماسه إلىٰ أن توفاه الله ﷻ لم يفتر أو يضعف، ولم يمل أو يعجز، وصارت كلمته في حروب الردة نبراسًا لكل مسلم حين قال ﷺ: «لا ينقص الدين وأنا حيٌّ».

وهكذا، وبعد أن كانت صحبة الصديق ﷺ لرسول الله ﷺ مبنية علىٰ مجرد الاستئناس النفسي والخُلُقي، صارت الأُنْسَةُ بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في الشدائد، واتخذ رسول الله ﷺ من مكانة أبي بكر وأُنْسِ الناس به ومكانته عندهم قوةً لدعوة الحق، فوق ما كان له من قوة نفس، ومكانة عند الله وعند الناس.

ومضت الدعوة - سرية وفردية - على الاصطفاء والاختيار للعناصر التي تصلح أن تتكون منها الجماعة المؤمنة التي ستسعى لإقامة دولة الإسلام، ودعوة الخلق إلى دين رب العباد، والتي ستُقيم حضارة ربانية ليس لها مثيل.

الدُّفعة الثانية:

ثم جاء دور الدفعة الثانية، بعد إسلام الدفعة الأولى، فكان أول من أسلم من هذه الدفعة: أبو عُبَيْدَة بن الجراح، وأبو سَلَمَة عبد الله بن عبد الأسد ابن مخزوم بن مُرَّة ابن عمة رسول الله ﷺ بَرَّة بنت عبد المطلب، وأخوه من الرضاع، والأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجُمَحِي، وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقُدامة وعبد الله ابنا قُصَي، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب - وزوجة سعيد بن زيد - وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخَبَّاب بن الأرَتّ -حليف بني زُهْرَة- ﷺ، فكانوا «نبتة جديدة» آزرت أولئك السابقين، وبدأ الإسلام فعلاً يغزو بيوتات كبار كفار قريش؛ فيصبح له شوكة، وظل الأمر سرًا ويتسرب ببطء؛ ولكن بقوة وعفوية.

بداية تحمل أعباء الدعوة:

وأثناء تلك الأخبار نزلت سورة المدثر، تَنَبَّهَ الرسول ﷺ إلى أنه أصبح مسئولاً مسئولية مباشرة عن تحويل مجرى التاريخ وإصلاح العالم.

وتعال معي -أخي الحبيب- لنقف مع هذه السورة العظيمة وقفة سريعة؛ لنتأمل أوامر الله لرسوله ﷺ في بداية الدعوة؛ لتكون منهج دعوة وأسسًا لصناعة داعية، تعالَ لنتوقف مع الآيات، وكيف كانت الآيات قصيرة سريعة حاسمة محددة كلها أوامر وأوامر فقط، كأنها تعليمات صارمة تتطلب عملاً فوريًا بجد ودون تردد أو تلوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ١-٢].

إنها أوامر الكبير المتعال ودعوة مالك الأرض والسماء لنبيه العظيم ﷺ:

﴿قُمْ﴾ . .

قم للأمر العظيم الذي ينتظرك والعبء الثقيل الذي تهيأ لك . .
قم للجهد والنصب والكد والتعب . .
قم قد مضىٰ وقت النوم والراحة . .
قم وتهيأ لهذا الأمر واستعد . .

وإنها لكلمة عظيمة رهيبة تنتزعه من دفء الفراش ، في البيت الهادئ والحضن الدافئ لتدفع به في الخضم الهادر ، بين الزعازع والأنواء ، فلا مجال للتمتع وحظ النفس ؛ لأن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ، ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا ، فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير فما له والنوم ؟ وما له والراحة ؟ وما له والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ ؟! والمتاع المريح ؟!

ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره ، فقال لخديجة وهي تدعوه أن يطمئن وينام : «مَضَىٰ عَهْدُ النَّوْمِ يَا خَدِيجَةُ !» أجل مضىٰ عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق! علم رسول الله ﷺ أنَّ هنالك تكليفًا ثقيلاً ، وجهادًا طويلاً ، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء ، وهكذا حال حياة كل من يحمل هَمَّ الدعوة ، وهَمَّ إنقاذ هذه الأمة .

لقد قيل لرسول الله ﷺ : ﴿قُمْ﴾ . . فقام ، وظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا ! لم يسترح ، ولم يسكن ، ولم يعش لنفسه ولا لأهله ، قام وظل قائمًا علىٰ دعوة الله ، يحمل علىٰ عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به ، عبء الأمانة الكبرىٰ في هذه الأرض ، عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتىٰ ، لا يلهيه شأنٌ عن شأن خلال هذا الأمد ، منذ أن سمع النداء العلوي الجليل : ﴿قُمْ﴾ ، وتلقىٰ منه التكليف الرهيب : ﴿فَأَنذِرْ﴾ . .

صلىٰ الله وسلم وبارك عليه ، وجزاه الله عنا وعن البشرية كلِّها خيرَ ما جازىٰ نبيًا عن أمته ورسولًا عن قومه ﷺ ..

مبادئ الرسالة في سورة المدثر.

إن سورة المدثر ومعها سورة المزمل، إنما هما إعداد حقيقي، إعداد نفسي وقلبي وعلمي وجسدي ودعوي، إعداد للنهوض بالدعوة ومواجهة الدنيا كلها بدين الإسلام جهارًا نهارًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾

والإنذار هو أوضح ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

ثم يوجه الله رسولَه في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نِذَارة غيره، يوجهه إلىٰ تكبير ربه: كبِّر ربك فهو وحده الكبير، الذي يستحق التكبير.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾

ويوجهه إلىٰ التطهر، والطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملأ الأعلىٰ، وهي بعد هذا ضرورية لملابسة الإنذار والتبليغ، فإن تبليغ الدعوة يحتاج إلىٰ الطهارة الكاملة كي يملك الداعية استنقاذ الملوَّثين دون أن يتلوث، وملابسة المُدَنَّسين من غير أن يتدنس، ولك أن ترىٰ ذلك ملموسًا في حياة الأنبياء حين تعرف مثلاً قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، كيف قام بالدعوة في بيت العزيز المليء بالمفاسد ولم يتلوث من أدناسها بشيء، ثم قام بالدعوة إلىٰ الله في السجن ولم يتلوث أيضًا بمخالطة المجرمين وغيرهم.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾

ثم يوجهه ربه إلىٰ هُجْران الشرك وموجبات العذاب، ورسول الله ﷺ كان هاجرًا للشرك ولموجبات العذاب حتىٰ قبل النبوة.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾

ويوجهه إلىٰ إنكار ذاته وعدم المَنِّ بما يقدمه من الجهد، وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقىٰ الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكنَّ ربه يريد منه ألا يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به.. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفسٍ تحسُّ بما تَبْذُل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالعمل لله؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه، فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله، وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله، لا المن والاستكثار.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾

ويوجهه أخيرًا إلىٰ الصبر لربه، وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت، والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة، معركة الدعوة إلىٰ الله، المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء! وهي معركةٌ طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبرِ الذي يُقصد فيه وجهُ الله، ويُتَّجَهُ به إليه احتسابًا عنده وحدَه.

الإعداد من خلال سورة المزمل:

وبعد هذا التوجيه والتعليم والنصح في الدعوة نزلت سورة المزمل لتهيئة الشخصية الذاتية النفسية والقلبية؛ ففي هذه السورة الأمر بقيام الليل والصلاة وترتيل القرآن والذكر الخاشع المتبتل طيلة الليل، مع صدق التوكل علىٰ الله وحده، والصبر الطويل علىٰ احتمال الأذىٰ، والهجر الجميل للمكذبين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ١-٤].

إنه الإعداد للمهمة الكبرىٰ بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة : قيام الليل أكثره ، أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه ، وأقله ثلث الليل ، قيامه للصلاة وترتيل القرآن ، وهو مد الصوت به وتجويده .

وقد صح عن وِتْرِ رسول الله ﷺ بالليل أنه لم يتجاوز إحدىٰ عشرة ركعة ، ولكنه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلاً ، يرتل فيه القرآن ترتيلاً ، وثبت عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلىٰ فقرأ البقرة والنساء وآل عمران في ركعة ، ثم ركع فكان ركوعه نحوًا من قيامه .

عن سعيد بن هشام رضي الله عنه أنه أتىٰ ابن عباس رضي الله عنهما فسأله عن الوتر ، فقال : أَلَا أُنَبِّئُكَ بِأَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِوَتْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : ائْتِ عَائِشَةَ فَاسْأَلْهَا ، ثُمَّ ارْجِعْ إِلَيَّ فَأَخْبِرْنِي بِرَدِّهَا عَلَيْكَ ، قَالَ : فَأَتَيْتُها وقُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ ، قَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ : بَلَىٰ ، قَالَتْ : فَإِنَّ خُلُقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ثُمَّ بَدَا لِي قِيَامُ رَسُولِ اللهِ ، قُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] ، قُلْتُ : بَلَىٰ ، قَالَتْ : فَإِنَّ اللهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ وَأَصْحَابُهُ حَوْلاً حَتَّىٰ انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَصَارَ قِيَامُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَطَوُّعًا مِنْ بَعْدِ فَرِيضَتِهِ .

فَهَمَمْتُ أَنْ أَقُومَ ، ثُمَّ بَدَا لِي وَتْرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قُلْتُ : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْبِئِينِي عَنْ وَتْرِ رَسُولِ اللهِ ، قَالَتْ : كُنَّا نُعِدُّ لَهُ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ ، فَيَبْعَثُهُ اللهُ لِمَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَتَسَوَّكُ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَمَانِي رَكَعَاتٍ لَا يَجْلِسُ فِيهِنَّ إِلَّا عِنْدَ الثَّامِنَةِ ، فَيَجْلِسُ وَيَذْكُرُ رَبَّهُ عز وجل وَيَدْعُو وَيَسْتَغْفِرُ ، ثُمَّ يَنْهَضُ وَلَا يُسَلِّمُ ثُمَّ يُصَلِّي التَّاسِعَةَ ، فَيَقْعُدُ فَيَحْمَدُ رَبَّهُ وَيَذْكُرُهُ وَيَدْعُو ثُمَّ يُسَلِّمُ تَسْلِيمًا يُسْمِعُنَا ،

ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ ، فَتِلْكَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ رَكْعَةً يَا بُنَيَّ ، فَلَمَّا أَسَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَخَذَ اللَّحْمُ أَوْتَرَ بِسَبْعٍ ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَمَا يُسَلِّمُ ، فَتِلْكَ تِسْعٌ يَا بُنَيَّ ، وَكَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِذَا صَلَّىٰ صَلَاةً أَحَبَّ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَيْهَا ، وَكَانَ إِذَا شَغَلَهُ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ نَوْمٌ أَوْ وَجَعٌ أَوْ مَرَضٌ صَلَّىٰ مِنَ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً ، وَلَا أَعْلَمُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي لَيْلَةٍ ، وَلَا قَامَ لَيْلَةً حَتَّىٰ أَصْبَحَ ، وَلَا صَامَ شَهْرًا كَامِلًا غَيْرَ رَمَضَانَ[١] .

وكل هذا الإعداد من أجل القول الثقيل الذي سينزله الله عليه :

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾

هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، فأنزله الله علىٰ قلبٍ أثبت من الجبل يتلقاه .

❁ وإن تَلَقِّي هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه لثقيل ؛ يحتاج إلىٰ استعدادٍ طويل .

❁ وإن التعامل مع الحقائق ومواجهة البشر بها أمام الباطل والأكاذيب لثقيل ؛ يحتاج إلىٰ استعدادٍ طويل .

❁ وإن الاتصال بالملأ الأعلىٰ والتعامل مع الوحي والملائكة لثقيل ؛ يحتاج إلىٰ استعدادٍ طويل .

❁ وإن الاستقامة علىٰ هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تَلَفُّتٍ هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات ، لثقيل ؛ يحتاج إلىٰ استعدادٍ طويل .

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

﴿نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ هي ما ينشأ منه بعد العشاء ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾ أي : أجهد للبدن ،

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) : ك : صلاة المسافرين ، باب : جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض .

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أثبت في الخير؛ فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كَدِّ النهار، أشد وطئًا وأجهد للبدن، ولكنه إعلان لسيطرة غذاء الروح على شهوات البدن، واستجابة لدعوة الله: ﴿قُمْ﴾، وإيثار للأنس به؛ لأن للذِّكْرِ فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وإنها لَتَسْكُبُ في القلب أُنسًا وراحة وشفافية ونورًا، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره حيث المشوِّشات، والله عَزَّوَجَلَّ وهو يعد عبده ورسوله محمدًا ﷺ ليتلقى القول الثقيل وينهض بالعبء الجسيم، اختار له قيام الليل؛ لأن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلًا، ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيرًا من الطاقة والالتفات:

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

فلينقضِ النهارُ في هذا السَّبْح والنشاط،
وليَخلُصْ لربه في الليل، يقوم له بالصلاة والذكر:

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾

وذِكْرُ اسم الله عَزَّوَجَلَّ ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان؛ إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر؛ أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها، والتبتل وهو الانقطاع الكلي عما عدا الله، ولمَّا ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله، ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله، يَتجه إليه مَن يريد النجاة:

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

فهو ربُّ كُلِّ متجه .. رب المشرق والمغرب ..
وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو.

كانت هذه الآيات المتابعة إيذانًا لرسول الله ﷺ بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدوئه، وأن أمامه عمل عظيم يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار؛ فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقوَ على عنائه؛ فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته.

ولابد من تأصيل أصل خطير في هذه القضية ، وهو أن الدعوة إلىٰ الله عبادة وقربة يُتقرب بها إلىٰ الله ؛ بل وتكليف وأمر من الله تعالىٰ ، فهي فريضة .

فإذا رسخ في النفس أن هذا العمل عبادة وأداء فريضة ؛ فإن النفس تؤدي هذه العبادة علىٰ شرطيها : الإخلاص والمتابعة ، لابد من هذين الشرطين .

وحين يرتفع الإنسان إلىٰ هذا الأفق -أفق العبادة ، أو أفق العبودية- ويستقر عليه ؛ فإن نفسه تأنف حتمًا من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة ، ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا ، فالوسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنىٰ العبادة النظيف الكريم ، ومن جهة أخرىٰ فهو لا يُعَنِّي نفسه ببلوغ الغايات ؛ إنما يُعنىٰ بأداء الواجبات ، تحقيقًا لمعنىٰ العبادة في الأداء ، أما الغايات فموكولة لله ، يأتي بها وِفْقَ قَدَرِهِ الذي يريده ، ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلىٰ غاية أمرها إلىٰ الله ، وليست داخلة في حساب المؤمن العابد لله .

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال في جميع الأحوال ، سواء رأىٰ ثمرة عمله أم لم يرها ، تحققت كما قدرها أم علىٰ عكس ما قدَّرها ، فهو قد أنهىٰ عمله ، وضمن جزاءه عندما حقق شرطي العبادة واستراح ، وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته ، وقد علم هو أنه «عبد» ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود «العبد» ، وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقحَّم فيما هو من شؤون الرب ، واستقرت مشاعره عند هذا الحد ، ورضي الله عنه ، ورضيَ هو عن الله .

وهكذا تتجلىٰ جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة التي تقررها آية واحدة : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلِّها عندما تستقر حقًّا في الضمير.

بصائر

① الكفاح المرير ، والعمل الدءوب ، والبذل الصادق الذي يتعلمه الأنبياء والمرسلون ، ومن أجله يعملون ، لا يهدأون ولا يَمَلُّون ؛ هو دعوة الخَلْقِ إلىٰ الحق ، وتبصير العالمين بالهدىٰ ، وتلك هي قضية الدعاة الأولىٰ والأخيرة : « الله ابتعثنا لنُخرِجَ من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد » .

② ينبغي أن يُعَدَّ الداعية إعدادًا إيمانيًا ونفسيًا وعلميًا وجسديًا قبل انهماكه في معترك الحياة ومواجهة الناس ، وعلىٰ قدر هذا الإعداد يكون نجاحه في دعوته .

③ مما يُسَهِّل طريق الدعوة ويخفف الأعباء عن الداعية : اعتقاده أنه يعمل لحساب ربه الكبير العظيم جل جلاله الذي لا أكبر منه ولا أعظم ، فإذا أكبر الله حق التكبير في قلبه بذل ما في وسعه ولم يتردد في البذل لحظة .

④ الطهارة هي ألصق الصفات وأحق ما يتصف به كل داعية ، وعلىٰ قدر ما فيه من طهارة ظاهرة وباطنة يكون إنقاذه للمتلوثين المدنسين بالذنوب والمعايب .

⑤ هجر الشرك وأسباب العذاب هي نقطة البدء الأولىٰ في الدعوة ، وهي تخلية قبل التحلية .

⑥ ومما ينبغي أن يتعلمه الداعية ألا يستكثر عمله ، وألا يَمُنَّ به علىٰ ربه ؛ بل ينبغي أن يُنكر ذاته ؛ فما وُفِّق في دعوته إلا بتوفيق الله وتسديده ، ولولا ذلك لَضَلَّ .

⑦ الزاد الأصلي والأساسي في معركة الدعوة هو الصبر ، وقد قال لقمان لابنه : ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، فمن لا صبر له لا ثبات له على الدعوة ولا بقاء له بين أهل الهمم العالية .

(٨) قيام الليل مدرسة تثمر الإخلاص ، وتستنهض العزم ، وهي استلهامٌ لمعاني الإيمان ، وخَلوة حقيقية مع الملك لمناجاته ودعائه ، وهي تربية لمعاني الرجولة في الصدور والقلوب .

(٩) ترتيل القرآن هو تلقي الأوامر الصريحة والنصائح النافعة وتقوية القلب وتطهيره ، وتجديد للعهد مع صاحب الدعوة سبحانه وبحمده .

(١٠) من عاش لنفسه فقط قد يعيش مستريحًا ، لكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا ، فالذي يعيش بلا أهداف مهما خطط لنجاحه يخطط ؛ لكن للفشل .

(١١) كان الصِّدِّيق صورة صادقة للمؤمن الذي لا يَقِرُّ له قرار ولا يهدأ له بال حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به ، يأخذ بأيديهم إلى صراط ربه المستقيم ؛ شفقةً منه عليهم ، ورحمة منه بهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ»[1] ، وهكذا ينبغي أن نكون .

(١٢) إن شرائح المجتمع المسلم من رجال ونساء وأطفال لكل منهم دور منتظر في بناء الجسد الإيماني لهذه الأمة ؛ فإقامة الدولة وانتشار الحضارة يحتاج إلى بذل طوائف المجتمع المسلم جميعها ، كُلٌّ بحسبه وفي موطنه ومجاله .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩١) ، ك : المناقب ، باب : مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبي ابن كعب وأبي عبيدة بن الجراح ﷺ وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٩٨١) .

بَدْءُ الدعوة السرية

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله ﷺ يدعو إلىٰ الله وإلىٰ الإسلام سرًا، وكان طبيعيًا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه، وقد كان الخطاب الرباني له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

بذرة مجتمع مسلم:

وقد كان... فقد أنذر ﷺ أقرباءه ابتداءً؛ فكان أول الإسلام في بيت النبوة، وأول الدعوة كانت في بيت النبي ﷺ، وكان الذين يُكَوِّنُونه ويستطيعونه وكُلِّفوا به، وبلغوا حد الإدراك المميز للحقائق الدينية في الجملة، هم هؤلاء الثلاثة: خديجة بنت خويلد، الزوجة الطاهرة الوفية الأمينة الحانية علىٰ زوجها، وثانيهم علي بن أبي طالب ﷺ الذي كان فارسًا شجاعًا رغم صغر سنه، وهو الذي رباه النبي ﷺ، وثالثهم المولىٰ المخلص الذي أزال محمد بن عبد الله ﷺ عنه الرِّقَّ، ورفعه إلىٰ شرفه من ذؤابة قريش، حتىٰ إنه كان يقال: زيد بن محمد إلىٰ أن حرَّم الله ﷻ التبني، ولكنه ﷺ مع ذلك شريفٌ بالإسلام والإيمان، وشريف بحريته واحترام نسبه الأصلي، الذي لم يُسبق برق: إنه زيد بن حارثة.

ثم انطلق تيار الدعوة المباركة ليتغلغل إلىٰ نفوس الناس عامة، فيبهرهم نور الإسلام ويستهويهم.

ولم تكن الدعوة إلىٰ الإسلام تقتصر علىٰ جزء أو نوعية أو قطاع من المجتمع، بل لابد أن تتناول قطاعات المجتمع كله، ويتم هذا التناول عن طريق الاصطفاء الخاص من أفراده، ولذلك وجدنا أن هذه المرحلة السرية للدعوة قد استجاب لها وآمن بها من كل فئات المجتمع آنذاك: الأحرار والعبيد، الرجال والنساء، الشباب والشيوخ والفتيان، بل آمن بالله وأسلم مع رسول الله ﷺ أفراد

من شتى الفروع من قريش وغيرها ؛ حيث لا تكاد تخلو عشيرة في مكة من شخص أو اثنين شاركا في بناء هذا المجتمع الجديد للإسلام .

ولو استعرضنا توزيع الصحابة على القبائل الكبرى المشهورة في مكة في السنوات الثلاث للدعوة السرية ؛ لوجدناها كما يلي :

أولاً: بنو هاشم:

١) علي بن أبي طالب . ٢) جعفر بن أبي طالب .

٣) أم الفضل بنت الحارث (زوج العباس، واسمها لُبابة) .

٤) عبيدة بن الحارث .

٥) أسماء بنت عُمَيس (زوج جعفر) . ٦) خديجة بنت خويلد .

ثانيًا: بنو أمية:

١) عثمان بن عفان . ٢) خالد بن سعيد .

٣) أمينة بنت خالد (زوج خالد) . ٤) حاطب بن عمرو .

٥) عبد الله بن جحش . ٦) أبو أحمد بن جحش .

٧) عبيد الله بن جحش ، هاجر للحبشة وارتد نصرانيًا ، ومات عن أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، فتزوجها النبي ﷺ .

ثالثًا: بنو مخزوم:

١) أبو سلمة بن عبد الأسد . ٢) عَيَّاش بن أبي ربيعة .

٣) عمار بن ياسر (حليف) . ٤) أسماء بنت سلمة (زوج عياش) .

٥) ياسر بن عامر (حليف) . ٦) سمية بنت خياط (زوج ياسر) .

٧) الأرقم بن أبي الأرقم .

رابعًا: بنو تيم:

١) أبو بكر الصديق .
٢) أسماء بنت أبي بكر .
٣) طلحة بن عبيد الله .
٤) عامر بن فهيرة (مولىً) .
٥) بلال بن رباح (مولىً) .

خامسًا: بنو عَدِيّ:

١) سعيد بن زيد .
٢) فاطمة بنت الخطاب (زوجه) .
٣) عامر بن أبي ربيعة (حليف) .
٤) ليلىٰ بنت أبي حثمة (زوجه) .
٥) نعيم بن عبد الله النحّام .
٦) واقد بن عبد الله (حليف) .
٧) خالد بن البُكَير (حليف) .
٨) عامر بن البكير (حليف) .
٩) إياس بن البكير (حليف) .

سادسًا: بنو زُهرة:

١) سعد بن أبي وقاص .
٢) عبد الرحمن بن عوف .
٣) عُمَير بن أبي وقاص .
٤) عبد الله بن مسعود (حليف) .
٥) المطلب بن أَزْهَر .
٦) خَبَّاب بن الأَرَتّ (حليف) .
٧) رملة بنت أبي عوف (زوج المطلب بن أزهر) .

سابعًا: بنو سَهْم:

١) خُنَيْس بن حُذَافة .
٢) حفصة بنت عمر (زوجه) .

ثامنًا: بنو جُمَح:

١) حاطب بن الحارث . ٢) امرأته فاطمة بنت المُجَلِّل .

٣) خطاب بن الحارث . ٤) امرأته فُكَيْهَة بنت يسار .

٥) معمر بن الحارث (أخو حاطب وخطاب) .

٦) عثمان بن مظعون . ٧) السائب بن عثمان بن مظعون .

٨) عبد الله بن مظعون . ٩) قدامة بن مظعون .

تاسعًا: بنو أسد:

الزبير بن العوام .

عاشرًا: بنو عامر:

١) أبو عبيدة بن الجراح . ٢) سَليط بن عمرو .

احد عشر: قبائل متفرقة:

١) صُهَيْب بن سنان (رومي) . ٢) مسعود بن ربيعة القاري .

٣) أبو حذيفة مهشم بن عتبة بن ربيعة . ٤) زيد بن حارثة .

٥) عمرو بن عبسة (سلمي) .

وهكذا نرىٰ أن الستين الأوائل كانوا من كل قطاعات المجتمع المكي .

لقد كان ربع هذا المجتمع من النساء ، ومعظم الشباب المتزوجين أسلمت معهم زوجاتهم ، وعشن المرحلة السرية دون أن يدري بهن أحد ، وحافظن علىٰ السر وكتمنه دون أن نسمع شيئًا من إفشائهن له ، ولعلنا نعطي المرأة حقها من الاهتمام في مسيرة هذه الدعوة ، فتكون بجانب الرجل أختًا وزوجًا وأمًا ،

وتعيش همَّه ، بل تذكر بعض الروايات أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما من جنود هذه المرحلة ، رغم أنها ما زالت في طفولتها المتأخرة .

وقال ابن إسحاق رحمه الله : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً متتابعين من الرجال والنساء حتىٰ فشا ذكر الإسلام في مكة ، وتُحُدِّثَ به .

ويتضح من عرض الأسماء السابقة ، أن السابقين الأولين إلىٰ الإسلام كانوا خِيرةَ أقوامهم ، ولم يكونوا كما يحب أعداء الإسلام أن يصوروا للناس أنهم من حُثالة الناس ، أو من الأرِقَّاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك .

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أُشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرِقَّاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر ، ونسبة هذا العدد من العدد الكلي من الداخلين في الإسلام وهم ستون لا يقال : أكثرهم ، ولا معظمهم ، ولا عامتهم ؛ فإن الذين أسلموا يومئذ لم يكن يدفعهم دافع دنيوي ؛ وإنما هو إيمانهم بالحق الذي شرح الله صدورهم له ونصرةً لنبيه ﷺ ، يشترك في ذلك الشريف والرقيق والغني والفقير ، ويتساوىٰ في هذا أبو بكر وبلال ، وعثمان وصهيب رضي الله عنهم .

ونحن لا نريد أن ننفي وجود الضعفاء والأرقاء ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبية ؛ لأن هذا مخالف للحقائق الثابتة ، ولو كانوا كذلك لكانت دعوة طبقية يقوم فيها الضعفاء والأرقاء ضد الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ ، ككل الدعوات التي تقاد من خلال البطون ، إن هذا لم يَدُرْ بِخَلَد أيٍّ من المسلمين وهو يعلن إسلامه ، إنهم يدخلون في هذا الدين علىٰ اعتبارهم إخوة في ظل هذه العقيدة ، عباداً لله ، وإنه لمن القوة لهذه الدعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولىٰ بالذات من كرام أقوامهم ، وقد آثروا في سبيل العقيدة أن يتحملوا أصنافًا من الهوان لم يسبق لهم أن عانوها أو فكروا بها .

لقد كان الإسلام ينساب إلىٰ النفوس الطيبة والعقول النيرة، والقلوب الطاهرة التي هيأها الله لهذا الأمر انسيابًا لطيفًا، ولقد كان في الأوائل خديجة وأبو بكر وعلي وعثمان والزبير، وعبد الرحمن وطلحة، وأبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن جحش، وجعفر وسعد بن أبي وقاص، وفاطمة بنت الخطاب وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة ابن عتبة وغيرهم ﷺ، وهم من سادة القوم وأشرافهم.

هؤلاء هم السابقون الأولون الذين سارعوا إلى الإيمان والتصديق بدعوة النبي ﷺ.

وهنا قد يتساءل متسائل:

فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانت الدعوة سرية إذًا؟

أسباب وفوائد الدعوة السرية:

إن المتأمل لهذه الفترة وهذه المرحلة من حياة الدعوة يجد أن استخفاء الصحابة واستتارهم بدينهم كان فيه فوائد ومصالح كثيرة للمسلمين، ومن ذلك:

(١) كان الرجل إذا أسلم لم يتركه رسول الله ﷺ، بل يعلمه الإيمان ويتعاهده بالقرآن، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقد كانت آيات القرآن تنزل تباعًا وفيها التوجيهات الإلهية، وكان لابد لكل مسلم من معرفة ذلك، فهذه الآيات هي التي تقود الجماعة المسلمة في طريق الحق، وهي الإطار الذي يحفظ الإيمان الذي تعلموه من نبيهم ﷺ؛ لذلك وقفت قريش عقبة في سبيل هذا التبليغ قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولذلك كان تبليغ القرآن للمسلمين الجدد غير ممكن إلا في خفاء، فكان المسلمون يتلقون القرآن في البيوت فتصلهم الآيات مكتوبة، ويصل إليهم من يتلوها عليهم ويعلمهم إياها، كما كان يفعل سعيد ابن زيد رضي الله عنه وزوجته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها وخباب بن الأرت رضي الله عنه حينما طرق عليهم عمر

الباب وهم يقرؤون القرآن ويتدارسونه ، حتىٰ سمع عمر هَيْنَمَتَهُم به .

٢ كان في الإسرار بالدعوة تثبيت للصحابة ، فقد كانوا يذهبون سرًا إلىٰ دار الأرقم أو غيره من الأماكن التي يوجد فيها رسول الله ﷺ فيخفف آلامهم ويمسح جراحهم ويثبتهم ، وقد جاء أبو بكر ﷺ يومًا بعد أن ضُرب ضربًا شديدًا في المسجد ، جاء إلىٰ دار الأرقم فَأَكَبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبّله ، ورقَّ له رقة شديدة .

٣ كان في الإسرار بالدعوة كذلك ابتعاد عن الفتنة ، فمن سماحة الإسلام أنه لا يكلف أحدًا بما لا يطيق ، وبما أن الناس ليسوا جميعًا بمستوىٰ واحد في قدرتهم علىٰ تحمل الفتنة ، فإن الاستخفاء يتيح لبعضهم بعضَ الهدوء النفسي والأمان القلبي ولو إلىٰ مدة من الزمن قبل أن يكتشف أمرهم ، وقد كان ﷺ حريصًا علىٰ إبعاد الأذىٰ عن صحابته ﷺ ما أمكنه ذلك .

٤ كان في الإسرار بالدعوة كذلك تهيئة وإعداد للمؤمنين ، فقد كانت مرحلة الاستخفاء تهيئة لواقع جديد يتدرب فيه المسلم علىٰ المفاهيم الجديدة ، كما يتعرف علىٰ أعضاء مجتمعه الجديد مما يقوي صلة المسلمين ببعضهم ، ويقوي من رابطة الأخوة الإيمانية بينهم ، وهي رابطة جديدة بعد العصبية الجاهلية ، فكان لابد لها من بوتقة تصهرهم فيها ولو لمدة ، وكانت السرية أيضًا ليثبتهم رسول الله ﷺ ويرفع من معنوياتهم ، وهذا ما يجعلهم أكثر قدرة علىٰ تحمل البلاء عند وقوعه إذا ما انكشف أمرهم .

٥ ومن فوائد الإسرار بالدعوة أيضًا -والله أعلم- رصد حركة المشركين أعداء الدعوة ؛ بحيث يستطيع رسول الله ﷺ وأصحابه أخذ زمام المبادرة في الحذر منهم وإبطال ما يسعون إليه .

استمرار النبي ﷺ في الدعوة:

استمر النبي ﷺ في دعوته السرية يستقطب عددًا قليلاً نسبيًا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نِعم العون والسند للرسول ﷺ لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وقد كانت هذه المرحلة عصيبة في حياة دعوة الرسول ﷺ، فقد ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون شره، ويثقون به، وهذا يعني أن خطوات الدعوة بطيئة وحذرة، كما تقتضي صعوبة المواظبة علىٰ تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، ولا سيَّما إذا كان الداخل في هذا الدين مُلْزَمًا منذ البداية بالصلاة ودراسة ما تيسر من القرآن - مثلاً -، ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظهراني قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يختفون في الشِّعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة.

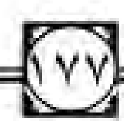
وهكذا سارت الدعوة هادئة بطيئة، وهي سنة كونية ربانية في دعوة الحق، أن تسير وسط الأشواك بحذر ولكن بقوة وثبات.

ومع ذلك أخذت الدعوة إلىٰ الإسلام تنتشر في مكة وتعمل عملها في أصحاب الأفئدة الكبيرة، فسرعان ما يطرحون جاهليتهم الأولىٰ ويَخِفُّون إلىٰ اعتناق الدين الجديد، وكانت آيات القرآن تنزل علىٰ القلوب التي استنارت بنور الإيمان كما ينزل الوابل علىٰ التربة الخصبة، قال ﷻ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

كان الصحابة ﷺ يتجمعون في تؤدة حول النبي ﷺ، ويلتفون حوله في حب وإعجاب، ويجلس رسول الله ﷺ بينهم يعلمهم ويربيهم ويبني إيمانهم.

والإيمان قوة جبارة،

إذا استمكنت من شعاب القلب وتغلغلت في أعماقه جعلت المستحيل ممكنًا.



إن الرعيل الأول يتكون ويتزايد على الأيام ، وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تُعِرْها اهتمامًا ، ولعلها حسبت محمدًا ﷺ أحد هؤلاء الحنفاء الديَّانين الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن الصَّلت وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل وأشباههم ؛ إلا أنها توجست خيفةً من ذيوع خبره وامتداد دعوته ، وأخذت تَرْقُب على الأيام مصيره ودعوته ، والرسول ﷺ مستمر .

إلام تدعو الناس؟

ولا يفوتنا أن نثبت هنا كيف كان رسول الله ﷺ يدعو قومه ، وإلام كان يدعوهم .

١ النبوة والرسالة :

بدأ رسول الله ﷺ دعوته بدعوة الناس إلى الإيمان ابتداءً بأنه نبي ورسول من عند الله ، وهذه وإن كانت شاقة على بعض النفوس إلا أنها كانت لازمة للتلقِّي منه بعد ذلك بيقين ، ومن ضِمْنِها التزام السمع والطاعة له ، ولعلها كانت السبب في نُفرة كثير من الناس عنه ، قال عز وجل : ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ، كانت هذه البداية : أن يُسلِّمَ المُسْلِمُ أن محمدًا رسولٌ من عند الله ، وطاعته من طاعته ، وتصديقه من شروط الإسلام .

٢ التوحيد :

كانت عقيدة قريش أن الله خالق السماوات والأرض ، وأنه هو الذي يرزقهم من السماء والأرض وكانوا يخلصون لله الدعاء في حالة الشدة ، ومع ذلك كانوا يتخذون الآلهة من دون الله من الأصنام وغيرها ويقولون : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ، أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ، حتى إنَّ أحدهم كان يعبد سبعة آلهة في الأرض مع الله الذي في السماء ، فإذا أصابه الضُّرُّ دعا الذي في السماء ؛ فجاء رسول الله لتصحيح هذه العقيدة ؛ فكانت المواجهة شديدة : ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ؛ ولكن العقول النيرة المتفتحة تعرف أنه الحق .

٣ الإيمان بالبعث بعد الموت.

وهذه أيضًا كانت شديدةً علىٰ نفوسهم ؛ بل هي الأشد ؛ لأن تصورات عقولهم لم تبلغها قط : ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ونجد أن القرآن الذي نزل في مكة كان يركز علىٰ التوحيد والإيمان بالآخرة ، وهذه من الأمور الغيبية ، ولعل الدعوة إليها كانت دعوة إلىٰ الاستسلام لله ولرسوله بالتسليم التام ، ولعل قضية الاستسلام للدين الجديد هي الأصل في هذه الدعوة ، وهي حَجَرُ الأساس الذي تدور حوله جميع المعاني .

٤ الصلاة.

كان في أوائل ما نزل الأمرُ بالصلاة ، قال ابن إسحاق : (وحدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت علىٰ رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو بأعلىٰ مكة ، فهَمَزَ له بِعَقِبِهِ (مؤخر القدم للإنسان) في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل عليه السلام ورسول الله ﷺ ينظر ؛ ليريه كيف الطهور ، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأىٰ جبريل عليه السلام ، ثم قام به جبريل فصلىٰ به ، وصلىٰ رسول الله ﷺ لصلاته ، ثم انصرف جبريل عليه السلام ، فجاء رسول الله ﷺ خديجة رضي الله عنها فتوضأ لها ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل ، فتوضأت كما توضأ رسول الله ، ثم صلىٰ بها رسول الله ﷺ كما صلىٰ به جبريل عليه السلام فصلت بصلاته)[1] .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلىٰ شعاب مكة ، وخرج معه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مستخفيًا من عمه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا .

قال مقاتل بن سليمان رحمه الله : «فرض الله في أول الإسلام الصلاة ركعتين

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٤٣)، و «الروض الأنف» (١/ ٤٢٢).

بالغداة وركعتين بالعشي»، والثابت قَطْعًا أنه ﷺ كان قبل الإسراء يصلي وكذلك أصحابه .

وهنا ؛ كان لابد لرسول الله ﷺ وأصحابه من مكان معروف للجميع يلتقون فيه ؛ ليتعلموا ويتعاضدوا ويستشعروا أُخوّة الإسلام وقوته ، فكان أن اختار رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم علىٰ الصفا ليلتقي فيها بأصحابه .

وكان اتخاذ دار الأرقم مقرًا لقيادة الرسول ، بعد المواجهة الأولىٰ التي برز فيها سعد بن أبي وقاص ﷺ؛ فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب ، فاسْتَخْفَوْا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص ﷺ في نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون حتىٰ قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص ﷺ يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحْيِ بعير فَشَجَّهُ ؛ فكان أول دمٍ أُهرِيق في الإسلام .

دار الأرقم.. المدرسة الأولى:

وبدأ المسلمون فعلاً التجمع بصفة دورية ومستمرة في دار الأرقم بن أبي الأرقم علىٰ الصفا ، وأصبحت دار الأرقم السرية مركزًا جديدًا للدعوة يتجمع فيه المسلمون ، ويتلقون عن رسول الله ﷺ كُلَّ جديد من الوحي ، ويستمعون له وهو يذكرهم بالله ، ويتلو عليهم القرآن ، ويصلُّون جميعًا هناك ، ثم هم يضعون بين يدي رسول الله ﷺ كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربيهم علىٰ عينه ، كما تربىٰ هو علىٰ عين الله ، وأصبح هذا الجمع هو قرة عين النبي ﷺ .

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسة للتربية والتعليم عرفتها البشرية ، كيف لا؟! وأستاذها هو رسول الله ﷺ أستاذ البشرية كلها ، وتلاميذها هم الدعاة والهداة ، والقادة الربانيون ، الذين حرروا البشرية من رق العبودية ، وأخرجوهم من الظلمات إلىٰ النور ، بعد أن ربَّاهم رسول الله ﷺ علىٰ عينه تربية غير مسبوقة ولا ملحوقة .

في دار الأرقم وَفَّقَ الله رسولَه ﷺ إلىٰ تكوين الجماعة الأولىٰ من الصحابة الذين نقلهم من هَبَاءِ الجاهلية إلىٰ نور الإيمان ، وأصبحوا جميعًا من عظماء الرجال ومشاهير العالم ، وصُنَّاع التاريخ البشري ؛ حين قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشرية ، وإن خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرجال في العالم ، وهم الذين قامت عليهم الدعوة والجهاد ، والدولة والحضارة فيما بعد ، فلم يَجُد الزمان بواحدٍ مثل أبي بكر الصديق أو عثمان بن عفان أو علي ابن أبي طالب ، أو سعد بن أبي وقاص ﷺ . . . . .

لقد استطاع الرسول المربي الأعظم ﷺ أن يربي في تلك المرحلة السرية ، وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد ، والجهاد والدعوة ؛ فدانت لهم الجزيرة ، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن .

كانت قدرةُ النبي ﷺ فائقةً في اختيار العناصر الأولىٰ للدعوة في خلال السنوات الثلاثة الأولىٰ من عمر الدعوة ، وتربيتهم وإعدادهم إعدادًا خاصًا ليؤهلهم لاستلام القيادة ، وحمل الرسالة ، فالرسالات الكبرىٰ والأهداف الإنسانية العظمىٰ لا يحملها إلا أفذاذ الرجال ، وكبار القادة ، وعمالقة الدعاة .

كانت دار الأرقم مدرسة من أعظم مدارس الدنيا ، وجامعات العالم ، التقىٰ فيها الرسول المربي ﷺ بالصفوة المختارة من الرعيل الأول (السابقين الأولين) ؛ فكان ذلك اللقاء الدائم تدريبًا عمليًا لجنود المدرسة علىٰ مفهوم الجندية ، والسمع والطاعة ، والقيادة وآدابها وأصولها ، ويشحذ فيه القائد الأعلىٰ جنده وأتباعه بالثقة بالله والعزيمة والإصرار ، ويأخذهم بالتزكية والتهذيب ، والتربية والتعليم ، كان هذا اللقاء المنظم يستثير العزائم ، ويقوي الهمم ، ويدفع إلىٰ البذل والتضحية والإيثار .

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية الأولىٰ لقاء المدعو بالنبي ﷺ ، فيحدث للمدعو تحول غريب واهتداء مفاجئ بمجرد اتصاله بالنبي ﷺ ،

فيخرج المدعو من دائرة الظلام إلىٰ دائرة النور ، ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر ، ويقوىٰ علىٰ تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه الجديد وعقيدته السمحة .

دار الأرقم.. لماذا؟

كانت هذه الدار هي دار الإسلام الأولىٰ التي نبتت فيها شجرة الإسلام الباسقة وسقيت بماء النبوة حتىٰ آتت أكلها كل حين بإذن ربها ، فلماذا اتخذ النبي ﷺ دار الأرقم تحديدًا؟ **كان ذلك لأسباب:**

السبب الأول: إن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه ، فما كان يخطر ببال قريش أنه يتم لقاء رسول الله ﷺ وأصحابه بدار الأرقم .

السبب الثاني: كان الأرقم من بني مخزوم ، وهي القبيلة التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم ، فلو كان الأرقم معروفًا بإسلامه لم يكن يخطر في بال قريش أن يكون اللقاء في دار الأرقم ؛ لأن ذلك يعني أن اللقاء يتم في قلب صفوف العدو .

السبب الثالث: كان الأرقم فتىٰ صغير السن لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، وإذا ما فكرتْ قريش في البحث عن مركز تجمع المسلمين فلن يخطر أبدًا ببالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب النبي ﷺ ، بل سيتجه نظرها وبحثها إلىٰ بيوت كبار الصحابة ، أو بيته هو نفسه ﷺ ، فقد يخطر علىٰ ذهنهم أن يكون مكان التجمع علىٰ الأغلب في أحد دور بني هاشم ، أو في بيت أبي بكر الصديق ، أو بيت عثمان رضي الله عنهما .

من أجل هذا نجد أن اختيار بيت الأرقم كان في غاية الحكمة ، ولم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت هذا المكان في يوم من الأيام أو اكتشفت مكان اللقاء ؛ إنما كان أقصىٰ ما وصلت إليه هو شكها أن يكون لقاء رسول الله ﷺ بأصحابه في دارٍ عند الصفا .

عظمة المربي:

كانت شخصية رسول الله ﷺ المحرِّكَ الأول للإسلام ، وشخصيتُه ﷺ تملك قوىٰ الجذب والتأثير علىٰ الآخرين ؛ فقد صنعه الله علىٰ عينه ، وجعله أكمل صورة لبشر في تاريخ الأرض ، والعظمة دائما تُحَبُّ ، وتُحاط من الناس بالإعجاب ، ويلتف حولها المعجبون يلتصقون بها التصاقًا بدافع الإعجاب والحب ؛ ولكن رسول الله ﷺ يضيف إلىٰ عظمته تلك أنه رسول الله ، متلقي الوحي من الله ، ومبلغه إلىٰ الناس ، فيحبه المسلم تعبدًا وطاعةً لله ، وذلك بُعْدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه ؛ فهو لا يحبه لذاته فقط كما يحب العظماء من الناس ، ولكن أيضًا لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلهي المكرم؛ ومن ثم يلتقي في شخص الرسول ﷺ البشر العظيم والرسول العظيم ، ثم يصبحان شيئًا واحدًا في النهاية ، غير متميز البداية ولا النهاية . . حب عميق شامل للرسول البشر أو للبشر الرسول ، ويرتبط حب الله بحب رسوله ويمتزجان في نفس الشخص ، فيصبحان في مشاعره هما نقطة ارتكاز المشاعر كلها ، ومحور الحركة الشعورية والسلوكية كلها كذلك ، كان هذا الحب الذي حرك الرعيل الأول من الصحابة هو مفتاح التربية الإسلامية ونقطة ارتكازها ومنطلقها الذي تنطلق منه .

المناهج الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي ﷺ في دار الأرقم هي القرآن الكريم ؛ فهو مصدر التلقي الوحيد، وقد حرص الحبيب المصطفىٰ ﷺ علىٰ توحيد مصدر التلقي وتفرده ، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج والفكرة المركزية التي يتربىٰ عليها الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، وكان روح القدس جبريل عليه السلام ينزل بالآيات غضَّةً طَرِيَّةً علىٰ رسول الله ﷺ فيسمعها الصحابة من فم رسول الله ﷺ مباشرة ،

الصفحة غير

متوفرة حاليا

ويقيم به دولة ، وينظم به مجتمعًا ، وليربي به ضمائر وأخلاقًا وعقولاً ، ويبني به عقيدة وتصورًا وأعمالاً ، ومشاعر ، فخرّج الجماعة المسلمة الأولىٰ التي تفوّقت علىٰ سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقائدية ، والروحية والخلقية ، والاجتماعية والسياسية والحربية .

وظل النبي ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم ثلاث سنوات يلتقي بمن أسلم ، ويستقبل في الدار كل من يأتي الله به ، وكانت هذه الدار بمثابة دارٍ للعبادة ومدارسة الإسلام ، سِمَتُها الاتصال الشخصي بالأفراد ، حتىٰ بلغ عدد المسلمين قرابة الستين ، يلتقي بهم النبي ﷺ يعلمهم أمور دينهم ، ويؤكد علىٰ تربيتهم علىٰ مقتضيات لا إله إلا الله ، مقدمًا لهم النموذج العملي في شخصه الكريم ، وكانت الصفة الغالبة علىٰ هذه الدار ومحور الكلام فيها حول كتاب الله القرآن ، فيجلسون يتدبرونه ويتأثرون به ويقومون به الليل خاشعة قلوبهم باكية عيونهم ، يملأ نفوسَهُم حُبُ النبي ﷺ والأنس بوجوده معهم لتثبيتهم وتربيتهم ، فترات ممتعة وروحانية عالية يقضونها في هذه الدار؛ ولكنها مع ذلك كانت من أصعب الفترات في الدعوة .

الجهر بالدعوة:

لا ريب أن تكتُّم النبي ﷺ في دعوته إلىٰ الإسلام خلال هذه السنوات الأولىٰ ، لم يكن بسبب الخوف علىٰ نفسه؛ فهو حينما كُلف بالدعوة ونزل عليه قوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]، عَلِمَ أنَّهُ رسولُ الله إلىٰ الناس ، وهو لذلك كان يوقن بأن الإلهَ الذي ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادرٌ علىٰ أن يحميَه ويعصمَه من الناس ، علىٰ أنَّ الله لو أمره من أوَّلِ يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علنًا ، لما توانىٰ عن ذلك لحظة ، ولو تراءىٰ له في ذلك مصرعُه .

ولكن الله ألهمه وعلَّمه - والإلهام للرسول نوع من الوحي إليه - أن يبدأ الدعوة، في فترتها الأولىٰ، بسرية وتكتم، وأن لا يلقىٰ بها إلا من يَغْلُبُ علىٰ ظنه أنه سيصلح لها ويؤمن بها .

وهذا تعليم للدعاة من بعده، وإرشاد لهم إلىٰ مشروعية الأخذ بالحَيْطَة والأسباب الظاهرة، وما يقرره العلم الشرعي والتفكير السليم من الوسائل التي ينبغي أن تُتَّخذ من أجل الوصول إلىٰ غايات الدعوة وأهدافها، علىٰ أن لا يتغلب كُلُّ ذلك علىٰ الاعتماد والاتكال علىٰ الله وحده، وعلىٰ أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهبًا يعطيها معنىٰ التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره؛ فهذا يخدش أصل الإيمان بالله، فضلاً عن أنه يتنافىٰ مع طبيعة الدعوة إلىٰ الإسلام، فهما إذًا أمران: التوكل علىٰ الله والثقة به، ثم الأخذ بالأسباب.

ومن هنا ندرك، أن أسلوب دعوته ﷺ في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصفه وكونه إمامًا، وليس من أعماله التبليغية عن الله بوصف كونه نبيًا فقط؛ وبناء علىٰ ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة - من حيثُ التكتُّم والجَهْر، أو اللين والقوة - حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعةُ الإسلامية، اعتمادًا علىٰ واقع سيرته ﷺ، علىٰ أن يكون النظر في كل ذلك إلىٰ مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية، ومن العلماء الأكفاء الربانيين المجتهدين ذوي الخبرة والإخلاص.

بعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي ﷺ لتربية أصحابه، وبناء عقيدتهم ووحدتهم علىٰ أُسسٍ عَقَديَّة وتعبدية وخُلُقية رفيعة المستوىٰ، حان موعد إعلان الدعوة، ونزل قول الله ﷻ: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٣-٢٢٠].

فلما أَنْزَلَ الله علىٰ رسوله ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ اشتد ذلك عليه، فجلس في بيته كالمريض، فأتته عَمَّاتُهُ يَعُدْنَهُ، فقال ﷺ: «مَا اشْتَكَيْتُ شيئًا؛ وَلَكِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أُنْذِرَ عَشِيرَتِي»، فقلن له: فادعهم، ولا تَدْعُ أبا لهب فيهم؛ فإنه غيرُ مجيبك، فدعاهم، فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا خمسة وأربعين رجلًا، فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّباة! واعلم أنه ليس لقومك بالعربِ قاطبةً طاقةٌ! وإنَّ أحقَّ من أخذك فَحَبَسَكَ بنو أبيك؛ وإن أقمت علىٰ ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يَثِبَ بك بطونُ قريش، وتَمُدُّهُمُ العربُ، فما رأيت أحدًا جاء علىٰ بني أبيه بِشَرٍّ مما جئتهم به!

فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم دعاهم ثانيةً وقال: «الحَمْدُ لله، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . . .» ثم قال: «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؛ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ خَاصَّةً وَإِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ . . وَإِنَّهَا لَلْجَنَّةُ أَبَدًا أَوِ النَّارُ أَبَدًا».

فقال أبو طالب: ما أحبَّ إلينا معاونتك، وأقبلَنا لنصيحتك، وأشدَّ تصديقنا لحديثك!! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون؛ وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعُهم إلىٰ ما تحب؛ فامض إلىٰ ما أُمِرتَ به، فوالله لا أزال أَحُوطُكَ وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني علىٰ فراق دين عبد المطلب، فقال أبو لهب: هذه والله السَّوْأة!!! خذوا علىٰ يديه قبل أن يأخذكم غيرُكم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا[1].

---

(١) «سبل الهدىٰ والرشاد في هدي خير العباد» (٢/ ٣٢٢).

الخطبة الأولى على الصفا.

وبعدما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه؛ انطلق النبي ﷺ إلى الصفا فعلا أعلاها حجرًا فَهَتَفَ: «يَا صَبَاحَاهْ» فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ؟ قَالُوا: مُحَمَّدٌ؛ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي فُلَانٍ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» قَالَ: فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟!! ثُمَّ قَامَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][(١)].

فقال رسول الله ﷺ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»[(٢)].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٤٥٢٣)، ك: تفسير القرآن، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، ومسلم (٢٠٨)، ك: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

(٢) أخرجها مسلم (٢٠٤-٢٠٦)، ك: الإيمان، باب: قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وسقنا الأحاديث مساقًا واحدًا بتصرف.

رد الفعل القرشي لنداء النبي ﷺ.

كان رسول الله ﷺ كبير المنزلة في مكة مرموقًا بالثقة والمحبة ، وها هو ذا يواجه مكة بما تكره ، ويتعرض لخصام السفهاء والكبراء ، وأول قوم يغامر بخسران مودتهم هم عشيرته الأقربون! لكن هذه الآلام تهون في سبيل الحق الذي شرح الله به صدره ، فلا عليه أن يبيت بعد هذا الإنذار ومكة تموج بالغرابة والاستنكار ، وتستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة ، وتخشىٰ أن تأتي علىٰ تقاليدها وموروثاتها .

وبدأت قريش تسير في طريقها ، طريق اللَّدَد (الخصومة الشديدة) ومجانبة الصواب ، ومضىٰ محمد ﷺ في طريقه ، يدعو إلىٰ الله ، ويتلطف في عرض الإسلام ويكشف النقاب عن مخازي الوثنية ، ويسمع ويجيب ، ويهاجم ويدافع .

وإذا كانت أهواء الجاهلية تدفعُ عمَّ محمد ﷺ إلىٰ الإغلاظ معه علىٰ هذا النحوِ الشديد ، فكيف يكون مسلك الأباعد الذين يتمنون العثارَ للسليم والتهمة للبريء ؟!

ولكن ما أبو لهب ؟ وما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بإزاء رجل يحمل رسالةً من الله الذي له ملك السماوات والأرض يريد أن يُعِيدَ بها الرشد لعالم فَقَدَ رُشْدَه ؛ ليمحو بها الآلام ، في حياة مَرَّغتها الأوهام في الرَّغام (التراب) ؟!

ما تُجدي وقفةُ جهول ، أو غضبةُ مغرور في منع هذه الرسالة الكبيرة من المضي إلىٰ هدفها البعيد؟!

إن الطحالب العائمة لا توقف السفن الماخرة ، ولئن نقم الجاهليون علىٰ المسلمين مُروقَهم من بين قومهم بهذه الدعوة - حتىٰ ليسمونهم الصُّبَاة - ؛ فإن المسلمين لأشد نقمة عليهم ، أن سَفِهُوا أنفسهم ، وحقروا عقولهم ، وتشبثوا بخرافاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان .

إن الدعوة التي بدأ بها محمد ﷺ من بطن مكة لم تكن لبناء وطنٍ صغير ،

بل كانت إنشاءً جديدًا لأجيال وأمم تظل تتوارث الحق وتندفع به في رحاب الأرض ، إلىٰ أن تنتهي من فوق ظهر الأرض قصة الحياة والأحياء ، فماذا تصنع خصومة فرد أو قبيلة لرسالةٍ هذا شأنها في حاضرها ومستقبلها؟

وَمَن أولئك الخصوم؟

❊ متعصبون تحجرت عقولهم ، تُزَيِّن لهم سَطْوَتُهم البَطْشَ بمن يخالفهم : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

❊ أم مترفون سَرَّتْهُم ثروتهم ، يحبون الباطل ؛ لأنه علىٰ أرائك وثيرة ، ويكرهون الحق ؛ لأنه عارٍ عن الحلي والمتاع : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

❊ أم متعنتون يحسبون هداية الرحمن عبث صِبية ، أو أزياء غانيةٍ فهم يقولون : دع هذا وهات هذا : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

❊ أو مُهَرِّجُون يتواصون بينهم بافتعال ضَجَّةٍ عاليةٍ وصياح منكرٍ عندما تُقرأ الآيات ، حتىٰ لا تُسْمَع فتُفْهم فتترك أثرًا في عقلٍ نقي وقلبٍ طيب : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

لو أن أهل مكة ترددوا في تصديق محمد ﷺ حتىٰ يبحثوا أمره ويمحّصوا رسالته ، ويزنوا علىٰ مَهَلٍ ما لديهم وما جاء به ؛ لما عابهم علىٰ هذا عاقل ؛ ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشفت جريمته وثبتت إدانته .

وقد حزن رسول الله ﷺ لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدي، ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا ألفىٰ نفسه مُكذَّبًا مهجورًا، لا لسبب عقلي ولا لحجة واقعية، إلا أن الله عز وجل واساه فأبان له بواطن أولئك المكذبين المتألبين: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ومن ثَمّ فعلىٰ محمد ﷺ أن يمضي في سبيل البلاغ وأن يجتاز ما يَلْقَىٰ أمامه من عقبات وصعاب، وعلىٰ المؤمنين برسالته أن يثبتوا، وليس ثباتهم لمصلحتهم الخاصة فقط، ولا لحق الإيمان عليهم وكفىٰ؛ بل هو لمصلحة الأجيال المقبلة.

إن البنيان الشامخ هو الذي لا يرتكز علىٰ سطح الأرض؛ إنما يرتكز علىٰ دعائم غائرة في الثرىٰ، فهي التي تحمل ثقله وترفع عُمُدَه. وقد كان أصحاب محمد ﷺ الأوَل - بصلابة يقينهم وقوة استمساكهم - دعائم رسالته وأصول امتدادها من بَعْد، في المشارق والمغارب.

اعتراضات قريش على دعوة الإسلام:

كانت شياطين قريش تنفث سموم الصد عن سبيل الله فيما بينهم، ويجابهون الدعوة الجديدة بشبهات واعتراضات يوحيها إليهم سيدهم إبليس؛ ليعترضوا بتلك الاعتراضات علىٰ دعوة الإسلام وليصرفوا الناس عنها وينفروهم منها.

من هذه الاعتراضات:

(١) الاعتراض علىٰ شخص الرسول ﷺ، فبالرغم من اعترافهم له بأنه هو الصادق الأمين، واعترافهم له بنباهة العقل ورجحان الحجة ونصاعة البرهان؛ دفعهم كبرهم إلىٰ الاعتراض علىٰ شخص رسول الله ﷺ، فهو عندهم فقير: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهو عندهم دَعِيٌّ فيما يأتي به: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً

وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وهو عندهم مجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وهو عندهم شاعر: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]، وهكذا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، وقد رد الله عز وجل على ذلك كله فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال عز وجل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

(٢) صعوبة استيعاب عقولهم للبعث بعد الموت فقد قال الله عز وجل عنهم: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، وقالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]، وقال عز وجل عن أحدهم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

كانت عقولُهم وأذهانُهم قاصرةً عن تصور أن يكون هناك حياة بعد الموت، فهم يرون بأعينهم أن الأجساد تفنى وتتحلل وتصيرُ ترابًا، فكيف يكون فيها الحياة بعد ذلك؟! لذلك ركزت آيات القرآن التي نزلت في الفترة المكية على معالجة قضية الإيمان بالبعث، وأن الله الذي خلق الخلق أول مرة قادر على أن يحييها بعد ذلك ليوم الحساب، قال الله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

(٣) استنكارهم الشديد للتوحيد؛ فقد كانوا أهل وثنية يعبدون الآلهة المتعددة ويتقربون إليها، فاستنكروا أن يأتي إليهم رسول الله ﷺ فيدعوهم إلى الكفِّ عن عبادة هذه الآلهة كلها، والإيمان بإلهٍ واحد، قال الله عز وجل حكايةً عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقد أجاب ربنا عز وجل عن كل هذه الشبهات، ورد عليهم بآيات تتنزل ويسمعونها؛ ولكنهم للأسف كانوا لا يستطيعون سمعًا!!

دور أبي طالب في حماية الرسول ﷺ.

انطلق رسول الله ﷺ في دعوته بعد تربية الله له وتأهيله وتهيئته على الصبر والتحمل والإعراض عن الجاهلين، وهَيَّأَ الله له أيضًا المعاونة والتثبيت بأمور كثيرة منها عمُّه أبو طالب.

إن أبا طالب - بِرَغْمِ بقائه على الشرك واستمساكه بدين الآباء - ظل حَيَّ العاطفة ظاهر الحَدَبِ (الرأفة والعطف) على ابن أخيه، وهو مدركٌ كل الإدراك ما سوف تَجُرُّهُ هذه الدعوة من متاعب عليه وعلى أسرته، بَيْدَ أن إعزازه لمحمد ﷺ وتأذيه من مواجهته بما يكره حملاه على ضمان الحرية له؛ بل على التعهد بحمايته وهو يبلغ عن ربه!!

وأبو طالب من رجالات مكة المعدودين، كان معظَّمًا في أهله؛ معظمًا بين الناس؛ فما يَجْسُر أحدٌ على إخفار ذمته واستباحةِ بيضته، وكان بقاء أبي طالب مع أهل مكة - محترِمًا للأوثان - من أسباب امتداد نفوذه ورعاية حقوقه.

وهكذا كان الإعلان الخاص للدعوة من على جبل الصفا، وتواتر نزول آيات القرآن للرد بقوة على شبهات مشركي قريش، وتعليم الله عز وجل لنبيه الصبر والمواجهة بالحسنى، وإيجاد المؤازرة الحِسِّية بتكاثر المسلمين والمؤمنين، وأيضًا بتعاطف بعض الكبار وتعهد أبي طالب بالحماية والنُّصرة.

كان كل ذلك ممهدًا للإعلان العام للدعوة، وحصول المواجهة الحقيقية للكفار.

وهنا نزل الأمر من الله عز وجل بوضوح أنه لا خيار لرسول الله ﷺ من الإعلان العام مهما كانت نتائجه، فنزل قول الله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وهكذا جاء اقتران الأمر بإعلان الدعوة بالأمر بالصبر والصفح عن المشركين المعادين والإعراض عنهم، يعني إلغاء الصدام معهم وتجنبهم، إنها مرحلة كَفُّ اليد والاكتفاء بالتبليغ، ولابد أن يكون البلاغ مبينًا

واضحًا لا لَجَاجَةَ فيه ولا غُموض : ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩].

إن إعلان الدعوة والإعراض عن المشركين يعني فكرتين في وقت واحد :

الفكرة الأولى : الإعلان الصريح الفصيح بالدعوة وإيضاح معالمها دون مواربةٍ ، غير عابئ بغضب خصومها أو نيل آرابهم منه .

الفكرة الثانية : عدم مواجهة أذاهم المادي والمعنوي بأي ردود أفعال ، والإعراض عن تجريحهم له ومحاولاتهم النيلَ منه والهُزْءَ به .

الخلاصة في كلمتين : ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وعلى الوجه الآخر عندما جهر الرسول ﷺ بالدعوة وإعلانها دعوةً عامة ؛ انفجرت مكة بمشاعر الغضب وماجت بالغرابة والاستنكار ، كأن صاعقة قصفت السحاب فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ وزلزلت الجو الهادئ ، وقامت قريش تحارب بكل قوتها هذا الذي يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام .

قرر المشركون ألا يألوا جهدًا في محاربة الإسلام وإيذاء الداخلين فيه والتعرض لهم بألوان النكال والإيلام ، ومنذ جهر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله ، وإعلام قومه بضلال ما وَرِثُوهُ عن آبائهم ، انفجرت مكة بمشاعر الغضب وظلَّت عشرة أعوام تَعُدُّ المسلمين عصاة ثائرين ، فزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، واستباحت في الحرم الآمن دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، وجعلت مُقامهم تحملاً للضيم وتوقعًا للويل .

وصاحبت هذه السَّخَائِمَ المشتعلة حربٌ من السخرية والتحقير قُصِدَ بها تخذيل المسلمين وتوهين قُواهم المعنوية ، فرُمِيَ النبي ﷺ وصحابته ﷺ بتهم هازلة وشتائم سفيهة ، وتألَّفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورجاله ؛ على نحو ما تفعل الصحافة المعارضة عندما تنشر عن الخصوم نكتًا لاذعة وصورًا مضحكة للحَطِّ من مكانتهم لدى الجماهير .

وبهذين اللونين من العداوة وقع المسلمون بين شِقَّي الرحى،

فرسولهم يُنادَىٰ بالمجنون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، ويُوصَمُ بالسحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ويُشَيَّعُ ويُستَقْبَلُ بنظرات متهمة ناقمة وعواطف منفعلة هائجة: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وليس حظ سائر المسلمين بأفضل من هذه المعاملة؛ فهم -في غدوهم ورواحهم- محل التندُّر والغمز واللمز والاستهزاء، كما أخبرنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

صور من ابتلاء الصحابة،

وانقلبت هذه الحرب إلىٰ تنكيل وسفك دم بالنسبة للمستضعفين من المؤمنين؛ فمن ليست له عُصبة تدفع عنه لا يعصمه من الهوان والقتل شيء، بل يُحبس علىٰ الآلام، حتىٰ يكفرَ أو يموتَ أو يسقط إعياءً!

لقد انكفأت كل قبيلة علىٰ من أسلم من أبنائها ومواليها تذيقهم ألوان العذاب وصنوفه؛ لتصرفهم عن دين الله، وتصدهم عنه صدودًا، من بعض تلك النماذج:

❁ كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم -له شرف ومنعة أنَّبَهُ وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرىٰ به.

❁ وكان عم عثمان بن عفان يلفُّه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته.

❁ ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته ، وأخرجته من بيته ، وكان من أنعم الناس عيشًا فَتَخَشَّفَ جِلْدُهُ تَخَشُّفَ الحَيَّة .

❁ وكان بلال مولىٰ لأمية بن خلف الجُمحي ، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا ، ثم يُسْلِمُه إلىٰ الصبيان ، يطوفون به في جبال مكة ، حتىٰ يظهر أثرُ الحبل في عنقه ، وكان أمية يشده شدًا ثم يضربه بالعصا ، وكان يُلْجِئه إلىٰ الجلوس في حر الشمس ، كما كان يُكْرِهُه علىٰ الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يُخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بَطْحَاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع علىٰ صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتىٰ تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزىٰ ؛ فيقول وهو في ذلك : أحدٌ أحد ، حتىٰ مر به أبو بكر ﷺ يومًا وهم يصنعون به ذلك فاشتراه بغلامٍ أسود ، وقيل بسبع أواقٍ أو بخمسٍ من الفضة وأعتقه .

❁ وكان عمار بن ياسر ﷺ مولىٰ لبني مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون - وعلىٰ رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلىٰ الأبْطَح إذا حميت الرَّمضاء فيعذبونهم بحرِّها ، ومر بهم النبي ﷺ وهم يُعَذَّبون فقال : «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرَ ؛ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ»[1] ، فمات ياسر من العذاب ، وطَعَنَ أبو جهل سُمية أمَّ عَمَّار في قُبُلها بحربة فماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام ، وشددوا العذاب علىٰ عمار بالحرِّ تارة ، وبوضع الصخر الأحمر علىٰ صدره أخرىٰ ، وبالتغريق أخرىٰ ، وقالوا: لا نتركك حتىٰ تسب محمدًا ، أو تقول في اللات والعزىٰ خيرًا .

وعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتىٰ سَبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، ثم تركوه ،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٦٤٦) ، كتاب : معرفة الصحابة ، باب : مناقب عمار ابن ياسر ﷺ ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح فقه السيرة» (١/ ١٠٣) .

فلما أتى رسول الله ﷺ قال: «مَا وَرَاءَكَ؟» قال: شرٌ يا رسول الله، ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ منك وذكرت آلهتهم بخير، قال: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟» قال: مطمئنٌ بالإيمان، قال: «إِنْ عَادُوا فَعُدْ»(١).

عن أبي مالك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] قال: نزلت في عمار.

❁ وكان أبو فُكَيْهَة – واسمه أَفْلَح – مولى لبني عبد الدار، فكانوا يشدون في رجله الحبل، ثم يجرُونه على الأرض.

❁ وكان خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ مولًى لأم أنمار بنت سِبَاع الخُزَاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل؛ فيأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه ليًا عنيفًا، وأضجعوه مرات عديدة على فِحَامٍ ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجرًا حتى لا يستطيع أن يقوم.

❁ وكانت زِنِّيرةُ والنَّهْدِيَّة وابنتها وأم عُبَيْس إماءً أسلمن، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا، وأسلمت جارية لبني مُؤَمَّل وهم حي من بني عدي، فكان عمر بن الخطاب وهو يومئذ مشرك يضربها، حتى إذا مَلَّ قال: إني لم أتركك إلا مَلالَةً.

وابتاع أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الجواري فاعتقهن، كما أعتق بلالاً وعامرًا بن فهيرة، فقيل لأبي بكر: لو اشتريت ما يمنع ظهرك! فقال: مَنْعَ ظهري أريد.

❁ وكان المشركون يَلُفُّونَ بعض الصحابة في إهاب (جلد) الإبل والبقر، ثم يلقونهم في حر الرمضاء، ويُلبسون بعضًا آخر دروعًا من الحديد، ثم يلقونهم على صخرة ملتهبة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٣٦٢)، ك: التفسير، باب: تفسير سورة النحل، وقال الذهبي: حديث صحيح على شرط الشيخين.

وانتهز المشركون تلك الفرصة لعداء المسلمين لِأَكْلِ أموالهم التي لديهم ؛ فعن خباب بن الأرَتِّ ﷺ قال : كنت قَيْنًا (حَدَّادًا) في الجاهلية ، وكان لي دَيْنٌ علىٰ العاص بن وائل ، قال : فأتاه يتقاضاه فقال : لا أعطيك حتىٰ تكفر بمحمد ﷺ ، فقال : والله لا أكفر حتىٰ يميتك الله ثم تُبعث ، قال : فذرني حتىٰ أموت ثم أبعث فسوف أوتىٰ مالاً وولدًا فأقضيك ، فنزلت هذه الآية : ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧][1] .

وقد آثرت أن أسوق لك - أخي الحبيب - هذه الأمثلة علىٰ بشاعتها ؛ لتعلم كيف تحمَّل الرعيل الأول الأذىٰ في سبيل الله ، وكيف صبروا وثبتوا وضحُّوا وحملوا هذا الدين علىٰ أنهار العرق والدَّم .

كيف واجه المشركون الدعوة؟

لما رأت قريش أن محمدًا ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك ، فكَّروا مرة أخرىٰ ، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب أخرىٰ كثيرة منها :

(١) السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك ، قصدوا بها تثبيط وتخذيل المسلمين ، والحَطُّ من شأنهم ، وتوهين قواهم المعنوية ، والتأثير علىٰ نفوسهم ، فَرَمَوْا النبي ﷺ بتهم هازلة ، وشتائم سفيهة ، وقد مرت معنا أمثلتها في بداية هذه الفقرة .

(٢) تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدِّعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك ، بحيث لا يبقىٰ للعامة مجال في تدبُّر دعوتِهِ ؛ فكانوا يقولون عن القرآن :

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (١٩٨٥) ، ك : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالىٰ : ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ ، ومسلم (٢٧٩٥) ، ك : صفة القيامة والجنة والنار ، باب : سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح .

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وكانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم واعتراضاتهم بعد نقلها وحكايتها عنهم.

(٣) معارضة القرآن بأساطير الأولين، وصرف الناس بها عنه، فقد ذكروا أن النَّضر بن الحارث قال مرة لقريش: يا معشر قريش! والله لقد نزل بكم أمر ما أَوْلَيْتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حَدَثًا؛ أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتىٰ إذا رأيتم في صُدْغَيْهِ الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحرٌ، لا والله ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحرة ونَفْثَهم وعُقَدَهم، وقلتم: كاهِنٌ، ولا الله ما بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتَخالُجَهُمْ وسمعنا سَجْعَهُم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَهُ ورَجَزَهُ، وقلتم: مجنونٌ، لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون فما هو بِخَنْقِه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم.

ثم ذهب النَّضر إلىٰ الحِيرَة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسْفِنْدِيَار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خَلَفَهُ النَّضر، ويقول: والله ما محمدٌ بأحسنَ حديثًا مني، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسْفِنْدِيار، ثم يقول: بماذا محمد أحسنُ حديثًا مني؟!

وتفيد رواية ابن عباس رضي الله عنهما أن النضر كان قد اشترىٰ قَيْنَات (مغنيات)، فكان لا يسمع برجل مال إلىٰ النبي ﷺ إلا سَلَّطَ عليه واحدة منهن تُطعمه وَتَسْقِيهِ وتُغَنِّي له؛ حتىٰ لا يبقي له ميل إلىٰ الإسلام، وفيه نزل قوله تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [لقمان: ٦].

٤ مساومات حاولوا بها أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ؛ بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه : ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

روىٰ ابن جرير والطبراني أن المشركين عرضوا علىٰ رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم عامًا ويعبدوا ربه عامًا ، وفي رواية أنهم قالوا : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك .

وروىٰ ابن إسحاق قال : «اعترض رسولَ الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة : الأسودُ بن المطَّلب بن أسد بن عبد العزىٰ والوليدُ بن المغيرة وأميةُ بن خلف والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم (كبار قومهم) ، فقالوا : يا محمد ، هلمَّ فلنعبدْ ما تعبد ، وتعبدُ ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ؛ فأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]» ، وحَسَمَ الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة ، ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المساومة مرةً بعد أخرىٰ .

هكذا تنوعت أساليب مشركي قريش في مواجهة الدعوة : من سخرية واستهزاء ، إلىٰ تعذيب وتنكيل ، إلىٰ عروض واقتراحات ، إلىٰ فتن وتقليد ، ومع ذلك لم يرتد مسلم واحد ، قال هرقل لأبي سفيان : هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يسلم سخطة ؟ قال : لا ، قال : وهكذا الإيمان إذا باشرت حلاوته القلوب .

نعم : لم يرتد أحد ، ولم يتزلزل مسلم ، ولم يتراجع موحد ، ولم ينقص عدد المسلمين ، بل كان المسلمون في تزايد كل يوم ؛ بل كل ساعة .

وهنا نتساءل :

كيف ثبت المسلمون ؟

نعم.. كيف ثبتوا ونجوا من هذه الفتنة العمياء ؟!

عوامل الصبر والثبات :

وهنا يقف الحليم حيران ، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم :

ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بالمسلمين إلىٰ هذه الغاية القصوىٰ ، والحد المعجز من الثبات ؟

كيف صبروا علىٰ هذه الاضطهادات التي تقشعرُ لسماعها الجلودُ ، وترجف لها الأفئدةُ ؟

ونظرًا لهذا الذي يتخالج القلوب نرىٰ أن نشير إلىٰ بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة تكون عظة وعبرة لكل من يسير في طريق هذا الدين إن ناله أذىٰ أو وقع عليه بلاء كيف يثبت وكيف يرضىٰ ؟!

(١) إن السبب الرئيس في ذلك أولاً هو :

الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة ، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب وَزَنَ الجبالَ ولا يطيش ، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرىٰ متاعب الدنيا مهما كثرت وكبرت وتفاقمت واشتدت - يراها في جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعة والقلاع الحصينة ، فلا يبالي بشيء من تلك المتاعب مع ما يجده من حلاوة إيمانه وطراوة إذعانه وبشاشة يقينه : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٧].

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرىٰ، تقوي هذا الثبات وتلك المصابرة مثل:

٢ قيادة تهوي إليها الأفئدة، فقد كان النبي ﷺ وهو القائد الأعلىٰ للأمة الإسلامية بل وللبشرية جمعاء يتمتع بجمال الخُلُقِ وكمال النفس، ومكارم الأخلاق، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة، بما تتجاذب إليه القلوب، وتتفانىٰ دونه النفوس، وكانت أنصبته من الكمال الذي يُعْشق لم يرزق بمثلها بشر، وكان علىٰ أعلىٰ قمة من الشرف والنبل والخير والفضل، وكان من العفة والأمانة والصدق، ومن جميع سبل الخير علىٰ ما لم يَتَمَارَ ولم يشك فيه أعداؤه فضلاً عن محبيه ورفقائه، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها، فكان وجوده ﷺ وسط الصحابة من أكبر عوامل الثبات، وكانت مجرد رؤيته وسماع القرآن منه تُهَوِّن عليهم كل ما يلاقونه من أصناف العذاب.

وقبل أن نستطرد في أثره علىٰ أصحابه وتثبيته لهم؛ تعال لنرىٰ أثره ﷺ علىٰ الكفار أنفسهم، وكيف كانوا يهابونه رغم إيذائه، ويصدقونه في بواطنهم رغم تكذيبهم له بألسنتهم، وتأمل معي هذه المواقف:

اجتمع ثلاثة نفر من قريش كان قد استمع كل واحد منهم إلىٰ القرآن سرًا عن صاحبيه ثم انكشف سِرُهم، فسأل أحدُهم أبا جهل، وكان من أولئك الثلاثة، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأَعْطَوْا فأعطينا حتىٰ إذا تحاذينا علىٰ الرُّكَبِ، وكنا كَفَرَسَيْ رِهَان قالوا: لنا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء، فمتىٰ ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه.

وكان أبو جهل يقول: يا محمد إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به،

فأنزل الله : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ومن أَكْثَرَ مَا أَصَابَتْ قُرَيْش مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ أنهم قد اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ الله ﷺ فَقَالُوا : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ ؛ سَفَّهَ أَحْلَامَنَا ، وَشَتَمَ آبَاءَنَا ، وَعَابَ دِينَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَسَبَّ آلِهَتَنَا ، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيم ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّىٰ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ ، فَعُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ مَضَىٰ ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فَعُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَضَىٰ ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فَقَالَ : «تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ» ، فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ حَتَّىٰ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَىٰ رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ ، حَتَّىٰ إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ (يحابيه أو يسكّن غضبه) بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَقُولُ : انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، انْصَرِفْ رَاشِدًا فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولاً ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ .

حَتَّىٰ إِذَا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ حَتَّىٰ إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ ؛ فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ طَلَعَ رَسُولُ الله ﷺ فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا ؛ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ ، فَيَقُولُ ﷺ : «نَعَمْ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ» ، فقام رَجُلٌ مِنْهُمْ فَأَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشَدُّ مَا بَلَغَتْ قُرَيْش مِنْهُ قَطُّ[1] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢١٨)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

ولما ألقوا عليه سَلا جَزور وهو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك وساورهم الهَمُّ والقلق ، وأيقنوا أنهم هالكون ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَىٰ سَلَا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَأْخُذَهُ فَيَضَعَهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَىٰ الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ ؛ فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ، فَاسْتَضْحَكُوا ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ ؛ حَتَّىٰ انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ (تصغير جارية بمعنىٰ : شابة ، يعني : أنها إذ ذاك ليست بكبيرة) ، فَطَرَحَتْهُ عَنْهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ ، فَلَمَّا قَضَىٰ النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ رَفَعَ صَوْتَهُ ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا ، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضَّحِكُ وَخَافُوا دَعْوَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» ، وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ ؛ فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَّىٰ صَرْعَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَىٰ الْقَلِيبِ (البئر) ؛ قَلِيبِ بَدْرٍ[1] .

ودعا علىٰ عتيبة بن أبي لهب ، فلم يزل علىٰ يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتىٰ إنه حين رأىٰ الأسد قال : قتلني والله - محمد - وهو بمكة .

وكان أُبَيُّ بنُ خلف يَتَوَعَّدُ رسول الله ﷺ بالقتل ، فقال ﷺ : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طُعِنَ أبيٌّ في عنقه يوم أُحُدٍ - وكان خدشًا غير كبير - كان أُبَيٌّ يقول : إنه قد كان قال لي بمكة : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٢٣٧) ، ك : الصلاة ، باب : المرأة تطرح عن المصلي شيئًا من الأذىٰ ، ومسلم (٤٧٥) ، ك : الجهاد والسير ، باب : ما لقي النبي ﷺ من أذىٰ المشركين .

وقال سعدُ بن معاذ عندما منعه أميةُ بن خلف من الطواف بالكعبة وأداء عمرته: دَعْنَا عَنْكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ مُحَمَّدًا ﷺ يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلُكَ، قَالَ: إِيَّايَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَاللهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ إِذَا حَدَّثَ، فَرَجَعَ إِلَىٰ امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَمَا تَعْلَمِينَ مَا قَالَ لِي أَخِي الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَتْ: وَمَا قَالَ؟ قَالَ: زَعَمَ أنه سَمِعَ مُحَمَّدًا يَزْعُمُ أَنَّهُ قَاتِلِي، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا يَكْذِبُ مُحَمَّدٌ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَىٰ بَدْرٍ وَجَاءَ الصَّرِيخُ قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: أَمَا ذَكَرْتَ مَا قَالَ لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ؟ قَالَ: فَأَرَادَ أَنْ لَا يَخْرُجَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: إِنَّكَ مِنْ أَشْرَافِ الْوَادِي فَسِرْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، فَسَارَ مَعَهُمْ؛ فَقَتَلَهُ اللهُ[١].

هكذا كان حال أعدائه، مؤمنين به من باطنهم؛ مكذبين به حقدًا وحسدًا وتقليدًا، موقنين بصدقه، عالمين بإنجازه وعدَه ووفائه بعهده ﷺ.

أما أصحابه ورفقاؤه فقد حلَّ منهم ﷺ محل الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين؛ فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلىٰ الحَدُور (الموضع المنحدر)، وكانت النفوس تنجذب إليه انجذاب الحديد إلىٰ المغناطيس، فصورته هيولي (مادة وأصل) كل جسم ومغناطيس أفئدة الرجال.

وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا يرضون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر أو يشاك بشوكة ﷺ.

لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ - وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا - ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه علىٰ رسول الله ﷺ في الظهور فقال: «**يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّا قَلِيلٌ**».

فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يُلِحُّ حتىٰ ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيبًا، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلىٰ الله عز وجل وإلىٰ رسوله ﷺ، وثار المشركون علىٰ أبي بكر وعلىٰ المسلمين، فضَرِبوا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٣)، ك: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام.

في نواحي المسجد ضربًا شديدًا ، ووُطِئ أبو بكر بن أبي قُحافة ، وضُرِبَ ضربًا شديدًا ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مَخْصُوفين ويُحَرِّفُهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعْرَفُ وجهُه من أنْفِهِ ، وجاء بنو تَيْم يتعادون فأَجْلَت المشركين عن أبي بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يَشُكُّون في موته ، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد و قالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة .

فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر ، حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه ، وجعل يقول : ما فعل رسول الله؟ فقالت : والله لا علم لي بصاحبك ، فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم .

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنِفًا (أجهز عليه المرض) ، فدنت أم جَمِيل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله ؟ قالت : هذه أمك تسمع ، قال : فلا شيء عليك منها ، قالت : سالمٌ صالحٌ ، فقال : أين هو؟ قالت : في دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله عليَّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما ، حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله وأكبَّ عليه المسلمون ، ورقَّ له رسولُ الله ﷺ رقةً شديدة ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي وأمي يا رسول الله ، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله ،

وادع الله لها ؛ عسىٰ الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلىٰ الله فأسلمت[١] .

سبحان الله العظيم!

ألهذه الدرجة تغلغل حب الله ورسوله في قلب أبي بكر رضي الله عنه علىٰ حبه لنفسه؟!!

رغم ما ألَمَّ به كان أول ما سأل عنه : ما فعل رسول الله ﷺ؟ قبل أن يَطْعَمَ أو يَشْرَبَ ، وأقسم أنه لن يفعل حتىٰ يأتي رسول الله ﷺ ، وهكذا يجب أن يكون حبُّ الله عز وجل وحب رسوله ﷺ عند كل مسلم أحبَّ إليه مما سواهما ، حتىٰ لو كلَّفه ذلك نفسه وماله .

وأمثال هذه المواقف كثير في حياة الصحابة رضي الله عنهم مع رسول الله ﷺ ، وسننقل نوادر الحب والتفاني في مواقع شتىٰ من الكتاب ، ولا سيما ما وقع في يوم أحد ، وما وقع من خُبَيْبٍ رضي الله عنه وأمثاله ، فاصطبرْ - يَرْحَمْكَ الله .

لكن الشاهد هنا هو أن وجود قيادة تهوي إليها الأفئدة من أكبر عوامل الثبات في مواجهة المحن ، ومن عوامل الثبات أيضًا :

٣ الشعور بالمسئولية، فكان الصحابة يشعرون شعورًا تامًّا بما يحملون علىٰ كواهلهم من المسئولية الفخمة الضخمة ، وهي الحفاظ علىٰ هذا الدين وحمله وتبليغه والتضحية في سبيله ومواجهة أعدائه ، وأن هذه المسئولية لا يمكن الحياد والانحراف عنها بحال ؛ فالعواقب التي تترتب علىٰ الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررًا عما هم فيه من الاضطهاد ، وهي أن ينتهي أمر هذا الدين قبل أن يبدأ ، ثم لا يبلغ مداه ولا يصل إلىٰ أهله ، وتيقنوا أن الخسارة التي تلحقهم ، وتلحق البشرية جمعاء بعد هذا الفرار لا تقاس بحال علىٰ المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٣٩) .

④ **الإيمان بالآخرة،** وهو مما كان يقوي هذا الشعور بالمسئولية ؛ فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين ، وأنه سبحانه سيحاسبهم على أعمالهم دِقِّها وجلها ، صغيرها وكبيرها ، فإما إلى النعيم المقيم ، وإما إلى عذاب خالد في سواء الجحيم ، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء ، يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه ، قال فيهم عز وجل : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة ، وكانت هذه المعرفة القوية تهوِّن لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها ، حتى لم يكونوا يكترثون لها أو يلقون إليها بالاً .

وكانوا على يقين أيضًا أنهم سيأخذون حقهم من المشركين في الآخرة إن لم يستطيعوا في الدنيا ، قال تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

⑤ **القرآن،** وفي هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على مبادئ الإسلام التي كانت الدعوة تدور حولها ، بأساليب منيعة خلابة ، وترشد المسلمين إلى أسسٍ قدر الله أن يتكوَّن عليها أعظم مجتمع بشريٍّ في العالم -المجتمع الإسلامي- ، وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجلد ، تضرب لذلك الأمثال ، وتبين لهم ما فيه من الحكم ، قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال عز وجل : ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

كما كانت تلك الآيات تَرُدُّ على إيرادات الكفار والمعاندين واعتراضاتهم ردًا مُفْحِمًا ، ولا تُبْقِي لهم حيلة ، ثم تحذرهم مرة بعد مرة من عواقب وخيمة

إن أصرُوا على غيّهم وعنادهم في جلاء ووضوح ، وتذكرهم بأيام الله ، والشواهد التاريخية التي تدل على سُنّة الله في أوليائه وأعدائه : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وتلطفهم مرة أخرى فتؤدي حق التفهيم والإرشاد والتوجيه لكي ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٦].

وكان القرآن يسير بالمسلمين في عالم آخر ، ويبصرهم من مشاهد الكون ، وجمال الربوبية ، وكمال الألوهية ، وآثار الرحمة والرأفة ، وتجليات الرضوان ؛ ما يحنُّون إليه حنينًا لا تقوم له أي عقبة .

وكانت في طي هذه الآيات خطابات للمسلمين يبشرهم ربهم فيها برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين يحاكمون ويصادَرون ثم : ﴿يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

فكان القرآن غذاء لقلوبهم ؛ سقاها اليقين والصبر،
وأنتج الثبات الراسخ الذي لايتزلزل .

٦ البشارات بالنجاح ، ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد ، بل ومن قبله ، أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف للناس ؛ بل إن الدعوة الإسلامية تهدف منذ أول يومها

إلى السلام العالمي وسعادة البشر والأخوة الإسلامية ، وأن يكون العالم كله أمة واحدة مسلمة لله وحده ، وكان القرآن ينزل بهذه البشارات ؛ مرة بالتصريح وأخرى بالكناية والتلميح ، ففي تلك الفترات القاصمة التي ضاقت الأرض على المسلمين ، وكادت تخنقهم ، وتقضي على حياتهم ؛ كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم ، وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تمامًا أحوال مسلمي مكة وكفارها ، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين وإيراث عباد الله الأرض والديار .

قال تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في القضاء على الإسلام ، وانتصار المسلمين في النهاية مع نجاح الدعوة إلى الإسلام .

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين ، قال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٧].

وقال عز وجل : ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

وقال عز وجل : ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]، ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وسألوه عن قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأنزل الله في طيِّها: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقىٰ إخوانه من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وذكر في آخرها: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ وهو يذكر الرسل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤].

وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسل والوحي والكتب واليوم الآخر، وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين، ولكن القرآن لم يقتصر علىٰ هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرىٰ وهي نصر الله للمؤمنين، حيث قال: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥].

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرىٰ، فكان إذا وافىٰ المَوْسِم، وقام بين الناس في عُكاظ ومِجَنَّة وذي المَجاز؛ لتبليغ الرسالة، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا، وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ، فَإِذَا مُتُّمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ»**[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٦٣)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات رجال الشيخين.

قال خَبَّابُ بن الأرَتّ ﷺ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَدْعُو اللهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَىٰ مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ»، وفي رواية: «وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1]، ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فَاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة كما كان يعلمها المسلمون، حتىٰ كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض سيغلبون علىٰ ملوك كسرىٰ وقيصر، ثم يُصَفِّرُون ويُصَفِّقُون.

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير في الدنيا ومع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلىٰ النهاية في الفوز بالجنة؛ كان الصحابة ﷺ يرون أن الاضطهادات التي تتوالىٰ عليهم من كل جانب والمصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء ليست إلا: سحابةُ صَيْفٍ عن قَليلٍ تَقَشَّعُ.

⑦ **التربية الإيمانية والمتابعة بيقين:** هذا ولم يزل الرسول ﷺ يغذي أرواحهم برغائب الإيمان، ويزكي نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، يحدو بنفوسهم إلىٰ منازل سمو الروح ونقاء القلب، ونظافة الخُلق، والتحرر من سلطان الماديات، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ويأخذهم بالصبر علىٰ الأذىٰ والصفح الجميل وقهر النفس، فازدادوا رسوخًا في الدين، وعزوفًا عن الشهوات، وتفانيًا في سبيل مرضاة الله، وحنينًا إلىٰ الجنة،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٦)، ك: الإكراه، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان علىٰ الكفر.

وحرصًا على العلم، وفقهًا في الدين، ومحاسبةً للنفس، وقهرًا للنزعات، وغلبةً على العواطف، وسيطرةً على الثائرات والهائجات، وتحليًا بالصبر والهدوء والوقار.

وهكذا كان الانشغال بهذه المعاني السامية العَليَّةِ الرفيعة أحد عوامل الثبات العظيم أيضًا؛ فإن السمو الروحي يمحو آثار الألم الجسدي والنفسي؛ بل يجعل الإنسان يستهين به فلا يضره؛ بل يَسْتَعْذِبُهُ في سبيل مرضاة سيده ومولاه.

ولذلك جاءت أوامر ربنا عز وجل للنبي محمد ﷺ بتعاهد أصحابه بالتربية، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال عز وجل: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

الإيذاءات.. لماذا؟

وهنا يَرِدُ تساؤل: فيم هذا العذاب الذي لقيه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وهم على الحق؟ ماذا كانت حكمة الله في أنه لم يعصمهم من هذا العذاب ويردُّ عنهم وينصرهم لأول وهلة؟ لماذا؟ لماذا؟!

والجواب: إن أول صفة للإنسان في الدنيا، أنه مُكَلَّف، أي إنه مطالب من قِبل الله بحمل ما فيه كُلْفَةٌ وَمَشَقَّةٌ، وأمر الدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات هذا التكليف، والتكليف من أهم مستلزمات العبودية لله عز وجل، إذ لا معنى للعبودية لله تعالى إن لم يكن ثَمَّةَ تكليف... فلا معنى للإيمان بالله تعالى إن لم ندرك عبوديتنا له.

فقد استلزمت العبودية - إذًا - التكليف، واستلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء، ومن أجل هذا كان واجب عباد الله في هذه الدنيا تحقيق أمرين اثنين:

أولهما: التمسك بالإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح .

ثانيهما: سلوك السبل الشاقة إليه ، واقتحام المخاطر ، وبذل الجهد والمال من أجل تحقيق ذلك .

أي إن الله عز وجل كلفنا بالإيمان به تعالى وبرسوله ﷺ ، ودعوة الناس إلىٰ ذلك ؛ لإقامة المجتمع الإسلامي ، وكلفنا إلىٰ جانب ذلك سلوك الوسيلة الشاقة الطويلة الموصلة إلىٰ هذه الغاية مهما بلغت هذه الوسيلة في خطورتها وصعوبتها .

ولو شاء الله عز وجل لجعل السبيل إلىٰ إقامة المجتمع الإسلامي بعد الإيمان به سهلاً معبّدًا ؛ ولكن السير في هذه السبيل لا يدل حينئذٍ علىٰ شيء من عبودية السالك لله عز وجل ، وعلىٰ أنه قد باع حياته وماله لله عز وجل يوم أن أعلن الإيمان به ، وعلىٰ أن جميع أهوائه تابعة ومنقادة لما جاء به الرسول ﷺ ، ولأمكن حينئذ أن يلتقي علىٰ هذه الجادة المؤمن والمنافق والصادق والكاذب ، فلا يتمحّص الواحد منهم عن الآخر .

إذا علمت ذلك فإن ما يلاقيه الدعاة إلىٰ الله والمجاهدون في سبيل إقامة المجتمع الإسلامي ، سنة إلهية في الكون منذ فجر التاريخ تقتضيها حِكَم ثلاث :

أولاً: صفة العبودية - الملازمة للإنسان - لله عز وجل ، وصدق الله إذ يقول : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

ثانيًا: صفة التكليف المتفرعة عن صفة العبودية ؛ فما من رجل أو امرأة يبلغ أحدهما - عاقلاً - سن الرشد ، إلا وهو مكلف من قبل الله عز وجل بتحقيق شِرْعَةِ الإسلام في نفسه وتحقيق النظام الإسلامي في مجتمعه ، وإن تحمل في سبيل ذلك كثيرًا من الشدة والأذىٰ ، حتىٰ يتحقق معنىٰ التكليف ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

ثالثًا، إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو تُرِكَ الناس لدعوىٰ الإسلام ومحبة الله تعالىٰ علىٰ ألسنتهم فقط، لاستوىٰ الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وصدق الله عز وجل القائل في محكم كتابه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، والقائل عز وجل: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، والقائل سبحانه وتعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

وإذا كانت هذه هي سنة الله في عباده، فلن تجد لسنة الله تبديلاً حتىٰ مع أنبيائه وأصفيائه، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، من أجل ذلك أوذي رسول الله ﷺ، وأُوذِي مِنْ قَبْلِهِ جميعُ الأنبياء والرسل، ومن أجل ذلك أُوذِي أصحاب رسول الله ﷺ حتىٰ مات منهم من مات تحت العذاب، وَعَمِيَ من عمي، رغم عظيم فضلهم وجليل قدرهم عند الله؛ لأنها سنة الله في أهل الحق، لم يتخلف عنها أحد حتىٰ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه.

فإذا أدركت طبيعة العذاب الذي يلقاه المسلم في طريقه إلىٰ إقامة المجتمع الإسلامي، علمت أنه ليس في حقيقته عقبات أو سدودًا تصد السالك أو المجاهد عن بلوغ الغاية كما قد يتوهَّمُ بعض الناس؛ بل هو سلوك في الطريق الطبيعي الذي خطه الله تعالىٰ بين المسلم والغاية التي أمره بالسير إليها، أي إن المسلمين يقربون من الغاية التي كَلَّفهم الله بالوصول إليها بمقدار ما يجدونه في طريقهم إلىٰ ذلك من العذاب، وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء.

قيل للإمام الشافعي رحمه الله : أحب إليك أن يمكن الرجل أو يبتلىٰ؟ قال :

«لا يُمَكَّن حتىٰ يُبتَلَىٰ»..

ولذا ، فإنه لا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس ، إذا ما عانىٰ شيئًا من المشقة أو المحنة ، فهذا هو الأمر المنسجم مع طبيعة هذا الدين ، أي إن علىٰ المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيدًا من الضر والنكبات سعيًا إلىٰ تحقيق أمر ربهم عز وجل .

وتأمل ، فإنك ستجد برهان هذا جليًا في قوله عز وجل : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فقد كان جواب أولئك الذين لم يفهموا طبيعة العمل في الدعوة ونصرة الإسلام ، وتوهموا أن هذا الذي يرونه من الأذىٰ والعذاب ؛ إنما هو عنوان ودليل علىٰ ابتعادهم عن النصر ، بدليل سؤالهم : ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فكان جواب هؤلاء من الله عز وجل : ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وتجد برهان هذا جليًا فيما ذكرناه من قصة خَبَّاب بن الأَرَتّ رضي الله عنه، حينما جاء إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غالبه العذاب الذي اكتوىٰ به معظم جسده ، يشكو إليه ذلك ويسأله الدعاء للمسلمين بالنصر ، فقد كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم له بهذا المعنىٰ : إن كنت تتعجب من العذاب والأذىٰ وتستغرب أن ترىٰ ذلك في سبيل الله فاعلم أن هذا هو السبيل . .

وتلك هي سنة الله في جميع عباده الذين آمنوا به : مُشط الكثير منهم في سبيل دينه بأمشاط الحديد ما بين المَفْرِقِ والقدم فما صَدَّهُم ذلك عن شيء من دين الله .

وإن كنت ترى في العذاب دلائل اليأس والقنوط من النصر ، فأنت واهم مخطئ؛ بل الحق هو أن تجد في العذاب والألم سيرًا في الطريق ودنوًا من النصر ، «وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّىٰ يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَىٰ حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَىٰ غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[1] .

وهذا المعنىٰ نفسه هو السر في أن النبي ﷺ بشَّر أصحابه ﭫ بأن الله سيفتح لهم بلاد الفرس والروم، ومع ذلك فلم تفتح عليهم هذه البلاد إلا بعد وفاة الرسول ﷺ بزمنٍ غير يسير .

والعقل البشري يقول إنه كان من مقتضىٰ محبة الله لرسوله ﷺ أن تكون هذه الفتوحات في عهد رسول الله ؛ لتقر عينه بها ، ويحصل مزيد من اليقين به لحصول وعوده التي وعد بها ، لولا أن النصر مرتبط بالقانون الذي ذكرناه ، وهذه حكمة الله التي ينبغي أن يستسلم العقل لها : أن للنصر والتمكين ثمنًا عظيمًا .

ولم يكن المسلمون في حياة النبي ﷺ قد دفعوا ، من أجل انتصارهم في بلاد الشام والعراق ، أقساط الثمن كله ، ولابد قبل النصر من دفع كامل الثمن ، لابد من ذلك حتىٰ ولو كان رسول الله ﷺ موجودًا بينهم .

وليست المسألة أن ترتبط الفتوحات باسم رسول الله ﷺ وتتم بقيادته وتحت إشرافه من أجل عظيم محبة الله ﻷ له ؛ ولكن المسألة هي أن يبرهن المسلمون الذين بايعوا الله ورسوله علىٰ صدقهم في هذه المبايعة ، وأن يصدقوا فيما عاهدوا الله عليه يوم أن وَقَّعُوا بالقبول والرضا تحت قوله ﻷ :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٦) ، ك : الإكراه ، باب : من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر .

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ياله من معنى لو أصاب قلوبًا واعية وآذانًا صاغية !!

لم يجامل الله عز وجل نبيه ﷺ على محبته له ؛ وإنما أمضى ربنا تبارك وتعالى سنته وأجرى قدره، أن يدفع المسلمون ثمن النصر والتمكين كاملاً مكملاً، ثم يعطيهم وينجز لهم ما وعدهم به .

فماذا يدفع المسلمون اليوم؟!

إنهم فقط يطلبون ... وينادون ... وينتظرون ... وهيهات !!!



بصائر

① للدعوة أصول وأسس تبنىٰ عليها ؛ فأصل الدعوة وأساسها : التوحيد واتباع الرسول ﷺ ، والإيمان بالغيب .

② يُوَفَّق للسير في الطريق إلىٰ الله والالتزام بالدين من كانت له سابقة خير ؛ فإن الخير يدل علىٰ الخير والشقاء يقود إلىٰ الشقاء .

③ التربية وسيلة ناجحة من وسائل الدعوة ، بل هي الوسيلة الوحيدة لبناء مجتمع مسلم يعرف الله ويُؤْثِرُ دينه علىٰ ما سواه .

④ الالتقاء بالعلماء والمربين شحذٌ لعزيمة السالكين وتجديد لإيمانياتهم وتذكيرٌ لهم بالله وفتحٌ لآفاق المعرفة والعلم أمامهم .

⑤ مرونة الدعوة الإسلامية ؛ فقد يناسبها أن تكون سِرِّيَّةً في واقعٍ وجهريةً في واقع آخر ، ولكن ينبغي أن نوجه الدعوة بتوجيه الدعاة لها لا أن يترك مصير الدعوة للمتفلسفة زاعمي العقلانية الذين يَزِنون الأمر بمجرد العقل دون فقه ووعي بالدليل الشرعي ، أو من الصغار الذين ليست لهم خبرة بالحياة أو بالطريق أو بالعواقب ، ومن الأدعياء أنصاف المتعلمين الذين لم يتربوا ويتلقوا العلم من أهل العلم الذين هم أهله .

⑥ القرآن هو المادة الأولىٰ لبناء الإيمان في القلوب ، وكل ما شغلك عن القرآن فهو شؤمٌ عليك ، وأثمر الدعوات وأنجحها ما كانت بالقرآن .

⑦ للدعوة أساليب متعددة قد يتناسب مع رجل أسلوب دون آخر ، فهناك من يتناسب معه أن يسمع خطبة مؤثرة ، وآخر يتناسب معه أن تدعوه لوليمة وتلقي بعدها محاضرة ، وثالث يحتاج أن تتلطف معه حتىٰ يبصر الحق ويعلمه .

٨ إن الأذىٰ مهما بلغ من طغيان وعتو لا يوقف سير الدعوة أبدًا ، فإذا كان عبد المطلب قد قال : للبيت رب يحميه ، فنحن نقول : للدعوة رب يحميها ويحفظها ، ولو ماتت الدعوة بموت داعية لماتت بموت رسول الله ﷺ .

٩ إن للنصر والتمكين ثمنًا عظيمًا ، ولا يحصل النصر والتمكين إلا بعد دفع هذا الثمن كاملاً .

١٠ لن يتكلم محق بحق ، ويجاهد لإعلائه بصدق إلا وجد في سبيله العراقيل والابتلاءات ؛ ليعلم الله الصادقين من الكاذبين ، تلك سُنَّةٌ كونية ، فأينما وجدت دعوة صحيحة سديدة وُجد من الباطل ما يناهضها ويعارضها ؛ ولكن العاقبة للمتقين ، قال ورقة وصدق : «لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ» .

١١ الله يصنع لدينه ويهيئ له من أسباب النصر ما لا يقدر عليه العباد ، كان أبو طالب مُعَظَّمًا في قومه ، وكان علىٰ شركه ، وكان حائطَ صَدٍّ منيع أمام مشركي مكة ، ولو كان أبو طالب علىٰ الإسلام لما استطاع دفعًا عن النبي ﷺ ولتعرض هو الآخر للبلاء والأذىٰ .

١٢ يجب أن يكون حب المسلم لله ورسوله أعلىٰ وأولىٰ من كل حب ، ولو كلفه ذلك نفسه وماله ، فالحب كله ينبغي أن يوجه في وجهة واحدة ، وهي لله عز وجل ورسوله ﷺ ، هذا هو شرط استقامة الحب ، إذ تكون كل المحاب بعد ذلك تابعة ونابعة من هذا الأصل الأصيل .

١٣ لو شاء الله لجعل السبيل لإقامة المجتمع المسلم سهلاً معبدًا ، ولكن السير في هذه السبيل لا يدل حينئذٍ علىٰ شيء من عبودية السالك لله ، وعلىٰ أنه قد باع نفسه وأهله وماله لله يوم أعلن الإيمان به .

(١٤) لا خير في دين لا صلاة فيه ؛ فالصلاة من الأصول التربوية التي توثق صلة العبد بربه، وهي ملاذه ولياذه علىٰ طول الطريق، وجنة المؤمن في محرابه : «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[1].

(١٥) علىٰ الداعية الحصيف أن يتخذ الحيطة الكاملة والحذر الشديد الذي يكفل لدعوته الاستمرار والبقاء، وينأىٰ بها عن عبث أعدائها المتربصين بها الدائبين في حبسها ومنعها أو قتلها ووأدها .

(١٦) لمجابهة الدعوة أساليبُ متعددة يتواصىٰ بها المبطلون، فمنها السخرية والاستهزاء، ومنها تشويه معالم الدعوة وإثارة الشبهات، وشتىٰ ألوان الإيذاء، ولكن ما هي إلا زوبعة في فنجان! وفقاقيع تطفو علىٰ السطح لحظات سرعان ما تزول، ويبقىٰ الحق وأهله ويندحر الباطل وأهله .

قال سبحانه عز من قائل :

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ
فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

[الرعد: ١٧].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٨٥)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن رجاله ثقات .

الهجرة إلى الحبشة

بعد أن عشت معي – أخي الحبيب – الفترة الماضية في بداية الدعوة في مكة .
عشت معاناة المسلمين بالاضطهادات والأذىٰ والقتل والحرق . .
عشت التضييق والاستهزاء ، والتهديد والتخذيل . .

أمام كل ذلك كان لابد أن يكون هناك تصرف حكيم ومَخْرج لائق لمن ذاقوا صنوف العذاب ؛ كيلا يفتنوا ولا ينتكسوا ، ولكن قبل أن أحدثك عن المخرج لابد أن أؤصل عندك أصلاً مهمًا من أصول هذا الدين العظيم وهو :

اعلم – أخي في الله – أن الاستمساك بالدين وإقامةَ دعائمه أساسٌ ومصدرٌ لكل قوة ، وهو السياج لحفظ كل حق من مالٍ وأرضٍ وحريةٍ وكرامة ، ومن أجل هذا كان واجب الدعاة إلىٰ الإسلام والمجاهدين في سبيله أن يُجَنِّدُوا كل إمكاناتهم لحماية الدين ومبادئه ، وأن يجعلوا من الوطن والأرض والمال والأهل والحياة كلها وسائل لحفظ العقيدة وترسيخها ، حتىٰ إذا اقتضىٰ الأمر بذل ذلك كله في سبيلها وجب بذله .

فحفظ العقيدة هو الغاية ؛ وإنما الوطن والأرض والمال والأهل والحياة كلها وسائل ؛ ذلك أن الدين إذا فُقِدَ أو غُلب عليه ، لم يُغْنِ من ورائه الوطن والمال والأرض والأهل ؛ بل سَرعان ما يذهب كل ذلك أيضًا ، أما إذا قَوِيَ شأنُ الدين وقامت في المجتمع دعائمه ورسخت في الأفئدة عقيدته ؛ فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود . . يعود أقوىٰ من ذي قبل ، حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة .

ولقد جرت سنة الله في الكون علىٰ مر التاريخ أن تكون القوىٰ المعنوية هي الحافظة للمكاسب والقوىٰ المادية ، فكلما كانت الأمة غنية في خلقها وعقيدتها السليمة ومبادئها الاجتماعية الصحيحة ؛ فإن سلطانها المادي يغدو أكثر تماسكًا

وأرسخ بقاءً وأمنع جانبًا ، أما إذا كانت فقيرة في خلقها ، مضطربة في عقيدتها ، تائهة أو جانحة في نظمها ومبادئها ؛ فإن سلطانها المادي يغدو أقرب إلىٰ الاضمحلال ، ومكتسباتها المادية أسرع إلىٰ الزوال .

وأنت لن تجد الصورة الصحيحة والحياة الطيبة المرضية للكون والإنسان والحياة إلا في عقيدة الإسلام الذي هو دين الله تعالىٰ لعباده في الأرض ، ولن تجد من نظام اجتماعي عادل سليم إلا في نظام الإسلام وهديه ؛ ولذا فقد كان من أسس الدعوة إلىٰ الإسلام التضحية بالمال والوطن والحياة في سبيله ، فبذلك يضمن المسلمون لأنفسهم بقاء ونفع المال والوطن والحياة .

ومن أجل هذا كله كان المخرج للمستضعفين أن شُرِعَ مبدأ الهجرة في الإسلام ؛ لتحصل التضحية بالوطن في سبيل العقيدة والدعوة ونشر الدين ، فيتأصل هذا الفهم ويترسخ هذا المبدأ للمسلمين بعدُ ، فأشار الرسول ﷺ علىٰ أصحابه -بعد أن نالهم من أذىٰ المشركين ما خُشي عليهم معه الفتنة في الدين- بالهجرة والخروج من الوطن .

واعلم أن هذه الهجرةَ نفسَها ضربٌ غير يسير من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين ، فهي ليست في الحقيقة هربًا من الأذىٰ أو ضربًا من الراحة ؛ بل هي تبديل للمحنة ريثما يأتي الفرج والنصر .

واعلم أيضًا أن مكة لم تكن إذ ذاك دار إسلام حتىٰ يقال : فكيف ترك أولئك الصحابة دار الإسلام وفروا ابتغاء سلامة أرواحهم إلىٰ بلاد كافرة؟ فمكة والحبشة وغيرهما كانت سواء إذ ذاك ، وأيها كانت أكثر عونًا للصحابي علىٰ ممارسة دينه والدعوة إليه ؛ فهي أجدر بالإقامة فيها .

ملحظ مهم..

وقبل أن نسير مع هؤلاء الطيبين المستضعفين في مسار الهجرة والبحث عن مخرج والوصول إلىٰ الأمان ، لابد هنا من ملحظ مهم وهو :

أنك كما ترىٰ أن الدعوة تمر بأطوار ، وتتنقل في أحوال ، مرحلة بعد مرحلة وطورًا بعد طور ، فمن مرحل السرية إلىٰ مرحلة إنذار العشيرة ، إلىٰ مرحلة الدعوة العامة ، فلابد من الوقوف الآن للحديث عن فقه الدعوة في هذه المسألة .

اعلم -أخي الحبيب- أن من أسرار عظمة هذا الدين أن الله عز وجل لما بعث النبي محمدًا ﷺ قدَّر عليه أن يواجه العالم أجمع بهذه الدعوة بواقعية تامة ؛ لأنها ليست دعوة تختص بمحمد ﷺ وقومه ؛ وإنما هي دعوة للعالمين إلىٰ آخر الزمان ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، فكأن تحركات رسول الله ﷺ في ذلك الزمان كانت منارات هداية ، وسبل رشاد لِكُلِّ مَنْ أتىٰ بعده إلىٰ يوم الدين .

إن الدعوة إلىٰ الله كما فهمها رسول الله ﷺ وكما علَّمها لمن بعده دعوة ذات مراحل ، كل مرحلة تُسْلِمُ إلىٰ المرحلة التي تليها ، فالدعوة الإسلامية لا تقابل الواقع بنظريات مجردة ، ولا تقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .

ولعل هذه الفائدة من أخطر فوائد دراسة السيرة النبوية ؛ لأن السيرة النبوية هي التطبيق العملي للإسلام ، وهي الصورة الأنموذج لإقامة دولة الإسلام ، فإذا توضحت هذه المراحل وتبينت هذه الوسائل كُفينا المؤونة ، وتوحد خط السير في الطريق إلىٰ التمكين للدين .

انظر مثلاً إلىٰ مراحل الدعوة في حياة النبي ﷺ :

(١) مرحلة الدعوة السرية : استمرت ثلاث سنوات بعد البعثة ، ولها وسائلها .

(٢) مرحلة الجهر بالدعوة : واستمرت خمس سنوات لأهل مكة ، دون خروج عنها .

(٣) مرحلة البحث عن دار أخرىٰ للدعوة والخروج من إطار مكة : وبدايتها الهجرة إلىٰ الحبشة ، مع مزامنة خروج رسول الله ﷺ إلىٰ الطائف أيضًا ، واستمرت هذه المرحلة خمس سنوات أيضًا .

٤ مرحلة الهجرة : وإقامة الدولة في المدينة ، واستمرت سنتين .

٥ مرحلة الجهاد في سبيل الله والقتال : واستمرت ثلاث سنوات .

٦ مرحلة الهدنة لعالمية الدعوة : واستمرت سنتين .

٧ مرحلة التمكين : وهي من فتح مكة إلىٰ نهاية حياة النبي ﷺ .

وهذه المراحل لابد من مراعاتها وفهمها ، قال ﷻ : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، والأسوة تبدو واضحة أكثر ما تبدو من خلال السيرة العملية للنبي ﷺ ، وأي اعتساف في مراحل هذا المنهج لا يوصل إلىٰ الغاية والتجارب الكثيرة التي خاضها المسلمون علىٰ مدار التاريخ تؤكد هذا المعنىٰ ، والمدىٰ الزمني في هذه المراحل تقدير رباني وليس جهدًا بشريًا ، فإن الله ﷻ كان ينقل خُطا نبيه ﷺ في الدعوة خطوة خطوة بالوحي ، قال ﷻ : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤١-٤٣].

ولكننا لا نقول اليوم : إن هذا المدىٰ الزمني مُلْزِم ، يعني كل مرحلة بعدد سنواتها ، كلا ؛ وإنما الملزم هو المراحل نفسها ، أما المدة لكل مرحلة فهي بحيث تتم المرحلة وينقضي الهدف منها ، وكلٌ بحسب بيئته والوسط الذي هو فيه ، ومرحلته ، ودوره تجاه من حوله ولاءً وبراءً ، دعوةً وإرشادًا .

كيف دخل فكر الهجرة على المسلمين؟

كان النضر بن الحارث لا يسمع القرآن إلا ويقول : أساطير الأولين ، وكان يشتري كتبًا فيها أخبار الأعاجم ، فكان يقول للعرب : محمد يحدثكم عن عاد وثمود ، وأنا أحدثكم عن رُسْتُم وإسفِنْدِيار .

فلما قال النضر ذلك بعثوه وبعثوا معه عقبة بن أبي مُعَيْطٍ إلىٰ أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهما: سلوهم عن محمد، وصِفُوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علمٌ ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتىٰ قدما المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره، وأخبروهم ببعض قوله، وقالوا لهم: إنكم أهل التوراة فقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث يخبركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نَبِيٌّ مُرْسَل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل، فَرَوْا فِيهِ رَأْيَكُم، سلوه عن فِتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجب، وسلوه عن رجل طَوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان بناؤه، وسلوه عن الرُّوح ما هو، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النَّضْرُ وعُقْبَة حتىٰ قدما مكة علىٰ قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمَرَنا أحبارُ يهودٍ أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أَخْبِرْنَا، فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم عما سألتم عنه غدًا، ولم يستثن (لم يقل: إن شاء الله) فانصرفوا عنه.

فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحْدِثُ الله تعالىٰ إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حتىٰ أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة وقد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيءٍ مما سألناه عنه، حتىٰ أحزن رسولَ الله ﷺ مُكْثُ الوحي عنه، وشَقَّ عليه ما تكلم به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الله عَزَّ وَجَلَّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه علىٰ حزنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ومعاتبته علىٰ عدم استثنائه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى

﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطَّوَّاف ، ثم نزل الجواب عن سؤالهم عن الروح في سورة الإسراء .

نزلت سورة الكهف ردًا علىٰ الأسئلة التي أدلىٰ بها المشركون إلىٰ النبي ﷺ ، ولكنها اشتملت علىٰ ثلاث قصص ، فيها إشارات بليغة من الله تعالىٰ إلىٰ عباده المؤمنين :

فقصة أصحاب الكهف ترشد إلىٰ الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة علىٰ الدين ، متوكلاً علىٰ الله : ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ [الكهف: ١٦] .

وقصة الخَضِر وموسىٰ تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائمًا ؛ بل ربما يكون الأمر علىٰ عكسٍ كامل بالنسبة إلىٰ الظاهر ، ففيها إشارة لطيفة إلىٰ أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تمامًا ، وسيُصَادر هؤلاء الطغاة والمشركون إن لم يؤمنوا أمام هؤلاء الضعفاء المضطهدين من المسلمين .

وقصة ذي القرنين تفيد :

❃ أن الأرض لله يورثها مِنْ عبادِهِ مَنْ يشاء .

❃ وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر .

❃ وأن الله لا يزال يبعث من عباده - بين آونة وأخرىٰ - من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه ،

❃ وأن الأحق بإرث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون ، وأن الأخذ بالأسباب سبيل لبلوغ مراد الله للعبد .

❃ أن العبد إذا فتح الله له بابًا من الخير ، فسلكه واتبع سببه ؛ فتح الله له أسبابًا أُخَر لمزيد من الخيرات .

متى كانت الهجرة؟

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، قد بدأت ضعيفة، ثم لم تزل تشتد وتزيد يومًا فيومًا وشهرًا فشهرًا حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة، حتى نبا بهم المقامُ في مكة، وأوعزتهم هذه الضغوط أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم.

أرض الله واسعة:

وبعد أن نزلت سورة الكهف فيها الإشارة إلى الهجرة والأخذ بأسباب النجاة، نزلت أيضًا في التوقيت نفسه سورة الزمَر تشير إلى الهجرة كذلك، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وكان النبي ﷺ قد علم أن النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يُظْلَم عنده أحد؛ فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم من الفتن.

الهجرة لماذا؟

ذكر العلماء أسباب هجرة المسلمين إلى الحبشة منها ما ذكرت، ومنها:

ظهور الإيمان:

حيث كثر الداخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدث الناس به، قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلما كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحُدِّثَ به، ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم يعذبونهم ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال للذين آمنوا به: «**تفرقوا في الأرض**»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟ قال: «**ها هنا**»، وأشار إلى أرض الحبشة[1].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٣٨٤).

ومنها: الفرار بالدين:

كان الفرار بالدين خشية الافتتان فيه سببًا مهمًّا من أسباب هجرتهم للحبشة، قال ابن إسحاق: فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب النبي ﷺ إلىٰ أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلىٰ الله بدينهم.

ومنها: نشر الدعوة خارج مكة:

كان رسول الله ﷺ يبحث عن قاعدة أخرىٰ غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا - والله أعلم - كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، أما قول القائل بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم فإنه لا يستند إلىٰ قرائن قوية؛ فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان علىٰ الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين انْصَبَّ عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة، لم يهاجروا؛ إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم في بيئة قبلية ما يعصمهم من الأذىٰ ويحميهم من الفتنة، وإذا تأملت أسماء المهاجرين يومها فإنك تجد أن عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين.

ومنها: البحث عن مكان آمن للمسلمين:

كانت الخطة الأمنية لرسول الله ﷺ تستهدف الحفاظ علىٰ الصفوة المؤمنة؛ ولذلك رأىٰ النبي ﷺ أن الحبشة تعتبر مكانًا آمنًا للمسلمين ريثما يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أَمَّنَهم وطمأنهم.

وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها : (لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ ، أَمِنَّا عَلَىٰ دِينِنَا ، وَعَبَدْنَا اللهَ ، لا نُؤْذَىٰ وَلا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ)[١] .

لماذا اختار النبي الحبشة؟

إن المتأمل لقضية الهجرة إلىٰ الحبشة يلاحظ أن هناك عدة أسباب لاختيار النبي ﷺ الحبشة ، منها :

① الحبشة أرض صدق:

أشار النبي ﷺ إلىٰ ميزة أرض الحبشة بقوله لأصحابه : «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ ؛ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ ، حَتَّىٰ يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**»[٢] ، وأرض الصدق للصادقين ، فكانت الهجرة إليها لتحتضن الصادقين وتؤويهم وتحنو عليهم ؛ فكانت كذلك .

② النجاشي الصالح العادل:

فقد ورد عن النبي ﷺ ثناؤه علىٰ ملك الحبشة بقوله : «**كَانَ بِالْحَبَشَةِ مَلِكٌ صَالِحٌ يُقَالُ لَهُ : النَّجَاشِيُّ ، لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ بِأَرْضِهِ**»[٣] ، وكان يُثنَىٰ عليه مع ذلك صلاحًا ، أي يشيع عنه ذلك ، ويظهر هذا الصلاح في حمايته للمسلمين ، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه ، وكان معتقده في عيسىٰ عليه السلام صحيحًا ، لذلك كانت النقلة إلىٰ بلاد هذا حاكمها أمانًا للأنفس والعقائد ، وهو أيضًا ملك عادل ، وسيأتي معنا كيف كان من عدله أنه لم يحكم علىٰ المسلمين حتىٰ سمع منهم وأنصفهم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩٠) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

(٢) أخرجه ابن هشام في سيرته (١/ ٣٢١) ، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١/ ١٧٠) .

(٣) أخرجه البيهقي في سننه (٩/ ٩) ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٩٠) .

٣ الحبشة متجر قريش:

لما كانت التجارة عماد الاقتصاد القرشي ، وكانت الحبشة تعتبر من مراكز التجارة في الجزيرة ، فربما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التجارة ، أو ذكرها لهم من ذهب إليها قبلهم ، وقد ذكر الطبري في معرِض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة : «وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش ، يتاجرون فيها ، يجدون فيها من الرزق كثيرًا وفيرًا ، ويصيبون فيها أمنًا ، ويتخذون فيها متجرًا حسنًا» .

كما ذكر ابن عبد البرّ رَحِمَهُ اللَّهُ أن رسول الله ﷺ حين دخل الشِّعْب ، أَمَرَ مَنْ كَانَ بِمَكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلىٰ أرض الحبشة ، وكانت متجرًا لقريش .

وذكر ابن حبان ضمن اختيار الحبشة مكانًا للهجرة أنها كانت أرضًا دافئة ترحل إليها قريش رحلة الشتاء ؛ فإقامة المسلمين فيها سوف ينفعهم أيضًا بالاعتماد علىٰ أنفسهم في التجارة والكسب الحلال الذي يكفيهم المؤونة .

٤ الحبشة البلد الآمن:

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطاعة لقريش وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب ، بما لها من نفوذ عليها ، وكانت القبائل في حاجة لقريش في حجها وتجارتها ومواسمها ، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشًا في حرب الدعوة وعدم الاستجابة للنبي ﷺ ، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة ، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدًا أكثر أمنًا من بلاد الحبشة ، ومن المعلوم أن الحبشة تبعد عن سطوة قريش ، وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها من القبائل ، وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيار الحبشة مكانًا للهجرة أنها : أرض صدق ، وأن بها ملكًا لا يُظْلَم عنده أحد ، فهي أرض صدق ، وملكها عادل ، وتلك من أهم سمات البلد الآمن .

كيف كانت الهجرة الأولى؟

وفي رجب سنة خمس من البعثة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة، كان مكونًا من اثنى عشر رجلًا وأربع نسوة، ورئيسهم عثمان بن عفان ﷺ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ فيهما: «**إِنَّهُمَا أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ عليهما السلام**»[1].

كان رحيل هؤلاء تَسَلُّلًا في ظلمة الليل حتى لا تفطن لهم قريش، خرجوا إلى البحر ويَمَّمُوا (قصدوا) ميناء شُعَيْبَة، وقَيَّضَ الله لهم سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، ولما علمت قريش بذلك خرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين.

ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النجاشي مثواهم، وأحسن لقاءهم ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن ما لم يجدوه في وطنهم وأهليهم؛ فعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: «لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ؛ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَعَبَدْنَا اللهَ لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ»[2].

وفي رمضان من السنة نفسها خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وهناك جَمْعٌ كبير من قريش، كان فيه ساداتها وكبراؤها، فقام فيهم، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة.

إن أولئك الكفار لم يكونوا قد سمعوا كلام الله قبل ذلك؛ لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضًا، قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، لم يعطوا أنفسهم فرصة حتى لمجرد سماعه، فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلَّاب لا يحيط بعظمته وجلالته البيان، تفانوا عما هم فيه، وبقي كل واحد مُصْغِيًا إليه،

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٩٧)، وفي سنده ضعف ولكن له شواهد كثيرة.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩٠)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

لا يخطر بباله شيء سواه ، حتىٰ إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارعَ تَطِيرُ لها القلوب ، ثم قرأ : ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢]، ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتىٰ خرَّ ساجدًا .

وفي الحقيقة كانت قوة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا إلا أن يخروا لله ساجدين.

وسُقِطَ في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوىٰ زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارىٰ جَهدهم في محوه وإفنائه .

بلغ هذا الخبر إلىٰ مهاجري الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تمامًا عن صورته الحقيقية ، بلغهم أن قريشًا أسلمت ، فرجعوا إلىٰ مكة في شوال من السنة نفسها ، فلما كانوا قرب مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جلية الأمر وأن قريشًا لم تُسْلِم ، وأن الأمر يختلف تمامًا عما بلغهم ؛ رجع منهم من رجع إلىٰ الحبشة ، ولم يدخل مكة من سائرهم أحد إلا مستخفيًا ، أو في جوار رجل من قريش .

ثم اشتد عليهم وعلىٰ المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسَطَتْ بهم عشائرهم ، فقد كان صَعُبَ علىٰ قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بُدًا من أن يشير علىٰ أصحابه بالهجرة إلىٰ الحبشة مرةً أخرىٰ ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشقَّ من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، واستعدت لها ، بَيْدَ أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر ، فانحازوا إلىٰ نجاشي الحبشة قبل أن يُدْرَكوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلًا ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة يزيدون قليلًا أو يقلُّون .

وصل المسلمون إلىٰ الحبشة ، واستقر بهم المقام في أمان وسلام ولكن...

ملاحقة.. ومطاردة،

ولكن عَزَّ على المشركين أن يجد المسلمون مأمنًا لأنفسهم ودينهم، إنهم يريدون أن يروهم دائمًا مطاردين معذبين، كأن ذلك عقابٌ لهم على إسلامهم، فوضعوا خطة سياسية محكمة لإعادتهم وإهانتهم، وتوقعوا أنها لن تفشل بحساباتهم وترتيبهم - لكن الله غالبٌ على أمره - فاختاروا رجلين جَلدين لَبِيبَيْن هما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، قبل أن يُسلما، وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي وبَطَارِقَتِهِ (مجلس الوزراء)، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يُطْرد بها أولئك المسلمون، اتفقا مع البطارقة قبل الدخول على النجاشي على أن يشير البطارقة على النجاشي بطرد المسلمين أوتسليمهم دون أن يسمع منهم.

وتقص علينا أم سلمة ﵂ قصة هذه الملاحقة قالت: (لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ؛ النَّجَاشِيَّ، أَمِنَّا عَلَىٰ دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ لَا نُؤْذَىٰ وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا ائْتَمَرُوا أَنْ يَبْعَثُوا إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ فِينَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَا مِمَّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا إِلَيْهِ الأَدَمُ (الجلود المدبوغة)، فَجَمَعُوا لَهُ أَدَمًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيَّةً، ثُمَّ بَعَثُوا بِذَلِكَ مَعَ عَبْدِ اللهِ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَأَمَرُوهُمَا أَمْرَهُمْ وَقَالُوا لَهُمَا: ادْفَعُوا إِلَىٰ كُلِّ بِطْرِيقٍ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلِّمُوا النَّجَاشِيَّ فِيهِمْ، ثُمَّ قَدِّمُوا لِلنَّجَاشِيِّ هَدَايَاهُ، ثُمَّ سَلُوهُ أَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْكُمْ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا فَقَدِمَا عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ وَعِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقٌ إِلَّا دَفَعَا إِلَيْهِ هَدِيَّتَهُ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَا النَّجَاشِيَّ، ثُمَّ قَالَا لِكُلِّ بِطْرِيقٍ مِنْهُمْ: إِنَّهُ قَدْ صَبَا (مَالَ) إِلَىٰ بَلَدِ الْمَلِكِ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ، فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ

نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَىٰ الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافَ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا كَلَّمْنَا الْمَلِكَ فِيهِمْ فَتُشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْلِمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يُكَلِّمَهُمْ؛ فَإِنَّ قَوْمَهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُمَا: نَعَمْ.

ثُمَّ إِنَّهُمَا قَرَّبَا هَدَايَاهُمْ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ فَقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمَّ كَلَّمَاهُ فَقَالا لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ قَدْ صَبَا إِلَىٰ بَلَدِكَ مِنَّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكَ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُبْتَدَعٍ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْكَ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَعْمَامِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ لِتَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ، فَهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ وَعَاتَبُوهُمْ فِيهِ.

قَالَتْ: وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مِنْ أَنْ يَسْمَعَ النَّجَاشِيُّ كَلَامَهُمْ، فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقُوا أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُمْ أَعْلَىٰ بِهِمْ عَيْنًا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ فَأَسْلِمْهُمْ إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدَّاهُمْ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ، فَغَضِبَ النَّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ: لَا هَا اللهِ، ايْمُ اللهِ إِذَنْ لا أُسْلِمُهُمْ إِلَيْهِمَا، وَلَا أُكَادُ، قَوْمًا جَاوَرُونِي وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَىٰ مَنْ سِوَايَ حَتَّىٰ أَدْعُوَهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ مَاذَا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ؛ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا وَرَدَدْتُهُمْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُمْ مَا جَاوَرُونِي. **كيف خرج المسلمون من هذا المأزق؟**

قَالَتْ: ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟! قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا عَلِمْنَا وَمَا أَمَرَنَا بِهِ نَبِيُّنَا، كَائِنٌ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا جَاءُوهُ وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ سَأَلَهُمْ فَقَالَ: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي، وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟

خطبة جعفر الحصيف رضي الله عنه

قَالَتْ : فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فَقَالَ لَهُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ؛ فَدَعَانَا إِلَىٰ اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ .

فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الإِسْلاَمِ ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا ، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا ، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا ؛ فَعَدَا (وثب) عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ؛ لِيَرُدُّونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَىٰ بَلَدِكَ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا أَنْ لاَ نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ .

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟! قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : نَعَمْ ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، قَالَتْ : فَبَكَىٰ وَاللهِ النَّجَاشِيُّ حَتَّىٰ أَخْضَلَ (ابتلت) لِحْيَتَهُ ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّىٰ أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلاَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ : إِنَّ هَذَا - وَاللهِ - وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ ، انْطَلِقَا فَوَاللهِ لاَ أُسْلِمُهُمْ إِلَيْكُمْ أَبَدًا وَلاَ أُكَادُ .

خطة شريرة:

قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : وَاللهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ ، قَالَتْ : فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ -وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا- : لَا تَفْعَلْ ؛ فَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَامًا وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا ، قَالَ : وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّهُ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ عِيسَىٰ بْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ .

قَالَتْ : ثُمَّ غَدَا عَلَيْهِ الْغَدَ فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَمَّا يَقُولُونَ فِيهِ .

قَالَتْ : فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ يَسْأَلُهُمْ عَنْهُ ، قَالَتْ : وَلَمْ يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهُ ، فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ إِذَا سَأَلَكُمْ عَنْهُ ؟! قَالُوا : نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ : مَا تَقُولُونَ فِي عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟! فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه : نَقُولُ فِيهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ .

قَالَتْ : فَضَرَبَ النَّجَاشِيُّ يَدَهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا ثُمَّ قَالَ : مَا عَدَا (جاوز) عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ ، فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ ، فَقَالَ : وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي (وَالسُّيُومُ الْآمِنُونَ) مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ (وَالدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ) ، رُدُّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهَا ، فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنِّي الرِّشْوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَآخُذَ الرِّشْوَةَ فِيهِ ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فِيَّ فَأُطِيعَهُمْ فِيهِ ، قَالَتْ : فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ .

قَالَتْ : فَوَاللهِ إِنَّا عَلَىٰ ذَٰلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ -يَعْنِي مَنْ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ- ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْنَا حُزْنًا قَطُّ كَانَ أَشَدَّ مِنْ حُزْنٍ حَزِنَّاهُ عِنْدَ ذَٰلِكَ تَخَوُّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَٰلِكَ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ ، فَيَأْتِيَ رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ مِنْهُ ، قَالَتْ : وَسَارَ النَّجَاشِيُّ وَبَيْنَهُمَا عُرْضُ النِّيلِ ، قَالَتْ : فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ : مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتَّىٰ يَحْضُرَ وَقْعَةَ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِيَنَا بِالْخَبَرِ؟! قَالَتْ : فَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ : أَنَا ، قَالَتْ : وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا ، قَالَتْ : فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا ، حَتَّىٰ خَرَجَ إِلَىٰ نَاحِيَةِ النِّيلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَىٰ الْقَوْمِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّىٰ حَضَرَهُمْ ، قَالَتْ : وَدَعَوْنَا اللهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَىٰ عَدُوِّهِ وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ ، وَاسْتَوْثَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ ؛ فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتَّىٰ قَدِمْنَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكَّةَ[1] .

إنها وثيقة خطيرة قدمتها لنا أم سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من أنفس الوثائق في فن مخاطبة الملوك ، والحوار معهم ودحض شُبَه الأعداء وكشف مخططاتهم .

ولعل المشركين فكروا في ضرب هذا التجمع الإسلامي الضخم في الحبشة ، لأنه كان ضِعفَ التجمع الإسلامي في مكة في هذا الوقت ، فتذكر الروايات أن عدد المسلمين في الحبشة كان ثلاثةً وثمانين رجلًا وتسع عشرة امرأة ، فمن الطبيعي إذن أن تخطط قيادة مكة للإطاحة بهذا التجمع الخطير في الحبشة ، صحيح أنه بعيدٌ عنها ، ولكنَّ نُمُوَّه يشكل خطرًا علىٰ مكة في أي وقت يعود فيه هؤلاء المسلمون إلىٰ مكة ويمارسون نشاطهم ودعوتهم ، خاصة إذا استطاعوا أن يُدْخِلوا الأحباش في الإسلام ، أو يقنعوا النجاشي بمهاجمة قريش ، ولا تزال ذكرىٰ عام الفيل وغزو الأحباش للكعبة عالقةً في أذهانهم ، ومن أجل هذا أُحْكِمَتْ الخطة من كل جانب لاسترجاع المسلمين من هناك ، وكان وجود ثلاثة عناصر أساسية كافية لنجاح الخطة :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢٩٠) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

الأول: هو الكميات الضخمة من الجلود التي حملها الوفد هدايا معه لكل جهاز الحكم في الحبشة .

الثاني: اختيار الوفد علىٰ أرفع المستويات في مكة من حيث الحكمة والحنكة والدهاء والذكاء .

الثالث: الصداقة الوثيقة بين عمرو بن العاص أحد أعضاء الوفد ، والنجاشي ملك الحبشة .

وحين يراجع المرء الخطة التي شارك ذكاء عمرو بن العاص في وضعها لا يشك لحظة في نجاحها ، ويكفي أن نعلم أن عمرو هو الذي كان داهية المسلمين فيما بعد ، وهو الذي أطلق عليه الفاروق عمر ﷺ: (أرطبون العرب) في مواجهة داهية الروم الأرطبون .

ولكن يجب أن نعتقد بيقين أن أمر الدعوة لا يقوم علىٰ الحسابات البشرية وحدها ، ولكن من وراء الخطط والتدابير ، وأكبر من الذكاء والمكر ، وفوق الكل :

الملك العظيم القاهر القادر عزوجل يحمي دينه ، ويدفع عن عباده الصالحين ، ويمكر بالماكرين ، ويجعل بغي الظالمين علىٰ أنفسهم .

وقد كان أهم عنصر في هذه الخطة هو تسليم الهدايا لجهاز الحكم الحبشي كله قبل تسليمها للنجاشي نفسه ، والهدف المقصود من ذلك هو ما ذكر في الحديث نفسه : (فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ؛ فإن قومهم أعلىٰ بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم) ، فقالوا لهما : نعم .

أي كأنهم يقولون لهم : إذا طلبنا من الملك أن يسلمهم لنا فاطلبوا منه أن يسلمهم لنا دون أن يكلمهم ، واعتبروا أن الهدايا التي قدموها لهم كفيلة بدفعهم لإقناع الملك بذلك ؛ لأنهم كانوا يخافون إذا كلم الملك المسلمين أن يقنعه المسلمون بما يعتقدونه ويؤمنون به .

ونُفِّذت الخطة تمامًا كما أُعدّت ، وقام البطارقة بدورهم على خير وجه ، وكان حديث الوفد القرشي في أعلى مستويات الذكاء ، فقد جعلوا المسلمين على دين مرفوض من الفريقين ، بمعنى آخر هو خطر على الفريقين ، كما حاولوا أن يستفزوا مشاعر النجاشي في عدم دخول المسلمين في دينه ، ليثيروا الحَمِيَّة العقدية عنده لدينه ، وأظهروا حرصهم الشديد على مصلحة الحبشة والنجاشي ، وآخر معنى من المعاني التي ركز عليها الوفد القرشي هو أن قومهم وأشرافهم أعلم بهم ، وهو معنى هام حرصوا عليه ؛ وذلك حتى لا يُجَشِّمُوا النجاشيَّ عناء السماع لهم ؛ لاحتمال فشل خطتهم لو استمع إلى المسلمين .

الشيء الوحيد الذي حال دون تنفيذ الخطة وأفسدها على المشركين هو عدل النجاشي ، وأصالة عنصره ، وطيب معدنه يوم رفض -رغم قرار مستشاريه من البطارقة- الحكم والتسليم قبل أن يسمع من المسلمين .

ومن هنا نتعلم أن من العدل والإنصاف ألا تحكم حتى تسمع من جميع الأطراف ، ولا تكتفِ بما يُنقل إليك أو يُشار عليك به .

وهنا تظهر حكمة رسول الله ﷺ في اختيار الحبشة دارًا لهجرة المسلمين ؛ فإنه كان يعلم أن النجاشي ملك عادل ، وكان يتوقع تلك المبادرة من قريش ، فكان لابد من مكان آمن عند ملكٍ عادل لا يُخْشَى منه ؛ لأنه - مهما كانت المغريات - لن يتأثر ولن يَضْعُف ، ولن يضحي بقومٍ استجاروا به .

وهناك فائدة أخرى، فما أحوجَنا ونحن نعمل في الدعوة إلى الله أن نعرف أقدار الرجال وموازينهم ! إن بعض الكفار قد يُقَيِّضُهُم الله تعالى ليكونوا حماةً للإسلام ، وبعضهم قد يكونون على الحياد ، وبعضهم يعملون لاستئصال شأفة الإسلام ؛ فهل يجوز للمسلمين أن يعاملوهم جميعًا على مستوى واحد؟!

وقد صح عن رسول الله ﷺ قوله : «إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ - أَوْ قَالَ : الكَافِرِ»[1] ، وفي رواية : «بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ»[2] .

وهكذا ينبغي لأهل الدعوة أن يقدروا كل إنسان قدره ، ويضعونه في موضعه اللائق به .

كيف اقنع المسلمون النجاشي؟

وهنا لابد من وقفة جادة ؛ لنتأمل كيف واجه المسلمون هذه المعضلة ؛ لنتعلم ونفهم :

لقد كان هؤلاء المسلمون الأوائل من الكفاءة والعبقرية والتوفيق من الله عز وجل ما استطاعوا به هزيمة وفد المشركين ، فلقد كان الصف الإسلامي في الحبشة يمتاز أول ما يمتاز : بالحب والمودة والثقة بين أفراده .

وكانت المَيْزَة الثانية فيه : لجوءه إلىٰ الشورىٰ (فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ . .) فلا يقطع أحد منهم برأي ولا ينفرد فيه عن أخيه .

وكانت المَيْزَة الثالثة فيه : تقديرهم للكفاءات والطاقات ؛ فاختاروا رجلاً منهم ليكون الناطق الرسمي باسمهم ، حيث وُوجِهَ جعفرُ رضي الله عنه بالسؤال الأول عن هذا الدين ، وقد استطاع جعفر رضي الله عنه أن يقدم الإسلام بصورة فريدة ، قَلَّمَا نجد لها نظيرًا في التاريخ ، وذلك علىٰ أربعة خطوط عامة :

الخط الأول : وقد عرض فيه كل مساوئ الجاهلية وعوراتها وقذارتها ، بحيث أصبح هذا الدين الذي يدين به وفد قريش تتقزز منه كُلُّ نفسٍ بشريةٍ ، وكانت هذه الجولة الأولىٰ التي هدم بها الركن الركين الذي يفيء إليه عمرو بن العاص وصاحبه .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٢٨٩٧) ، ك : الجهاد والسير ، باب : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، ومسلم (١١١) ، ك : الإيمان ، باب : غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٥) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

الخط الثاني: ثم انتقل إلىٰ الخط الثاني فعرض فيه في كلمات جامعة مانعة قواعد الإسلام العامة وأسسه التي تستهوي كل حَصِيفٍ عاقلٍ؛ بل كل ملك حكيم مجرب محنك.

لقد كانت الفرصة مواتية لجعفر رضي الله عنه كي ينقلب داعية إلىٰ هذا الدين، بعد أن كان الهدف سياسيًا بحتًا، وهو المحافظة علىٰ الوجود الإسلامي في الحبشة، وبذلك كسب الجولة الثانية في تقريب نفس النجاشي إلىٰ الإسلام.

الخط الثالث: ثم انتقل إلىٰ الخط الثالث فعرض فيه الظلم الماحق الذي نزل بالمسلمين نتيجة تمسكهم بهذا الدين، وأبرز وضع المسلمين في صورة قِدِّيسين وحواريين تنزل بهم ضربات المجرمين الوثنيين، وهذه الصورة ذات أثر ساحر في نفوس النصارىٰ الذين يعيشون مفهوم التضحية والفداء، بل حوَّروا دينهم إلىٰ صور من المثالية والرهبانية التي ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، ما كتبها الله عليهم، وما رَعَوْها حق رعايتها؛ وبذلك كسب الجولة الثالثة في كسب قلب النجاشي بعد أن كسب عقله.

ويكاد الذي يسمع هذا الكلام يرىٰ أن فوجًا جديدًا من الحَوَاريين قد حضر بين يدي ملك الأحباش، كما أظهر في الوقت نفسه قريشًا في هيئة الطاغية المتجبرة حتىٰ لينفر الملك في قلبه منهم بعد أن نفر منهم في عقله.

الخط الرابع: ثم انتقل إلىٰ الخط الرابع في الثناء الحصيف المتزن علىٰ الملك، الذي لا يحمل المبالغة الكاذبة ولا التجاهل المهين، بل وضعه في صورة الأمل والملاذ لهؤلاء المستضعفين، وبذلك كسب الجولة الرابعة، وجعل آخر حديثه يدور حول المحور النفسي وإثارة الشهامة والرجولة في نفس الملك.

ما أفصحك وأبلغك وأعقلك وأذكاك يا جعفر!!.. رضي الله عنك..

إن وفدًا يستطيع أن يُبكي ملكًا أو رئيسًا ويبكي معه كل أعضاء مجلسه عن صدقٍ وقناعة فقد نجح هذا الوفد في مهمته، وبعد أن كانت غاية المشركين هي

تعريضه للطرد والإبعاد من بلد هذا الملك ؛ فإذ بالملك يتعاطف معه ويصدق كلامه ، فهذا الوفد على مستوى من الكفاءة والعبقرية الفذة في الدعوة إلى الله ، ما تجعله يستطيع معها أن يكسب عقائديًا ، ويضم الملوك إلى الإسلام؟!!

لقد هُزِمَ عمرو في الجولة الأولى شر هزيمة ؛ ولكنه عمرو ، فأين دهاؤه؟ وقد قيل في تحديد مستويات الدهاة المسلمين : معاوية للمُعْضلة ، وعمرو للبديهة ، والمغيرة لكل صغيرة وكبيرة ، ولقد كانت الفكرة عنده أصلاً منذ الوهلة الأولى ، الخطة البديلة إذا فشلت الخطة الرئيسية ، لإلحاق شر هزيمة منكرة بالمسلمين ، وقد عبر عنها بقوله لصاحبه : «وَاللهِ لَأُنَبِّئَنَّهُمْ غَدًا عَيْبَهُمْ عِنْدَهُمْ ثُمَّ أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُمْ» .

حتى لنستمع إلى مشاعر أم المؤمنين رضي الله عنها من الغيظ على عمرو ، وحفظ الجميل لصاحبه ابن أبي ربيعة : «وَكَانَ أَتْقَى الرَّجُلَيْنِ فِينَا» ، إن نقطة الخلاف التي تحاشاها المسلمون بذكائهم ونباهتهم هي التي أثار عمرو عليها حربًا ضروسًا لها أَوَارٌ (حرارة) ، لقد بيتها لهم إلى اليوم التالي حيث قابل النجاشي بقوله : «إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا» .

إن عَمْرًا قد خطط أن يفتك بهم بنفس السلاح الذي هزموه فيه ، بالحديث عن مريم وعيسى بن مريم : «أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ قَوْلاً عَظِيمًا» ، وكانت المحنة الجديدة أمام المسلمين ، حيث لا مفر لهم من قول الحقيقة التي تحاشوا ذكرها من قبل ، لم تعد تجدي العبقرية هنا لأننا أمام أصحاب مبادئ ، وأمام دعاة مخلصين إلى الله ، ولسنا أمام دجّالين نهّازين للفرص حتى ينتصروا على الخصم ، وهذا ما قرره الدعاة المسلمون بعد كل المكاسب التي حققوها ، إنهم الآن أمام واقع قد يفقدهم كل هذه المكاسب ، والتي منها إسلام النجاشي ، والتي منها حرية الدعوة ؛ بل قد يؤدي إلى التنكيل بهم والقضاء عليهم ، وتسليمهم إلى عدوهم .

إنها مواجهة حقيقية : إما أن يقولوا الحق وليكن ما يكون ، أو ينافقوا ويداهنوا ويكذبوا لتتحصل لهم المكاسب والانتصارات ، ولم يكن لهم خيار إلا أن يقولوا كلمة الحق وليكن ما يكون ، فلا مجاملة في العقيدة ، ولا نفاق على حساب الدين .

وهكذا دومًا في كل الموازنات .

كيف يتصرف المسلم أمام هذه الموازنات؟ أمام هذه الخيارات الصعبة؟

حين يجد كل ما بناه معرضًا للانهيار في لحظة واحدة ، أو يجد الدولة التي يريدها على وشك أن تقوم ثم يُطْلَب منه أن يضحي بهذا كله من أجل حقيقة عقدية واحدة ، كيف يتصرف؟!

هل ينافق ويتنازل؟!

هل يكذب ويخادع؟!

أم يصدق ويثبت وليكن ما يكون ويقضي الله قضاءه؟!

أما المسلم ، فلا خيار عندئذ له إلا الإسلام ، وإعلان الحق بقولٍ فصل ، انتهى دور العبقرية ولم يكن من بُدٌ من إعلان العقيدة ولو كانت تغيظ الكثيرين أو تقضي على كل ما حققه المسلمون من مكاسب ؛ كان لابد أن يقال الحق بالحق للحق ، ثم ليكن قدر الله بعد ذلك ما يكون .

ولابد أن نقول هنا أيضًا أن أهم ما يميز المهاجرين المؤمنين هو الشورى ، ثم الاتفاق والاجتماع وعدم الاختلاف ، فحين تشاوروا في ذلك اجتمعت كلمتهم : نَقُولُ وَاللهِ فِيهِ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّنَا ، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ ، فقال جعفر ﷺ: والله لئن سألني لأصدقنه ، وقد كان ؛ فقالوا وبلا خلاف : «هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ» ، لقد حصرهم دهاء عمرو في عبودية عيسى عليه السلام ؛ لعلمه باختلاف النصارى في عقيدتهم في عيسى عليه السلام ، فلا مَنَاصَ لهم من أن يقولوا الحقيقة .

ولكن شرف الكلمة ، وعظمة التمسك بالمبدأ ، والصدق تحت هذا الضغط الشديد ، يكون لها من السحر الحلال أحيانًا ما يفوق كل دهائنة السياسة وعباقرة الدبلوماسية ، وهذا الذي كان أيضًا ، فقد قال النجاشي بعدما سمع الحق : «مَا عَدَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ» ، ولئن فشل عمرو في تغيير قلب النجاشي ، فلم يفشل في تغيير قلب بطارقته ، ونخروا أمام هذه التصريحات ، غير أن النجاشي زاد إصرارًا علىٰ موقفه : «وَإِنْ نَخَرْتُمْ وَاللهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ سُيُومٌ (آمنون) بِأَرْضِي ، مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ غُرِّمَ ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي دَبْرًا (جبلًا) ذَهَبًا وَأَنِّي آذَيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ» ، وانتهىٰ الأمر بتوتر العلاقات بين النجاشي وصاحبه عمرو ، حتىٰ ليأمر بإعادة الهدايا كلها إليهم .

ولك أن تتخيل مدىٰ غيظ المشركين وحنقهم حين أخفقت حِيلَتُهم ، وفشلت مكيدتهم التي كانوا يثقون في نجاحها ؛ لأنهم يحسبون الأمور بحسابات دنيوية عمياء تافهة ، لا يعلمون أن الله سوف يمكِّن لدينه وإن طالت المدة ، وإن بدا الأمر من الظاهر أنه هزيمة وليس تمكينًا ، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغينتهم إلا في حدود سلطانهم ، ونشأ فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة ، رأوا أن القضاء علىٰ الإسلام وأهله لا يمكن إلا بكف رسول الله ﷺ عن دعوته تمامًا ، وإلا فبإعدامه ، ولكن كيف السبيل إلىٰ ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم ؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب في هذا الصدد ، ربما كانوا يعتقدون أن أبا طالب يحمي النبي ﷺ لأنه ابن أخيه فقط ولكنه ليس مقتنعًا بما يدعو الناس إليه ، والدليل علىٰ ذلك أنه لم يعتنق الإسلام ، فرأوا أن يَدخلوا إليه من هذه الثغرة : دينهم وآلهتهم .

قريش يهددون أبا طالب:

جاءت سادات قريش إلىٰ أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سِنًّا وشرفًا ومنزلةً فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر علىٰ هذا مِنْ شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيب آلهتنا ، حتىٰ تَكُفَّهُ عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتىٰ يَهلك أحدُ الفريقين .

عَظُمَ علىٰ أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلىٰ النبي ﷺ وقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا فأَبْقِ عليَّ وعلىٰ نفسك، ولا تُحَمِّلْنِي من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذِلُه، وأنه ضعف عن نصرته، فقال: «يَا عَمِّ! وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ؛ مَا تَرَكْتُهُ»[1]، ثم استعبر وبكىٰ ﷺ، وقام، فلما ولَّىٰ ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُك لشيءٍ أبدًا، وأنشد:

وَاللهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّىٰ أُوَسَّدَ فِي التُّرَابِ دَفِينَا

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ ... وَأَبْشِرْ وَقَرَّ بِذَاكَ مِنْكَ عُيُونَا

وَدَعَوْتَنِي وَعَرَفْتُ أَنَّكَ نَاصِحِي ... وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينَا

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا

لَوْلَا المَلَامَةُ أَوْ حَذَارِ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

إنهم لا ييأسون!!

لما أخفق المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين، ثم فشلوا أيضًا في تحييد أبي طالب؛ استشاطوا غضبًا، وكادوا يتميزون غيظًا، فاشتدت ضراوتهم وانقضوا علىٰ بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلىٰ رسول الله ﷺ بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل علىٰ أنهم أرادوا القضاء علىٰ النبي ﷺ؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضَّتْ مضاجعهم -حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقين منهم في مكة كانوا قليلين جدًا، وكانوا إما ذوي شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويبتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان، ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٦)، وأورده الألباني رحمه الله في «الأحاديث الضعيفة» (٩١٣).

لم يَسلموا كل السلامة من الأذىٰ والخسف والجور .

وأما رسول الله ﷺ ، فقد كان يصلي ويعبد الله أمام أعين الطغاة ، ويدعو إلىٰ الله سرًّا وجهرًا لا يمنعه عن ذلك مانع ، ولا يصرفه عنه شيء ؛ إذ كان ذلك من جملة تبليغ رسالة الله منذ أمره الله عز وجل بقوله : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]؛ وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا ، ولم يكن في الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار ، وما كان لأبي طالب من الذمة والاحترام ، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم ، ومن اجتماع بني هاشم عليهم ، إلا أن كل ذلك لم يَعُدْ له أثره المطلوب في نفوسهم؛ إذ بدءوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كِيانهم الوثنيّ وزعامتهم الدينية أمام دعوته .

وقد روىٰ ابن إسحاق وغيره أن عتيبة بن أبي لهب أتىٰ يومًا رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر بـ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١] ، وبالذي ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨] ، ثم تسلط عليه بالأذىٰ ، وشَقَّ قميصه ، وتَفَلَ (بصق) في وجهه ، إلا أن البُزاق لم يقع عليه ؛ وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال : «**اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ**» ، وقد استجيب دعاؤه ، فقد خرج عتيبة إثر ذلك في نفر من قريش ، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عُتَيْبة يقول : يا ويل أخي ، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، ثم جعلوه بينهم ، وناموا من حوله ، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه ، فَضَغَمَ (أكل) رأسه[1] .

ومنها : ما ذُكِرَ أن عُقْبَة بن أبي مُعَيْط وَطِئ علىٰ رقبته الشريفة وهو ساجد حتىٰ كادت عيناه تبرزان .

---

(١) معجم الصحابة لابن قانع (١١٦/٧) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق عند ترجمة عتبة هذا من طريق ابن إسحاق عن هبار بن الأسود رفعه .

قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ ﷺ: قُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي بِفِنَاءِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ ، فَأَخَذَ بِمَنْكِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَوَىٰ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَأَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨][1] .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر ﷺ فقال : أَدْرِك صاحبك ، فخرج من عندنا وعليه غدائر (ضفائر شعره) أربع ، فخرج وهو يقول : ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؟! فَلَهَوْا عنه وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نَمَسُّ شيئًا من غدائره إلا رجع معنا (أي يتساقط شعره من شدة الإيذاء)[2] .

إسلام حمزة ﷺ

إن الأفق المُتَلَبِّد بالسحب قد يتولد منه برقٌ يضيء ، لقد غبرت على المسلمين في مكة أيامٌ غِلاظ ، اضطرت بيوتًا عديدة أن تفر بدينها ، وبقي من بقي منهم يكابد العنت من شطط المشركين وكيدهم ، إلا أن عناصر جديدة دخلت في الإسلام جعلت قريشًا تتروَّىٰ في أمرها قبل أن تُقْدِم على إساءاتها المُبَيِّتة .

خلال هذا الجو المُلَبَّد بغيوم الظلم والعدوان ظهر بَرْقٌ أضاء الطريق : أسلم حمزة بن عبد المطلب ، عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاع ، وهو رجل أَيِّد جَلْد قويُّ الشكيمة ، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة ، وكان سبب إسلامه الغَيْرَة والحَمِيَّة والغضب .

---

(١) ، (٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ك : المناقب ، باب : قول النبي ﷺ : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خليلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خليلًا» .

وقصة إسلامه: أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يومًا عند الصفا فآذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فَشَجَّهُ حتىٰ نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلىٰ نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جُدْعَان في مسكنٍ لها علىٰ الصفا ترىٰ ذلك، فقالت لحمزة: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم ابن هشام فإنه سَبَّهُ وآذاه ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمدٌ، فغضب حمزة -وكان أعز فتىٰ في قريش وأقواهم- فخرج مسرعًا، لم يقف لأحد؛ معدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، وأقبل حمزة من القَنَص (الصيد) مُتَوَشِّحًا قوسه، فلما دخل المسجد قام علىٰ رأسه، وقال له: أتشتم ابن أخي وأنا علىٰ دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم -حي أبي جهل- وثار بنو هاشم -حي حمزة-، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا.

وكان إسلام حمزة ﷺ أول الأمر أَنَفَةَ رجلٍ، أبىٰ أن يهان مولاه، ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقىٰ، واعتز به المسلمون أيما اعتزازٍ.

إسلام عمر ﷺ

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان أضاء برقٌ عظيم آخر، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب ﷺ، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة، بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة ﷺ، وكان النبي ﷺ قد دعا الله ﷻ لإسلامه.

عن ابن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ: بِأَبِي جَهْلٍ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**»، قال: وكان أحبهما إليه عمر[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٨١)، ك: المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: مناقب عمر ﷺ، وصححه الشيخ الألباني ﷺ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٠٧).

كان عمر ﷺ معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذىٰ، والظاهر أنه كانت تتضارب في نفس عمر مشاعرُ متناقضة؛ احترامه للتقاليد التي سَنَّها الآباءُ والأجدادُ وتحمسه لها، ثم إعجابه بصلابة المسلمين، وباحتمالهم البلاء في سبيل العقيدة، ثم الشكوك التي كانت تساوره - كأي عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أَجَلّ وأزكىٰ من غيره؛ ولهذا عاش مدة طويلة يعاني؛ ما إن يَثُور حتىٰ يَخُور.

التجأ ليلة إلىٰ المبيت خارج بيته، فجاء إلىٰ الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي ﷺ قائم يصلي، وقد استفتح سورة ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، فجعل عمر يستمع إلىٰ القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أي في نفسي: هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤١]، قال: قلت: كاهن، قال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٢-٤٣]، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع[(١)].

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه؛ لكن كانت النزعات الجاهلية، وعصبية التقليد، والتعاظم بدين الآباء غشاوةً غالبةً علىٰ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقي مجدًا في عمله ضد الإسلام غير مهتم بالشعور الذي جاءه في تلك الليلة.

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء علىٰ النبي ﷺ، فلقيه نُعَيم بن عبد الله النَّحام العدوي، فقال: أين تَعْمِدُ يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا، قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صَبَوْت، وتركت دينك الذي كنت عليه، قال: أفلا أدلك علىٰ العجب يا عمر! إن أختك وخَتَنَكَ (زوج أختك) قد صَبَوَا، وتركا دينك الذي أنت عليه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/١٧) بسند ثقات، غير أن الراوي عن عمر لم يدركه.

فمشىٰ عمر غاضبًا حتىٰ أتاهما ، وعندهما خَبَّاب بن الأرَتّ ، معه صحيفة فيها : آيات من سورة طه يُقرِئُهما إياها - وكان يَخْتَلِفُ إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خبَّابُ حِسَّ عمر توارىٰ في البيت ، وسترت فاطمةُ - أخت عمر - الصحيفة ، وكان عمر قد سمع حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما ، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهَيْنَمَة التي سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا .

قال : فلعلكما قد صَبَوْتُمَا ، فقال له زوج أخته : يا عمر ، أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر عليه فضربه ضربًا شديدًا ، فجاءت أخته فرفعته عن زوجها ، فضربها ضربة بيده ، فدمىٰ وجهُها ، فقالت وهي غضبىٰ : يا عمر ، إن كان الحقُّ في غير دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله .

فلما يئس عمر ، ورأىٰ ما بأخته من الدم ندم واستحيا ، وقال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه ، فقالت أخته : إنك رِجسٌ (نجس) ، ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل ، فقام فاغتسل ، ثم أخذ الكتاب ، فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فقال : أسماءٌ طيبةٌ طاهرةٌ ، ثم قرأ الآيات الأولىٰ من سورة طه ، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قوله : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤]؛ فقال : ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه ؟ دلوني علىٰ محمد .

فلما سمع خَبَّاب رضي الله عنه قول عمر خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ؛ فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس : «**اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ : بِأَبِي جَهْلٍ ، أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ**»[1] ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم انطلق حتىٰ أتىٰ الدار ، فضرب الباب ، فقام رجل ينظر من خَلَل (فرجة) الباب ، فرآه متوشحًا السيف ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، واستجمع القوم ، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر ، فقال : وما عمر ؟

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٨١) ، ك : المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب : مناقب عمر رضي الله عنه ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٩٠٧) .

افتحوا له الباب ؛ فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه ، ورسول الله ﷺ داخل يوحىٰ إليه ، فخرج إلىٰ عمر حتىٰ لقيه في الحجرة ، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف ، ثم جبذه جَبْذَةً شديدة فقال : **«أَمَا أَنْتَ مُنْتَهِيًا يَا عُمَر حَتَّىٰ يُنْزِلَ اللهُ بِكَ مِنَ الخِزْيِ وَالنَّكَالِ مَا نَزَلَ بِالوَلِيد ابن المُغِيرَة؟ اللَّهُمَّ هَذَا عُمَر بن الخَطَّاب ، اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بن الخَطَّاب خَاصَّةً»**[1] ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وأسلم ؛ فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد .

وعند ابن هشام : أن النبي ﷺ نهض إليه ، حتىٰ لقيه بالحجرة فأخذ بِحُجْزَتِهِ ، أو مَجمع ردائه ، ثم جَبَذَهُ جَبْذَةً شديدة ، وقال : **«مَا جَاءَ بِكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟ فَوَاللهِ مَا أَرَىٰ أَنْ تَنْتَهِيَ حَتَّىٰ يُنْزِلَ اللهُ بِكَ قَارِعَةً»** ، فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمن بالله ورسوله ، وبما جاءك من عند الله ؛ فَكَبَّرَ رسولُ الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم .

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة ، وقد أثار إسلامُهُ ضَجَّةً بين المشركين ، وشعورًا لهم بالذِّلَّة والهوان ، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسرورًا .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سألت عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأي شيء سُمِّيتَ الفاروق؟ قال : أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام ، ثم قص عليه قصة إسلامه ، وقال في آخره : قلت - أي حين أسلمت : يا رسول الله ، ألسنا علىٰ الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال : **«بَلَىٰ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّكُمْ عَلَىٰ الحَقِّ وَإِنْ مِتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ»** ، قال : قلت : ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ، فأخرجنا في صفين ، حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر ، له صوت كصوت الطحين ، حتىٰ دخلنا المسجد ، قال : فنظرت إلىٰ قريش وإلىٰ حمزة ، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ؛ فسماني رسول الله ﷺ (الفاروق) يومئذ .

---

(١) دعاء النبي ﷺ : **«اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بِعُمَرَ بن الخَطَّاب خاصة»** أخرجه ابن ماجة في المقدمة (١٠٥) ، باب : فضل عمر رضي الله عنه ، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجة» (٨٥) .

وبعد أن أسلم عمر ﷺ زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله ، فقد روى البخاري عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : بَيْنَمَا هُوَ - أي عمر - فِي الدَّارِ خَائِفًا إِذْ جَاءَهُ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ أَبُو عَمْرٍو عَلَيْهِ حُلَّةُ حِبَرَةٍ وَقَمِيصٌ مَكْفُوفٌ بِحَرِيرٍ وَهُوَ مِنْ بَنِي سَهْمٍ وَهُمْ حُلَفَاؤُنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ لَهُ : مَا بَالُكَ ؟ قَالَ : زَعَمَ قَوْمُكَ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونِي إِنْ أَسْلَمْتُ ، قَالَ : لَا سَبِيلَ إِلَيْكَ ، بَعْدَ أَنْ قَالَهَا أَمِنْتُ ؛ فَخَرَجَ الْعَاصِ فَلَقِيَ النَّاسَ قَدْ سَالَ بِهِمْ الْوَادِي فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُونَ ؟ فَقَالُوا : نُرِيدُ هَذَا ابْنَ الْخَطَّابِ الَّذِي صَبَا ، قَالَ : لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ؛ فَكَرَّ النَّاسُ ، وفي رواية : والله كأنما كانوا ثوبًا كُشِطَ عنه[1] .

قال ابن مسعود ﷺ: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر» ، وكان يقول ﷺ: «ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر»[2] .

وعن صهيب بن سنان الرومي ﷺ قال : «لما أسلم عمر ظهر الإسلام ، ودُعِي إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حِلَقًا ، وطفنا بالبيت ، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به» .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب»[3] .

فوائد من إسلام حمزة وعمر :

وهكذا كان إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما في ذي الحجة من السنة السادسة للنبوة ، وقد سبق حمزةُ عمرَ بثلاثة أيام ، وذلك في أشد حالات الأزمة ، حين كانت قريش تخطط لقتل النبي ﷺ .

وفي ذلك دروس وعبر نذكرها في هذه البصائر :

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١) ، ك : المناقب ، باب : إسلام عمر ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨١) ، ك : المناقب ، باب : مناقب عمر ﷺ.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٨٩٠) بسند صحيح .

بصائر

اعلم يا بني،

① أن وراء الكفر المتبجح قلوبًا لم تصطدم بعدُ بتيار الإسلام العنيف، ولم تصل لها القوة الكهربية الضخمة، فحين تكون الصدمة قوية قد تغير الكيان كله، وهذا ما وقع بقدر الله، ودفع إلىٰ إسلام عمر بن الخطاب وحمزة رضي الله عنهما في آنٍ واحد.

ولا ننسىٰ أبدًا ذلك الحوار الذي جرىٰ بين أم عبد الله ليلىٰ بنت أبي حَثْمَةَ وعمر قبل أن يسلم، قالت: إنا لنرتحل إلىٰ أرض الحبشة، وقد ذهب عامر ابن ربيعة في بعض حاجته؛ إذ أقبل عمر بن الخطاب حتىٰ وقف عليّ، وهو علىٰ شِرْكِه، قالت: وكنا نلقىٰ منه البلاء: أذىٰ لنا وشدةً علينا، قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: فقلت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتىٰ يجعل الله لنا مخرجًا، قالت فقال: صَحِبَكُمُ الله، ورأيت له رِقَّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه -فيما أرىٰ- خروجُنا، قالت: فجاء عامر بحاجته تلك فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيتَ عمرَ آنفًا ورِقَّته وحُزنه علينا، قال: أَطَمِعْتِ في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يُسْلِم الذي رأيتِ حتىٰ يُسلم حِمارُ الخطَّاب، قالت: يأسًا منه لما كان يرىٰ من غِلْظَتِه وقَسْوَتِه عن الإسلام[1].

ولم يكن هذا اليأسُ القاتلُ ليسيطرَ علىٰ نفس هذا الصحابي لولا رؤيتُه الحربَ العنيفةَ الشرسةَ التي يشنها عمر علىٰ الإسلام؛ ولكنَّ قلبَ المرأةِ

(١) أخرجه ابن إسحاق في «المغازي» (١/ ١٨١) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٢١) بسند حسن.

كان أصدقَ من رأيِ الرجل ؛ فإن غلظة عمر كانت قشرةً خفيفةً ، تكمن وراءها ينابيعُ من الرقة والعطف والسماحة .

والظاهرُ -كما ذكرنا- أن عمر ﷺ كانت تصطرع في نفسه مشاعرُ متناقضة ؛

كان يصده عن الإسلام من جانب ؛

❁ احترامه للتقاليد التي سنها الآباء والأجداد .

❁ واسترساله مع شهوات اللهو التي ألفها . . .

ويدفعه إليه من جانب آخر ؛

❁ إعجابه بصلابة المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم .

❁ ثم الشكوك التي تساوره - كأي عاقل- في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكىٰ من غيره .

ولهذا ما إن يثور حتى يخور، ذهب ليقتل محمدًا ﷺ ثم ثَنَتْه عن عزمه كلمة.

ولما علم بإسلام أخته وزوجها اقتحم عليهما البيت صاخبًا متوعدًا ، وضرب أخته فشجها ، وأعاده منظر الدم المراق إلىٰ صوابه ، فرجحت نواحي البر والخير في نفسه ، وتناول ورقة كتبت فيها بعض الآيات ، وتلاها ، ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

واستكان عمر ﷺ للحق فمشىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ يعلن إسلامه .

فلما خلصت نفسه من شوائبها ، وتمحّصت للإسلام ، ، كان مددًا عظيمًا لجند الله ، فازداد المسلمون به مَنَعَةً ، ووقعت في نفوس الكافرين منه حسرة .

(٢) ما أحوج الدعوة الإسلامية إلىٰ أن تُحْسِن اصطفاء العظماء ، وتكشف من خلف حجب الظلام المتكاثفة المعدن الثمين النفيس لهم ، فتدفع بكل طاقاتها وإمكاناتها لاختراق هذه الحجب حتىٰ تمس أسلاك القلب الخامد الخافت ،

فإذا به ينبعث حيًا بنور الإسلام، وينتفض مشرقًا بحلاوة الإيمان وروعته.

③ لعل خروج عمر رضي الله عنه متوشحًا سيفه قاصدًا قتل رسول الله ﷺ كان ثأرًا لخاله أبي جهل بن هشام، الذي طُعِنَ في كبريائه من حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه بطل بني هاشم، فكيف يسكت على الضيم يلحق ببني مخزوم وحلفائهم بني عدي من بني عبد المطلب؟ ما الذي حطم هذه العصبية الكالحة الخانقة؟

الجواب: لقد تحطمت على صلابة العقيدة من هذه المرأة العزلاء، فاطمة بنت الخطاب أخته، لقد وجد نفسه صغيرًا.. صغيرًا تافهًا أمام الدم المنفجر من جرح أخته العزلاء من كل شيء، وهي تتحدى شخصه، وتهشم كبرياءه قائلة له: وقد كان ذلك على رغم أنفك!!

لم تتراجع.. لم تَخَفْ.. لم تَضْعُفْ كما توقع.

فاعلم إذًا أن قمة العنف والطغيان لدى الطاغية قد تنهزم داخليًا وتتحطم وتنهار أمام ثبات المستضعفين على الحق، وَجَلَد وتضحية المجاهدين في سبيل الله، فلنتيقظ إلى هذا الجانب المهم، وتعرف مَنْ تربح الدعوة ويربح الدعاة حين يثبتون على الحق كما ثبت أصحاب النبي ﷺ رغم كل الابتلاءات والإيذاءات والاضطهادات والتعذيب، افهم ذلك جيدًا وعِهِ حتى يمدك ذلك بالثبات والصلابة أمام سيل الأمواج الجارف من الفتن، وإذا علمت أنك على الحق يقينًا زادك ذلك ثباتًا.

④ نلاحظ أخيرًا ذلك التحدي الشخصي للجاهلية من عمر رضي الله عنه في ذهابه لخاله أبي جهل، وإعلانه إسلامه، وفي بحثه عن جميل بن مَعْمَر الجُمَحِي أكثر قريشًا نقلاً للخبر؛ لينقل خبر إسلامه للناس، وفي مواجهته للمشركين وقد سال بهم الوادي يضربهم ويضربونه.

إن هذه الشخصية الفذة لا تعرف الحلول الوسطى ، ولا يناسبها إلا المواجهة والمجابهة ، وهذه هي فطرتها ؛ ولكننا نخطئ كثيرًا حين نقيس الناس جميعًا بعمر ﵁ .

إن حادثة إسلام عمر فيها شخصية سعيد ﵁ زوج أخته الذي كتم إسلامه عن قومه ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، وفيها شخصية خبّاب ﵁ الذي اختبأ عند سماعه صوت عمر ، وهو من السابقين الأولين من المهاجرين ، ولم يكن المسلمون يعيبون على خباب وسعيد ﵄ أو يتهمونهما بالجبن .

فالاندفاع الأعمى وراء شخصية معينة في الإسلام أو حادثة معينة ، يعني الحكم الأهوج والأعوج على الناس ؛ فليس كل الشخصيات الإسلامية عمر وحمزة ، وليست كلها سعيد وخباب ، والإسلام يقبل هذه النماذج جميعًا ، وكل واحدة منها لها دورها ومسئوليتها ورسالتها .

وهي مواهب وطاقات وقدرات من الكريم الوهاب ، فهي أرزاق ... لكل عبد رِزْقُه .

يدفعك اعتقاد هذا إلى عدم الاندفاع والحكم على الصحابة ﵃ خاصة ، وعلى المسلمين عامة بحكم معين نتيجة وَقْعَةٍ أو ظروف ، ويدفعك أن تعتقد في داخلك أن الصحابةَ كلَّهم كانوا على خير ؛ وإنما كان لكل واحد منهم شخصيته التي تميزه ، فلا يدفعك انبهارك بشخصية عمر وحمزة إلى أن تتعجب من إخفاء بعض الصحابة إسلامهم .

إن الشخصية الوحيدة التي تصدت لعمر ﵁ هي شخصية حمزة ﵁، الذي كان يملك من المؤهلات المكافئة لمواجهة التحدي من عمر ، يظهر ذلك عندما تساءل حمزة ﵁ عن خوف الرجل لما علم أن عمر بالباب وقد أتى متوشحًا سيفه ينوي قتل رسول الله ، فقد قال : وما عمر ؟ افتحوا له . . فلا غرو إذًا أن يكون لهما الدور الأكبر والحاسم في إنهاء مرحلة معينة وابتداء مرحلة جديدة .

⑤ الصدق منجاة، والكذب مهلكة، لما صدق المهاجرون في دينهم، وصدقوا في نواياهم مع ربهم، وصدقوا في مواجهة كيد عدوهم؛ حفظهم الله من ذلك الكيد وأنجاهم بذاك الصدق، ولا يحيق المكر السّيّئ إلا بأهله، وما كان ربك ليخذل أولياءه أبدًا.

فحقق الولاية، تجد من ربك الحفظ والكلاءة والرعاية.

⑥ مبدأ الشورىٰ مبدأ أصيل تربىٰ عليه هذا الجيل العظيم منذ البدايات الأولىٰ لهذه الدعوة، وفيه من الحِكَم الكثير؛ منها: أن يعلم أفضل الآراء وأصوب الاحتمالات وأقربها إلىٰ مرضاة الله عز وجل، كما أن مبدأ الشورىٰ فيه من البركة والخير والاجتماع ما ليس في غيره؛ لذلك أرساه ربنا وعلمه لنبينا، وهو أكمل الخلق عقلاً وفهمًا وأصوبهم رأيًا، لكن علَّمه الله مبدأ الشورىٰ: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

⑦ لئن كان تخطيط المشركين أدهىٰ فإن حفظ الله أعلىٰ، وكما أن للباطل جنودٌ يعملون له بما أوتوا من قوة؛ فإن للحق رجالاً يبذلون دماءهم وأرواحهم لإعلائه.

⑧ من عوامل نجاح الفئة المؤمنة الحب والثقة بين الأفراد، والتشاور فيما بينهم، وتقديرهم للكفاءات وإعطاء كل ذي حق حقه.

⑨ من تمام الحنكة والحكمة لدىٰ القائد النجيب إعداد خطة بديلة، وتقدير حلول لكل احتمال قد يواجهه أو يفاجأ به.



مفاوضات قرشية نبوية:

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة وعمر رضي الله عنهما - أخذت السحائب تتقشع ، وأفاق المشركون عن ظلمهم وتنكيلهم بالمسلمين ، وغيروا تفكيرهم في معاملتهم مع النبي ﷺ والمؤمنين ، واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات ، ولم يدر هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دين الله والدعوة إليه ، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا .

«فحدث أن عُتْبَةَ بن ربيعة ، وكان سيدًا في قومه ، قال يومًا وهو في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلىٰ محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيَها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون ، فقالوا : بلىٰ ، يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة ، حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ ، فقال : يابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَةِ (الشرف والمكانة) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم ، فرَّقتَ به جماعتَهم ، وسفَّهت به أحلامهم ، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضىٰ من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله ﷺ : «قُلْ يَا أَبَا الوَلِيد أَسْمَعْ» .

قال : يابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفًا سَوَّدْنَاك علينا حتىٰ لا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكًا ملَّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا (هواتف الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطِّبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ تُبْرِئَك منه ، فإنه ربما غَلَبَ التابعُ علىٰ الرجل حتىٰ يُداوىٰ منه .

حتىٰ إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أَقَدْ فَرَغْتَ يا أبا الوَلِيد؟» قال: نعم، قال: «فَاسْمَعْ مِنِّي»، قال: أفعلُ، فقال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥]، ثم مضىٰ رسول الله ﷺ فيها، يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ السجدة منها فسجد، ثم قال: «قَدْ سَمِعْتَ يا أبا الوَلِيد ما سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ».

فقام عتبة إلىٰ أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر علىٰ العرب فَمُلْكُه مُلْكُكُم، وَعِزُّهُ عِزُّكُم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم».

وفي رواية: «قال رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥]، فقرأ حتىٰ بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسك عتبة علىٰ فِيهِ وناشده الرَّحِمَ أن يكف عنه، ولم يخرج إلىٰ أهله، واحتبس عنهم.

فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرىٰ عتبة إلا قد صبأ إلىٰ محمد وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجةٍ أصابته، انطلقوا بنا إليه، فأتوه،

فقال له أبو جهل : والله يا عتبة ما حبسك إلا أنك صبوت إلىٰ محمد وأعجبك أمره ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمدًا أبدًا ، وقال : لقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً ؛ ولكني أتيته -فقص عليهم القصة- فأجابني بشيء ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة ؛ قرأ : ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١-٥]، حتىٰ بلغ : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فأمسكت بفيه وناشدته الرحم يكف ، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب ؛ فخفت أن ينزل بكم العذاب»[1] .

وكأن رجاء قريش لم ينقطع بما أجاب به النبي ﷺ عتبة علىٰ اقتراحاته ؛ لأنه لم يكن صريحًا في الرفض أو القَبول ؛ بل تلا عليه النبي ﷺ آياتٍ سمعها عتبة ، فخشي منها ورجع من حيث جاء ، فتشاور رؤساء قريش فيما بينهم وفكروا في كل جوانب القضية ، ودرسوا كل المواقف برويّة وتريُّث ، ثم اجتمعوا يومًا عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس ، وأرسلوا إلىٰ النبي ﷺ يدعونه ، فجاء مسرعًا يرجو خيرًا ، فلما جلس إليهم قالوا له مثل ما قال عتبة ، وعرضوا عليه المطالب نفسها التي عرضها عتبة ، وكأنهم ظنوا أنه لم يثق بجدية هذا العرض حين عرض عتبة وحده ، فإذا عرضوا هم أجمعون يثق ويقبل ؛ ولكن قال لهم رسول الله ﷺ : «**مَا بِي مَا تَقُولُونَ ، مَا جِئْتُكُم بِمَا جِئْتُكُم بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُم وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، وَلَا الْمُلْكَ عَلَيْكُم ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُم رَسُولاً ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَبَلَّغْتُكُم رِسَالَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُم بِهِ فَهُوَ حَظُّكُم فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوا عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم**»[2] .

---

(١) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ، وصححه الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١/ ١٦١) .
(٢) سيرة ابن إسحاق (١/ ١٧٨) .

ولما أجابهم رسول الله ﷺ بهذا الرد القاطع المفحم بدأوا يهاجمونه ﷺ ويطالبونه بالمعجزات ، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يُسَيِّرَ عنهم الجبال ، ويحيي لهم الموتىٰ ، فإن فعل صدقوه وآمنوا به ، فأجاب بما سبق من الجواب ، ونزل جواب الله ﷻ من السماء :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

فانتقلوا إلىٰ نقطة ثالثة ، وطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له مَلَكًا يصدقه ، ويراجعونه فيه ، ويبسط لهم البلاد ، ويفجِّر فيها الأنهار ، وأن يجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة ، فأجابهم بالجواب نفسه ، وذكر لنا ربنا ﷻ ذلك فقال :

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣].

فانتقلوا بذلك إلىٰ نقطة رابعة أشد كفرًا ؛ فطلبوا منه العذاب : أن يُسْقِطَ عليهم السماء كِسَفًا (قطعًا) ، كما يقول ويتوعَّدُ ؛ فقال : «ذٰلِكَ إِلَىٰ اللهِ ، إِنْ شَاءَ فَعَلَ» ، فقالوا حينئذٍ بسخرية واستهزاء : أما عَلِمَ ربك أنا سنجلس معك ، ونسألك ونطلب منك ، حتىٰ يُعلمَك ما تراجعنا به ، وما هو صانعٌ بنا إذا لم نقبل؟!!

وأخيرًا : هَدَّدُوهُ أشد التهديد ، وقالوا : أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتىٰ نُهْلِكَكَ أو تهلكنا ، فقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرف إلىٰ أهله حزينًا أسِفًا لما فاته ما طمع من قومه ؛ فما أقساهم! وما أعتاهم!!

محاولة فاشلة لقتل النبي:

ولما انصرف رسول الله ﷺ عنهم خاطبهم أبو جهل بمنتهى الكبر والغرور وقال: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وأني أعاهد الله لأجلسن له بِحَجَرٍ ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ (كسرتُ) به رأسه، فأسلِموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لا نُسلِمُكَ لشيءٍ أبدًا، فامضِ لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل.

فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فَحلٌ من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هَامَتِه، ولا مثل قَصَرَتِه (عنقه)، ولا أنيابه لفحلٍ قط، فَهَمَّ بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذُكِرَ لي أن رسول الله ﷺ قال: «ذَلِكَ جِبْرِيلُ عليه السلام لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ»[1].

ورأت قريش أن أمر الإسلام ينمو ويعلو، وأن وسائلها الأولى في محاربته لم تمنع انتشاره أو تُنَفِّر أنصاره؛ فأعادت النظر في موقفها كله لترسم خطة جديدة أقسى وأحكم، وأدق وأشمل..

---

(١) سيرة ابن إسحاق (١/ ١٧٨).

عقول شريرة.. وقلوب ميتة...

زادت حيرة المشركين إذ نفدت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مُصَمِّمِينَ علىٰ حفظ نبي الله ﷺ والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا في خَيْف بني كِنَانَة من وادي المُحَصَّبِ، وتمخض حقد المشركين عن عقد معاهدة تَعْتَبِرُ المسلمين ومن يرضىٰ بدينهم، أو يعطف عليهم أو يحمي أحدًا منهم حزبًا واحدًا دون سائر الناس، ثم اتفقوا ألا يبيعوهم أو يبتاعوا منهم شيئًا، وألا يُزَوِّجُوهم أو يتزوجوا منهم، حتىٰ يسلموا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق وعلقوها في جوف الكعبة توكيدًا لنصوصها:

«ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتىٰ يسلموه للقتل».

ويقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بَغِيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فَشُلَّتْ يده.

ولا شك أن المتطرفين من ذوي النَّزَق والحدَّة نجحوا في فرض رأيهم وإشباع ضِغْنِهم وحقدهم، فاضطر الرسول ﷺ ومن معه إلىٰ الاحتباس في شِعْب بني هاشم، وانحاز إليهم بنو المطلب كافرهم ومؤمنهم علىٰ سواء ما عدا أبا لهب، فقد آزر قريشًا في خصومتها لقومه.

وبدأ هذا الحصار اللئيم فيما يقال: ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة.

واشتد الحصار، وقُطِعَتْ عنهم المِيْرَة (الطعام) والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتىٰ بلغهم الجَهْد، والتجأوا إلىٰ أكل الأوراق والجلود، وحتىٰ كان يُسْمَعُ من وراء الشِّعب أصوات نسائهم وصبيانهم يَتَضَاغَوْنَ جوعًا، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، وكانوا لا يخرجون من الشِّعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العِير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتىٰ لا يستطيعوا شراءها.

قال السُّهَيْلي : كانت الصحابة إذا قَدِمَتْ عِيرٌ إلىٰ مكة ، يأتي أحدهم السوق ليشتريَ شيئًا من الطعام قوتًا لعياله ، فيقوم أبو لهب فيقول : يا معشر التجار غالوا علىٰ أصحاب محمد حتىٰ لا يدركوا معكم شيئًا ، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي ؛ فأنا ضامن أن لا خَسَارَ عليكم ، فيزيدون عليهم السلعة قيمتها أضعافًا حتىٰ يرجع أحدهم إلىٰ أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يده شيء يطعمهم به ، ويغدو التجار علىٰ أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتىٰ جَهِدَ المؤمنون ومن معهم جوعًا وعُرْيًا .

وكان حَكِيم بن حِزام ربما يحمل قمحًا إلىٰ عمته السيدة خديجة رضي الله عنها ، وقد تَعَرَّض له مرة أبو جهل فتعلَّق به ليمنعه ، فتدخل بينهما أبو البَخْتَرِيّ ، ومكَّنه من حمل القمح إلىٰ عمته .

وكان أبو طالب يخاف علىٰ رسول الله ﷺ ، فكان إذا أخذ الناسُ مضاجِعَهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع علىٰ فراشه ، حتىٰ يرىٰ ذلك من أراد اغتياله ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع علىٰ فراش رسول الله ﷺ ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم .

ويُصَوِّر لك الحال الذي وصل إليه المسلمون في الشعب أصدق تصور حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين قال : «خرجت ذات ليلة لأبول ، فسمعت قعقعة تحت البول ، فنظرت فإذا قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضضتها ، وسففتها بالماء ؛ فقويت بها ثلاثًا» .

فانظر كيف انتهىٰ الحصار بالمسلمين؟! وكيف أضناهم الحرمان وألجأهم أن يَطْعَمُوا ما لا مساغ له؟! وقد أحزنت تلك الآلام بعض ذوي الرحمة من قريش ، فكان أحدهم يُوقِرُ البعيرَ زادًا ثم يضربه في اتجاه الشِّعْبِ ويترك زِمَامه ليصل إلىٰ المحصورين فيخفف شيئًا مما بهم من إعياء وفاقة .

سبحان الله !! كم بقيت هذه الضائقة ؟!

ثلاث سنين كالحة كان رباط الإيمان وحده هو الذي يُمْسِكُ القلوب ويُصَبِّر على اللأواء . .

وفي أيام الشعب كان المسلمون يلقون غيرهم في موسم الحج فيدعونهم إلى الإسلام ، ولم تشغلهم آلامهم عن تبليغ الدعوة وعرضها على كل وافد ؛ فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات بل يزيد جذورها عمقًا وفروعها امتدادًا ؛

وقد كسب الإسلام أنصارًا كُثرًا في هذه المرحلة ؛ وكسب - إلى جانب ذلك - أن المشركين قد بدأوا ينقسمون على أنفسهم ويتساءلون عن صواب ما فعلوا ، وشرع فريقٌ منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ونقض الصحيفة التي تضمنتها .

وأول من أبلى في ذلك بلاءً حسنًا هشام بن عمرو ، فقد ساءَتْهُ حالُ المسلمين ورأى ما هم فيه من عناء ؛ وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفيًا بالليل بالطعام ، فذهب إلى زُهَيْر بن أبي أمية المخزومي وقال : يا زهير ، أرَضِيتَ أن تأكل الطعام ، وتشرب الشراب ، وأخوالُكَ بحيث تعلم ؟ فقال : ويحك ، فما أصنع وأنا رجلٌ واحد ؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها ، قال : قد وجدت رجلاً ، قال : فمن هو ؟ قال : أنا ، قال له زُهَيْر : ابغنا رجلاً ثالثًا .

فذهب إلى المُطْعِم بن عَدِيٍّ ، فَذَكَّره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف ، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم ، فقال المطعم : ويحك ، ماذا أصنع ؟ إنما أنا رجلٌ واحد ، قال : قد وجدت ثانيًا ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال : ابغنا ثالثًا ، قال : قد فعلت ، قال : من هو ؟ قال : زهير ابن أبي أمية ، قال : ابغنا رابعًا .

فذهب إلى أبي البَخْتَرِي بن هشام ، فقال له نحوًا مما قال للمُطْعِم ، فقال : وهل من أحدٍ يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال زُهَيْر بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك ، قال : ابغنا خامسًا .

فذهب إلىٰ زَمَعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فَكَلَّمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل علىٰ هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال : نعم ، ثم سَمَّىٰ له القوم ، فاجتمعوا عند الحَجُون ، وتعاقدوا علىٰ القيام بنقض الصحيفة ، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلىٰ أنديتهم ، وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعًا ، ثم أقبل علىٰ الناس ، فقال : يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكىٰ ، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتىٰ تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل -وكان في ناحية المسجد : كذبت ، والله لا تشق .

فقال زَمَعَة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

قال أبو البَخْتَرِيّ : صدق زمعة ، لا نرضىٰ ما كُتب فيها ، ولا نُقِرُّ به .

قال المطعم بن عدي : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلىٰ الله منها ومما كُتب فيها .

فقال أبو جهل : هذا أمر قُضِيَ بليل ، وتُشُووِرَ فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ؛ إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله علىٰ أمر الصحيفة ، وأنه أرسل عليها الأَرَضَةَ (حشرة تشبه النمل) ، فأكلت جميع ما فيها من جَوْرٍ وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل ، فأخبر بذلك عمه ، فخرج إلىٰ قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا ، فإن كان كاذبًا خَلَّيْنا بينكم وبينه ، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا ، قالوا : قد أنصفتَ .

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل ، قام المطعم إلىٰ الصحيفة ليشقها ، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها إلا «باسمكَ اللَّهُمَّ» ، وما كان فيها من اسم الله ؛ فإنها لم تأكله .

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، وهشام بن عمرو ، أخو عامر ابن لؤي بن حارثة : نحن بَراء من هذه الصحيفة القاطعة العادِيَةِ الظالمة ، ولن نمالئ أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا ، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش ، فخرج أقوام من شعبهم وقد أصابهم الجهد الشديد .

فوائد من حصار الشعب:

(١) كان ثبات الصحابة في الشعب نصرًا عظيمًا دفع كثيرًا من الناس لاعتناق الإسلام .

(٢) أفاد الصحابة من حصار الشعب عفة ونقاءً وإخلاصًا لا يُعرف لها في التاريخ نظيرٌ ، ولا أحسب شيئًا يربي النفوس على التجرد كهذا التفاني في الحق للحق ذاته ، فقد علموا أن فقدان المنافع وهلاك المصالح الخاصة أول ما يلقون من تضحية في سبيل عقيدتهم .

(٣) كانت أيام الشعب هي البوتقة التي انصهر فيها المسلمون ، فخرجوا منها ذهبًا خالصًا ، فقد عرفوا الدنيا على حقيقتها ، وثبتوا بعدها فلم تزلزلهم الأحداث ، حتى أنهم لما تعثرت تيجان الملوك بأقدامهم واستسلمت الأقطار المكتظة بالخير لجيوشهم كانت دوافع العقيدة وأهدافها هي التي تشغل بالهم قبل الفتح وبعده فلم يكترثوا لذهب أو فضة ، فلم تفتنهم الدنيا بشهواتها وأهوائها .

(٤) نتعلم ونستفيد أن المعاناة تصقل النفوس ، وأن الابتلاءات تزيد الإيمان لمعانًا وبريقًا ، ويدوم الثبات بعد التضحيات الجليلة ، ويراها العبد بعد ذلك ضئيلة .

(٥) كلما اشتدت الأزمة ، وبدت وكأنها لا مخرج منها ؛ أتى الفرج ، قال تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

عودة إلى الدعوة:

خرج رسول الله ﷺ من الشّعب، واستمر في دعوته إلىٰ الله، وقريش -وإن كانوا قد تركوا القطيعة-؛ لكنهم لم يزالوا عاملين علىٰ شاكلتهم من الضغط علىٰ المسلمين والصد عن سبيل الله، وأما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من عمره، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لا سيما حصار الشعب - قد أوهنت وأضعفت مفاصله وكسرت صُلْبَه، فلم يمض علىٰ خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به؛ وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر علىٰ ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرىٰ أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطاءه قبل ذلك، فقاموا بوِفادةٍ هي آخر وِفادتهم إلىٰ أبي طالب.

لما اشتكىٰ أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلىٰ أبي طالب، فليأخذ علىٰ ابن أخيه، وليعطه منا، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون إليه شيء فتعيِّرنا به العرب، يقولون: تركوه حتىٰ إذا مات عمه تناولوه.

فمشوا إلىٰ أبي طالب فكلموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم - وهم خمسة وعشرون تقريبًا - فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترىٰ، وتخوَّفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه فخذ له منا، وخُذْ لَنَا مِنْهُ؛ ليكفَّ عنا ونكفَّ عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه من عدم تعرض كل فريق للآخر.

فقال لهم رسول الله ﷺ : «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا ؛ مَلَكْتُمْ بِهَا الْعَرَبَ ، وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ» ، فلما قال هذه المقالة توقفوا وتحيَّروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلىٰ هذه الغاية والحد ، ثم قال أبو جهل : ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها ، قال : «تَقُولُونَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَتَخْلَعُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ» ، فَصَفَّقُوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن أمرك لعجب :

﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٤-٥].

ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا علىٰ دين آبائكم ، حتىٰ يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا[(١)] :

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٦-٨].

وهكذا فشلت محاولتهم الأخيرة التي كانوا عقدوا عليها الآمال بعد تقديمهم ما يُعَدُّ في تصورهم أعظم التنازلات ، وهو أن يكفوا عنه ، وكان ظنهم أن هذه أعظم المكاسب التي يحلم بها محمد ﷺ وأصحابه ﷺ.

ولكن هيهات . . فقد اصطدموا بصخرة الثبات الراسخ علىٰ الحق ، فلم يتلعثم رسول الله ﷺ ، ولم يتردد في انتهاز الفرصة لدعوتهم واستثارتهم للإسلام ، ولكن الباطل أعمىٰ ، والكبر يجعل الإنسان يرىٰ ما يخالفه عجيبًا غريبًا نشازًا .

سبحان الله !! فاتتهم فرصة عُرِضت عليهم بأحسن ما يكون ، ولكن عمىٰ القلب والعزة بالإثم حين تجتمع مع اتباع الهوىٰ يموت القلب ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: ٥٢].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٥).

بصائر

① كانت تعليمات رسول الله ﷺ لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدو ، وأن يضبطوا أعصابهم ، فلا يُشعِلوا فَتِيلَ المعركة أو يكونوا وقودها ؛ وإن أعظم تربية في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومة ، حمزة وعمر ، وأبو بكر وعثمان ، وغيرهم ﷺ، سمعوا وأطاعوا ، لقوا كل هذا الأذى وهذا الحقد وهذا الظلم ، فكفوا أيديهم ، وصبروا ليس على حادثة واحدة فقط ، أو يومًا واحدًا فقط ؛ بل ثلاث سنين عِجاف ، تحترق أعصابهم ولا يُسْمَح لهم برمية سهم أو شَجَّةِ رأس .

② أثبتت الأحداث عظمة الصف المؤمن في التزامه بأوامر قائده ، وبُعْدِه عن التصرفات الطائشة ؛ فلم يكن شيء أسهل من اغتيال أبي جهل ، وإشعال معركة غير مدروسة وغير متكافئة ، لا يعلم مداها إلا الله ؛ ولكن الالتزام بالطاعة عصمة .

③ كانت الدعوة الإسلامية تُحقِّقُ انتصارات رائعة في الحبشة ، وفي نَجْران ، وفي أَزْدِ شَنُوْءة ، وفي دَوْس ، وفي غِفَار ، وكانت تتم في خط واضح سيكون سندًا للإسلام والمسلمين ، وستكون أيضًا مراكز قوى يمكن أن تتحرك في اللحظة الحاسمة ، وامتدادات للدعوة تتجاوز حدود مكة الصلدة المستعصية .

④ كانت هذه السنوات الثلاثة في حصار الشِّعب للجيل الرائد زادًا عظيمًا في البناء والتربية ، حيث ساهم بعضهم في تحمل آلام الجوع والخوف ، والصبر على الابتلاء ، وضبط الأعصاب ، وتحمل الضغط على النفوس والقلوب ، ولجم العواطف عن الانفجار .

٥ كانت بعض الشخصيات في الصف المشرك تُبنىٰ في داخلها بالتربية النبوية ، وتتأثر بعظمة شخصية النبي ﷺ ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادئ التي يقدمها الدين الجديد ؛ لكن سيطرة الملأ وسطوة الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التفاعل وهذا الحب وهذه التربية ، وختام قصة الصحيفة يقدم لنا أجلىٰ بيان عن ذلك .

٦ قيام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة لا يؤثر في أصحاب الهوىٰ وعبدة المصالح والمنافع ؛ لأنهم يلغون عقولهم ، ويغلقون قلوبهم عن التدبر ، ويَصُمُّون آذانهم عن سماع الحق ، ويُغْمضون أعينهم عن النظر والتأمل والاهتداء إلىٰ الحق بعد قيام الأدلة عليه ، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرسول ﷺ بما حدث للصحيفة من أكل الأرَضَة لها وبقاء اسم الله فقط « باسمك اللَّهُمَّ » ، ورأوا ذلك بِأُمِّ أعينهم ؛ فما آمن منهم أحد ، إنه الهوىٰ والكبر الذي يُغْشِي عن الحق ، ويُصِم الآذان عن سماعه .

٧ كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سببًا في خدمة الدعوة والدعاية لها بين قبائل العرب ؛ فقد ذاع الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلىٰ هذه الدعوة التي يتحمل صاحبها وأصحابه الجوع والعطش والعزلة كل هذا الوقت ، أثار ذلك في نفوسهم أن هذه الدعوة حق ، ولولا ذلك لما تحمل صاحب الرسالة وأصحابه كل هذا الأذىٰ والعذاب .

٨ أثار هذا الحصار سخط العرب علىٰ كفار مكة ؛ لقسوتهم علىٰ بني هاشم وبني المطلب ، كما أثار عطفهم علىٰ النبي ﷺ وأصحابه ﷺ .

فما أن انفك الحصار حتىٰ أقبل الناس علىٰ الإسلام، وحتىٰ ذاع أمر هذه الدعوة، وتردد صداها في كل بلاد العرب، وهكذا ارتد سلاح الحصار الاقتصادي علىٰ أصحابه، وكان عاملاً قويًا من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية عكس ما أراد زعماء الشرك تمامًا.

٩ قوة الحق في قوة مبادئه وأصوله، وعلىٰ حسب قرب العبد منها يكون تأثيره وتكون تضحيته، فإذا رأىٰ الناس الحق متمثلاً في صورة رجال يتحركون به وله؛ فإن الأفئدة تهوي إليه وَتُؤْثِرُهُ وتكون جنديًا من جنوده الثابتين، في هذا الآن أو بعد حين.

١٠ الباطل خاوٍ فارغ، لا يملك إلا صولة ذراعه، وعُبوسة وجهه، وهمجية غضبه، فإذا وُوجِهَ بنصاعة الحق وصلابته انزوىٰ وتوارىٰ وضعف وزهق: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

١١ كثيرًا ما تنطوي غيوم الغفلة والقسوة علىٰ غُدْرَانٍ وأنهارٍ من الرحمة، يفجرها ربها إذا شاء؛ ليُمْضِيَ في خلقه من قدره ما شاء، وقد يَسْتَعْمِلُ عز وجل ظالمًا كافرًا في كشف ما أصاب المؤمنين من ضُرٍّ وعناء.



عام الحزن

وفاة أبي طالب:

ما إن تنفس المسلمون من الشدة التي لاقوها في الشِّعْب حتىٰ ألحَّ المرض بأبي طالب، ثم لم يلبث أن تُوُفِّيَ، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر.

ولما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال النبي ﷺ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتىٰ قال آخر شيء كلمهم به: هو علىٰ ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ»، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

كان أبو طالب الحصن الذي احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء؛ ولكنه بقي علىٰ ملة الأشياخ من أجداده ومات علىٰ الشرك؛ فلم يفلح كل الفلاح، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أنه ﷺ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ: قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١)، ك: المناقب، باب: قصة أبي طالب.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري: (٣٦٧٠)، ك: المناقب، باب: قصة أبي طالب، ومسلم (٢٠٩)، ك: الإيمان، باب: شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف.

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَالَ : **«لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»**[(١)].

أبو طالب ! . . إن أبا طالب - علىٰ الرغم من عدم إسلامه ، وبالرغم من تمسكه الشديد بالشرك المتمثل في دين آبائه - إلا أنه ظل مشفقًا علىٰ ابن أخيه ، تدفعه العاطفة ويقوده الرحم إلىٰ الحنو عليه والذَّوْدِ عنه ضد أهل مكة ، وهو مدرك آنذاك ما سيجره عليه هذا الموقف من متاعب عليه وعلىٰ أسرته ، لكن محبته لمحمد ﷺ ابن أخيه ، وتأذيه من مواجهته بما يكره جعلاه يتعهد بحماية النبي ﷺ وهو يباشر دعوته وبلاغه للناس ، وهذا يدلك أيضًا علىٰ أخلاقيات وشِيَمِ العرب الأصلاء .

وأبو طالب هو من هو في قومه مكانةً وشرفًا ، وتقديمًا وتعظيمًا ، فيبعد أن ينقض أحدهم عهده أو يَهِيضَ حرمته ، علاوةً علىٰ ذلك كان بقاؤه مع أهل مكة - محترِمًا للوثنية - عاملاً من عوامل بقاء نفوذه ومكانته ، وسببًا للمشركين في مراعاة حقه وشرفه .

ورغم أن أبا لهب عم النبي ﷺ أيضًا ؛ إلا أن أبا لهب صورة لأرباب الأسر المتهالكين علىٰ مصالحهم وسمعتهم من غير نظر إلىٰ حق أو باطل ، فأي عمل يُعَرِّض مصالحهم للبوار ، أو يخدش ما لِاسمِهِ من منزلة يهيِّج ثائرته ويدفعه لارتكاب الحماقات .

وفي طبيعة أبي لهب قسوة تغريه باقتراف الدنايا ، كان أبناؤه متزوجين ببنات النبي محمد ﷺ فأمرهم بفراقهن ؛ فطلَّق عتبةُ وعتيبةُ رقيةَ وأمَّ كلثوم قبل أن يدخلا بهما .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٦٧٢) ، ك : المناقب ، باب : قصة أبي طالب ، ومسلم (٢١٠) ، ك : الإيمان ، باب : شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف .

ولعل أبا لهب كان متأثرًا في هذه البغضاء بزوجته أم جميل أروىٰ بنت حرب أخت أبي سفيان ، وهي امرأة سليطة ؛ تؤزها (تدفعها) علىٰ كراهية محمد ﷺ ودينه علىٰ شتىٰ ؛ ولذلك بسطت فيه لسانها ، وأطالت عليه الافتراء والدس .

وللنساء تأثير خطير علىٰ أزواجهن! عصمنا الله من كيدهن.

وإذا عدنا إلىٰ أبي طالب فإن المرء يحار في أمر أبي طالب ، وبقدر ما يهتز إعجابًا لنبله في كفالة محمد ﷺ منذ صباه ، ثم لبطولته في الدفاع عنه حين نُبِّئ ، وحين صدع بأمر ربه ، وأنذر عشيرته الأقربين ، وحياطته عليه من الأذىٰ ، ثم معاناته معه بعد ذلك في الشعب سنين .

إنه - بقدر ذلك - يستغرب المصير الذي ختم حياته ، وجعله يُصَرِّح - قبل موته - أنه علىٰ ملة الأشياخ من أجداده!!

ولقد حزن رسول الله ﷺ لموت أبي طالب حزنًا شديدًا . . . .

ألم يكن الحصن الذي تحتمي به الدعوة من هجمات الكبراء والسفهاء؟! وها قد ولىٰ الرجل الذي سَخَّرَ جاهه وسلطانه في الذَّوْدِ عن ابن أخيه ، وَكَفَّ العوادي أن تناله .

إن قريشًا أصبحت لا تهاب في محمد ﷺ أحدًا بعده.

رُوِي أن رسول الله ﷺ قال : «مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»[(١)] ؛ وذلك أنهم تجرؤوا عليه ، حتىٰ نثر بعضهم التراب علىٰ رأسه .

وما يكاد قلب رسول الله ﷺ يخلع ثوب الحزن علىٰ عمه ، حتىٰ ينصبُّ عليه الحزن صبًا بموت خديجة رضي الله عنها زوجه وسنده .

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٢/٥٨) من طريق ابن إسحاق بسند صحيح .

وفاة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها :

فبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين ، توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرىٰ ، أي إن النبي ﷺ نُكِبَ في حياته الخاصة والعامة معًا ، وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة ، ولها خمس وستون سنة علىٰ أَشْهَرِ الأقوال ، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره .

إن خديجة رضي الله عنها كانت من نِعم الله الجليلة علىٰ رسول الله ﷺ ، بقيت معه ربع قرن تَحِنُّ عليه ساعة قَلَقِه ، وتُؤازره في أحرج أوقاته ، وتعينه علىٰ إبلاغ رسالته ، وتشاركه في مغارم الجهاد المر ، وتواسيه بنفسها ومالها ، يقول رسول الله ﷺ : «وَاللهِ ، مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عز وجل خَيْرًا مِنْهَا ؛ قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللهُ عز وجل وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»[1] .

وإنك لتحس قدر هذه النعمة عندما تعلم أن من زوجات الأنبياء من خُنَّ الرسالة ، وكفرن برجالهن ، وَكُنَّ مع المشركين من قومهن وآلِهِنَّ حربًا علىٰ الله ورسوله ، قال تعالىٰ : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠] .

أما خديجة فهي صدِّيقة النساء ، حنت علىٰ رَجُلِهَا ساعة قَلَقٍ ، وكانت نسمةَ سلام وبِرٍّ ، رَطَّبَتْ جبينه المتصبِّب من آثار الوحي ، وبقيت ربع قرن معه ، تحترم قبل الرسالة تأمله وعزلته وشمائله ، وتحمل بعد الرسالة كيد الخصوم وآلام الحصار ومتاعب الدعوة ، وماتت والرسول ﷺ في الخمسين من عمره ، وهي تتجاوز الخامسة والستين ، ولذلك أخلص لذكراها طول حياته ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١١٧) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : أَتَىٰ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : «يَا رَسُولَ اللهِ ، هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي ، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ»(١) .

وهكذا رحلت هذه المرأة العظيمة عن حياة رسول الله ﷺ ؛ لتصير مثالاً في عالم النساء تتطلع إليه كل امرأة مخلصة شريفة عاقلة .

تراكم الأحزان:

لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ بالأذىٰ ما لم تطمع فيه في حياة أبي طالب ؛ حتىٰ اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر علىٰ رأسه ترابًا ، حتىٰ دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب علىٰ رأسه ، فقامت إليه إحدىٰ بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ، ورسول الله ﷺ يقول لها : «لَا تَبْكِي يَا بُنَيَّةُ ؛ فَإِنَّ اللهَ مَانِعٌ أَبَاكِ» ، قال : ويقول بين ذلك : «مَا نَالَتْ مِنِّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتَّىٰ مَاتَ أَبُو طَالِبٍ»(٢) .

وكما اشتدت وَطْأَةُ أهل مكة علىٰ النبي ﷺ اشتدت علىٰ أصحابه ، حتىٰ التجأ رفيقه أبو بكر الصديق ﷺ إلىٰ الهجرة عن مكة ، فخرج حتىٰ بلغ بَرْك الغِمَاد ، يريد الحبشة ، فأرجعه ابن الدُّغِنَّة في حمايته .

لقد وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان - وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها - خلال أيام معدودة ، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ ، ثم لم تزل تتوالىٰ عليه المصائب من قومه ، فإنهم تجرأوا عليه بالنكال والأذىٰ

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٦٠٩) ، ك : المناقب ، باب : تزويج النبي ﷺ خديجة رضي الله عنها وفضلها ، ومسلم (٢٤٣٢) ، ك : فضائل الصحابة ، باب : فضائل خديجة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٥٨) من طريق ابن إسحاق بسند صحيح .

بعد موت أبي طالب، فازداد غمًا على غم، حتى يئس منهم، وخرج إلى الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم يرَ من يؤوي ولم يجد ناصرًا؛ بل آذوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم يفعله فيه قومه، ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سمي بعام الحزن، وقد كظم محمد ﷺ ألمه، وتحمل في ذات الله ما لاقى؛ إلا أنه أخذ يفكر في التوجُه برسالته إلى قرية أخرى، عَلَّهَا تكون أحسن قَبُولاً وأقرب استجابة؛ فاستصحب معه زيد بن حارثة وولى وجهه شطر «ثقيف» يلتمس نصرتها.

الطائف:

في شوال سنة عشر من النبوة خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه ذهابًا وعودة، ومعه مولاه زيد ابن حارثة ﷺ، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تستجب إليه واحدة منها؛ وهنا لنا أن نتساءل: لماذا اختار رسول الله ﷺ الطائف وقبيلة ثقيف دون غيرها واتجه إليها؟

لماذا اختار الرسول الطائف؟

كانت الطائف تمثل العمق الاستراتيجي لملأ قريش، ولقد حاولت مكة في الماضي أن تضم الطائف إليها، كما كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف ويقضون فيها فصل الصيف، فإذا استطاع النبي ﷺ أن يجد له فيها موضع قدم وعصبة تناصره؛ فإن ذلك سيفزع قريشًا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، علاوة على أنها تقترب من مكانة مكة عند العرب.

فلما انتهى النبي ﷺ إلى الطائف ذهب إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة (أي يمزقها) إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك،

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام! ولئن كنت تكذب علىٰ الله ما ينبغي أن أكلمك، فقام عنهم رسول الله ﷺ وقال لهم: «**إِذْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَاكْتُمُوا عَنِّي**».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغْرَوْا به عبيدهم، فلما أراد الخروج تبعه عبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتىٰ اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السَّفَه، ورجموا عَرَاقِيبَهُ، حتىٰ اختضب نعلاه بالدماء - فداه أبي وأمي ونفسي - وكان زيد بن حارثة ﷺ يقيه بنفسه حتىٰ أصيب بجرح في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتىٰ ألجأوه ﷺ إلىٰ حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة علىٰ ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه.

وأتىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ شجرة عنب فجلس تحت ظلها إلىٰ جدار، ودعا ربه فقال: «**اللَّهُمَّ أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَىٰ النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَىٰ مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَىٰ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَىٰ عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِي غَضَبُكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[1].

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له قلوبهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له: عَدَّاس، وقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلىٰ هذا الرجل.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٦٨)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٩٣٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات، وله شاهد رواه الطبري بسند صحيح ولكنه مرسل، والبيهقي وهو مرسل أيضًا، فالحديث بهما حسن.

فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مد يده إليه قائلاً : «بِسْمِ اللهِ» ، ثم أكل ، فقال عَدَّاس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له النبي ﷺ : «مِنْ أَيِّ الْبِلَادِ أَنْتَ ؟ وَمَا دِينُكَ ؟» قال : أنا نصراني من أهل نِينَوَىٰ ، فقال رسول الله ﷺ : «مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ ؟» ، قال له : وما يدريك ما يونسُ بن متىٰ؟ وفي رواية قال : والله لقد خرجت منها - يعني من أهل نينوىٰ - وما فيها عشرة يعرفون ما يونس بن متىٰ ، وأنت أميٌّ وفي أمة أمية ؟! قال رسول الله ﷺ : «ذَاكَ أَخِي ، كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ» ، فأكب عَدَّاس علىٰ رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاء عداس قالا له : ويحك ما هذا؟ قال : يا سيدي ، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل ، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي ، قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك ؛ فإن دينك خيرٌ من دينه[1] .

وكان في إقبال عَدَّاس علىٰ رسول الله ﷺ وتصديقه وإكرامه بتقبيل يديه ورجليه وبكائه أمامه ، ثم رقة ابني ربيعة للرسول ﷺ وسماعهما كلام عَدَّاس بمثابة اعتذار فعلي لرسول الله ﷺ وتهدئة لنفسه .

وهكذا أسرعت إشارات الخير والكرامة والإجلال ، فأقبلت تعتذر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة ، وكان ابنا ربيعة من ألد أعداء الإسلام ، وممن مشوا إلىٰ أبي طالب من أشراف قريش يسألونه أن يكفه عنهم أو يخلي بينهم و بينه ، أو ينازلوه إياه حتىٰ يهلك أحد الفريقين ، فانقلبت الغريزة الوحشية إلىٰ معناها الإنساني الذي جاء به هذا الدين ؛ لأن المستقبل الديني للفكر الصائب لا الغريزة العمياء .

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢١) .

وقفل الرسول ﷺ عائدًا إلىٰ مكة ، إلىٰ البلد الذي لفظ خِيرة أهله ، فهاجر بعضهم إلىٰ الحبشة وأُكرِهَ الباقي علىٰ معاناة العذاب الواصب ، أو الفرار إلىٰ شعَف الجبال ، ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا حزينًا كسير القلب ، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال ، يستأذنه أن يطبق الأخشبين علىٰ أهل مكة .

عن عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ أَتَىٰ عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَىٰ ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَىٰ مَا أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَىٰ وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ عليه السلام ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عز وجل قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، قَالَ : فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**[(١)] .

وفي هذا الجواب الذي أدلىٰ به النبيُّ ﷺ تتجلىٰ شخصيته الفذَّة ، وما كان عليه من الخلق العظيم مما لا يُدْرَك غورُه .

وأفاق رسول الله ﷺ واطمأنَّ قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عز وجل به من فوق سبع سماوات ، ثم تقدم في طريق مكة حتىٰ بلغ وادي نخلة ، وأقام فيه أيامًا .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٠٥٩) ، ك : بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة ، ومسلم (١٧٩٥) ، ك : الجهاد والسير ، باب : ما لقي النبي ﷺ من أذىٰ المشركين ، واللفظ له .

البشارات والجن:

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن ذكرهم الله في موضعين من القرآن: في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وفي سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

ومن سياق هذه الآيات يتبين لنا أن النبي ﷺ لم يعلم حضور ذلك النفر من الجن حين حضروا وسمعوا، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ثم وَفَدُوا بعد ذلك مرارًا.

وحقًا كان هذا الحادث نصرًا آخر أَمَدَّه الله به من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بخصوص هذا الحادث كانت بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات انقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجد وحماس.

التحرك داخل مكة بحكمة:

رفض النبي ﷺ منهج الاستئصال، وامتنع عن فكرة الاعتزال أو الهجرة المستمرة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرر الدخول إلى مكة ليواصل جهاده الميمون، فكان فكره يقوم على ضرورة الوجود على ذات الأرض التي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسساتها واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها؛ ليتغذى بكل ذلك مجتمع المؤمنين الذي سيولد من أحشائها، أي أنه ﷺ كان يريد أن يتخذ من أصلاب الكافرين مصانع بشرية تخرج أجيالاً من المسلمين المقاتلين في سبيل الله.

اتجه نظر رسول الله ﷺ هذه المرة إلى فتح مكة من الداخل أولاً وفي البداية؛ بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش ذاتها، ويوجد له حلفاء من بينهم، ويكون له وجودٌ في قلبها.

ولذلك فحين قال له زيد بن حارثة ﷺ: «كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟» يعني قريشًا، فقال: «**يَا زَيْدُ، إِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَىٰ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، وَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ، وَمُظْهِرٌ نَبِيَّهُ**»[1]، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحِرَاء، وبعث رجلًا إلى الأخنس بن شَرِيق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سُهَيْل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المُطْعِم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تَسَلَّحَ ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت؛ فإني قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة ﷺ حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا فلا يَهْجُهُ أحدٌ منكم.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٣).

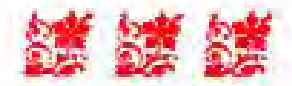
وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده مُحْدِقون به بالسلاح حتى دخل بيته، وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجيرٌ أنت أم متابعٌ مسلم؟ قال: بل مجير، قال: قد أجرنا من أجرت، وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر: «**لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ**»[1].

كان المطعم -كأبي طالب- على دين أجداده، وكان كذلك مثله في المروءة والنجدة.

لقد تغير الوضع كثيرًا بسبب منهجية رسول الله ﷺ الجديدة في التعامل مع قريش، والحكمة في تصريف الأمور، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزمًا متخفيًا، دخلها ويحرسه بالسلاح سيدٌ من سادات قريش على مَسمعٍ ومرأى منهم.

وهكذا استطاع النبي ﷺ أن يوظف الأعراف والتقاليد في مجتمعه لمصلحة الإسلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعي القائم، باعتباره حقيقة موضوعية تاريخية، وينظر للإنسان الكافر ليس باعتباره رقمًا حسابيًا فرديًا منقطعًا، وإنما ينظر إليه كفرد في شبكة اجتماعية متداخلة العلاقات ومتنوعة الدوافع، وإن الإنسان يملك الفرصة والإمكانية لأن يتحول هو نفسه وطوعَ إرادته إلى قوة اجتماعية مؤثرة، وله وزن في اتخاذ القرار ونقضه، وفقًا للقيم التي يختارها.

وهذا من عظيم حكمته ﷺ، وأعاجيب سياسته للأمور بتوفيق الله ﷻ.



(١) أخرجه البخاري (٢٩٧٠)، ك: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا.

بصائر

إذا تأملنا في هذه الهجرة التي قام بها النبي ﷺ إلىٰ الطائف، وما انطوت عليه من العذاب الواصب الذىٰ أصابه ﷺ من أهل الطائف وسفهائها، ثم في شكل عودته الىٰ مكة - فإننا نستخلص الأمور التالية :

(١) أن ما كان يلاقيه النبي ﷺ من مختلف ألوان المحنة، لا سيما هذا الذىٰ رآه في ذهابه إلىٰ الطائف؛ إنما كان من جملة أعماله التبليغية للناس، فكما أنه جاء يبلغنا العقيدة الصحيحة عن الكون وخالقه، وأحكام العبادات والأخلاق والمعاملات، كذلك جاء ليُعَلِّم المسلمين ما كلفهم الله به من واجب السعي والحركة والبذل والتضحية من أجل الدين ثم الصبر، ويبين لهم كيفية تطبيق الصبر والمصابرة اللذين أمر الله تعالىٰ بهما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وليبين أن الصبر ومصارعة الشدائد في سبيل الله من أجل نصرة الحق والدعوة إلىٰ الله من أهم مبادئ الإسلام التي بعث بها إلىٰ الناس كافة.

(٢) استقبل رسول الله ﷺ تلك المحنة راضيًا، وتجرع تلك المحن صابرًا محتسبًا؛ وإلا فقد كان بوسعه - لو شاء - أن ينتقم من السفهاء الذين آذوه، ومن الزعماء الذين أغروا به سفهاءهم، وردوه ذلك الرد المنكر؛ ولكنه ﷺ لم يشأ ذلك، ودليل ذلك أنه لما أتاه ملك الجبال يستأذنه في أن يطبق عليهم الأخشبين لم يفعل، بل كان صبره جميلاً، فهو يرجو الله أن يخرج من أصلابهم من يُوَحِّد الله، وهذا من عمق يقينه ﷺ أن النصر مع الصبر.

(٣) الشكوىٰ الىٰ الله تعالىٰ تَعَبُّدٌ، والضَّراعة له والتذلُّل علىٰ بابه تَقَرُّبٌ وطاعة، وللمحن والمصائب حِكَمٌ، من أهمها أنها تسوق صاحبها إلىٰ باب الله تعالىٰ وتلبسه ذُلَّ العبودية له، فليس إذًا بين الصبر علىٰ المكاره

والشكوى إلى الله تعالى أي تعارض؛ بل الواقع أن رسول الله ﷺ كان يعلمنا في حياته كِلا الأمرين: فكان بصبره الجميل على المحن يعلمنا أن هذه هي وظيفة المسلمين عامة والدعاة الى الله خاصة، وكان بطول ضراعته والتجائه إلى الله تعالى يعلمنا وظيفة العبودية ومقتضياتها.

٤ تلمح في دعاء النبي ﷺ عمق توحيده ومبلغ تجرده لله عز وجل، فهو يستعذب كل هذا الأذى من أجل الله تعالى، غير أنه مشفق من غضب ربه سبحانه أن يكون قَصَّرَ في أمرٍ من أمور الدعوة، فيناجيه تعالى: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي**»، ويستعيذ بالله من غضبه وسخطه أن يَحِلَّ به أو ينزل عليه، ويسترضي ربه بكل أسباب رضاه فيقول: «**لَكَ الْعُتْبَىٰ حَتَّىٰ تَرْضَىٰ**» أي: لك مني يا ربي كل ما يرضيك عني، فرضوان الله تعالى هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ، ثم يسأل الله العافية وهي مطلب رئيس لتبليغ الدعوة: «**غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي**».

٥ الدعاء من أعظم العبادات وأقوى الذخائر والعُدد التي يعدها المؤمن لمجابهة أعدائه.

٦ حياة قلب الداعية بلا حول ولا قوة إلا بالله، ومعناها: لا تَحَوُّلَ للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة على مواجهة الشدائد وتحمل المكاره إلا بالله جل وعلا؛ فلا تحول عمّا يغضبه، ولا قوة على ما يرضيه إلا به تعالى.

٧ إذا تأملت في مشاهد سيرته ﷺ مع قومه؛ وجدت أن ما كان يجده ﷺ من الأذى في هذه المشاهد قد يكون قاسيًا شديدًا؛ بَيْدَ أنك واجد في كل مشهد منها ما يعتبر ردًا إلهيًا على ذلك الإيذاء وما يهدف إليه أربابه؛ كي يكون في ذلك مواساة وسلوى للرسول ﷺ، وكي لا يجتمع في النفس من عوامل التألم والضجر ما يدخل إليها اليأس.

ففي مشهد هجرته للطائف ، وما قد اكتنفها من العذاب المُضْنِي : عذاب الإيذاء وعذاب خذلان الناس له ؛ تجد ردًا إلهيًا واضحًا علىٰ سفاهة أولئك الذين آذوه ولحقوا به ، واعتذارًا له عن سفاهتهم وغلظتهم ، تجد ذلك في مظهر الرجل النصراني (عَدَّاس) حينما جاء يسعىٰ إليه وفي يده طبق فيه عنب ، ثم انكبَّ فجعل يقبل رأسه ويديه ورجليه وذلك عندما أخبره ﷺ أنه نبي ، وكذلك لما جاءته الجن واستمعت القرآن ؛ ففرح واستبشر وازداد ثباتًا وانطلاقًا .

٨ فيما كان يفعله زيد بن حارثة رضي الله عنه، من وقاية الرسول ﷺ بنفسه من حجارة السفهاء ، حتىٰ إنه شج في رأسه عدة شجاج ، نموذج لما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة ، من حمايته له بنفسه ودفاعه عنه وإن اقتضىٰ ذلك التضحية بحياته .

٩ لئن كان رسول الله ﷺ غير موجود بيننا اليوم ، إلا أنه لا يتصور الدفاع عنه بالنحو الذي كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم ؛ ولكن ذلك من الممكن أن يتحقق علىٰ نحوٍ آخر : هو أن لا نضن علىٰ أنفسنا بالمحن والعذاب في سبيل الدعوة الإسلامية ، وأن نسهم بشيء من تحمل الجهد والمشاق التي تحملها النبي ﷺ ؛ لننشر سنته وتبليغ دعوته ، وتحقيق متابعته في النفس والأهل وكل من حولنا .

١٠ في القصة دليل علىٰ وجود الجن وأنهم مكلفون ، وأن منهم من آمن بالله ورسوله ومنهم من كفر ولم يؤمن .

١١ ترىٰ موقع كل ما رآه النبي ﷺ في سياحته هذه في الطائف ، وأثر كل هذا الذي عاناه في نفسه يتضح فيما قاله النبي ﷺ لزيد بن حارثة رضي الله عنه حينما سأله زيد متعجبًا : كيف تعود يا رسول الله إلىٰ مكة وهم أخرجوك؟ فأجابه في ثقة واطمئنان : «**يَا زَيْدُ، إِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَىٰ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، وَإِنَّ اللهَ نَاصِرُ دِينِهِ ، وَمُظْهِرُ نَبِيِّهِ**»[١] .

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٣٣) .

فإن كل ذاك الذي رآه وعاناه في الطائف، بعد القسوة والعذاب اللذين رآهما في مكة، لم يكن له أي تأثير على ثقته بالله تعالى أو على قوة العزيمة الإيجابية في نفسه.

ولا والله، ليست هذه عزيمة بشر آتته الطبيعة مزيدًا من التحمل وقوة الإرادة، ولكنه يقين النبوة كان ثابتًا في قلبه ﷺ، فهو يعلم أنه إنما ينفذ أمر ربه، ويسير في الطريق التي أمره الله أن يسير فيها، ومما لا ريب فيه أن الله بالغٌ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

١٢ لا تصدنك المحن والعقبات التي تكون في طريق الدعوة الإسلامية عن السير، ولا تبث فيك روح الدّعة والكسل، أو اليأس والإحباط ما دمت تسير على هدى من الإيمان بالله وتوفيقه؛ فمن استمد القوة من الله جدير بألا يعرف لليأس والكسل معنى؛ إذ ما دام الله هو الآمر، فلا شك أنه هو الناصر أيضًا.

١٣ حِفْظُ رسولِ الله ﷺ لصنيع مُطْعِم بْنِ عَدِيّ يعلمك حفظ الجميل لمن أحسن إليك وإن كان كافرًا، فقد قال في أسارى بدر: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[1].

١٤ قد يحمي الداعيةَ أحدُ أقربائه ممن ليسوا على منهجه، وفي ذلك فائدة للدعوة حين تكون مستضعفة؛ إذ يمنع الأشرار من العدوان على حياته أو مسه بأذى، فعصبية القبيلة والعائلة قد يستفيد منها الداعية في حمايته وحماية دعوته إذا لم يسايرها على ما هي عليه من منكرات.

١٥ الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الحق تذلل كثيرًا من الصعاب لزوجها الداعية إذا شاركته في همومه وآلامه؛ وبذلك تخفف عنه عبء هذه الهموم، وتبث في نفسه الاستمرار والثبات، فيكون لها أثر بالغ في نجاح الدعوة وانتصارها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٧٠)، ك: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا.

وموقف السيدة خديجة رضي الله عنها من رسول الله ﷺ هو المثل الأعلىٰ لاستطاعة الزوجة المؤمنة بدعوة الخير أن تلعبه من دور كبير في نجاح زوجها الداعية، وثباته واستمراره في دعوته، وفَقْد مثل هذه الزوجة عند احتدام معركة الإصلاح خسارةٌ كبيرة لا يملك معها زوجها الداعية إلا أن يحزن ويأسىٰ، مع كمال استسلامه لقضائه وقدره.

(١٦) الحزن علىٰ فقد القريب الحامي لدعوة الحق غير المؤمن بها، وعلىٰ فقد الزوجة المؤمنة المخلصة، حزن تقتضيه طبيعة الإخلاص للدعوة، والوفاء للزوجة المثالية في تضحيتها وتأييدها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ لما مات أبو طالب: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ»[1]، فاقتدىٰ المسلمون برسولهم يستغفرون لموتاهم المشركين حتىٰ نزل قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]؛ فامتنع النبي ﷺ عن الاستغفار لأبي طالب، كما امتنع المسلمون عن الاستغفار لموتاهم؛ استسلامًا لله وطاعة لأمره.

(١٧) الوفاء خلق أصيل من مبادئ الإسلام العظيمة؛ فقد ظل النبي ﷺ طيلة حياته يذكر فضل خديجة رضي الله عنها ويترحم عليها، ويبر صديقاتها، حتىٰ كانت عائشة رضي الله عنها تغار منها -وهي متوفاة!-؛ لكثرة ما كانت تسمع من ثناء النبي ﷺ عليها، فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: مَا غِرْتُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مَا غِرْتُ عَلَىٰ خَدِيجَةَ وَمَا رَأَيْتُهَا، وَلَكِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَةَ، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ! فَيَقُولُ: «إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (١٢٩٤)، ك: الجنائز، باب: إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ومسلم (١٤١)، ك: الإيمان، باب: أول الإيمان قول: لا إله إلا الله.

وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ»، وفي رواية لمسلم: «إِنِّي قَدْ رُزِقْتُ حُبَّهَا»[١].

(١٨) في تَوَجُّه الرسول ﷺ إلىٰ الطائف بعد أن أعرضت عنه مكة، دليل علىٰ التصميم الجازم في نفس الرسول ﷺ علىٰ الاستمرار في دعوته، وعدم اليأس من استجابة الناس لها، فنراه يَبْحَثُ عن ميدان جديد للدعوة بعد أن قامت الحواجز دونها في ميدانها الأول.

(١٩) في إغراء ثقيف صبيانها وسفهاءها بالرسول ﷺ، دليلٌ علىٰ أن طبيعة الشر واحدة أينما كانت، وهي الاعتماد علىٰ السفهاء في إيذاء دعاة الخير.

(٢٠) في سيل الدماء من قدمي النبي ﷺ -وهو النبي الكريم-، أكبر مثل لما يتحمله الداعية في سبيل الله من أذىٰ واضطهاد، ودعاء النبي ﷺ في البستان -ذلك الدعاء النوراني الذي لا يخرج إلا من مشكاة النبوة- فيه تأكيد لصدق الرسول ﷺ في دعوته، وتصميم علىٰ الاستمرار فيها مهما قامت في وجهه الصعاب، وأنه لا يهمه إلا رضا الله وحده؛ فلا يهمه رضا الكبراء والزعماء، ولا رضا العامة والدهماء «إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي»، كما أن فيه استمداد القوة من الله باللجوء إليه والاستعانة به عندما يشتد الأذىٰ بالداعية، وفيه أن خوف الداعية كل الخوف هو من سخط الله عليه وغضبه، لا من سخط أي أحدٍ سواه.

عاد الرسول ﷺ إلىٰ مكة ليستأنف خطته الأولىٰ في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله، وبينا هو ماضٍ في جهاده، وبينما هو يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقها بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح في آفاق بعيدة؛ إذ وقعت له قصة الإسراء والمعراج......

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٦٠٧)، ك: المناقب، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ﵂، ومسلم (٢٤٣٥)، ك: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة ﵂.

الإسراء والمعراج

تكريم وتشريف:

في هذا المطلع نعيش لحظات وَضَّاءة في ذلك الأفق الزاهر المنير الذي عاش فيه النبي ﷺ؛ لنرفرف بأجنحة النور المنطلقة إلىٰ ذلكم الملأ الأعلىٰ، نعيش لحظات مع النبي محمد ﷺ مكشوفةً عنه الحجب، مُزاحةً عنه الأستار، يتلقىٰ من الملأ الأعلىٰ، يسمع ويرىٰ، ويحفظ ما وعىٰ، وهي لحظات خَصَّ الله بها ذلكم القلب المصفَّىٰ؛ ليسمو في رحاب الملأ الأعلىٰ؛ ليصِفَها للخلق خطوة خطوة، ومشهدًا مشهدًا، وحالة حالة؛ حتىٰ لكأنهم كانوا شاهديها.

ورحلة الإسراء والمعراج معجزة فريدة وخصيصة كريمة اختص الله بها أكرمَ خلقه، وأشرف عباده، وأفضل رسله، فلا يوجد نبي من الأنبياء أُسْرِيَ به إلىٰ المسجد الأقصىٰ ثم عُرِجَ به إلىٰ السماء في بعض ليلة إلا رسول الله محمد ﷺ، أرأيت هذا التكريم والتعظيم من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، يعلو به فوق كل البشر رتبةً وحالاً، ويصلي بكل الأنبياء ليكون ذلك إعلامًا وإعلانًا بأن هذا إمام الدنيا وإمام الأئمة، وأُمَّته خير الأمم وآخرها، فصلىٰ الله علىٰ سيد البشر وخاتم الرسل محمد ﷺ.

مسحة حب وقرب لإزالة الحزن:

كان وجود أبي طالب بجانب رسول الله ﷺ سياجًا واقيًا لرسول الله ﷺ يمنع عنه أذىٰ قريش؛ لأن قريشًا ما كانت تريد أن تخسر أبا طالب، ولما توفي أبو طالب انهار الحاجز القوي الذي كان يدفع عن رسول الله ﷺ كثيرًا من الأذىٰ.

وبعد وفاة أبي طالب نال رسول الله ﷺ من الأذىٰ والبلاء الكثير والكثير.

وكانت خديجة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ هي البلسم الشافي والقلب الرقيق الحنون، الذي يدفع إلىٰ الثبات، ويحث علىٰ اليقين، ويمسح العناء الذي يصيب رسول الله ﷺ من الجراح النفسية التي يُلحقها به المشركون، عندما توفيت رضي الله عنها فَقَدَ رسول الله ﷺ هذا البلسم الهادئ الدافئ الوديع، فاشتد حزنه، واعتُصِرَ قلبُه بهذا الحزن العميق.

ثم كان خروجه إلىٰ الطائف، وما لقي فيه من الأذىٰ والتكذيب والصد والإعراض ما زاد من ألمه وحزنه، ثم رجوعه إلىٰ مكة وقد تجهمت له قريش وأحدقت به؛ حتىٰ لم يستطع دخول مكة إلا في جوار رجلٍ كافر.

في وسط تلك الأحزان المتراكمة أسرىٰ الله عز وجل برسول الله ﷺ - جسدًا وروحًا - إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم عُرِجَ به إلىٰ السماء؛ لكشف ذلك الحزن، وطمأنة القلب النبوي بما شاهد وعاين في ذلكم العالم العلوي.

الإسراء والمعراج لماذا؟

كانت رحلة الإسراء والمعراج أولاً بمثابة العزاء الكريم والتثبيت العظيم لرسول الله ﷺ؛ فقد أراد الله عز وجل أن يتيح لرسوله ﷺ فرصة الاطلاع علىٰ المظاهر الكبرىٰ لقدرته عز وجل؛ حتىٰ يملأ قلبه ثقةً فيه، واستنادًا إليه، حتىٰ يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض.

وهناك فائدة أخرىٰ من حادثة الإسراء والمعراج، وهي رؤية الغيب الذي دعا إليه النبي ﷺ حقيقةً ظاهرةً أمامه: كالأنبياء والمرسلين، والملائكة، والسماوات، والجنة والنار، ونماذج من النعيم والعذاب.

ولم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأىٰ فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرىٰ؛ بل زيادة إلىٰ ذلك اشتملت هذه الرحلة النبوية علىٰ معانٍ دقيقة كثيرة؛ فقد ضمَّت قصة الإسراء معانيَ منها:

* أن محمدًا ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقَين والمغربَين.

❁ وأنه وارث الأنبياء قَبْلَهُ ، وإمام كل الأجيال بعده ؛ فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس ، والبيت الحرام بالمسجد الأقصىٰ ، وصلىٰ بكل الأنبياء قبله ، وصاروا خلفه ؛ يصلون بصلاته ويأتمون به ، فهو آخرهم وأفضلهم وإمامهم ؛ فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته ، وخلود إمامته ، وإنسانية تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان ، وتعيين شخصية النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته .

❁ وكان في ذلك أيضًا تحديد لمكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به ، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم بين الشعوب والأمم .

وقد تم تجميع هذه الرحلة المباركة من مجموعة كبيرة جدًا من الأحاديث الصحيحة من كتب السنة والسيرة ؛ فليطمئن قلبك ، ومن أراد التوثيق فعليه بالرجوع لتخريجات هذه الجمل بالتفصيل في كتاب «السيرة الذهبية» للشيخ/ محمد رزق طرهوني حفظه الله وجزاه عنا خير الجزاء .

فتعال معي الآن لنعيش أحداث الإسراء والمعراج ، لنحيا مع الحبيب المصطفىٰ ﷺ لحظات التشريف والتحليق في السماوات العلا :

الإسراء

كان الإسراء معجزة عظيمة استحقت أن يخلد الله ذكرها في كتابه العظيم ، مستدلًا بها ﷻ علىٰ عظيم قدرته ، قال ﷷ : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

متىٰ كان ذلك؟ هذا سؤال لا يُعرف جوابه بالتحديد ؛ لكنه قطعًا كان قبل الهجرة المباركة ، أما في أي سنة وفي أي يوم كان؟ فليس هناك علىٰ هذا أي دليل صحيح ، ودعك من هرطقات المبتدعة الذين يقيمون الاحتفالات

بذكرى الإسراء، يزعمون بذلك عظيم الحب لرسول الله ﷺ وهم من أبعد الناس عن سنته، ولو كانوا حقًا يحبونه لاتبعوا هديه ومنهجه؛ فالحُبُّ اتِّباعٌ.

تعال لنعيش قصة الإسراء والمعراج:

وتبدأ هذه القصة باستعداد عجيب وتجهيز مهيب... شق الصدر..

جاء شق الصدر استعدادًا لهذه الرحلة العجيبة العظيمة المدهشة...

قال رسول الله ﷺ: فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دِحْيَةُ -هُوَ ابْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيُّ-، فَفَرَجَ صَدْرِي، فَشَقَّ مَا بَيْنَ هَذِهِ إِلَىٰ هَذِهِ - مِنْ ثُغْرَةِ نَحْرِهِ إِلَىٰ شِعْرَتِهِ أو مِنْ قَصِّهِ إِلَىٰ شِعْرَتِهِ-، (وفي رواية: فَشَقَّ جِبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِهِ إِلَىٰ لَبَّتِهِ أو إِلَىٰ مَرَاقِّ الْبَطْنِ)، حَتَّىٰ فَرَغَ مِنْ صَدْرِي وَجَوْفِي، فَاسْتَخْرَجَ قَلْبِي فَغَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ غُسِلَ الْبَطْنُ بِمَاءِ زَمْزَمَ بِيَدِهِ حَتَّىٰ أَنْقَىٰ جَوْفِي.

ثُمَّ أُتِيَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ - يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ - ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: قَلْبٌ وَكِيعٌ - يَعْنِي شَدِيدًا - فِيهِ أُذُنَانِ سَمِيعَتَانِ وَعَيْنَانِ بَصِيرَتَانِ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ الْمُقَفَّىٰ الْحَاشِرُ، خُلُقُكَ قَيِّمٌ، وَلِسَانُكَ صَادِقٌ، وَنَفْسُكَ مُطْمَئِنَّةٌ.

ثم كان الانطلاق الميمون في هذه الرحلة المباركة:

البراق.. وسيلة مواصلات الإسراء.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ مُسْرَجًا مُلْجَمًا لِيَرْكَبَهُ، فَاسْتَصْعَبَ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام: مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ هَذَا؟ فَوَاللهِ مَا رَكِبَكَ أَحَدٌ قَطُّ أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ، قَالَ: فَارْفَضَّ عَرَقًا.

وقد وصف رسول الله ﷺ هذا البراق فقال: أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ، فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، أما عن سرعة هذا البراق في سيره ومشيه فقد قال رسول الله ﷺ: «يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ».

المسجد الأقصى:

قال رسول الله ﷺ: «فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَانْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ، حَتَّىٰ بَلَغْنَا أَرْضًا ذَاتَ نَخِيلٍ، فَقَالَ: انْزِلْ فَنَزَلْتُ، قَالَ: صَلِّ فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتَ بِيَثْرِبَ، صَلَّيْتَ بِطِيبَةَ وَإِلَيْهَا الْمُهَاجَرَ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، حَتَّىٰ بَلَغْنَا أَرْضًا بَيْضَاءَ، فَقَالَ: انْزِلْ فَنَزَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: صَلِّ، فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتَ بِمَدْيَنَ، صَلَّيْتَ عِنْدَ شَجَرَةِ مُوسَىٰ عليه السلام حَيْثُ كَلَّمَ اللهُ عز وجل مُوسَىٰ عليه السلام.

قال: وأَتَيْتُ - مَرَرْتُ - عَلَىٰ مُوسَىٰ عليه السلام عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ».

نعم مر رسول الله ﷺ بقبر موسىٰ عليه السلام وهو في طريقه إلىٰ المسجد الأقصىٰ: «وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ»، لقد وقفت مع هذا المعنىٰ مندهشًا، هذه حالة المحب الذي ألقىٰ الله عليه المحبة، لا ينشغل عن التقرب لربه حتىٰ وهو في قبره، فصلىٰ الله وسلم علىٰ الكريم الكليم موسىٰ النبي.

قال: «ثُمَّ انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا بَدَتْ قُصُورُهَا، ثُمَّ قَالَ: انْزِلْ فَنَزَلْتُ، قَالَ: صَلِّ فَصَلَّيْتُ ثُمَّ رَكِبْنَا، قَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَىٰ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام».

الوصول إلى المسجد الأقصى:

قَالَ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ جِبْرِيلُ بِأَصْبعِهِ فَخَرَقَ بِهَا الْحَجَرَ وَشَدَّ بِهِ الْبُرَاقَ، قَالَ: فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَالَ: ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَوَضَعْتُ قَدَمَيَّ

حَيْثُ تُوضَعُ أَقْدَامُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِذَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ ضَرْبٌ طُوَالٌ جَعْدٌ أَسْحَمُ آدَمُ كَثِيرُ الشَّعْرِ، حَسَنُ الشَّعْرَةِ، شَدِيدُ الْخَلْقِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ.

وَرَأَيْتُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ رَبْعَةٌ أَحْمَرُ مَرْبُوعُ الْخَلْقِ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبِطُ الرَّأْسِ، شَابٌّ أَبْيَضُ جَعْدُ الرَّأْسِ، حَدِيدُ الْبَصَرِ، مُبَطَّنُ الْخَلْقِ كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ.

وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَائِمٌ يُصَلِّي، أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ - يَعْنِي نَفْسَهُ؛ فَلَا أَنْظُرُ إِلَىٰ إِرْبٍ مِنْ آرَابِهِ إِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ مِنِّي كَأَنَّهُ صَاحِبُكُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ.

مؤتمر نبوي حول الساعة:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ولما لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ تَذَاكَرُوا أَمْرَ السَّاعَةِ، فَرَدُّوا أَمْرَهُمْ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ؛ فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهَا، فَرَدُّوا الأَمْرَ إِلَىٰ عِيسَىٰ فَقَالَ: أَمَّا وَجْبَتُهَا فَلَا يَعْلَمُهَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، ذَلِكَ وَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الدَّجَّالَ خَارِجٌ، قَالَ: وَمَعِي قَضِيبَانِ فَإِذَا رَآنِي ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ، قَالَ: فَيُهْلِكُهُ اللَّهُ، وَيَنْهَزِمُ أَصْحَابُه، فَلَيْسَ يَوْمَئِذٍ شَيْءٌ يُوَارِي مِنْهُمْ أَحَدًا، حَتَّىٰ إِنَّ الْحَجَرَ وَالشَّجَرَ لَيَقُولُ: يَا مُسْلِمُ إِنَّ تَحْتِي كَافِرًا فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، قَالَ: فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَطَئُونَ بِلَادَهُمْ لَا يَأْتُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا أَهْلَكُوهُ، وَلَا يَمُرُّونَ عَلَىٰ مَاءٍ إِلَّا شَرِبُوهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ النَّاسُ إِلَيَّ فَيَشْكُونَهُمْ، فَأَدْعُو اللَّهَ عَلَيْهِمْ فَيُهْلِكُهُمُ اللَّهُ وَيُمِيتُهُمْ، حَتَّىٰ تَجْوَىٰ الأَرْضُ مِنْ نَتْنِ رِيحِهِمْ، قَالَ: فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَطَرَ فَتَجْرُفُ أَجْسَادَهُمْ حَتَّىٰ يَقْذِفَهُمْ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ تُنْسَفُ الْجِبَالُ وَتُمَدُّ الأَرْضُ

مَدُّ الأَدِيمِ ، فَفِيمَا عَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتِمِّ الَّتِي لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَىٰ تَفْجَؤُهُمْ بِوِلَادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا .

وحان موعد الصلاة:

حان موعد الإمامة من إمام البشرية ﷺ لكل الأنبياء الذين سبقوه والذين أُرسلوا قبله ، اصطَفُّوا خلفه ، وتقدم أَمَامَهُم ، كيف لا وهو إمامُهُم ، وكيف لا وهو مسك ختامِهِم ولَبِنَةُ تمامِهِم؟! كيف لا وهو أكرمهم علىٰ ربه وأفضلهم عنده ، هيا يا رسول الله ، قد وضعت قيادة البشرية في يدك ، فلا يجوز لنبي أن يسبقك في ركوع ولا سجود ، لتنصت البشرية ، وليستمع التاريخ وليتنبه الزمان إلىٰ هذا الحدث الرهيب الجليل ، هؤلاء هم مصلحو العالم ، وأزكىٰ الخليقة ، وأفضل البشر ، يأتمون برسول الله محمد ﷺ :

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «فَحَانَتِ الصَّلَاةُ فَأَمَمْتُهُمْ ؛ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ؛ فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ الْتَفَتُّ ؛ فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعِي» .

الله أكبر! الله أكبر يا محمد!! الله أكبر يا رسول الله.. من أسعد منك؟

مشاهدات رسول الله ﷺ في رحلة الإسراء:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: رَأَيْتُ مِنْ حَائِطِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الشَّرْقِيِّ جَهَنَّمَ فِي الْوَادِي الَّذِي بِالْمَدِينَةِ ، وَرَأَيْتُ مَالِكًا (خازن النار) يُقَلِّبُ جَمْرًا كَالْقُطُفِ ؛ فَإِذَا جَهَنَّمُ مِثْلُ الْحُمَةِ السُّخْنَةِ تَنْكَشِفُ عَنْ مِثْلِ الزَّرَابِيِّ .

ورَأَيْتُ مَالِكًا خَازِنَ النَّارِ وَالدَّجَّالَ فِي آيَاتٍ أَرَاهُنَّ اللَّهُ إِيَّاهُ ، قَالَ الأمين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ ، فإذا رجل عابسٌ يُعرف الغضب في وجهه ، فَبَدَأَنِي بِالسَّلَامِ ، فسلمتُ عليه .

وَرَأَيْتُ الدَّجَّالَ فِي صُورَتِهِ ، رُؤْيَا عَيْنٍ لَيْسَ رُؤْيَا مَنَام ، أَقْمَرُ هِجَانًا ، قَالَ : رَأَيْتُهُ فَيْلَمَانِيًا (عظيم الجثة) أَقْمَرُ هِجَانًا (شديد البياض) ، إِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ قَائِمَةٌ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ، كَأَنَّ شَعْرَ رَأْسِهِ أَغْصَانُ شَجَرَةٍ .

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَقِيلَ : اشْرَبْ أَيَّهَا شِئْتَ فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ ، قَالَ جِبْرِيلُ : أَصَبْتَ أَصَابَ اللَّهُ بِكَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ ؛ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ» .

وصف تفصيلي لرحلة المعراج:

ثم تأتي رحلة المعراج تكملة للشرف ، وإظهارًا لسؤدد رسول الله ﷺ ، فمن إمامة الأنبياء والمرسلين ، إلىٰ السماوات العلىٰ لتلقي الوحي من رب العالمين ؛ عرج بالنبي ﷺ إلىٰ السماوات العلىٰ ليزداد القرب ، ويعظم العلو والسمو لصاحب المقام الأعلىٰ رسول الله محمد ﷺ ، فتعالوا لنعيش بقلوبنا رحلة المعراج ، تعالوا نلمح مظاهر تكريم الله عز وجل لرسوله ﷺ ؛ لنزداد تعظيمًا وإجلالاً لهذا الدين ولهذا النبي الكريم ﷺ .

بداية المعراج:

لَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَمْرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ نُصِبَ لَهُ الْمِعْرَاجِ وَهُوَ كَالسُّلَّم ، فَصَعَدَ مِنْ سَمَاءٍ إِلَىٰ سَمَاءٍ ، قَالَ : وَأَنَا أُقَلِّبُ طَرْفِي ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّمَاءَ لَمَسِسْتُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي حَتَّىٰ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا ، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ضَرَبَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَقَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَأَهْلاً ، وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَيَسْتَبْشِرُ بِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ ، لَا يَعْلَمُ أَهْلُ السَّمَاءِ بِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ يُعْلِمَهُمْ .

قَالَ : فَفُتِحَ لنا ، فلما خلصتُ - علونا السماء الدنيا - فإذا فيها آدم عليه السلام ، ووصفه النبي ﷺ بأنه رَأَىٰ رَجُلاً قَاعِدًا عَلَىٰ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَىٰ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَىٰ ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام : هَذَا أَبُوكَ آدَمُ ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ

أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَىٰ ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَأَتَيْتُ عَلَىٰ آدَمَ عليه السلام فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، وَرَدَّ عَلَيَّ آدَمُ وَقَالَ : مَرْحَبًا وَأَهْلاً بِابْنِي ، نِعْمَ الِابْنُ أَنْتَ ، مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثم انطلقنا فَإِذَا هُوَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِنَهْرَيْنِ يَطَّرِدَانِ فَقُلْتُ : مَا هَذَانِ النَّهْرَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ : هَذَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ عُنْصُرُهُمَا ، ثُمَّ مَضَىٰ بِهِ فِي السَّمَاءِ .

قَالَ : فصعد بي حتىٰ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ ، وَيَحْيَىٰ بنِ زَكَرِيَّاءَ عليهما السلام ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : هَذَا يَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمَا فَرَدَّا ثُمَّ قَالَا : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ ، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ .

قَالَ : فصعد بي حتىٰ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ عليه السلام إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ ، قَالَ جِبْرِيلُ : هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

قَالَ : فصعد بي حتىٰ أَتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ عليه السلام ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، قَالَ اللَّهُ عز وجل : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ .

فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ

وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَأَتَيْنَا عَلَىٰ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

فَصعد بي حتىٰ أَتَيْنَا عَلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ ، فَقَالَ مُوسَىٰ : رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ يُرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدٌ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : هَذَا مُوسَىٰ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ ثم قَالَ مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيٍّ ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ، فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَكَىٰ ، فَقِيلَ : مَا أَبْكَاكَ ؟ قَالَ : يَا رَبِّ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي بُعِثَ بَعْدِي ، يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ - أكثر - مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي .

فَصعد بي حتىٰ أَتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا : افْتَحْ ، قِيلَ : مَنْ هَذَا؟ قَالَ : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : مَنْ مَعَكَ ؟ قَالَ : مُحَمَّدٌ ، قِيلَ : أُرْسِلَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قِيلَ : مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ ، فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَيْخٌ جَلِيلٌ مَهِيبٌ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، قلت : من هذا؟ قال : هذا أبوك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فسلم عليه ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرد السلام ثم قَالَ : مَرْحَبًا بِكَ مِنِ ابْنٍ وَنَبِيٍّ .

فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ ، قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ ، مَا هَذَا؟ قَالَ : هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ، وَيُقَالُ لَهُ الضُّرَاحُ ، وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ مِنْ فَوْقِهَا ، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الْبَيْتِ فِي الأَرْضِ ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْم - يدخله كل يوم - سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَمْ يَرَوْهُ قَطُّ ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ أَبَدًا آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ .

وَمَا مَرَرْتُ بِمَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا كُلُّهُمْ يَقُولُ لِي : عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْحِجَامَةِ ، مُرْ أُمَّتَكَ بِالْحِجَامَةِ .

سدرة المنتهى.. وصريف الأقلام:

ثُمَّ عَلَا بِي فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، حَتَّىٰ ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَىٰ أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ ، وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا ، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا ، عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ، إِذْ يَغْشَىٰ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا ، عليها السُّنْدُسُ وَالإِسْتَبْرَقُ ، وغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ ، وتَحَوَّلَتْ يَاقُوتًا أَوْ زُمُرُّدًا أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، فَإِذَا نَبْقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفُيُولِ ، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّ الْفَنَنِ (الغصن) مِنْهَا مَائَةَ سَنَةٍ ، يَسْتَظِلُّ بِالْفَنَنِ مِنْهَا مائةُ رَاكِبٍ ، قَالَ : هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَىٰ ، فِي أَصْلِهَا - مِنْ سَاقِهَا - أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ ؛ نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ : مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيل؟ فَقَالَ : أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ .

ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ فَقَالَ : اشْرَبْ أَيَّهَا شِئْتَ قال : فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ : قَالَ جِبْرِيلُ : أَصَبْتَ أَصَابَ اللَّهُ بِكَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ - هِيَ الفِطْرَة التِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ .

ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ (قباب) وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ ، فَسَمِعْتُ مِنْ جَانِبِهَا وَجْسًا ، قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ : هَذَا بِلَالٌ الْمُؤَذِّنُ .

قصر الفاروق رضي الله عنه في الجنة:

قَالَ : وبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ أبيض ، فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ وَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ لِي ، قَالَ : لِعُمَرَ ، قَالَ : ثُمَّ سِرْتُ سَاعَةً ، فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُرْتَفِعٍ مُشْرِفٍ مُرَبَّعٍ خَيْرٍ مِنَ الْقَصْرِ الْأَوَّلِ ، بفنائه جاريةٌ تتوضأ إِلَىٰ جانبِ القصر ، قَالَ : فَقُلْتُ : لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ يَا جِبْرِيلُ؟ وَرَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ لِي ، فَقَالُوا : لِرَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ ، قُلْتُ : أَنَا عَرَبِيٌّ ، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟

قَالُوا: لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، قُلْتُ: فَأَنَا مُحَمَّدٌ، لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فقالوا: لِشَابٍّ مِنْ قُرَيْشٍ، قُلْتُ: فَأَنَا قُرَشِيٌّ، لِمَنْ؟ قَالُوا: لِعُمَرَ ابْنِ الْخَطَّابِ، وَحِينَ قَصَّ النَّبِيُّ ﷺ قِصَّةَ الْقَصْرَيْنِ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ لَهُ: وَإِنَّ فِيهِ لَمِنَ الْحُورِ الْعِينِ يَا أَبَا حَفْصٍ، وَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَدْخُلَهُ إِلَّا غَيْرَتُكَ، قَالَ: فَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا عُمَرَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا عَلَيْكَ فَلَمْ أَكُنْ لِأَغَارَ.

خبيئة الله عز وجل لنبيه ﷺ.

ثم إِذَا أنا بِنَهَرٍ آخَرَ هُوَ نَهَرٌ يَجْرِي كَذَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا، فَإِذَا حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ، مَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، مَجْرَاهُ عَلَى الْيَاقُوتِ وَالدُّرِّ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، عَلَيْهِ قَصْرٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ، فَضَرَبَ الْمَلَكُ يَدَهُ فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ أَذْفَرُ، وهو لَيْسَ مَشْقُوقًا، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى تُرْبَتِهِ فَإِذَا مِسْكَةٌ ذَفِرَةٌ، وَإِذَا حَصَاهُ اللُّؤْلُؤُ، قَالَ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي خَبَأَ لَكَ رَبُّكَ.

ماشطة ابنة فرعون.

ثم أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهَا؟ قَالَ: بَيْنَا هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتِ الْمِدْرَى (المشط الكبير) مِنْ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟ قَالَتْ: لَا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ، قَالَتْ: أُخْبِرُهُ بِذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ.

فَأَخْبَرَتْهُ فَدَعَاهَا فَقَالَ: يَا فُلَانَةُ، وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ وَأَوْلَادُهَا فِيهَا، قَالَتْ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِنَنَا، قَالَ: ذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ،

قَالَ : فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا وَاحِدًا وَاحِدًا ، إِلَىٰ أَنْ انْتَهَىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ صَبِيٍّ لَهَا مُرْضَعٍ ، وَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ ، قَالَ : يَا أُمَّهْ اقْتَحِمِي ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، فَاقْتَحَمَتْ ، وفي رواية : يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ : عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ .

ومن المشاهدات في رحلة المعراج...

نَظَرْتُ فِي النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الْجِيَفَ فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ .

وَرَأَيْتُ رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ جَعْدًا شَعِثًا إِذَا رَأَيْتَهُ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ .

ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَىٰ قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالُوا : خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ .

ثُمَّ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ .

فَرَأَيَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَوَعْدَ الْآخِرَةِ أَجْمَعَ ،
ووجد رسول الله ﷺ اسمه مكتوبًا في السماء : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ . .

ولقد رآه نزلة أخرى،

قال : ورَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ في خَلْقِهِ الذي خَلَقَهُ الله عليه ، عَلَيْهِ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ (وفي رواية : يُنْثَرُ مِنْ رِيشِهِ) ، فِي حُلَّةٍ مِنْ رَفْرَفٍ قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، رِجْلَاهُ كَالدُّرِّ مِثْلُ الْقَطْرِ علىٰ الْبَقْلِ .

وفي رواية: نظرتُ جبريلَ عليه السلام كأنه حِلْسٌ لاطِئ فعرفتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بالله عليّ، وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: «لَيلَةَ أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ عَلَىٰ جِبْرِيلَ عليه السلام فِي المَلَإِ الأَعْلَىٰ، كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عز وجل»[1].

وَفُتِحَ لِي بَابُ السَّمَاءِ، وَرَأَيْتُ النُّورَ الأَعْظَم، وَلُطَّ (سُتِرَ) دُونِي الحِجَاب، وَفرجه الدُّرُّ وَاليَاقُوتُ.

وَسَمِعْتُ تَسْبِيحًا فِي السَّمَاوَاتِ العُلَىٰ، ودَنَا الجَبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فَتَدَلَّىٰ حَتَّىٰ كَانَ مِنِّي قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، ثُمَّ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيَّ مَا شَاءَ أَنْ يُوحِيَ، فَفُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، ثم نزل ﷺ.

فرض الصلاة.. ومراجعة بين رسول الله ﷺ وموسى عليه السلام

قال: فنزلت، فَأَقْبَلْتُ حَتَّىٰ جِئْتُ مُوسَىٰ (وفي رواية: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّىٰ مَرَرْتُ عَلَىٰ مُوسَىٰ)، فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ جِبْرِيلَ عليه السلام كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ أَنْ: نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَعَلَا بِهِ إِلَىٰ الجَبَّارِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا؛ فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ.

قال: فرجعتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرَ صَلَوَاتٍ فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قال: أُمِرْتُ بأربعين صلاة، قال: إِنِّي وَاللَّهِ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٦٧٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٩).

قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قال : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، قال : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ : بِمَا أُمِرْتَ ؟ فقلت : أمرت بثلاثين صلاة ، قال : إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ .

قال : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا ، قال : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ : بِمَا أُمِرْتَ ؟ فقال : أُمِرْتُ بعشرين صلاة ، فقال : إن أمتك لا تستطيع ذلك ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قال : فرجعتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ ، فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ : بِمَا أُمِرْتَ؟ فقلت : أُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ ، قال : إن أمتك لا تستطيع عَشْرَ صلوات ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قال : فرجعتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ .

فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقَالَ : بِمَا أُمِرْتَ؟ قلت : أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ ، قال : إن أمتك لا تطيق خمس صلوات كُلَّ يوم ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ ، فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ ، قال : قلت : سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّىٰ اسْتَحْيَيْتُ ؛ وَلَكِنِّي أَرْضَىٰ وَأُسَلِّمُ ، قَالَ : فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَىٰ مُنَادٍ : أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي ، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي .

وفي رواية : فَاحْتَبَسَهُ مُوسَىٰ عِنْدَ الْخَمْسِ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَىٰ أَدْنَىٰ مِنْ هَٰذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ ، فَأُمَّتُكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا ، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ ، كُلَّ ذَٰلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ جِبْرِيلَ عليه السلام لِيُشِيرَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَكْرَهُ ذَٰلِكَ جِبْرِيلُ .

فَرَفَعَهُ عِنْدَ الْخَامِسَةِ فَقَالَ : يَا رَبِّ ، إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ، فَخَفِّفْ عَنَّا ، فَقَالَ الْجَبَّارُ : يَا مُحَمَّدُ ، قَالَ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : إِنَّهُ لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ،

قَالَ : فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ، وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً ، فَرَجَعَ إِلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقَالَ : كَيْفَ فَعَلْتَ؟ فَقَالَ : خَفَّفَ عَنَّا ، أَعْطَانَا بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، قَالَ مُوسَىٰ : قَدْ وَاللَّهِ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ، ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ أَيْضًا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : يَا مُوسَىٰ ، قَدْ وَاللَّهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ .

فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا لم يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قبلَه : أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ ، وجعلت بخمسين صلاة ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا الْمُقْحِمَاتُ (الكبائر) .

قَالَ : فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللَّهِ .

وبعد انتهاء هذه الرحلة العلوية المباركة عاد النبي ﷺ إلى الأرض .

ويالقلب محمد ﷺ !! كيف أطاق أن يعود إلى الأرض مرة أخرى !!

ويالقلب محمد ﷺ !! كيف أطاق أن يسمع الناس مرة أخرى

بعدما كلمه ربه ﷻ من فوق سبع سماوات !!

بعدما عاش النبي ﷺ هذه الرحلة العلوية المباركة في أوساط الأنبياء والمرسلين والملائكة والبيت المعمور وسدرة المنتهى ، عاد مرة أخرى إلى المسجد الأقصى ، هذا هو الواضح الصحيح من الروايات ، فركب البراق مرة أخرى -وكان مربوطًا على باب المسجد الأقصى- ثم عاد إلى البيت الحرام .

قَالَ : ثُمَّ انْصَرَفَ بِي ، فَمَرَرْنَا بِعِيرٍ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا ، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ قَدْ جَمَعَهُ فُلَانٌ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِم ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا صَوْتُ مُحَمَّدٍ ، قَالُوا : مَا نَرَىٰ شَيْئًا ، مَا هَذِهِ إِلَّا رِيحٌ .

تكذيب قريش:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « فلَمَّا أَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ فَظِعْتُ بِأَمْرِي ، وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِيَّ ، فَقَعَدتُ مُعْتَزِلاً حَزِينًا ، قَالَ : فَمَرَّ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ ، فَجَاءَ حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ : هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : إِنَّهُ أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ ، قَالَ : إِلَىٰ أَيْنَ ؟ قَالَ : إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، قَالَ : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَلَمْ يُرِ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ الْحَدِيثَ إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ ، قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : نَعَمْ ، فَقَالَ : هَيَّا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ ، قَالَ : فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ الْمَجَالِسُ ، وَجَاءُوا حَتَّىٰ جَلَسُوا إِلَيْهِمَا ، قَالَ : حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِنِّي أُسْرِيَ بِيَ اللَّيْلَةَ ، قَالُوا : إِلَىٰ أَيْنَ ؟ قُلْتُ : إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، قَالُوا : ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ ، وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَىٰ رَأْسِهِ مُتَعَجِّبًا لِلْكَذِبِ زَعَمَ ، وارتدَّ ناسٌ ممَّن كانَ آمنَ به ؛ وسعىٰ رجالٌ إلىٰ أبي بكر ﷺ فقال : أوَ قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : فأنا أشهدُ لئِنْ كانَ قالَ ذلك لقَدْ صَدَقَ ، قالوا : فتصدِّقُهُ في أن يأتيَ في الشام في ليلةٍ واحدة ، ثم يرجعُ إلىٰ مكةَ قبل أن يُصْبِحَ ؟ قال : نعم ؛ أنا أصدِّقُهُ بأبعدَ من ذلك ؛ أصدقه بخبر السماء ! فسُمِّيَ الصدّيق .

فكان عليٌّ ﷺ يحلف بالله تعالىٰ أنزل اسم أبي بكر من السماء : الصديق .

قَالُوا : وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ ؟ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَىٰ الْمَسْجِدَ ، قَالَ : فَقُمْتُ فِي الْحِجْرِ وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا ، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، فَجَلَّىٰ اللهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ،

مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّىٰ الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ حَتَّىٰ وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، قَالَ: وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ، قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ.

فقال المشركون: انظروا إلىٰ ابن أبي كَبْشَةَ، يزعم أنه أتىٰ بيتَ المقدس الليلة!! قال: فقال: «إِنَّ مِنْ آيَةِ مَا أَقُولُ لَكُمْ أَنِّي مَرَرْتُ بِعِيرٍ لَكُمْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، قَدْ أَضَلُّوا بَعِيرًا لَهُمْ، فَجَمَعَهُ فُلَانٌ، وَإِنَّ مَسِيرَهُمْ لَكُمْ، يَنْزِلُونَ بِكَذَا ثُمَّ كَذَا، وَيَأْتُونَكُمْ يَوْم كَذَا وَكَذَا، يَقْدُمُهُمْ جَمَلٌ آدَمُ عَلَيْهِ مَسْح أَسْوَد، وَغِرارَتَانِ سَوْدَاوَانِ» فلما كان ذلك اليوم، أشرف الناس ينظرون، حتىٰ كان قريبًا من نصف النهار أقبلت العير يَقْدُمُهُمْ ذلك الجمل، كالذي وصف النبي ﷺ، فقال ناس: نحن لا نصدق محمدًا بما يقول، فارتدوا كفارًا؛ فضرب الله رقابهم مع أبي جهل.

ولما ذكر رسول الله ﷺ حلقة الصخرة التي ربط بها البراق قال الصديق أبو بكر رضي الله عنه: صفها لي، فقال رسول الله: هي كَذِهْ وَذِهْ، فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر قد رآها، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ».

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، فَبَكَىٰ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: هَلْ أَنَا وَمَالِي إِلَّا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟!

ولقد قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ حِينَ أصبح وجَاءَ إِلَىٰ النَّاسِ: قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ، رَأَيْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا، فَدَعَا بِلَالاً فَقَالَ: يَا بِلَالُ، بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ؟ حَدِّثْنِي بِأَرْجَىٰ عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلاً أَرْجَىٰ عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ، فما أَذَّنْتُ قَطُّ إِلَّا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، وَمَا أَحْدَثْتُ إِلَّا تَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِهَذَا.

تلك هي رحلة الإسراء من مكة البلد الحرام إلىٰ بيت المقدس الأرض المباركة ، فقد قال الله في هذا البلد : ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال الله تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، فهي أرض مباركة بنص القرآن الكريم ، ويكفيها بركةً اجتماعُ هذا الموكب العظيم وهذا الجمع الكريم من أنبياء الله ورسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، وللمسجد الأقصىٰ من الفضائل الكثير ، فمنها أنه المسجد الثاني الذي بني علىٰ وجه الأرض ، وهو القبلة الأولىٰ التي توجه إليها الرسول ﷺ والصحابة ﵃ في صلاتهم في بداية الإسلام ، لكن لا نقول هو ثالث الحرمين ؛ لأن حرمة مكة كانت بتحريم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لها ، وحرمة المدينة كانت بتحريم رسول الله ﷺ لها ، أما بيت المقدس فلم يرد دليل علىٰ أنه حرم كمكة والمدينة ، فالحرم حرمان : مكة والمدينة .

أمين الأرض في رفقة أمين السماء:

ولابد هنا أن نعطي الأمين رفيق الرحلة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حقه :

فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أفضل الملائكة ، وهو أمين وحي السماء ، وهو المُعَلِّم لرسول الله ﷺ الأحكام والعبادات والقرآن ، وكان هو الرفيق في رحلة الإسراء والمعراج ، فهي علىٰ عظمتها تستأهل أن يكون الصاحب فيها أعظم الملائكة وأفضلهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٥-٦]، وقد وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بعدة صفات كريمة في كتابه منها قول الله تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، فهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عَلَّمَ النبيَّ ﷺ ما بلغه إلينا ، وعرفه معالم الطريق وأسس الرسالة .

وقد رآه رسول الله ﷺ علىٰ صورته التي خلقه الله عليها ، رآه بين السماء والأرض له ستمائة جناح كل جناح يسد بالأفق بخلقه الهائل .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي رآه فيها علىٰ صورته ، فقد تكررت

مرة أخرىٰ : ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣-١٨].

عن ابن مسعود ﷺ: أنه قال في هذه الآية ﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ﴾: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عَلَيْهِ سِتُّمَائَةِ جَنَاحٍ، يُنْثَرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ وَالدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ»[1].

فالأمر إذًا -أمر الوحي- أمر عيان مشهود، ورؤية محققة، ويقين جازم، واتصال مباشر، ومعرفة مؤكدة، وصحبة محسوسة، ورحلة واقعية، بكل تفصيلاتها ومراجعها، وعلىٰ هذا اليقين تقوم دعوة رسول الله ﷺ.

هل رأى رسول الله ربه ليلة المعراج؟!

عَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ!!»[2].

وعَنْ مَسْرُوقٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ ﷺ فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ، ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ اللهِ الْفِرْيَةَ، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَىٰ رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَىٰ اللهِ الْفِرْيَةَ، قَالَ: وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]؟ فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ، لَمْ أَرَهُ عَلَىٰ صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ، رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَقَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٤١٢)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨)، ك: الإيمان، باب قوله ﷺ: «نور أنى أراه؟!».

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١][١].

وهذا هو الراجح والصحيح في هذه المسألة، فإن رسول الله ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حَتَّىٰ تَمُوتُوا»[٢]، فرؤية الله في الدنيا غير ممكنة لأحدٍ من البشر؛ ولكنها في الجنة هي أعلىٰ وأعظم نعيم لأهل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»[٣]، اللَّهُمَّ إنا نسألك لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ.

ولكن من الإنصاف أن نقول: أن السلف اختلفوا في هذه المسألة، فمن قائل: بل رأىٰ ربه، مثل ابن عباس رضي الله عنهما وآخرين، وقائل: لم يره، كعائشة رضي الله عنها مع آخرين من الصحابة، فالخلاف فيها سائغ والله أعلم.

لذة ويقين وسعادة واطمئنان:

إن هذه الحادثة العظيمة في حياة الدعوة الإسلامية أحدثت هِزَّةً عنيفة في أرجاء مكة، فازداد أهل الكفر والعناد سخرية واستهزاء بحملة الدعوة، واشتد تكذيبهم، برغم الأدلة المادية التي ذكرها لهم رسول الله ﷺ،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧)، ك: الإيمان، باب: معنىٰ قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾، وهل رأىٰ رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء؟

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٣٣٤)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٣) أخرجه مسلم (١٨١)، ك: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم عز وجل.

ولم يهتم النبي ﷺ بتكذيبهم ولم يبالِ به، مع أنه يعلم مسبقًا أنهم سيكذبونه، ولم يستمع لأم هانئ وتخوُّفها من تكذيبهم، فإنه لما قص القصة لأم هانئ وقال: «مُثِّلَ لِيَ النَّبِيُّونَ فَصَلَّيْتُ بِهِمْ»، ثم قام ليخرج إلىٰ المسجد، فتشبثت أم هانئ بثوبه، فقال: «مَا لَكِ؟» قالت: أخشىٰ أن يكذبك قومك إن أخبرتهم، قال: «وَإِنْ كَذَّبُونِي».

فإن ثقة الرسول ﷺ بالحق الذي جاء به، والحق الذي وقع له، جعلته يصارح القوم بما رأىٰ كائنًا ما كان رأيهم فيه، وقد ارتد بعضهم فعلاً، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك؛ ولكن هذا كله لم يكن ليُقْعِدَ الرسول ﷺ عن الجهر بالحق الذي آمن به.

وفي هذا مَثَلٌ لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه في نفوس الناس، ولا يتملقون به القوم، ولا يتحسسون مواضع الرضا والاستحسان، إذا تعارضت مع كلمة الحق أن تقال.

فأصحاب دعوة الحق لا يخشون في الله لومة لائم،
ولا يداعبون أهواء الناس، ولا يتملقونهم يرجون رضاهم..

كذلك يُلاحَظ أن الرسول ﷺ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق، وقد قامت البينة عندهم علىٰ صدق الإسراء علىٰ الأقل؛ ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد علىٰ الخوارق فقط، إنما تعتمد في المقام الأول علىٰ طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها، فلم يكن جهر الرسول ﷺ بالواقعة ناشئًا عن اعتماده عليها في شيءٍ من رسالته؛ إنما كان جهرًا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة.

إن هذا الإسراء من آيات الله، وهو نقلة عجيبة بالقياس إلىٰ مألوف البشر، والمسجد الأقصىٰ هو طرف الرحلة، والمسجد الأقصىٰ هو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل ثم أخرجهم منها، وكما سبق معنا أن الرسول ﷺ

صلىٰ بإخوانه الأنبياء ركعتين في المسجد الأقصىٰ ، فكانت هذه الإمامة إقرارًا مبينًا بأن الإسلام رسالة الله الأخيرة إلىٰ خلقه ، أخذت تمامها علىٰ يد محمد ﷺ بعد أن وطّأ لها العبادُ الصالحون من رسل الله الأولين .

والكشف عن منزلة محمد ﷺ ودينه ليس مدحًا يساق في حفل تكريم ، بل هو بيان حقيقة مقررة في عالم الهداية ، منذ تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء في إبّانه المناسب ، فإن جهاد الدعوة الذي حمله محمد ﷺ علىٰ كواهله ، عرّضه لعواصف عاتية من البغضاء والافتراء ، ومزق شمل أتباعه ، فما ذاقوا مذ آمنوا به راحة الركون إلىٰ الأهل والمال ، وكان آخر العهد بمشاق الدعوة طرد «ثقيف» له ، ثم دخوله البلد الحرام في جوار مشرك ، إنّ هوانه علىٰ الناس منذ دعاهم إلىٰ الله جعله يجأر إلىٰ ربّ الناس ، شاكيًا راجيًا .

فمن تطمين الله له ، ومن نعمائه عليه أن يهيئ له هذه الرحلة السماوية لتمس ببرد الراحة فؤاده المعنّىٰ ، وليشعر أنه بعين الله ، مذ قام يوحده ويعبده ، ويُعَلِّم البشر توحيده وعبادته .

كان يقول : «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي**» ، فالليلة علم أن حظه من رضوان الله جزيل ، وأن مكانته بين المصطَفين الأخيار موطّدة مقدّمة .

إن الإسراء والمعراج يقعان قريبًا من منتصف فترة الرسالة التي مكثت ثلاثة وعشرين عامًا ، وبذلك كانا علاجًا مَسَحَ متاعبَ الماضي ، ووضع بذور النجاح للمستقبل .

إن رؤية طرف من آيات الله الكبرىٰ في ملكوت السموات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين ، وتصغير جموعهم ، ومعرفة عقباهم .

ذلك والله عز وجل يتيح لرسله فرص الاطلاع علىٰ المظاهر الكبرىٰ لقدرته ، حتىٰ يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادًا إليه ؛ إذ يواجهون قوىٰ الكفار المتألبة ، ويهاجمون سلطانهم القائم .

فقبل أن يرسل الله عز وجل موسى عليه السلام شاء جل جلاله أن يُرِيَهُ عجائبَ قُدرَتِهِ، فأمره أن يُلقي عصاه: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ١٩-٢٣].

فلما مَلأ قَلبَهُ إعجابًا بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد ذلك: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وهكذا كان الأمر مع رسول الله محمد ﷺ.

دروس وعظات من رحلة الإسراء والمعراج:

وهاهنا وقفات لابد منها، فإن معجزة الإسراء والمعراج مليئة بالدروس والعظات التي لابد لنا من تدبرها والتأمل فيها، فخذها وعض عليها بالنواجذ تغنم:

أولاً: في قصة الإسراء والمعراج تلمح أواصر القربى بين الأنبياء كافة، وهذا المعنى من أصول الإسلام: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والتحيات المتبادلة بين النبي ﷺ وإخوته السابقين توثق هذه الآصرة، ففي كل سماء أحلَّ الله فيها أحدَ رسله، كان النبي ﷺ يستقبل فيها بهذه الكلمة: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح!

ثانيًا: أرسل الله النبي محمدًا ﷺ لتكملة البناء الذي تعهده من سبقوه، ومنع الزلازل من تصديعه، قال رسول ﷺ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ»[1].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ك: المناقب، باب: خاتم النبيين ﷺ، ومسلم (٢٢٨٦)، ك: الفضائل، ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين.

ثالثًا : في المعراج شرعت الصلوات الخمس ، شرعت في السماء لتكون معراجًا يرقىٰ بالناس كلّما تدلت بهم شهوات النفوس وأعراض الدنيا ، والصلوات التي شرعها الله غير الصلوات التي يؤديها - الآن - كثيرٌ من الناس ، وعلامة صدق الصلاة أن تعصم صاحبها من الدنايا ، وأن تخجله من البقاء عليها إن ألَمّ بشيءٍ منها ؛ فالصلاة الحقيقية تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ، وتهذّب الأخلاق والنفوس ، قال سبحانه : ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

نعم : الصلاة طهور ، كما جاء في السُّنَّة ؛ إلا أنها طهور للإنسان الحي ، لا للجثة العفنة ، إن التطهير يزيل ما يعلق بالقلب الحي من غبار عارض ، والأعراض التي تلحق المرء في الحياة فتصدىء قلبه كثيرة ، ومطهراتها أكثر ! أما أصحاب القلوب الميتة فالصلاة لا تجديهم فتيلاً ، ولن يزالوا كذلك حتىٰ تحيا قلوبهم بالتوبة أو يواريها الثرىٰ .

رابعًا : في ليلة الإسراء والمعراج تأكدت الصفة الأولىٰ لهذا الدين وهي أنه دين الفطرة ، ففي الحديث : « **ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَقِيلَ : اشْرَبْ أَيَّهَا شِئْتَ ، قال : فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ : قَالَ جِبْرِيلُ : أَصَبْتَ أَصَابَ اللَّهُ بِكَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ** »[1] .

إن سلامة الفطرة لبُّ الإسلام ، ويستحيل أن تفتح أبواب السماء لرجل فاسد السريرة ، عليل القلب ، إن الفطرة الرديئة كالعين الحمئة لا تسيل إلا قذرًا وسوادًا ، وربما أُخفي هذا السواد الكريه وراء ألوان زاهية ، ومظاهر مزوقة ، بيد أن ما ينطلي علىٰ الناس ، لا يُخدع به ربُّ الناس !!

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩] .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٢٥٤) ، ك : تفسير القرآن ، باب : قوله تعالىٰ : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ، ومسلم (١٦٨) ، ك : الإيمان ، باب : الإسراء برسول الله ﷺ .

خامسًا: لما كانت صبيحة هذه الليلة المشهودة حدَّث رسول الله ﷺ الناس بما تم له وما شهد من آيات ربه الكبرىٰ، والذين كذَّبوا أن يقع وحيٌ علىٰ الأرض أتراهم يصدِّقون به في السماء؟ لقد طاروا يجمع بعضهم بعضًا، ليسمعوا هذه الأعجوبة فيزدادوا إنكارًا لرسالة محمد ﷺ وريبةً من أمره، وتحداه بعضهم أن يصف بيت المقدس، إن كان رآه هذه الليلة حقًا.

ومع أنه وصفه لهم إلا أنهم كذبوه؛ فدل علىٰ أن سؤالهم لم يكن استرشادًا أو طلبًا للتعلم بل للتعنت؛ لما في قلوبهم من كبرٍ وحقدٍ وتكذيب، وهذا أصعب ما يواجهه الدعاة إلىٰ الله.

سادسًا: لقد صدق أبو بكر رضي الله عنه وهو يَرُدُّ المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلىٰ بساطتها وطبيعتها، وهكذا فليكن الصديق مساندًا لنبيه حين الأزمات يدافع عنه ويحوطه ويحافظ علىٰ أحاسيسه ومشاعره.

سابعًا: الثقة بنصر الله واليقين في إتيان الفرج، فرسول الله ﷺ يبتلىٰ بالصدود في وجهه، لقد كذبه قومه، وما وجد في هؤلاء قلبًا مفتوحًا، ولا صدرًا مشروحًا، بل كان الراحلون والمقيمون يتواصَون بالبعد عنه، ويشيرون إليه بالأصابع.

ثامنًا: إكرام الله عز وجل للنبي محمد ﷺ وعنايته به وتطييب خاطره، ولم لا؟ فمحمد ﷺ حبيبه، وهو سبحانه لطيف بعباده، فتدبير الله هذه الرحلة لحبيبه ﷺ، وجمع الأنبياء له، وإمامته لهم، ثم رفعه إلىٰ الملكوت الأعلىٰ، وتكليم الله له، كل ذلكم ليمسح عن قلب النبي الهم والحزن، سبحان ربنا الكريم!! له الحمد وله الشكر، وله المنة وله الفضل، وله الثناء الحسن.

وكان الرجل يجيء من الآفاق البعيدة فيزوده قومه بهذه الوصاة: احذر غلام قريش لا يفتننك!!!

مع ذلك فإن الرسول ﷺ - في هذا الجو القابض - لم يخامر اليأسَ قلبُه؛ واستمر مثابرًا في جهاد الدعوة حتىٰ تأذَن الحق - أخيرًا - بالفرَج.

مسائل في الإسراء والمعراج

وبعد أن انتهينا من قصة الإسراء بالأحاديث والآثار الصحيحة المسندة، لابد من الإجابة على عدة أسئلة تخطر على البال، وبذلك تتضح الصورة كاملة لهذه الرحلة المباركة.

والسؤال الأول:

هل كان الإسراء يقظة أم منامًا؟ بالروح وحدها أم بالروح والجسد؟

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا منامًا، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك منامًا، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه ﷺ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان منامًا لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظمًا، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضًا فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وأيضًا فإنه ﷺ حُمِلَ على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، والله أعلم».

وقال: فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ اِخْتَلَفَ السَّلَف بِحَسَبِ اِخْتِلَاف الْأَخْبَار الْوَارِدَة: فَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ الْإِسْرَاء وَالْمِعْرَاج وَقَعَا فِي لَيْلَة وَاحِدَة فِي الْيَقَظَة بِجَسَدِ النَّبِيّ ﷺ وَرُوحه بَعْد الْمَبْعَث، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ الْجُمْهُور مِنْ عُلَمَاء الْمُحَدِّثِينَ وَالْفُقَهَاء وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَتَوَارَدَتْ عَلَيْهِ ظَوَاهِر الْأَخْبَار الصَّحِيحَة.

وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُول عَنْ ذَلِكَ إِذْ لَيْسَ فِي الْعَقْل مَا يُحِيلهُ حَتَّىٰ يَحْتَاج إِلَىٰ تَأْوِيل ، نَعَمْ جَاءَ فِي بَعْض الْأَخْبَار مَا يُخَالِف بَعْض ذَلِكَ ، فَجَنَحَ لِأَجْلِ ذَلِكَ بَعْض أَهْل الْعِلْم مِنْهُمْ إِلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ كُلّه وَقَعَ مَرَّتَيْنِ مَرَّة فِي الْمَنَام تَوْطِئَة وَتَمْهِيدًا ، وَمَرَّة ثَانِيَة فِي الْيَقَظَة كَمَا وَقَعَ نَظِير ذَلِكَ فِي اِبْتِدَاء مَجِيء الْمَلَك بِالْوَحْيِ» .

والسؤال الثاني الذي يحتاج تحقيقًا بوضوح،

هل كان الإسراء والمعراج في ليلة واحدة؟
وهل كان الإسراء أولًا أم المعراج أولًا؟

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : «وَيُؤَيِّد وُقُوع الْمِعْرَاج عَقِب الْإِسْرَاء فِي لَيْلَة وَاحِدَة رِوَايَة ثَابِت عَنْ أَنَس عِنْد مُسْلِم ، فَفِي أَوَّله : «**أُتِيت بِالْبُرَاقِ فَرَكِبْت حَتَّىٰ أَتَيْت بَيْت الْمَقْدِس**» فَذَكَرَ الْقِصَّة إِلَىٰ أَنْ قَالَ : «**ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاء الدُّنْيَا**» ، وَفِي حَدِيث أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عِنْد اِبْن إِسْحَاق : «**فَلَمَّا فَرَغْت مِمَّا كَانَ فِي بَيْت الْمَقْدِس أُتِيَ بِالْمِعْرَاجِ**» .

ونقل الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الإسراء والمعراج قول البيهقي : «وفي هذا السياق دليل علىٰ أن المعراج كان ليلة أسري به ﷺ من مكة إلىٰ بيت المقدس» ، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، وهو مذهب الجمهور أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعثة لا قبلها ، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة .

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : «قَالَ اِبْن دِحْيَة : جَنَحَ الْبُخَارِيّ إِلَىٰ أَنَّ لَيْلَة الْإِسْرَاء كَانَتْ غَيْر لَيْلَة الْمِعْرَاج ، لِأَنَّهُ أَفْرَدَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا تَرْجَمَة ، قُلْت : وَلَا دَلَالَة فِي ذَلِكَ عَلَىٰ التَّغَايُر عِنْده ، بَلْ كَلَامه فِي أَوَّل الصَّلَاة ظَاهِر فِي اِتِّحَادهمَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَرْجَمَ : (بَاب كَيْف فُرِضَتْ الصَّلَاة لَيْلَة الْإِسْرَاء) وَالصَّلَاة إِنَّمَا فُرِضَتْ فِي الْمِعْرَاج ، فَدَلَّ عَلَىٰ اِتِّحَادهمَا عِنْده ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَ كُلًّا مِنْهُمَا بِتَرْجَمَةٍ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَشْتَمِل عَلَىٰ قِصَّة مُفْرَدَة وَإِنْ كَانَا وَقَعَا مَعًا .

وَقَدْ رَوَىٰ كَعْب الْأَحْبَار أَنَّ بَاب السَّمَاء الَّذِي يُقَال لَهُ مِصْعَد الْمَلَائِكَة يُقَابِل بَيْت الْمَقْدِس ، فَأَخَذَ مِنْهُ بَعْض الْعُلَمَاء أَنَّ الْحِكْمَة فِي الْإِسْرَاء إِلَىٰ بَيْت الْمَقْدِس قَبْل الْعُرُوج لِيَحْصُل الْعُرُوج مُسْتَوِيًا مِنْ غَيْر تَعْوِيج ، وَفِيهِ نَظَر ، لِوُرُودِ أَنَّ فِي كُلّ سَمَاء بَيْتًا مَعْمُورًا ، وَأَنَّ الَّذِي فِي السَّمَاء الدُّنْيَا حِيَال الْكَعْبَة ، وَكَانَ الْمُنَاسِب أَنْ يَصْعَد مِنْ مَكَّة لِيَصِل إِلَىٰ الْبَيْت الْمَعْمُور بِغَيْرِ تَعْوِيج ، لِأَنَّهُ صَعِدَ مِنْ سَمَاء إِلَىٰ سَمَاء إِلَىٰ الْبَيْت الْمَعْمُور ، وَقَدْ ذَكَرَ غَيْره مُنَاسِبَات أُخْرَىٰ ضَعِيفَة فَقِيلَ الْحِكْمَة فِي ذَلِكَ أَنْ يَجْمَع ﷺ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة بَيْن رُؤْيَة الْقِبْلَتَيْنِ ، أَوْ لِأَنَّ بَيْت الْمَقْدِس كَانَ هِجْرَة غَالِب الْأَنْبِيَاء قَبْله فَحَصَلَ لَهُ الرَّحِيل إِلَيْهِ فِي الْجُمْلَة لِيَجْمَع بَيْن أَشْتَات الْفَضَائِل ، أَوْ لِأَنَّهُ مَحَلّ الْحَشْر وَغَالِب مَا اُتُّفِقَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَة يُنَاسِب الْأَحْوَال الْأُخْرَوِيَّة ، فَكَانَ الْمِعْرَاج مِنْهُ أَلْيَق بِذَلِكَ ، أَوْ لِلتَّفَاؤُلِ بِحُصُولِ أَنْوَاع التَّقْدِيس لَهُ حِسًّا وَمَعْنًىٰ ، أَوْ لِيَجْتَمِع بِالْأَنْبِيَاءِ جُمْلَة» .

وهنا يأتي الدور على السؤال الثالث:

هل المشاهد التي رآها النبي ﷺ لأهل النار وغيرهم كانت في الأرض أم في السماء؟

إذا كانت النار في الأرض السابعة ؛ فمعنىٰ ذلك أنها كشفت للنبي ﷺ في الإسراء ، ولا يمنع كشفها له وهو في السماء ، يرىٰ الجنة ومقابلها النار .

وقوله ﷺ : «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي**» : ظاهره أنها في الإسراء ، ولا يمنع قصد المعراج لارتباطهما معًا ، ففيه مثلًا : «**لَمَّا أُسْرِيَ بِي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ**» ، ومعلوم أنها في السماء .

وفي الحديث قال : «**ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ أَتَيْنَا الْوَادِيَ الَّذِي فِي الْمَدِينَةِ ، فَإِذَا جَهَنَّم تَنْكَشِفُ عَنْ مِثْلِ الزَّرَابِيِّ**» ، بعد المعراج وعودته إلىٰ مكة .

فعلىٰ هذا تكون بعض المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ قد رآها علىٰ الأرض في رحلة الإسراء من مكة إلىٰ بيت المقدس ، والبعض الآخر رآها

في السماء بعدما صعد إلى السماء السابعة في رحلة المعراج ، هذا هو الظاهر من الأحاديث والروايات والله أعلم .

ولا يفوتنا هنا أيضًا أن نجيب على سؤال رابع،

كيف صلى النبي ﷺ بالأنبياء؟
وهل كانت هناك صلاة قبل فرضها في السماء السابعة؟

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : «فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ هَاجَرَ النَّبِيّ ﷺ فَفُرِضَتْ أَرْبَعًا»[1] ، وفي رواية : «فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ»[2] .

وقد روي أن الصلاة أول ما فرضت كانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الخمس ليلة المعراج ، وكانت ركعتين ركعتين ، فلما هاجر ﷺ أقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر .

وقد اتفق العلماء على أنه كانت صلاة قبل الإسراء قطعًا ، وكانت الصلاة تكمل شيئًا بعد شيء ، فكانوا أولاً يتكلمون في الصلاة ، ولم يكن فيها تشهد ، ثم أمروا بالتشهد ، وحرم عليهم الكلام ، وكذلك لم يكن بمكة لهم أذان .

فهذه سُنَّةُ الله في إكمال الدين وإتمام الإسلام وزيادة الإيمان ، ألا يعلم من خلق ؟ وقد مر بنا أن الصحابة كانوا يُصَلُّونَ في الشعاب وَيُخْفُونَ هذه الصلاة عن قريش .

وإن كان هناك من يرى أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصلون قطعًا قبل الإسراء ، ولكن الاختلاف :

هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٢٠) ، ك : المناقب ، باب : من أين أرخوا التاريخ .

(٢) أخرجه مسلم (٦٨٥) ، ك : صلاة المسافرين وقصرها ، باب : صلاة المسافرين وقصرها .

وفيه خلاف أنه افترضت الصلاة من أول البعثة وكانت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ، وإنما الذي فرض في الإسراء الخمس .

ومما يدل أيضًا علىٰ أن الصلاة فرضت من أول البعثة حديث عائشة رضي الله عنها حين سألها سعيد بن هشام رضي الله عنه قال : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْبِئِينِي عَنْ قِيَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : أَلَسْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، قُلْتُ : بَلَىٰ ، قَالَتْ : فَإِنَّ اللهَ افْتَرَضَ قِيَامَ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَوْلاً حَتَّىٰ انْتَفَخَتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَأَمْسَكَ اللهُ خَاتِمَتَهَا فِي السَّمَاءِ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ التَّخْفِيفَ فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ[1] .

ثم يأتي هنا سؤال آخر:

اشتهرت الروايات أن الإسراء كان بالبراق ، فكيف كان المعراج؟ هل كان بوكري الطائر، أم كان بسلم؟

حديث أن النبي ﷺ عرج به إلىٰ السماء بوكري طائر ، جلس في أحدهما وجلس جبريل عليه السلام في الآخر رواه البزار في مسنده بسند ضعيف .

وقال ابن كثير: «والمقصود أنه ﷺ لما فرغ من أمر بيت المقدس نصب له المعراج وهو السلم فصعد فيه إلىٰ السماء ، ولم يكن الصعود علىٰ البراق كما قد يتوهمه بعض الناس ؛ بل كان البراق مربوطًا علىٰ باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلىٰ مكة ، فصعد من سماء إلىٰ سماء في المعراج حتىٰ جاوز السابعة» .

وقد حقق المسألة ابن كثير في تفسير سورة الإسراء بعدما ساق مجموع الأحاديث فيه : «فلما انتهىٰ إلىٰ باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلىٰ في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتىٰ المعراج -وهو كالسلم ذو درج يرقىٰ فيها- فصعد فيه إلىٰ السماء الدنيا، ثم إلىٰ بقية السماوات السبع» .

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) : ك : صلاة المسافرين ، باب : جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض .

وتبقى هنا مسألة تحتاج إلى بيان...

لماذا حدثهم رسول الله ﷺ عن الإسراء ولم يحدثهم عن المعراج؟

والجواب عن ذلك من وجوه :

أولها : لإمكانه إقامة الدليل علىٰ ذهابه لبيت المقدس ؛ بوصف البيت لهم ، وإخباره عن العير التي كانت في الطريق ، فظهر لهم صدقه ؛ وكان صدقه في هذا علامة علىٰ صدقه فيما غاب عنهم .

ثانيًا : أن الإسلام لا يشوش علىٰ العقول ، وكان النبي ﷺ يحدث الناس علىٰ قدر عقولهم ، ولذلك خشي ورعب من إبلاغهم بهذه المعجزة ، شفقة منه عليهم ؛ لأن تكذيبهم إياه كفر زائد إلىٰ كفرهم ؛ وإنما كان يرجو إسلامهم ، لكنه أيضًا مطالب بالبلاغ المبين ، والنذارة ، وأن يبلغ دين الله كاملاً كما هو ، فليس له أن يتقدم أو يتأخر عن أمر الله له .

ثالثًا : لما كانوا كافرين به فلم يؤمنوا بعالم الغيب ، فلماذا يحدثهم عنه؟ وكان حالهم الاستهزاء بالآخرة وإنكارها ، وإنكار الجزاء .

ثم خاتمة هذه الأسئلة هو السؤال الخطير.

مرة أخرىٰ ، هل رأىٰ محمد ﷺ ربه؟

حكىٰ الدارمي في كتاب (الرؤية) له إجماع الصحابة علىٰ أن النبي ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج ، وبعضهم استثنىٰ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيمن قال ذلك .

وقال النبي ﷺ : «رَأَيْت نُورًا» ، وفي رواية : «نُورٌ أَنَّىٰ أَرَاهُ» ، وهذا النور هو الذي ذكره ﷺ في حديث مسلم : «حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1] .

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وطائفة أنه رأىٰ ربه ، ونفىٰ ذلك آخرون من الصحابة

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) ، ك : الإيمان ، باب : في قوله ﷺ : «إن الله لا ينام» .

بصائر

① بعد كل محنة منحة ، لقد عانىٰ رسول الله ﷺ ألوانًا كثيرة من المحن لاقاها من قريش ، وكان آخر ما عاناه لدىٰ هجرته إلىٰ الطائف ، ولقد ظهر في دعائه الذي ناجىٰ به ربه بعد أن جلس يستريح في بستان ابني ربيعة ما يتعرض له كل بشر من الشعور بالضعف والحاجة إلىٰ النصير ؛ فجاءت ضيافة الإسراء والمعراج من بعد ذلك تكريمًا من الله تعالىٰ له ، وتجديدًا لعزيمته وثباته ، ثم جاءت دليلًا علىٰ أن هذا الذي يلاقيه ﷺ من قومه ليس بسبب أن الله قد تخلىٰ عنه ، أو أنه قد غضب منه ؛ وإنما هي سنة الله مع محبيه ومحبوبيه ، وهي سنة الله في جميع خلقه لكل من تصدىٰ للدعوة إلىٰ الله في كل عصرٍ وزمن .

② إن في الاقتران الزمني بين إسرائه ﷺ إلىٰ بيت المقدس والعروج به إلىٰ السماوات السبع ؛ حِكَمًا ودلالات وفوائد منها :

❁ مدىٰ ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالىٰ .

❁ وفيه دلالة واضحة أيضًا علىٰ العلاقة الوثيقة بين ما بعث الله به كُلًّا من عيسىٰ بن مريم ومحمد بن عبد الله عليهما السلام ، وعلىٰ ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي ابتعثهم الله عز وجل به .

❁ أهمية المسجد الأقصىٰ لدىٰ المسلمين ؛ إذ أصبح مسرىٰ رسولهم ومعراجه إلىٰ السماوات العلا .

❁ وفيه دلالة علىٰ مدىٰ ما ينبغي أن يوجد لدىٰ المسلمين في كل عصر ووقت ؛ من الحفاظ علىٰ هذه الأرض المقدسة ، وحمايتها من مطامع الدخلاء وأعداء الدين ، وكأنها رسالة لمسلمي هذا العصر ألا يهنوا ولا يجبنوا ولا يتخاذلوا

أمام عدوان اليهود على هذه الأرض المقدسة ، وأن يطهروها من رجسهم ، ويعيدوها إلى أصحابها المؤمنين .

(٣) في اختيار النبي ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل عليه السلام دلالة رمزية على أن الإسلام هو دين الفطرة ، أي الدين الذي ينسجم في عقيدته وأحكامه كلها مع ما تقتضيه نوازع الفطرة الإنسانية الأصيلة ؛ فليس في الإسلام شيء يتعارض مع الطبيعة الأصيلة في الإنسان ولو أن الفطرة كانت جسمًا ذا طول وأبعاد ؛ لكان الدين الإسلامي الثوبَ المفصَّلَ على قَدْرِهِ ، وهذا من أهم أسرار سرعة تقبل الناس له وسَعة انتشاره ؛ إذ الإنسان مهما ترقى في مدارج الحضارة وغمرَتْه السعادة المادية ؛ فإنه يظل نَزَّاعًا إلى استجابة نوازع الفطرة لديه ، والإسلام هو النظام الوحيد الذي يستجيب لأعمق نوازع الفطرة البشرية .

(٤) كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد معًا ، على ذلك اتفق جمهور المسلمين من المتقدمين والمتأخرين ، ولا يعوَّل على من قال بأن الإسراء كان بروحه ، وأنه رؤيا منام ؛ إذ لو كان الإسراء منامًا لما كانت فيه أية معجزة ، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه .

(٥) إن الرسول ﷺ كان مقبلاً على مرحلةٍ جديدة ، مرحلة الهجرة ، والانطلاق لبناء الدولة ، يريد الله تعالى للَبِناتِ الأولى في البناء أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة ؛ فكان هذا التمحيص والاختبار ؛ ليخْلُصَ الصفُّ من الضعاف المترددين ، والذين في قلوبهم مرض ، ويَثْبُتَ المؤمنون الأقوياء .

(٦) إن شجاعة النبي ﷺ العالية تتجسد في مواجهته للمشركين بأمر تنكره عقولهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقي نكيرهم واستهزائهم ؛ فضرب بذلك لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام الباطل ، وإن تحزبوا ضد الحق ، وجندوا لحربه كل ما في وسعهم .

⑦ يظهر إيمان الصدِّيق القوي العميق في هذا الحدث الجلل ، وفضله العظيم وسبقه في الإسلام ، فعندما أخبره الكفار قال ﷺ بلسان الواثق : لئن كان قال ذلك لقد صدق ، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه في خبر السماء ؛ وبهذا استحق لقب الصديق .

⑧ إذا كان الرسول ﷺ قد استوعب الظاهرة القرشية واستعد لها ، فعليه أن يحلل الظاهرة اليهودية ويستعد لها ؛ فاليهود ليسوا مجرد أمة تاريخية كعاد وثمود ، تورد أخبارها للإرشاد والاعتبار ؛ وإنما هم أمة لها حضور كثيف في الواقع العربي الذي يعيش فيه رسول الله ﷺ ، ويتحرك فيه لإقامة دولة الإسلام ، فقد كانوا يشكلون فوق مكانتهم الاقتصادية مركز سلطة فكرية ؛ لما لهم من أحبار وأخبار ، وكتب تراث نبوي ، تؤهلهم لتحديد مواصفات النبوة ، وطلب المعجزات ، ووضع الشروط لصدق الرسل وصحة الرسالات ، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام ؛ فإن اليهود قد كانوا يستخدمون التوراة لمحاربة القرآن ، وإذا كان محمد ﷺ يتوقع معركة مع قريش ، فعليه أن يتوقع معارك مع اليهود .

لذا كان لقاء رسول الله ﷺ مع موسى عليه السلام حافلاً ومتكررًا ، ما بين سلام ، إلى نصائح ، إلى بث الخبرة ، مع رؤيته ﷺ لموسى عليه السلام وهو يصلي في قبره ، كل ذلكم ليتعرف رسول الله ﷺ على نبي اليهود ويستفيد من خبرته ؛ ليتعامل معهم بعد ذلك عن واقع ، ولذلك امتلأ القرآن بذكرهم والإخبار عن أحوالهم مع أنبيائهم .

ثم........

تعال معي -أخي الحبيب- لننتقل مع السيرة النبوية نقلة جديدة...

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

كان رسول الله ﷺ منذ أن جهر بالدعوة بعد ثلاث سنين من البعثة يرتاد المواسم وأسواق العرب، ويدعو الناس للإيمان بالله: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا**»[(١)]، ويدعوهم إلىٰ نبذ الأصنام والأوثان، أما في موسم هذا العام -السنة العاشرة للبعثة- فقد اختلفت الصيغة عن ذي قبل.

عرض رسول الله ﷺ نفسه علىٰ القبائل أيام الموسم ودعاهم إلىٰ الإسلام، وهم: بنو عامر، وغَسَّان، وبنو فَزَارة، وبنو مُرَّة، وبنو حنيفة، وبنو سُلَيْم، وبنو عَبْس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو الحَيْسر أنس بن أبي رافع، ويقال: إنه ﷺ أتىٰ كِندة فدعاهم إلىٰ الإسلام، ثم أتىٰ كلبًا، ثم بني حنيفة، ثم بني عامر، وجعل يقول: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ**»[(٢)]، وعمه أبو لهب وراءه يقول للناس: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ.

عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدِّيلِيِّ -وَكَانَ جَاهِلِيًّا أَسْلَمَ- قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَصَرَ عَيْنِي بِسُوقِ ذِي الْمَجَازِ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا**»، وَيَدْخُلُ فِي فِجَاجِهَا (مسالكها وطرقها) وَالنَّاسُ مُتَقَصِّفُونَ عَلَيْهِ (مجتمعون)، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَقُولُ شَيْئًا، وَهُوَ لَا يَسْكُتُ يَقُولُ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا**»، إِلَّا أَنَّ وَرَاءَهُ رَجُلًا أَحْوَلَ وَضِيءَ الْوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٦٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣٦)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠١)، باب: فيما أنكرت الجهمية، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله عند ثلاثتهم.

وَهُوَ يَذْكُرُ النُّبُوَّةَ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا الَّذِي يُكَذِّبُهُ؟ قَالُوا : عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[(١)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَىٰ النَّاسِ فِي الْمَوْسِمِ فَيَقُولُ : «أَلا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ : «مِمَّنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ الرَّجُلُ : مِنْ هَمْدَانَ ، قَالَ : فَهَلْ عِنْدَ قَوْمِكَ مِنْ مَنَعَةٍ؟ قَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَشِيَ أَنْ يَخْفِرَهُ قَوْمُهُ فَأَتَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : آتِيهِمْ فَأُخْبِرُهُمْ ، ثُمَّ آتِيكَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ ، قَالَ : نَعَمْ ، فَانْطَلَقَ ، وَجَاءَ وَفْدُ الأَنْصَارِ فِي رَجَبٍ[(٢)].

إنها دعوة صريحة بطلب الحماية من القبائل العربية ؛ لتبليغ دعوة الله عَزَّوَجَلَّ ، ويفهم من هذه الدعوة أنه ليس من الضروري أن تُسْلِمَ القبيلة كُلُّهَا ؛ إنما المطلوب هو أن تؤمِّن الحماية اللازمة له لتبليغ دعوة الله عَزَّوَجَلَّ ، كما أن الذين هيأوا له الحماية من قبل لم يكونوا مؤمنين جميعًا ؛ بل كان أبو طالب علىٰ رأسهم ولم يدخل في دين الإسلام .

والقبائل التي عَرَضَ عليها رسول الله ﷺ الإسلام وطلب منها النُّصْرة في العام الحادي عشر وبعده هم : بنو عامر ، وشيبان بن ثعلبة ، وبنو كلب ، وبنو حنيفة ، وبنو كندة ، أما بنو حنيفة فأتاهم في منازلهم فدعاهم إلىٰ الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًا منهم ، وهم قوم مسيلمة الكذاب -الذي ادعىٰ النبوة فيما بعد- .

وأما بنو كلب فقد أتىٰ رسول الله ﷺ بطنًا منهم وقال لهم : «يَا بَنِي عَبْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ»[(٣)]، ودعاهم إلىٰ الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فلم يقبلوا منه ما عَرض عليهم ، وأما بنو كندة فلم يقبلوا منه كذلك .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٩٢) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٩٠) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٦٩٢) من مراسيل الزهري .

ثم إنه أتىٰ بني عامر بن صَعْصَعَة ، فدعاهم إلىٰ الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال بَيْحَرَةُ بنُ فِرَاس - رجلٌ منهم -: والله ، لو إني أخذت هذا الفتىٰ من قريش لأَكَلْتُ به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك علىٰ أمرك ، ثم أظهرك الله علىٰ من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال : «الأَمْرُ إِلَىٰ اللهِ ، يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ، فقال له : أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ؛ فأبوا عليه .

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلىٰ شيخ لهم لم يواف الموسم لكبر سنه ، وقالوا له : جاءنا فتىً من قريش من بني عبد المطلب يزعم أنه نبي ، يدعونا إلىٰ أن نَمنعه ونقوم معه ، ونخرج به إلىٰ بلادنا ، فوضع الشيخ يديه علىٰ رأسه ثم قال : يا بني عامر ، وهل لها من تَلَافٍ (تدارك) ؟ هل لذُنَابَاها من مَطْلَب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تَقَوَّلَها إسماعيلي قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟![1]

وهكذا ندم بنو صعصعة علىٰ أن فاتهم هذا الشرف ولم ينالوا هذا الفضل ، وما لها من مطلب بعد ذلك . .

وكان اللقاء الثاني مع بني شيبان ، قال علي ﷺ: ثم دفعنا إلىٰ مجلس آخر عليهم السكينة والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلَّم ، قال علي : وكان أبو بكر في كل خير مقدَّمًا ، فقال : ممن القوم؟ فقالوا : من شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلىٰ النبي ﷺ وقال : بأبي أنت وأمي ، هؤلاء غُرَرٌ في قومهم ، وفيهم مَفْروقُ بن عامر ، وهانئ بن قَبِيصَةَ ، ومُثَنَّىٰ بن حارثة ، والنعمان بن شَرِيكٍ ، ومَفْروقٌ قد غلبهم جَمَالاً ولِسَانًا ، وكان له غديرتان (ضفيرتان) تسقطان علىٰ تَرِيبَتِه (صدره) ، فكان أدنىٰ القوم مجلسًا من أبي بكر ﷺ، فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم؟ فقال له مفروق : إنا لنزيد على الألف ولن تُغْلَبَ الألْفُ من قِلَّةٍ .

---

(١) السيرة الحلبية (٢/ ١٥٤).

فقال أبو بكر: كيف المَنَعَةُ فيكم؟ فقال مفروق: علينا الجَهْد ولكل قوم جِدٌ، فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقىٰ، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد علىٰ الأولاد، والسلاح علىٰ اللقَاح (الحلوب من الإبل)، والنصر من عند الله يُدِيلُنا (ينصرنا) مرة ويُدِيلُ علينا أخرىٰ، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: أوَ قد بلغكم أنه رسول الله؟ فها هو ذا، فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك فإلام تدعو يا أخا قريش؟

فتقدم النبي ﷺ فقال: «أدْعُو إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، وَإِلَىٰ أَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ وَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَاللهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

فقال مفروق: إلام تدعو أيضًا يا أخا العرب؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال مفروق: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفِكَ قومٌ كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أراد أن يشرك في الكلام هانئ بن قَبِيصَةَ فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال هانئ: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، وإني أرىٰ أنَّ تَرْكَنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر؛ لوهنٌ في الرأي

وقلةُ نظرٍ في العاقبة ؛ وإنما تكون الزَلَّة مع العجلة وَمِنْ ورائنا قوم نكره أن نعقد عليهم عقدًا ؛ ولكن نرجع وتَرجع وننظر وتنظر ، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنىٰ بن حارثة فقال : وهذا المثنىٰ بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا .

فقال المثنىٰ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة : في تركنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس إلينا ليس له أول ولا آخر ، وإنا إنما نزلنا بين صريان (الماء المجتمع) اليمامة والسَّماوة ، فقال رسول الله ﷺ : «مَا هَذَانِ الصِّرْيَانِ ؟» فقال : أنهار كسرىٰ ومياه العرب ، فأما ما كان من أنهار كسرىٰ فذنبٌ صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول ، وأما ما كان من مياه العرب فذنبٌ صاحبه مغفور وعذره مقبول ، وإنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرىٰ ألا نُحدِثَ حَدَثًا ولا نؤوي مُحْدِثًا ، وإني أرى أن هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هو مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فَعَلْنَا .

فقال رسول الله ﷺ : «مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ دِينَ اللهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّىٰ يُورِثَكُمُ اللهُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ ؛ أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ ؟» فقال النعمان بن شريك : اللَّهُمَّ لك ذا ، فتلا رسول الله ﷺ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] .

ثم نهض النبي ﷺ فأخذ بيد أبي بكرٍ فقال : «يَا أَبَا بَكْرٍ ، يَا أَبَا حَسَنٍ ، أَيَّةُ أَخْلَاقٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَشْرَفَهَا ! بِهَا يَدْفَعُ اللهُ بَأْسَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَبِهَا يَتَحَاجَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ» ، قال : ثم دفعنا إلىٰ مجلس الأوس والخزرج ، فما نهضنا حتىٰ بايعوا النبي ﷺ ، وكانوا صُدُقًا صُبُرًا[1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ١٦٧) .

تحليل الأحداث:

إن من نعمة الله علينا أن نجد بين أيدينا نصوصًا عن أحلاف لم تتم ؛ لأنها تكون هادية لنا على الطريق ، نتعرف من خلالها على ما يحل لنا وما لا يحل وكيف ندعو إلى الله ، وما هي نفسيات الناس وردود أفعالهم عند تقبل الجديد ، وكيف يضع الله الشيء في موضعه بعلمه وحكمته ، وأيضًا نتعلم أن نسعى ونبحث ونُنْزِل الناس منازلهم ، ونعرف أيضًا كيف كانت أصول أخلاق العرب .

أما المحادثة الأولى مع بني عامر بن صعصعة ؛ فقد تعثرت لسببٍ واحد : هو أن رسول الله ﷺ لم يعدْهم بأن يكون لهم الحكم من بعده ، وهي التي جعلتهم يرفضون إيواءه ونصره ، كما قال زعيمهم بَيْحَرة بن فِراس : أَفَتُهْدَفُ نحورُنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، وبذلك خط لنا رسول الله ﷺ خطًا : أنه مهما كانت حالة الضعف لدى الدعوة الإسلامية فلا يحق لها أن تفاوض على إقرار غير المسلمين على باطلهم ، والاعتراف لهم بحق الحكم بغير شريعة الله ؛ فالأمر ليس مُلكًا يُوَرَّث ؛ إنما هو شريعة تسود .

ونستفيد من كل هذا أن كل من يبذل للدعوة يريد المقابل ، وشهوة التصدر مركوزة في النفس الإنسانية ، وإنما يتخلص منها ويتجرد المخلصون الصادقون ، فلا ينبغي أن تدفع الدعوة ثمن هذه الشهوة .

ولابد من التفريق بين الأمر الواقع وبين إقرار المسلمين به وموافقتهم عليه ، وأن يكون باسم الإسلام بعد ذلك ، وليست القضية هي حكم أشخاص بذواتهم وأعيانهم في الإسلام ؛ إنما هي حكم من ينفذون شريعة الله ، وعندما يدخل الناس في دين الله ، ويحقق الله تعالى موعوده بالنصر فلا يحق لفئة أيًا كانت أن تتسلط على المسلمين وتفرض نفسها عليهم ، بحكم أنها كانت تناصر هذه الدعوة وتساندها ، وكثيرًا ما تواجه الدعوة إلى الله أثناء مسارها الطويل بفريق أو فئة أو دعوة تساندها وتحالفها لفترة مؤقتة ، وتشترط عليها شروطًا

أو تضع أهدافًا ، وهذا مرفوض ؛ لأن الإجابة واضحة من رسول الله ﷺ : «الأَمْرُ إِلَىٰ اللهِ ، يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» .

يمكن للمسلمين أن يقبلوا حماية من مشرك في حالة ضعفهم وعدم تمكنهم ؛ لكن أن يُعطىٰ هذا العدو الحق في أن يشترط ويحكم من ورائها ، ويستغلها مطية لمآربه ؛ فهذا مرفوض شرعًا .

وماذا نجد في المحادثات الثانية مع بني شيبان بن ثعلبة؟

لقد ابتدأ أبو بكر ﷺ في المفاوضات بعد أن عرف أنه مع زعماء بني شيبان ، لقد سأل عن العدد ، وسأل عن المنعة ، وسأل عن الحرب ، وتوسم الصدق في الجواب من القوم ، فكان العدد يزيد عن الألف ، وكانت الحَمية متوفرة ، والاستعداد للقتال قائمًا ، كما قال مفروق : إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقىٰ ، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد علىٰ الأولاد ، والسلاح علىٰ اللقاح .

فإذا كان رسول الله ﷺ يريد المَنَعَةَ ، فهاهنا مكانها ، وقريش لا تزيد عن الألف لو تبنت منعة رسول الله ﷺ ، فقد أوعبت (حشدت) ألفًا في بدر ؛ ولكن المفاوضات ابتدأت في حلقة جديدة .

فلقد كان مفروق من الذكاء واللباقة ما جعله يكتشف من خلال الأسئلة أن السائل رسول الله ﷺ ، وهو أخو قريش وصاحب مكة ، وكان من العقل والحِنكة بحيث يتجاهل كل الأراجيف عن رسول الله ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن ، وتوجه لرسول الله ﷺ يسأله عن دعوته ودينه .

ونتعلم من إجابات رسول الله ﷺ لمفروق فنَّ الدعوة للعدو –إذا صح التعبير– ، فكان لابد من المعالم الأولىٰ للدعوة : «أَدْعُو إِلَىٰ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ» ، وهي مفرق الطريق بين الإسلام والكفر ، وهي التي حاربتها قريش عشر سنوات ، ورفضت أن تقولها .

ولم يكتف رسول الله ﷺ بذلك ؛ بل حدد هدف اللقاء ، وهدف الأسئلة السابقة التي تقدم بها أبو بكر رضي الله عنه: «وَإِلَىٰ أَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي» .

ولا شك أنه سيُحاك في الذهن مباشرة أسئلةٌ كثيرة عن سبب اللجوء إليهم دون أن يمتنع بقومه قريش ، فقال ﷺ متابعًا : «فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ وَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ ، وَاسْتَغْنَتْ بِالبَاطِلِ عَنِ الحَقِّ ، وَاللهُ الغَنِيُّ الحَمِيدُ» .

ولا شك أن مفروقًا قد انشرح صدره لهذا الحديث ، فأحب أن يتعرف علىٰ معالم أخرىٰ لهذا الدين الجديد ، فكرر السؤال : وإلام تدعو يا أخا قريش؟ واختار رسول الله ﷺ الحديث عن عزة القيم والأخلاق التي تفتخر بها العرب ، ولو كانت تخالفها في كثير من الأحيان : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

إن الجو – وإن كان جو محادثات ومباحثات وعروض – لكن الدعوة إلىٰ الله هي الأصل ، وكَسْبُ القومِ إلىٰ الإسلام أكبرُ بكثير من حمايتهم للنبي ﷺ وهم لا يؤمنون برسالته ، ولَعل مفروقًا حرص أكثر علىٰ إيضاح هذه الدعوة ، وراعه بيانها وفكرها فاستزاد قائلاً : وإلام تدعو يا أخا قريش ؟

واختار رسول الله ﷺ الآية الجامعة الفذة المانعة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

إن قمة القيم الأخلاقية في الإسلام قد عرضت في هذه المفاوضات ، وما تمالك مفروق أن قال : دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أَفِكَ قومٌ كذبوك وظاهروا عليك .

فلقد صدَّق مفروق مقالة رسول الله ﷺ؛ لكنه لا يستطيع أن يقطع في هذا الأمر، فأحال الأمر إلىٰ شيخهم وصاحب دينهم هانئ بن قبيصة، ولعل هانئًا لم يجرؤ علىٰ اتخاذ خطوة حاسمة في أمر الإسلام، أو أنه كان مقتنعًا بدين الجاهلية أكثر من غيره، فتفلت من الأمر وأجَّله وسوَّف فيه، وتذرع بالحكمة دون العجلة، وبذلك انتهت الخطوة الأولىٰ دون طائل.

وآلم مفروقٌ هذا الموقف، وأحال هانئ الكلامَ علىٰ المثنىٰ شيخهم وصاحب حربهم، ولا شك أن المثنىٰ من ظاهر حديثه يبدو أنه قد تأثر بموقف النبي ﷺ، وحاول أن يقطع فيما هو من اختصاصه، وقدم الصورة كاملة في مجال الحماية، وخص الموقف بقوله: فإن أحببت أن نؤويك وننصرك فيما يلي مياه العرب فعلنا، وذلك بعد أن أشار إلىٰ أن هذه الدعوة والرسالة مما يكرهها الملوك.

وهذا يدل علىٰ حكمته وحنكته وفهمه لطبيعة العرب والملوك، وأيضًا صدقه وصراحته في توضيح موقفهم.

وكان جواب رسول الله ﷺ في منتهىٰ الحكمة والحصافة وبمنتهىٰ الوضوح كذلك: «**مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ اللهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ**»، وبذلك انتهت المفاوضات دون تحالف؛ لأن بني شيبان قدموا الحماية حسب إمكاناتهم عن العرب فقط، أما كسرىٰ فلا؛ فلقد عاهدوه ألا يُحْدِثُوا حَدَثًا أو يُؤْوُوا مُحْدِثًا، ولعل كسرىٰ يغضب أشد الغضب لو علم بذلك؛ فهو أمر تكرهه الملوك.

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرىٰ لو أراد القبض علىٰ رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرىٰ لو أراد مهاجمة رسول الله ﷺ وأتباعه؛ وبذلك فشلت المباحثات.

وهنا كان الجواب الرائع الصادق الحاسم من رسول الله ﷺ، أثنىٰ عليهم

ثناءًا حصيفًا صادقًا : «مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ» .

ثم عَقَّبَ علىٰ ذلك بقاعدة مهمة في بناء أمة الإسلام : «إِنَّ دِينَ اللهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ» .

يالها من جملة !!
ليت المسلمين اليوم يفهمونها ويعونها
ويعملون بها في خاصة أنفسهم قبل اشتراطها علىٰ الآخرين !!

إن إحاطة المسلمين بدين الله من جميع جوانبه علمًا وعملاً ، فهمًا ودعوة ، حفظًا وصيانة ، جهدًا وجهادًا ، شرطٌ لنصر دين الله والقيام بحق هذه النصرة .

إنني أدعو وبصدق أن يجعل كلُّ مسلم هذه الجملة نصب عينيه ، ويرىٰ كم فَرَّطَ وكم ضَيَّعَ وكم نسي أو تناسىٰ من دين الإسلام !! ليحاول الإحاطة بالدين من جميع جوانبه ؛ ليكون من حملة دين الإسلام ، ومن أنصار الله .

ثم أحب رسول الله ﷺ أن يغزو قلوب بني شيبان ؛ بأن حدثهم عن موعود الله بنصره ، وأنهم ورَّاث الأرض من دون المشركين إن هم آمنوا بالله وسبحوه ، وهذا الهدف الوحيد البعيد الذي تحقق ليبقىٰ طريقًا مفتوحًا للقاءات القادمة : «أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلاً حَتَّىٰ يُورِثُكُمُ اللهُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفْرِشُكُمْ نِسَاءَهُمْ ؛ أَتُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَهُ ؟» ، فقال النعمان ابن شريك : اللهم لك ذا .

وهنا نستخلص الفائدة الأخيرة -ولعلها الأهم في هذه الفقرة- أنه عندما يكون الأصل في الدعوة أو الفكر أو العمل لدين الله ﷻ هو النجاح أو تحقيق فوزٍ علىٰ العدو أو التمكين حتىٰ ، أو بتعبير أدق : عندما يكون الميزان هو أنَّ الغاية تبرر الواسطة أو الوسيلة ، فإن الوقوف عند هذه الجزئيات يُعَدُّ خَطَلاً وخطأً كبيرًا ، أما عندما يكون الهدف هو انتصار الدعوة والعقيدة فالتخلي عن جزئية واحدة منها هو تخلٍّ عنها كلِّها .

المؤمنون من غير أهل مكة.

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود، عرضه كذلك على الأفراد والأشخاص، وحصل من بعضهم على ردودٍ صالحة، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل، وهاك نُبذةً عنهم:

١ سُوَيد بن الصامت.

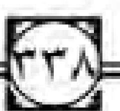
كان شاعرًا لبيبًا، من سكان يثرب، يسميه قومه «الكامل» لِجَلَدِهِ وَشِعْرِهِ وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًا أو معتمرًا، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: «وَمَا الَّذِي مَعَكَ؟» قال: حكمة لقمان، قال: «اعْرِضْهَا عَلَيَّ»، فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: «إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ حَسَنٌ، وَالَّذِي مَعِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؛ قُرْآنٌ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيَّ، هُوَ هُدًىٰ وَنُورٌ»[1]، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن، ثم قدم المدينة ولم يلبث أن قُتل، والأغلب أنه أسلم في أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة.

٢ إياس بن معاذ.

كان غلامًا حدثًا من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس، جاءوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بُعَاثٍ في أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة؛ إذ كانت نيرانُ العداوة مُتَّقِدَةً في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج -، فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم، فجلس إليهم، وقال لهم: «هَلْ لَكُمْ فِي خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمْ لَهُ؟» فقالوا: وما ذاك؟ قال: «أَنَا رَسُولُ اللهِ، بَعَثَنِي إِلَى العِبَادِ، أَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٤)، ودلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٩٢) كلاهما من طريق ابن إسحاق.



وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الكِتَابَ » ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال إياس بن معاذ : أيْ قوم ، هذا والله خيرٌ مما جئتم له ، فأخذ أبو الحَيْسَر أنس بن رافع – رجل من الوفد – حفنة من تراب البطحاء فرمىٰ بها وجه إياس ، وقال : دعنا فلعَمْري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلىٰ المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش ، وبعد رجوعهم إلىٰ يثرب لم يلبث إياس أن مات ، وكان يهلل ويكبر ويحمد ويسبح عند موته ، فلا يشكون أنه مات مسلمًا[1] .

٢ أبو ذر الغفاري

كان أبو ذر من سكان نواحي يثرب ، واسمُ أبي ذر : جُنْدُب بن جُنَادة ﷺ ، ولعله لما بلغ إلىٰ يثرب خبرُ مبعث النبي ﷺ بسويد بن الصامت وإياس بن معاذ ، وقع في أذن أبي ذر أيضًا ، وصار سببًا لإسلامه .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ : كُنْتُ رَجُلًا مِنْ غِفَارٍ ، فَبَلَغَنَا أَنَّ رَجُلًا قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَقُلْتُ لِأَخِي : انْطَلِقْ إِلَىٰ هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمْهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ ، فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ ، فَقُلْتُ : مَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ : وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَىٰ عَنِ الشَّرِّ ، فَقُلْتُ لَهُ : لَمْ تَشْفِنِي مِنَ الْخَبَرِ ، فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصًا ، ثُمَّ أَقْبَلْتُ إِلَىٰ مَكَّةَ ، فَجَعَلْتُ لَا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ ، وَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ ، قَالَ : فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ ، فَقَالَ : كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَانْطَلِقْ إِلَىٰ الْمَنْزِلِ ، قَالَ : فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ ، لَا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلَا أُخْبِرُهُ ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ لِأَسْأَلَ عَنْهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيْءٍ ، قَالَ : فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ : أَمَا نَالَ (آن) لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنْزِلَهُ بَعْدُ؟ قَالَ : قُلْتُ : لَا ، قَالَ : انْطَلِقْ مَعِي .

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٩٤) .

قَالَ : فَقَالَ : مَا أَمْرُكَ ؟ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ ؟ قَالَ : قُلْتُ لَهُ : إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ ، قَالَ : فَإِنِّي أَفْعَلُ ، قَالَ : قُلْتُ لَهُ : بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنَ الْخَبَرِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ ، هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ ، فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ ؛ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إِلَى الْحَائِطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نَعْلِي ، وَامْضِ أَنْتَ ، فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ ، حَتَّى دَخَلَ وَدَخَلْتُ مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ : اعْرِضْ عَلَيَّ الإِسْلَامَ ، فَعَرَضَهُ ؛ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي .

فَقَالَ لِي : «يَا أَبَا ذَرٍّ ، اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ ، وَارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ ، فَإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ» ، فَقُلْتُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ، فَجَاءَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالُوا : قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ ، فَقَامُوا فَضُرِبْتُ لِأَمُوتَ ، فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ : وَيْلَكُمْ تَقْتُلُونَ رَجُلًا مِنْ غِفَارَ ، وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارَ ؛ فَأَقْلَعُوا عَنِّي .

فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ مِثْلَ مَا قُلْتُ بِالأَمْسِ ، فَقَالُوا : قُومُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ ، فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ ، وَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيَّ ، وَقَالَ مِثْلَ مَقَالَتِهِ بِالأَمْسِ[1] .

٢ الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوسي :

كان رجلاً شريفًا ، شاعرًا لبيبًا ، رئيس قبيلة دَوْس ، وكانت لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن ، قدم مكة في العام الحادي عشر من النبوة ، فاستقبله المشركون من أهل مكة قبل وصوله إليها ، وبذلوا له أجلَّ تحية وأكرم تقدير .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٨) ، ك : المناقب ، باب : قصة إسلام أبي ذر .

وقالوا له : يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أَعْضَلَ بنا (اشتد أمره) ، وقد فرق جماعتنا ، وشَتَّتَ أمرنا ، وإنما قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه ، وإنا نخشىٰ عليك وعلىٰ قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمعنَّ منه شيئًا .

يقول طفيل : فوالله ما زالوا بي حتىٰ أجمعت ألا أسمع منه شيئًا ، ولا أكلمه ، حتىٰ حشوت أذني حين غدوت إلىٰ المسجد كُرْسُفًا (قُطْنًا) ؛ فَرَقًا (خوفًا) من أن يبلغني شيء من قوله .

قال : فغدوت إلىٰ المسجد فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت قريبًا منه ، فأبىٰ الله إلا أن يُسْمِعَني بعض قوله ، فسمعت كلامًا حسنًا ، فقلت في نفسي : واثُكْلَ أمي ، والله إني رجلٌ لبيب شاعر ؛ ما يخفىٰ عليَّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسنًا قبلته ، وإن كان قبيحًا تركته ، فمكثت حتىٰ انصرف إلىٰ بيته فاتبعته ، حتىٰ إذا دخل بيته دخلت عليه ، فعرضت عليه قصة مقدمي ، وتخويف الناس إياي ، وسد الأذن بالكُرْسُف ، ثم سماع بعض كلامه ، وقلت له : اعرض عليَّ أمرك ، فعرض عليَّ الإسلام ، وتلا عليَّ القرآن ، فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمرًا أعدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت له : إني مطاع في قومي ، وراجع إليهم ، وداعيهم إلىٰ الإسلام ، فادع الله أن يجعل لي آية ، فدعا .

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نورًا في وجهه مثل المصباح ، فقال : اللَّهُمَّ فِي غَيْرِ وَجْهِي ، أخشىٰ أن يقولوا : هذه مُثْلَةٌ ، فتحول النور إلىٰ سَوْطِه (عصاه) ، فدعا أباه وزوجته إلىٰ الإسلام فأسلما ، وأبطأ عليه قومه في الإسلام ، لكن لم يزل بهم حتىٰ هاجر بعد الخندق ، ومعه سبعون أو ثمانون بيتًا من قومه ، وقد أبلىٰ في الإسلام بلاءً حسنًا ، وقُتل شهيدًا يوم اليمامة .

⑤ ضِمَاد الأزدي:

كان من أَزْدِ شَنُوءة من اليمن ، وكانَ يَرقي من هذا الريح ، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون : إن محمدًا مجنون ، فقال : لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه علىٰ يدي ، فلقيه ، فقال : يا محمد ، إني أرقي من هذا الريح ، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ : «**إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَمَّا بَعْدُ**» .

فقال : أعد عليّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال : لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء ؛ فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بلغن قاموس البحر ، هات يدك أبايعك علىٰ الإسلام ؛ فبايعه ، وفي رواية : ناعوس البحر ، أي : وسطه وأعمقه[1].

وهكذا مضت الدعوة إلىٰ الله ﷻ بين مد وجزر في دعوة القبائل والأمم والأفراد ، منهم من يقبل ويتابع وينصر الله به الدين ، ومنهم من يرفض ويأبىٰ ولا يرفع بهدي الله رأسًا .

ولكن الدعوة ماضية تتوغل في الآفاق
كما يتسرب نور الصبح من السماء إلىٰ الأرض ،
فيمحو ظلام الليل ، ويملأ الدنيا ضياءً .

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٨) ، ك : الجمعة ، باب : تخفيف الصلاة والخطبة .

مكة.. ويثرب..

وبعد...

فقد عاشت مكة في بَحْبُوحَةٍ من الحياة أمدًا طويلاً ، آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، وترجع هذه السعة إلىٰ عاملين :

- مهارة أهلها التجارية .
- ومكانة الحرم الدينية .

كلا الأمرين أدرَّ عليها أخلاف الخير ، فَأَثْرَتْ حتىٰ بَطِرَتْ ، وشبعت حتىٰ أُتْخِمَتْ ، ثم عراها ما يعرو كل جماعة تواتيها الحظوظ ويصبغها الترف ، من : تكبر ، وقسوة ، وجحود ، فلما ظهر فيها الإسلام ، ودعا محمد ﷺ إلىٰ الحق ، ردت يده في فمه ، وأحدقت به وبمن معه ، وملكها العناد من أول يوم ، وأعلنت أن مركزها عاصمة للوثنية ، ومجمعًا للأصنام ، ومثابة للحجيج ، سيزول إن هي استمعت إلىٰ هذا الدين ، وأمكنته من البقاء .

وحاول الرسول ﷺ - جاهدًا - أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذي متعوا به ، فأبىٰ الظالمون إلا كفورًا : ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام ، اعتبروها دفاعًا عن كيانهم المادي ووضعهم الاقتصادي ، إلىٰ جانب ما هنالك من عوامل أخرىٰ ، وهذه الحروب معروفة النتائج : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

أما الأمر في «يثرب» فكان علىٰ النقيض ؛ فإن الشحناء المتأصلة بين أهليها استنزفت دماءهم ، وقطعت شملهم ، وشغلت بعضهم بالبعض ، حتىٰ أوصلتهم

الحروب الدائمة إلىٰ دَرْكٍ أسِفَ له العقلاء، وتمنّوا الإنقاذ منه، كان «الأوس» و «الخزرج» -وهم في الأصل قرابة واحدة- يعانون في «يثرب» آثار هذا الخصام العنيف، ويورثونه أبناءهم؛ حتىٰ يَشِبُّوا - وهم في مهادهم - أعداء! والذي وضع جرثومة هذا الشقاق هم اليهود.

أول الغيث قطرة،

حُرم مشركو مكة الخير كله منذ جحدوا الرسالة، وقعدوا بكل صراط يوعدون، ويصدون عن سبيل الله من آمن به، ويبغونها عوجًا.

ولئن نجحت دعايتهم الكاذبة في منع قبائل كثيرة من دخول الإسلام، فإن الحق لابدّ أن يعلو، وأن يثوب إليه المضلَّلون والمخدوعون علىٰ شرط أن يظل أهله أوفياء له، حُرّاصًا عليه، صابرين محتسبين.

وقد قيَّض الله للإسلام من استنقذه من البيئة التي صادرته، فأَنِسَ بعد وحشة، واستوطن بعد غربة، وشق طريقه في الحياة، بعد أن زالت الجلامدُ الصُّلْدَةُ الملقاة في مجراه، وبدأ هذا التحول علىٰ أيدي الوفود القادمة من «يثرب» إلىٰ مكة في موسم الحج..

كان أهل يثرب يمتازون عن سائر العرب بجوارهم لليهود، وَإِلْفِهِمْ عقيدة التوحيد، وربما حاورهم اليهود في شؤون الأديان، ونَعوا عليهم عبادة الأوثان، فإذا اشتد الجدل وطالت اللجاجة قال لهم اليهود: يوشك أن يبعث الله نبيًا فنتبعه؛ ونقتلكم معه قتل عاد وإرم....!!

والغريب أن اليهود كانوا أول من كفر بهذا النبي يوم ظهر فيهم واقترب منهم؛ ولذلك ندّد القرآن بمسلكهم المتناقض: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

أما العرب الأميون الذين هُدِّدوا بمبعثه، فقد فتحوا مسامعهم له!

فعندما وافى الموسم وقدمت قبائل «يثرب» ورأوا الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الله ، قال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم أن هذا الذي تَوَعَّدُكُم به يهود ، فلا يسبِقُنكم إليه ، وأخذ ذكر الإسلام يشيع في المدينة رويدًا رويدًا ؛ وظلت دعوة الإسلام هناك إن لم تُستقبل بترحيب لم تُستقبل بالسباب والحِرَابِ .

إن عناصر النفور والمقاومة التي عهدها الإسلام في مكة تحولت -هنا- إلى عناصر احترام وإقبال ، ولم تمض ثلاثة أعوام على تسامع الأنصار الجدد بالإسلام حتى أصبحوا كَهْفَهُ الحَصِينَ ، ومَوْئِلَهُ القريب .

ففي موسم الحج من السنة الحادية عشرة من النبوة وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة ، سَرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات ، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة لفحات الظلم والعدوان ، حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ .

وكان من حكمته ﷺ إزاء ما كان يلقى من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله ؛ أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل ، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين .

فخرج ﷺ ليلة ومعه أبو بكر وعليٌّ رضي الله عنهما ، فمر على منازل ذُهْل وشيبان ابن ثعلبة ، وكلمهم في الإسلام ، وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة ، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة ؛ غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام كما مر معنا في صفحات سابقة ذلك كله .

ثم مر رسول الله ﷺ بعقبة منى ، فسمع أصواتَ رجالٍ يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم ، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج ، وهم :

❁ أسعد بن زُرَارة (من بني النَّجار) .

❁ وعوف بن الحارث بن رفاعة بن عَفْراء (من بني النجار) .

❁ ورافع بن مالك بن العَجْلان (من بني زُرَيْق).

❁ وقُطْبَة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة).

❁ وعُقْبَة بن عامر بن نابي (من بني حَرَام بن كعب).

❁ وجابر بن عبد الله بن رِئاب (من بني عبيد بن غَنْم).

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قالوا: نفرٌ من الخزرج، قال: «مِنْ مَوَالِي الْيَهُودِ؟» أي حلفائهم، قالوا: نعم، قال: «أَفَلَا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُمْ؟» قالوا: بلىٰ، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلىٰ الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه؛ فأسرَعوا إلىٰ إجابة دعوته، وأسلَموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب وآخرها يوم بعاث الذي مضىٰ وحروب موشكة قريبًا، لا يزال لهيبها مستعرًا، فأمّلوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسىٰ أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلىٰ أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك[1].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٧).

بصائر

(١) عرض الدعوة علىٰ الناس وإبلاغهم بمعالمها هو قضية الداعية وشغله الشاغل، سواء استجاب الناس أم انصرفوا، فما علىٰ الداعية إلا البلاغ، وللقلوب رب يُصَرِّفُهَا كيف يشاء.

(٢) لكل قوم ما يناسبهم من الحوار والكلام، فللقلوب مفاتيح، وأذكىٰ الدعاة من سارع إلىٰ فتح مغاليق القلوب بما يناسبها ويلائمها، ومن ذلك ثناء الداعية علىٰ جانب من جوانب الخير في المدعو: «**يَا بَنِي عَبْدِ اللهِ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيكُمْ**».

(٣) الحرص علىٰ الشرف الدنيوي قد يفقد العبد شرف الآخرة، كما أن الحرص علىٰ شرف الآخرة يكسب العبد العزة والسعادة في الدارين، فاجعل همومك همًّا واحدًا.

(٤) الغاية في الإسلام لا تبرر الوسيلة؛ فلابد أن تكون الوسيلة مشروعة كما أن الغاية مشروعة.

(٥) إن من عباد الله أناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر، هم للحق والهدىٰ يتطلعون، وإذا دُعُوا إليه فيه يعملون، أولئك هم المفلحون الموفقون، فكن مفتاحًا للخير مغلاقًا للشر، وكن للحق جنديًا.

(٦) السعي إلىٰ الناس والدخول عليهم في أسواقهم ومواطن تجمعهم من العمل الدعوي النافع، فليس كل الناس يسعىٰ إلىٰ الخير ولكن:

هناك من يحتاج أن تنتقل الدعوة إليه كما المريض.

هناك مريض يخرج ويمشي ويسعىٰ إلىٰ الطبيب ويتناول العلاج..

وهناك مريض يحتاج لزيارة منزلية وعناية تمريضية خاصة..

ونفع الناس ودعوتهم هدفٌ للداعية أينما كانوا،

وبَذْل وجهه للناس طلبًا لمرضاة الله ونصرة الدين من عزائم الأمور..

بيعة العقبة الأولى

لما رجع هؤلاء الستة نفر الذين أسلموا إلىٰ المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتىٰ لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ.

كان أولئك النفر طليعة الدعاية الموفقة للإسلام في يثرب، وقد أثمرت جهودهم علىٰ عجل، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام، حتىٰ إذا استدار العام، وأقبل موسم الحج، خرج من المدينة اثنا عشر رجلاً من الذين أسلموا -فيهم الستة الذين كلمهم النبي ﷺ في الموسم السابق- وعزموا علىٰ الاجتماع برسول الله ﷺ ليوثقوا معه إسلامهم.

وقد لقيهم النبي ﷺ بالعقبة، وعقد معهم بيعة علىٰ الإيمان بالله وحده، والاستمساك بفضائل الأعمال والبعد عن مناكرها: كان عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ مِنَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَخْبَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: **«تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَىٰ مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ»** قَالَ: فَبَايَعْتُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ[1].

هذا ما كان محمد ﷺ يدعو الناس إليه، وكانت الجاهلية تنكره عليه!!

سبحان الله العظيم!!

أيكره هذه العهود إلا مجرم يحب للناس الريبة ويود للأرض الفساد؟؟

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٦٧٩)، ك: المناقب، باب: وفود الأنصار إلىٰ النبي ﷺ بمكة، ومسلم (١٧٠٩)، ك: الحدود، باب: الحدود كفارات لأهلها.

السفير الأول:

بعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم؛ بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في الإسلام إلى يثرب؛ ليعلِّم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابًا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مُصْعَب ابنُ عُمَيْر العَبْدَرِيّ ﷺ.

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زُرَارة، وأخذا يبثان الإسلام في أهل يثرب بجدٍّ وحماس، وكان مصعب يُعْرَف بالمقرئ، وجعل مصعب يدعو الناس سرًا؛ فيفشو الإسلام ويكثر أهله، وهم في ذلك مستخفين بدعائهم.

وظل مصعب يواجه الصعاب ويتحمل المشاق لنشر الدعوة في هذا المجتمع، وهو بعيد عن مكة، بعيد عن رسول الله ﷺ، ظهره مكشوف للجميع، لا يملك شيئًا، لا أهلًا ولا مالاً ولا سلاحًا، كل ما يملكه رسالةُ ربه، هي زاده وهي سلاحه، يقتحم بها الأهوال، لا يهتم ولا يبالي إن ضُرِبَ أو مات، فهو ما خرج من مكة ليبحث عن حطام الدنيا كفعل كثيرٍ من الناس اليوم، بل كان يبحث عن حطام القلوب والأرواح والنفوس ليجمعها من جديد، وليُسمعها ما يبعث فيها حقيقة الحياة، كان يحمل في قلبه سر الحياة ليسكبها على أسماع القلوب الميتة فتهَلَّل خضرة ونضارة، وتهتز انتعاشًا ويقظة.

تعالوا نعش موقفًا من مواقف المواجهات، وكيف حوَّلها مصعبُ بإيمانه الصادق، وإخلاصه العميق، وفَهمه الدقيق إلى موقف دعوة ينشر فيه من عبير الإيمان ما يحيي القلوبَ ويُسعدها، فلله دَرُّكَ يا مصعب!! أسلم على يده سعد ابن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وأُسيد بن حضير الذي تنزلت الملائكة لتستمع منه القرآن، فأيُّ فضلٍ ذاك الذي حازه وحصله؟! رضي الله عن مصعب.

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير

إن من أروع ما يروىٰ من نجاح مصعب بن عمير في الدعوة أن أسعد ابن زُرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظَفَر، فدخلا في حائط (بستان) من حوائط بني ظفر، وجلسا علىٰ بئر يقال لها: بئر مَرَق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين -وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ علىٰ الشرك- فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلىٰ هذين اللذين قد أتيا ليسفِّها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا؛ فإن أسعد ابن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حربته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أُكَلِّمْهُ، وجاء أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أَوَ تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم رَكَزَ حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن، قال: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتُطَهِّر ثوبك، ثم تَشْهَدُ شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل، وطهر ثوبه وتشهَّد وصلىٰ ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن -سعد بن معاذ- ثم أخذ حربته وانصرف إلىٰ سعد في قومه، وهم جلوس في ناديهم، فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه ؛ -وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك- لِيُخْفِرُوك (لينقضوا عهدك) ، فقام سعد مغضبًا للذي ذكر له ، فأخذ حربته وخرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتمًا ، ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة ، لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مني ، تغشانا في دارنا بما نكره؟

وكان أسعد قد قال لمصعب : جاءك والله سيدٌ مِنْ وَرَائِهِ قَومُهُ ، إن يَتْبَعْكَ لم يتخلف عنك منهم أحد ، فقال مصعب لسعد بن معاذ : أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال : قد أنصفت ، ثم رَكَز حربته فجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قال : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، في إشراقه وتهلّله ، ثم قال : كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا : تغتسل ، وتطهر ثوبك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، ففعل ذلك .

ثم أخذ حربته فأقبل إلىٰ نادي قومه ، فلما رأوه قالوا : نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأيًا ، وأيمننا نقيبة (بَرَكَةُ رئاستك لنا عظيمة) ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتىٰ تؤمنوا بالله ورسوله ، فما أمسىٰ فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلمًا ومسلمة ، إلا رجل واحد - وهو الأُصَيْرِم - تأخر إسلامه إلىٰ يوم أحد ، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتل ، ولم يسجد لله سجدة ، فقال النبي ﷺ : «عَمِلَ قَلِيلاً وَأُجِرَ كَثِيرًا»[1] .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٣) ، ك : الجهاد والسير ، باب : عمل صالح قبل القتال .

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلىٰ الإسلام ، حتىٰ لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ؛ إلا ما كان من دار بني أمية ابن زيد وخَطْمَة ووائل ، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر -وكانوا يطيعونه- ، فوقف بهم عن الإسلام حتىٰ كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة .

ولابد من اقتناص فوائد من هذا الموقف الدعوي الرائع ، لعله يكون نبراسًا للدعاة إلىٰ الله في الحكمة والموعظة الحسنة :

① أن يكون للداعية إدارة دعوية تدله علىٰ مواطن التأثير وأهمية الأشخاص الذين سيكون التزامهم بالمنهج له دور كبير في نصرة الدعوة والتمكين لها في مناطق النفوذ .

② أن علىٰ الداعية أن يعمل في الحدود المتاحة ، وقد سبق معنا في «أصول الوصول إلىٰ الله تعالىٰ» : (لا تعالج المغلق وانشغل بالمتاح) ، فينبغي علىٰ شباب المسلمين ألا يتوقفوا أمام السبل المغلقة في هذه الأيام ، وأن ينطلقوا لنصرة الدين من خلال السبل المتاحة ، وذلك اقتناصًا لها قبل أن تغلق هي الأخرىٰ .

③ حسن الخلق في الداعية ، وحسن تلقي الناس ، والتفنن في طرق خطابهم من أهم أسباب التأثير .

④ كلما كان المدعو صاحب خلق وأصول وإنصاف ؛ كلما كان قبوله للدعوة أسرع وأجدىٰ .

⑤ هناك أشخاص ينبغي التركيز عليهم بالدعوة ؛ لأن التزامهم بالمنهج وتثبيتهم له ووقوفهم بجانبه يمثل نصرًا كبيرًا وسببًا لجذب أمة خلفهم .

نجاح منقطع النظير:

وبذلك نجح مصعب ﷺ أيما نجاح في نشر الإسلام وجمع الناس عليه، واستطاع أن يتخطئ الصعاب التي توجد -دائمًا- في طريق كل نازح غريب، يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألفوها إلىٰ نظام جديد، يشمل الحاضر والمستقبل، ويعم الإيمان والعمل، والخلق والسلوك . . .

كان مصعب من ورائه نبيٌّ مضطهد ورسالة معتبرة ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يُطْمِعُ طُلَّاب الدنيا ونَهَّازِي الفرص، كل ما لديه ثروة من الكياسة والفطنة، قبسها من محمد ﷺ، وإخلاص لله، جعله يضحي بمال أسرته وجاهها في سبيل عقيدته . . ثم هذا القرآن الذي يَتَأَنَّقُ في تلاوته، ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب؛ فإذا بالأفئدة ترق له، وتتفتح للدين الجديد:

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب ابن عمير ﷺ إلىٰ مكة يحمل إلىٰ رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، ويبشره بأن جموعًا غفيرة دخلت في الإسلام عن اقتناع مسَّ شِغافهم، وبصرٍ أنار أفكارهم، وسوف يرىٰ من وفودهم بهذا الموسم ما تقر به العين، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة.

بيعة العقبة الثانية:

إن الرجال الذين اعتنقوا الإسلام عرفوا -دون شك- تاريخه القريب، والصعاب الهائلة التي لقيها، وحَزَّ في نفوسهم أن يُستضعف إخوانهم في مكة، وأن يخرج نبيهم وهو يدعو إلىٰ الله فلا يجيبه إلا آثم أو كفور!

ولذلك تساءلوا -وهم خارجون من المدينة قاصدين البيت العتيق-:

حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟

لقد بلغ الإيمان أَوْجَهُ في هذه القلوب الفتية ، وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية .

وفي موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين من أهل يثرب ، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين .

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشِّعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى ، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل .

ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي الذي حوّل مجرى الأحداث في صراع الوثنية والإسلام ، يقول كعب بن مالك الأنصاري ﷺ: خَرَجْنَا إِلَى الْحَجِّ ، فَوَاعَدْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ الْعَقَبَةَ مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، فَلَمَّا فَرَغْنَا مِنَ الْحَجِّ وَكَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وَعَدْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو ابْنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ ، سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَكُنَّا نَكْتُمُ مَنْ مَعَنَا مِنْ قَوْمِنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمْرَنَا ، فَكَلَّمْنَاهُ وَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا جَابِرٍ ، إِنَّكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا ، وَشَرِيفٌ مِنْ أَشْرَافِنَا ، وَإِنَّا نَرْغَبُ بِكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ أَنْ تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَأَخْبَرْتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَسْلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا الْعَقَبَةَ وَكَانَ نَقِيبًا .

قَالَ : فَنِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَسَلَّلُ مُسْتَخْفِينَ تَسَلُّلَ الْقَطَا (طائر) ، حَتَّى اجْتَمَعْنَا فِي الشِّعْبِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ ، وَنَحْنُ سَبْعُونَ رَجُلًا وَمَعَنَا امْرَأَتَانِ مِنْ نِسَائِهِمْ نُسَيْبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ أُمُّ عُمَارَةَ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَدِيِّ بْنِ ثَابِتٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سَلِمَةَ وَهِيَ أُمُّ مَنِيعٍ .

قَالَ : فَاجْتَمَعْنَا بِالشِّعْبِ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّىٰ جَاءَنَا وَمَعَهُ يَوْمَئِذٍ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ عَلَىٰ دِينِ قَوْمِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ .

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري ، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسئولية التي ستلقىٰ علىٰ كواهلهم نتيجة هذا التحالف ، قال : يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ ، قَالَ : وَكَانَتِ الْعَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ الْخَزْرَجَ أَوْسَهَا وَخَزْرَجَهَا ، إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَوْمِنَا مِمَّنْ هُوَ عَلَىٰ مِثْلِ رَأْيِنَا فِيهِ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَىٰ إِلَّا الانْحِيَازَ إِلَيْكُمْ وَاللُّحُوقَ بِكُم ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ وَمَانِعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ فَأَنْتُمْ وَمَا تَحَمَّلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ فَمِنَ الْآنَ فَدَعُوهُ فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ ، قَالَ : فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ .

وهذا الجواب يدل علىٰ ما كانوا عليه من عزم صميم ، وشجاعة مؤمنة ، وإخلاص كامل في تحمل هذه المسئولية العظيمة ، وتحمل عواقبها الخطيرة .

قَالَ : فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَلَا وَدَعَا إِلَى اللهِ ﷻ وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ ، قال جابر ﷺ: قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، عَلَامَ نُبَايِعُكَ ؟ قَالَ : «تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَعَلَىٰ أَنْ تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَأْخُذُكُمْ فِيهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ، وَعَلَىٰ أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ ، فَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ»(١) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٢٢) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أُزُرَنَا ، فَبَايِعْنَا يَا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ ، وَرِثْنَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ .

قَالَ : فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ ، حَلِيفُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ حِبَالاً وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعْنِي الْعُهُودَ - ، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَىٰ قَوْمِكَ وَتَدَعَنَا؟ قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : «بَلِ الدَّمَ الدَّمَ ، وَالْهَدْمَ الْهَدْمَ ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ»[1] .

انظر إلىٰ ابن التيهان ، يفاوض علىٰ ما بعد النصرة ، لا يفاوض علىٰ ما بعد الانتقال إلىٰ المدينة ، هذا السؤال لا يسأله إلا قلبٌ معمور باليقين أن الله سينصره لأنه يبايع علىٰ النصرة ، والنصرة تنتج نصرة : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

هذا السؤال أشربْهُ قلبك ؛ فهذه المجموعة من الصحابة ليست مجموعة من المغامرين تؤمل نصرًا دنيويًا تحسب له حسابات البشر ، ولكنها مجموعة من المؤمنين تبايع علىٰ أمر قد وعدها الله عليه بالجزاء إن صدقوا فيه ، فهم يعاهدون علىٰ أن ينصروا ومقابل ذلك هم علىٰ يقين أنهم سيُنْصَرون .

ومن هنا يبدو سؤال ، قد يقول قائل : هؤلاء الأنصار لم يلتقوا بالنبي ﷺ ويعاشروه كشأن المهاجرين ، رباهم وغرس في قلوبهم معاني الإسلام العظيمة وكان لهم مِنْ لُقْيا النبي ﷺ زادٌ ، ومع ذلك صاروا بهذا الإيمان كله وهذا اليقين كله وهذه التضحيات كلها ، فمن الذي ربىٰ هذه النفوس هذه التربية ، وما الذي ملأ هذه القلوب هذه المعاني مع أنهم لم يكونوا بين ظهراني النبي ﷺ ، ولم يباشر النبي ﷺ تربيتهم ولا تعليمهم . . فكيف تربت هذه النفوس؟!

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٦٠) ، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

والجواب:

إن الذي رباهم هذه التربية، وصقل نفوسهم هذا الصقل، وملأ قلوبهم بهذه المعاني هو القرآن، والقرآن فقط، كان قد نزل قبل الهجرة نصف القرآن، وكان النبي ﷺ قد أرسل نسختين من المصحف: مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم رضي الله عنهما يقرآن فيهم القرآن، أثّر القرآن في هذه النفوس أثره، فجاءت تبايع النبي ﷺ بهذا اليقين كله.

وبقي هذا اليقين في هذه النفوس يزيد ولا ينقص، يشتعل ولا يخبو.

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعيل الأول ممن أسلموا في مواسم السنتين الحادية عشرة والثانية عشرة من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر؛ ليؤكدا للقوم خطورة المسئولية، حتى لا يبايعوه إلا على جَلِيَّة من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية، ويتأكدا من ذلك.

فقام العباس بن عُبادة بن نَضْلَة الأنصاري رضي الله عنه فقال: «يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس، وإن كنتم ترون أنكم إذا نَهَكَتْ أموالَكُمْ مصيبةٌ، وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإنا والله نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنَّة»، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده.

وعندما مُدَّتِ الأيدي لتَعْقِدَ الصَّفْقَةَ أَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ - وَهُوَ أَصْغَرُ السَّبْعِينَ - فَقَالَ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، إِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ،

وَأَنْ تَعَضَّكُمْ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَىٰ السُّيُوفِ إِذَا مَسَّتْكُمْ ، وَعَلَىٰ قَتْلِ خِيَارِكُمْ ، وَعَلَىٰ مُفَارَقَةِ الْعَرَبِ كَافَّةً ، فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَىٰ اللهِ عز وجل ، وَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً ، فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ عِنْدَ اللهِ .

عقد البيعة .

وبعد إقرار بنود البيعة ، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة ، إن أسعد كان أصغر القوم ، ويعرف قومه ، ويعرف أن كلمته هذه ما كانت لتثنيهم ولكن لتشد عزائمهم ، للاستعداد لهول الطريق من البداية ، فماذا كان جوابهم ؟؟ قَالُوا : يَا أَسْعَدُ بْنَ زُرَارَةَ ، أَمِطْ عَنَّا يَدَكَ ، فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ، قال : فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا ، يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشُرْطَةِ الْعَبَّاسِ ، وَيُعْطِينَا عَلَىٰ ذَلِكَ الْجَنَّةَ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ضَرَبَ عَلَىٰ يَدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ثُمَّ تَتَابَعَ الْقَوْمُ .

وحينئذ عرف أسعد رضي الله عنه مدىٰ استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل وتأكد منه ، وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير ، فكان هو السابق إلىٰ هذه البيعة .

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً ، ما صافح النبي ﷺ امرأة أجنبية قط .

وهنا نقطة ينبغي أن نقف عندها : إن هذا الموقف من أسعد يمثل قوة الهمة والتهيؤ لحمل أعباء الدعوة من أول الطريق ، التهيؤ لأسوأ الظروف وأصعب الاحتمالات ، التهيؤ الكامل لأهوال الطريق وتضحياته .

وعندما يَلِجُ الإنسان طريقًا للدعوة بهذه النفس وهذه الروح ؛ فإنه يستقبل ما يستقبله من الشدائد وقد وطَّن نفسه عليها ، وأعد لها في النفس عُدَّتَها .

ولكن عندما يدخل الإنسان طريق النصرة وطريق العمل للدين ، وهو يرىٰ أنه صحبة أخيار ، وتزكية نفس ، وتكافل اجتماعي ، وطلعات ، ورحلات أخوية ،

ورحلات خلوية ، وشيء من بث الشجون والهموم ، هذه هي أبعاد النصرة والدعوة عنده . . هذا النوع من الناس يرجع سريعًا عندما تواجهه أول عقبة من عقبات الطريق ويرسب في أول اختبار من اختبارات الدعوة ، وينقلب راجعًا وتحت إبطِه قائمة طويلة من الأعذار وهو يقول : لم نتفق على هذا ، هذا لم يكن في حسابي ، وهذه النوعية من السائرين كثير ، تجدهم على الطريق ساقطين ، واجهوا أمرًا لم يكن في حسبانهم مواجهته ، ولم يكن في حسابهم تجاوزه ؛ ولذلك ينصرفون محملين بحمل من الأعذار أن هذا أمر لم تَجْرِ عليه اتفاقية ، ولم يجر التهيؤ له أصلاً ولم نُنذر بهذا من قبل ولم نتوقعه .

أما هؤلاء النفر فإنهم بايعوا على أسوأ الاحتمالات وأصعب الظروف ، أول شيء بايعوا عليه أن ترميهم العرب بقوس واحدة ! !

الجاسوس:

ولما تم إبرام المعاهدة ، وكان القوم على وشك الانفضاض ، اكتشفها أحد الشياطين ؛ وحيث إن هذا الاكتشاف جاء في اللحظة الأخيرة ، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرًا ، ليباغتوا المجتمعين وهم في الشِّعب ، قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض ، وصَرَخَ الشَّيْطَانُ مِنْ رَأْسِ الْعَقَبَةِ بِأَنْفَذِ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ قَطُّ :

يَا أَهْلَ الْجُبَاجِبِ (وَالْجَبَاجِبُ الْمَنَازِلُ) ، هَلْ لَكُمْ فِي مُذَمَّمٍ وَالصُّبَاةُ مَعَهُ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ ؟

قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: مَا يَقُولُهُ عَدُوُّ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «هَذَا أَزَبُّ الْعَقَبَةِ ، هَذَا ابْنُ أَزْيَبَ ، اسْمَعْ أَيْ عَدُوَّ اللهِ ، أَمَا وَاللهِ لَأَفْرُغَنَّ لَكَ» ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «ارْفَعُوا إِلَىٰ رِحَالِكُمْ» ، قَالَ : فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ ابْنِ نَضْلَةَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَئِنْ شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ عَلَىٰ أَهْلِ مِنًى غَدًا بِأَسْيَافِنَا ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لَمْ أُومَرْ بِذَلِكَ» .

قَالَ: فَرَجَعْنَا فَنِمْنَا حَتَّىٰ أَصْبَحْنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا غَدَتْ عَلَيْنَا جُلَّةُ قُرَيْشٍ حَتَّىٰ جَاءُونَا فِي مَنَازِلِنَا.

لما قَرَعَ هذا الخبرُ آذانَ قريشٍ وقعت فيهم ضَجَّة، وساورتهم القلاقل والأحزان؛ لأنهم كانوا علىٰ معرفة تامة بعواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلىٰ أنفسهم وأموالهم، فما أن أصبحوا حتىٰ توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلىٰ أهل يثرب؛ ليقدم احتجاجه الشديد علىٰ هذه المعاهدة، قال الوفد:

يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّكُمْ قَدْ جِئْتُمْ إِلَىٰ صَاحِبِنَا هَذَا تَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، وَتُبَايِعُونَهُ عَلَىٰ حَرْبِنَا، وَاللهِ إِنَّهُ مَا مِنَ الْعَرَبِ أَحَدٌ أَبْغَضَ إِلَيْنَا أَنْ تَنْشَبَ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنْكُمْ.

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئًا عن هذه البيعة؛ لأنها تَمَّتْ في سِرِّيَّة تامة في ظلام الليل، قال جابر ﷺ: «وَانْبَعَثَ مَنْ هُنَالِكَ مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِنَا يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِاللهِ: مَا كَانَ مِنْ هَذَا شَيْءٌ وَمَا عَلِمْنَاهُ!! وَقَدْ صَدَقُوا لَمْ يَعْلَمُوا مَا كَانَ مِنَّا».

حتىٰ أَتَوْا عبدَ الله بن أُبَيّ بن سَلُول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتىٰ يؤامروني.

قَالَ جابر ﷺ: فَبَعْضُنَا يَنْظُرُ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ: وَقَامَ الْقَوْمُ وَفِيهِمُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ، وَعَلَيْهِ نَعْلَانِ جَدِيدَانِ، قَالَ: فَقُلْتُ كَلِمَةً كَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْرِكَ الْقَوْمَ بِهَا فِيمَا قَالُوا: مَا تَسْتَطِيعُ يَا أَبَا جَابِرٍ وَأَنْتَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَتِنَا أَنْ تَتَّخِذَ نَعْلَيْنِ مِثْلَ نَعْلَيْ هَذَا الْفَتَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ، فَسَمِعَهَا الْحَارِثُ فَخَلَعَهُمَا ثُمَّ رَمَىٰ بِهِمَا إِلَيَّ، فَقَالَ: وَاللهِ لَتَنْتَعِلَنَّهُمَا، قَالَ: يَقُولُ أَبُو جَابِرٍ: أَحْفَظْتَ وَاللهِ الْفَتَىٰ، فَارْدُدْ عَلَيْهِ نَعْلَيْهِ.

قَالَ : فَقُلْتُ : وَاللهِ لَا أَرُدُّهُمَا ، قَالَ : وَاللهِ صُلُحٌ ، وَاللهِ لَئِنْ صَدَقَ الْفَأْلُ لَأَسْلُبَنَّهُ(١) .

ومال زعماء قريش إلىٰ تصديق المشركين ، فرجعوا خائبين .

عاد زعماء مكة وهم علىٰ شبه اليقين من كذب هذا الخبر ، لكنهم لم يزالوا يَتَنَطَّسُونه - يكثرون البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتىٰ تأكد لديهم أن الخبر صحيح ، والبيعة قد تمت فعلاً ، وذلك بعد ما نفر الحجيج إلىٰ أوطانهم ، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثربيين ، ولكن بعد فوات الأوان ، إلا أنهم تمكنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو فطاردوهما ، فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فألقوا القبض عليه ، فربطوا يديه إلىٰ عنقه بِنِسْع رَحْلِه (سَيْرٌ أو خيط تشد به الرحال) ، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجرون شعره حتىٰ أدخلوه مكة ، فجاء المطعِم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلَّصاه من أيديهم ؛ إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة ، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه ، فإذا هو قد طلع عليهم ، فوصل القوم جميعًا إلىٰ المدينة .

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرىٰ - وقد تمت في جوٍّ تعلوه عواطف الحب والولاء ، والتناصر بين أشتات المؤمنين ، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا السبيل ؛ فمؤمنٌ من أهل يثرب يحنو علىٰ أخيه المستضعف في مكة ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، وتجيش في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله .

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول علىٰ مر الأيام ، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه ، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوىٰ الظلم والعدوان ، إيمانٌ إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل ،

---

(١) حديث بيعة العقبة كاملاً أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٦٠) ، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح فقه السيرة» (١/ ١٤٦) .

وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يسجلوا على أوراق الدهر أعمالاً، ويتركوا عليها آثارًا خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل.

إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وظهرت في كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التي توجه الحديث أو تملي العهود، كلا؛ فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغارم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة.

مغانم؟ أين موضوع المغانم في هذه البيعة؟ لقد قام الأمر كله على التجرد المحض والبذل الخالص.

هؤلاء السبعون مُثُلٌ لانتشار الإسلام، عن طريق الفكر الحر والاقتناع الخالص... فقد جاءوا من «يثرب» مؤمنين أشد الإيمان، ومُلَبِّين داعي التضحية، مع أن معرفتهم بالنبي ﷺ كانت لمحة عابرة؛ غبّرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول.

لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة؛ إنه القرآن!! لئن كان الأنصار قبل بيعتهم الكبرى لم يصحبوا الرسول ﷺ إلا لِمامًا؛ فإن الوحي المُشِعّ من السماء أضاء لهم الطريق، وأوضح الغاية.

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن -كما أسلفنا-، سال على ألسنة الحفاظ وتداولته صحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صوّر جزاء الآخرة رأي العين.

فأنت توشك وأنت تقرؤه أن تمد يدك تقطف من ثمار الجنة،

ويستطيع الأعرابي المتعشق للحق أن ينتقل في لحظة فداء من رمضاء الجزيرة

إلى أنهار النعيم والرحيق المختوم!

وأخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن بأخبار الأولين ، وكيف أخلص المؤمنون لله فنجوا مع رسلهم ، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتعنتوا وتجبروا ، ثم حل العدل الإلهي ، فذهب الظالمون بِددًا ، وتركوا وراءهم دنيا مدبرة ، ودورًا خربة ، فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم !!

ثم إن الرسول ﷺ جعل من هذا الإيمان بالحق رباطًا يعقد من تلقاء نفسه صلة الحب والتناصر بين أشتات المؤمنين في المشرق والمغرب .

فالمسلم في المدينة - وإن لم يرَ أخاه المستضعف في مكة - يحنو عليه ، ويتعصب له ، ويغضب من ظالمه ، ويقاتل دونه ، وذلك ما استقدم الأنصار من يثرب تجيش في حناياهم مشاعر الولاء لمن أحبوهم بالغيب في ذات الله .

ولأهل هذه البيعة منقبة عظيمة ، فمن خلالها بزغ فجر الإسلام ، وفاض على العالمين نوره ، وأشرق في الدنيا ضياؤه ، وفهم هذا الفضل كعب ابن مالك حيث قال في حديث توبته المشهور : وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلَامِ ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا[1] .

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٦٧٦) ، ك : المناقب ، باب : وفود الأنصار إلى النبي ﷺ بمكة ، ومسلم (٢٧٦٩) ، ك : التوبة ، باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ﷺ.

بصائر

١ كانت البيعة الأولى بيعة مؤقتة بالنسبة لاقتصارها على بنود بيعة النساء ، كما في حديث عبادة بن الصامت ﷺ: «عَلَىٰ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا ، وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ» ، وهي البنود التي بايع عليها النساء فيما بعد .

أما البيعة الثانية ، فقد كانت الأساس الذي هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بناءً عليه ؛ ولذا فقد كانت شاملة للمبادئ التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة ، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة بالقوة ، وهو حكم وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته بعدُ في مكة ؛ ولكن الله عز وجل ألهم رسوله ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب .

٢ من المناسب أن يسبقَ القتالَ تعريفٌ بالإسلام ، ودعوة إليه وإقامة لحججه ، وحل للمشكلات التي قد تقف في سبيل فهمه ، ولا ريب أن هذه كانت المراحل الأولى في الجهاد ؛ ولذا كان القيام بتحقيقها فرض كفاية يشترك المسلمون في المسئولية عنها ، ولذلك كان من الشروط الخمسة للجهاد : «دار مَنَعَة» .

٣ قضى الله عز وجل رحمةً بعباده أن لا يحمِّلَهم واجب القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه ويلوذون به ، ولقد كانت المدينة المنورة أول دار في الإسلام .

٤ الإيمان بالله ، والحب فيه ، والأخوة في دينه ، والتناصر باسمه ، ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ،

يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم فلا يخلص إليه أذىً وهم أحياء .

⑤ إن مشركي مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام في نطاق لا يعدوه ، وأرهقوا المسلمين حتىٰ شغلوهم بأنفسهم ، فناموا نومة المجرم الذي اغترف الإثم وأمن القصاص : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والآن........

أخي الحبيب............

أحضر قلبك.. وصفِّ ذهنك.. واشحذ تفكيرك..

لتهاجر بهم مع النبي محمد ﷺ وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه .....



الهجرة

بعد أن عشنا مع رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة بعد البعثة في مكة ..

عشنا مع تنزل الوحي وحلاوة اتصال الأرض بالسماء ..

وعشنا مع القلوب الطيبة الرطبة المستجيبة لربها المؤتلفة حول نبيها ..

وعشنا مع جهد وجهاد النبي ﷺ في الدعوة ، وتحمُّله ما لا يطاق من سبٍّ وشتمٍ وضربٍ وأكثر من ذلك ، ولعل الأصعب علىٰ نفسه وقلبه أن يرىٰ أصحابه يعانونَ من العذاب والجوع والقتل وهو لا يستطيع أن يدفع من ذلك شيئًا .

وعشنا مع المسلمين الأوائل ثباتهم علىٰ الحق ، يَسْتَخْفُونَ بدينهم ويتفرقون في الشِّعاب لكي يُصَلُّوا لربهم ، ويصبرون ويصابرون سنين وهم سجناء في الشعب ثباتًا علىٰ الدين وحبًا لله ورسوله .

عشنا ثلاث عشرة سنة في مكة اختلطت فيها الآلام بالآمال ، هذا النبي ﷺ يدعو فيُكَذَّب ، وينصح فيؤذىٰ ، ويموت أحبابه : عمه وزوجته أقرب الناس إليه ، وفي ذات الوقت يسلم أكابر : أبو ذر ، ثم حمزة ، ثم عمر ، ثم الطفيل .

يُكَذَّب ولا يؤمن به أحد في الطائف ، ثم يغسل عنه كل ذلك بالإسراء ، فيصلي إمامًا بالأنبياء ..

وما مكة وما الطائف وما البشر كلهم إذا كان الأنبياء معه بل خلفه؟!
ثم يعرج به إلىٰ السماوات السبع حتىٰ يصير قاب قوسين أو أدنىٰ ،
لا فوق البشر وحدهم ، بل فوق الأرض ومَنْ فيها ..

اقلب الصفحة ..

وفعلًا هو الأمر كذلك ، طويت الثلاث عشرة سنة الماضية ، ويدأ عهد جديد .

اقلب الصفحة ..

وتعالَ معي لنهاجر مع النبي ﷺ من مكة إلىٰ المدينة خُطْوَةً بِخُطْوَة .

فبعد أن عشنا اللحظات الحرجة التي تلاحقت فيها الأنفاس واضطربت، وكُرِبت فيها القلوب وخفقت. . . .

وعشنا أيضًا لحظات أخذتنا فيها نشوةُ الفرحة وأملُ انتصار الدين.

بعد هذه الثلاث عشرة التي تمثل التأصيل والتأسيس وجذور البناء، وهي أيضًا تمثل مرحلة كانت لابد منها؛ جاءت نقلة لابد منها أيضًا، وهي تغيير الأرض، تغيير مجال الانطلاق، تغيير البشر أنفسهم لتتغير القابليات، الانتقال إلىٰ أرضٍ خصبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير.

وكانت الهجرة، وكانت المدينة، وكان الأنصار.

ولا ينبغي - أيها الأحباب - أن ننظر إلىٰ حادث الهجرة علىٰ أنه مجرد نقلة للدعوة، أو كما يسميه كُتَّاب السيرة: المرحلة المدنية بعد المرحلة المكية؛ فإنني أعتقد -والله أعلم- أن هجرة الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلىٰ المدينة كانت وكأنها رسالة جديدة، ونبي جديد إلىٰ أمة جديدة!

فقد تغير كل شيء، كل شيء بلا استثناء، نعم.. بعد الوجه المتجَهِّم الذي يلقاه به المشركون في كل غدوٍّ ورواح؛ صار يُستقبل رسول الله ﷺ ودومًا من كل رجل أو امرأة أو طفل في المدينة المنورة، الكل بلا استثناء ترتسم علىٰ وجوههم هذه البسمة؛ بل الفرحة الطاغية التي قوبل بها ﷺ منذ أن وطئت قدماه المدينة وعاش بها السنين العشر، فرحة لم يرها هو ﷺ من قبل، ولم تعشها القلوب من قبل.

وقبل أن نشرع في سرد مسيرة الهجرة، لابد من مراجعة سريعة للأحداث،

بُعث رسول الله ﷺ إلىٰ العالم كله، فأخذ يبلغ الإسلام، ويتحرك به وفق منهج واقعي؛ فبدأ بالدعوة في مكة حيث بدأ نزول الوحي فيها، واستمرت الدعوة في مكة موطنها الأول ثلاثة عشر عامًا، تنوعت فيها الوسائل، وتعددت الأساليب، وتحمل المسلمون مع رسول الله ﷺ مسئولية تبليغ الإسلام، ونشره بين الناس.

ومع أن الإسلام دين الخلق الكريم والمعاملات النبيلة، والعقيدة الصافية الصادقة، ومسلكه الحسن الدائم، وغايته تكريم الإنسان، والمحافظة علىٰ كافة الحقوق، وتحقيق السعادة الحقيقية في الدنيا والآخرة.

رغم أن الإسلام هكذا؛ فإن أهل مكة - وبخاصة كبراؤها وسادتها - لم يؤمنوا بدعوة الله، وإنما أخذوا في ردها، وصَدِّ الناس عنها، يدفعهم الحقد وتُغَذِّيهم العصبية، ويحركهم الحرص علىٰ وضعيتهم الظالمة التي جعلوها منهج حياتهم.

وزادت عدوانية الكفار واضطهادهم لكل من أسلم، ووقوفهم سدًا يصد الناس عن استماع دعوة الله، وأخذوا يتهمون محمدًا ﷺ بالأكاذيب المضللة حتىٰ لا يسمعه أحد، مستفيدين من كثرتهم ومنزلتهم في قلوب الناس وتَحَكُّمِهم في التجارة والمال، وقد نجحوا في عدوانيتهم إلىٰ حدٍّ بعيد.

أمَّا عربُ الجزيرة فكانوا يقولون: أهل الرجل أعرف به، فنأوا بأنفسهم عن الصراع الموجود في مكة، منتظرين نتائجه ليتخذوا بعد ذلك الموقف الذي يرونه.

وقد دخل في الإسلام عدد قليل في مكة، ولو استمر إيمان الناس بالوتيرة التي سارت عليها خلال تلك السنوات التي قضتها الدعوة في مكة؛ لاحتاج رسول الله ﷺ إلىٰ الزمن كله ليصل الإسلام إلىٰ الناس في العالم كله؛ لأن جملة من دخل في الإسلام لم يزد عن المائتين إلا قليلًا، علىٰ خوفٍ من طواغيت مكة واعتداء كبرائها.

أمام هذا كان لابد لدعوة الله تعالىٰ أن تتخذ منهجًا جديدًا ، ومسارًا آخر تحقق به انطلاقة كبرىٰ للإسلام .

وكان قَدَرُ الله تعالىٰ مع حاجات الدعوة وواقعها ، ومع آمال النبي ﷺ والمسلمين ؛ فأمرهم بالهجرة العامة من مكة إلىٰ بلد آخر .

وكانت هجرة بعض المسلمين من مكة إلىٰ الحبشة تدريبًا لهم علىٰ ترك مكة ، واكتشافًا لمعرفة حياة الآخرين ومذاهبهم ، وليعلموا أن ترك الديار والأهل والمال والولد من أجل العقيدة والدين أمرٌ مشروع ، ولربما كان واجبًا حين لا يأمن المسلم علىٰ دينه وعقيدته .

ولما اشتد عنت الكفار وغَلُظَ عدوانهم علىٰ رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ؛ نزل أمر الله تعالىٰ بالهجرة إلىٰ المدينة ، فهاجر إليها المسلمون جميعًا ثم هاجر بعدهم رسول الله ﷺ :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨-٩] .

إعداد المسلمين للهجرة :

إن ترك موطن الصبا والبعد عن الأهل والأحبة إلىٰ مكان جديد لشاقٌ علىٰ النفس ، يحتاج إلىٰ تفهم لسببه ، واقتناع بأهميته ، والوقوف علىٰ الغايات السامية التي تقتضيه .

وكان رسول الله ﷺ يعلم صعوبة الأمر بالهجرة علىٰ أصحابه ؛ ولذلك تدرج في أمرهم بالهجرة ، وإخبارهم بمكانها ووجهتها .

ففي البداية قال النبي ﷺ لأصحابه : «إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُم ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ»[١] .

فبدأهم بأنها رؤيا منامية ، ورؤيا الأنبياء حق ، ولم يحدد لهم مكان الهجرة ؛ لتنشغل نفوسهم بالبحث عنها والتفكير في شأنهم معها ، وليعلموا أنها حصينة لوصفها بأنها بين لابتين ، وغنية لأنها ذات نخل .

وقد ظن الصحابة بعد أن أخبرهم رسول الله ﷺ برؤياه تلك أنها اليمامة أو هَجَر أو يثرب أو قِنَّسْرِين ؛ لوجود الصفات التي أخبرهم بها فيها ، ومع هذا الظن لم يتصرفوا من تلقاء أنفسهم ؛ وإنما انتظروا تحديد دار هجرتهم من رسول الله ﷺ .

قال رسول الله ﷺ : «رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَىٰ أَنَّهَا اليَمَامَةُ ، أَوْ هَجَرُ ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ : يَثْرِبُ»[٢] .

وبعد ذلك نزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره أن الهجرة إلى واحد من أماكن ثلاثة ، هي : المدينة ، أو البحرين ، أو قِنَّسْرِين ، قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَيَّ هَؤُلَاءِ البِلَادِ الثَّلَاثِ نَزَلْتَ فَهِيَ دَارُ هِجْرَتِكَ : المَدِينَةُ أَوْ البَحْرَيْنِ أَوْ قِنَّسْرِينَ»[٣] .

ثم كان تحديد دار الهجرة بعد ذلك ، فبعد أن أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة من مكة بأيام خرج عليهم مسرورًا وهو يقول لهم : «قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ -وَهُمَا الحَرَّتَانِ-»[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٤٢٥) ، ك : المناقب ، باب : علامات النبوة في الإسلام ، ومسلم (٢٢٧٢) ، ك : الرؤيا ، باب : رؤيا النبي ﷺ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٢٥٨) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وصححه الذهبي .

(٤) أخرجه البخاري (٢١٧٥) ، ك : الكفالة ، باب : جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده .

وإنما كان التدرج حول أمر الهجرة مراعاةً لحال المهاجرين حتىٰ يسهل عليهم ترك الأهل والدار، ولعل تأخير تحديد المكان يؤدي إلىٰ صرف أذهان المشركين من أهل مكة عن أهمية الهجرة، وإدراك خطورتها عليهم وعلىٰ تجارتهم؛ لأنهم كانوا يخافون من دخول أهل المدينة في الإسلام؛ لتأثيرهم علىٰ أهل مكة، وبخاصة إذا انضم إليهم رسول الله ﷺ وقادهم بدينه الذي يدعو إليه.

ولم يتصور أهل مكة أن الهجرة هذه المرة ستكون شاملة للرسول ﷺ والمسلمين جميعًا، وظنوها انتقال بسيط لمجموعة من المسلمين المستضعفين تشبه سابقتيها لا تلبث أن تفشل ويعودون أدراجهم؛ ولذا لما بدأ المسلمون في الرحيل إلىٰ المدينة لم يتعرض لهم أحد، مع أنهم كانوا يخرجون أرسالاً، ظنًا من أهل مكة أن الرسول ﷺ لن يلحق بهم كما فعل مع مهاجري الحبشة.

وقد رحلت عائلات بأكملها، فمثلاً رحل من قبيلة بني غنم أربعة عشر رجلًا وسبع نسوة، كما تحرك عمر بن الخطاب ﷺ وأهله وعشيرته وحلفاؤه في عشرين رجلاً وامرأة.

واستمر رحيل المسلمين من مكة حتىٰ لم يبق منهم إلا رسول الله ﷺ وبنوه، وأبو بكر وبنوه، وعلي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، حيث أبقاهم رسول الله ﷺ بأمر الله تعالىٰ، فلما علم أهل مكة بإعداد رسول الله ﷺ لكي يهاجر بنفسه خافوا من الأمر وأسقط في أيديهم، فأخذوا في التخطيط لقتل رسول الله ﷺ بسرعة حتىٰ لا يقع منه ما يحذرون.

أهمية الهجرة:

واعلم -حبيبي في الله- أن الهجرة هي الترك مطلقًا، وتشمل ترك المحسوسات والمعنويات؛ ولذلك فهناك ترك المعاصي، وترك الأفكار الضالة،

وهناك ترك الديار والبلاد والرحيل عنها إلىٰ مكانٍ آخر ، وكلاهما هجرة وترك ، والفاعل لأحدهما مهاجر وتارك .

وترجع أهمية الهجرة إلىٰ المدينة المنورة إلىٰ أنها تمثل الانطلاقة الكبرىٰ لانتشار الإسلام ، بعد ما وقف أهل مكة من الإسلام والمسلمين موقف العنت والكبرياء ، وأخذوا يصدون عن سبيل الله بكل وسيلة ممكنة ، مهما كان فيها من الكذب والغلو والبعد عن الحق والسداد .

وقد اشتد إيذاء الكفار لكل من أسلم ؛ لمنعهم من الإسلام ، وإبعادهم عن رسول الله ﷺ ، ووصل الحال بأهل مكة أنهم حاولوا قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة ، ونجاه الله منهم .

ولذلك كان الإذن بالهجرة نهاية لفترة مؤلمة عاشها المسلمون ، وبداية لقوة الإسلام وتطبيقه في حركة الحياة والناس ، وكان هذا سببًا لرضا المؤمنين وسعادتهم .

لقد كانت هجرة المسلمين من مكة إلىٰ المدينة مرحلة طبيعية ونقلة واقعية لابد منها ، انطلقت فيها دعوتهم بعد حصارها الطويل ، وكانت انفراجة حاسمة لنشر كلمة الحق بين القاصي والداني بلا عائق أو عناد .

كانت الهجرة من مكة إلىٰ المدينة إذن أمرًا ضروريًا ، بعد أن هيأ أهلُ المدينة للمهاجرين من أهل مكة الفرصةَ الطيبة للخلاص من مراقبة الأعداء ، والبعد عن اضطهادهم وعنتهم ، وكان المطلوب آنذاك أن يهاجر من مكة جميع القادرين علىٰ تركها ؛ ليتخذوا المدينة مركزًا جديدًا للدعوة ، وقد تحقق هذا ، ولم يبق في مكة إلا من حُبس أو فتن .

وخرج المسلمون من مكة غير آسفين عليها ، وقدموا علىٰ المجهول تاركين أهلهم وأموالهم مرغمين ، وكانوا مع ذلك راضين بالحياة الجديدة الآمنة ،

وكان طريق الهجرة مفتوحًا أمامهم، فهاجر بعضهم أمام الناس، وتسلل بعضهم في ظلمات الليل في غفلة وستر، ولم يكن في الهجرة في بدايتها شيء من الخطر، ولم يقف أهل مكة ضدها، ولم يعجز القرشيون أن يوجدوا لأنفسهم بعض التعليلات المناسبة لأفهامهم، بسبب عدم معارضتهم للمسلمين وهم يرحلون عن مكة :

فقالوا : لعلها نوع من الهروب من ميدان العمل .

وقالوا : لعلها نوع من السلبية أمام الأخطار .

وقالوا : لعلها مثل هجرة المسلمين إلى الحبشة قبل ذلك، وظنوها مجرد رحيل فريق من المسلمين إلى غير بلدهم ليعيشوا غرباء مدة يعودون بعدها إلى مكة .

وقالوا : لعل هجرتهم راحة لهم مما يرون ويسمعون .

وقالوا : لعل هجرتهم تكون السبيل إلى الفصل بينهم وبين رسولهم؛ خاصة أن رسول الله ﷺ باقٍ بينهم في مكة كما تصوروا .

ولم يكن المسلمون آنذاك قوة تؤثر بالضرورة على المنطقة أثناء الهجرة، فتركهم أعداؤهم يهاجرون بعد أن ضحوا بكل شيء في سبيل عقيدتهم، ولم يكن في الهجرة شيء من العنف أو الإثارة؛ ولذلك سمح القرشيون لكثير من المهاجرين بالهجرة بعد أن تركوا أموالهم وبيوتهم .

وبدت هجرة المسلمين أمام المشركين كأنها نوعٌ من الهزيمة، أو صورة للفرار من ميدان التنافس والصراع، إلا أن الهجرة لم تكن شيئًا من ذلك أبدًا؛ لأن المهاجرين ذهبوا إلى المدينة ليباشروا الأعمال الضخمة التي تخدم الدعوة، ويتحملوا مسئوليتها أمام الناس .

قد يتصور أحدٌ أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة المنورة كانت من أجل الراحة والهدوء، وإيثارًا للسلامة من اضطهاد يتعرضون له في مكة، أو سترًا لضعفهم وقلتهم، وكل هذا غير صحيح ومردود .

أين هي السلامة وسط الغزوات التي اشتركوا فيها؟
والتي لم تنقطع منذ انتقالهم إلى المدينة؟!

وأين هذا الهدوء وقد تحولت حياتهم كلها إلىٰ عبادة ودعوة وجهاد؟!

وأين هذا الضعف في المهاجرين وقد تنوعت غزواتهم
في كل الجهات والقبائل المحيطة بالمدينة؟!

إنهم هاجروا لله ورسوله،
واستمروا علىٰ ذلك حتىٰ ماتوا في سبيل الله ونصرة رسوله.

خطورة أمر الهجرة:

إن نجاح الإسلام في تأسيس وطن له، وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة إليه، وقد تنادىٰ المسلمون من كل مكان: هلمّوا إلىٰ يثرب.. فلم تكن الهجرة تخلصًا فقط من الفتنة والاستهزاء؛ بل كانت تعاونًا عامًا علىٰ إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

وأصبح فرضًا علىٰ كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة -بعد الهجرة إليها- نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصر الله ورسوله، فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد علىٰ إعزازها.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

بل وصار فرضًا على كل مسلم بعد أن يهاجر ألا ينتكس في هجرته، ولا يعود إلى دياره الأصلية مرة أخرى، وسماه النبي ﷺ «التعرب بعد الهجرة» محذرًا منه ومتوعدًا من فعله باللعن:

ومما جاء في خطورة التعرب بعد الهجرة حديث عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: آكِلُ الرِّبَا وَمُوكِلُهُ وَشَاهِدَاهُ وَكَاتِبُهُ إِذَا عَلِمُوا، وَالْوَاشِمَةُ وَالْمُتَوَشِّمَةُ وَالْمُسْتَوْشِمَةُ لِلْحُسْنِ، وَلَاوِي الصَّدَقَةِ، وَالْمُرْتَدُّ أَعْرَابِيًا بَعْدَ الْهِجْرَةِ؛ مَلْعُونُونَ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[1].

وعَنْ سَهْلِ بنِ أَبِي حَثْمَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: «**اجْتَنِبُوا الْكَبَائِرَ السَّبْعَ**»، فَسَكَتَ النَّاسُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلا تَسْأَلُونِي عَنْهُنَّ؟ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْفِرَارُ مِنَ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَالتَّعَرُّبُ بَعْدَ الْهِجْرَةِ**»[2].

وفي رواية: «**وَالرُّجُوعُ إِلَى الأَعْرَابِيَّةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ**»[3].

قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية: التعرُّبُ بعد الهجرة: هو أن يعود بادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرًا، وكان من رجع بعد الهجرة

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٢٥٢)، ك: الزكاة، باب: ذكر لعن المصطفى ﷺ المرتد أعرابيًا بعد الهجرة، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٥٠).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٥٦٣٦)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٧٠٩)، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٦٠٦).

إلىٰ موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد .

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ : «ونحوه (التغرب) : وهو السفر إلىٰ بلاد الغرب والكفر من البلاد الإسلامية إلا لضرورة ، وقد يسمي ذلك بعضُهم بالهجرة ، وهو من القلب للحقائق الشرعية الذي ابتلينا به في هذا العصر ؛ فإن الهجرة إنما تكون من بلاد الكفر إلىٰ بلاد الإسلام ، والله المستعان» .

وهكذا هُرِعَ المسلمون -بإذنٍ من رسول الله ﷺ- من مكة وغيرها إلىٰ «يثرب» يحدوهم اليقين ، وترفع رؤوسهم الثقة ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

فليست الهجرة في الإسلام للمسلمين انتقال موظف من بلد قريب إلىٰ بلدٍ ناءٍ ، ولا ارتحال طالب قوتٍ من أرض مجدبة إلىٰ أرض مخصبة .

إنها إكراه رجل آمنٍ في سِرْبِهِ ، ممتد الجذور في مكانه علىٰ إهدار مصالحه ، والتضحية بأمواله والنجاة بشخصه فحسب ، وإشعاره - وهو يصفِّي مركزه - بأنه مستباح منهوب ، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها ، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم ، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان ، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل : مغامر طياش ، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها ، يحمل أهله وولده؟ وكيف وهو بذلك رضيّ الضمير ، وضّاء الوجه ؟!

ولكن لماذا؟! وما الذي يدفع لفعل هذا ويهون ما يلقاه الإنسان في سبيله؟

إنه الإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش ! وإيمان بِمَنْ؟ بالله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض ، وله الحمد في الأولىٰ والآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن ، أما الهيّاب الخَوّار القلق ، فإنه لا يستطيع شيئًا من ذلك ، إنه من أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ

أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

أما الرجال الذين التقوا برسول الله ﷺ في مكة، وقبسوا منه أنوار الهدىٰ، وتواصوا بالحق والصبر؛ فإنهم نفروا خفافًا ساعةَ قيل لهم: هاجروا إلىٰ حيث تُعِزُّونَ الإسلام وتؤمِّنُون مستقبله.

أخي الحبيب، ينبغي أن نفقه أن الهجرة ليست قصة تحكىٰ للتسلي بذكرها، ولا طرفة تروىٰ لتتسرىٰ النفس بها، بل إن الهجرة مدرسة تربوية تبث دروسها في الأمة جيلًا بعد جيل.

الهجرة عبر وعظات، وحكم وفوائد، ودروس تربوية لابد أن نفهمها لنستضيء بنورها في أيامنا هذه.

الهجرة حدث هائل وانتقال عظيم من حال إلىٰ حال، الهجرة تضحية بكل شيء في سبيل الدين.

الهجرة شهادة خير يستأهلها ذلكم الجيل الذي عاش بالإيمان وللإيمان.

وبأحداث هذه الهجرة يربينا ربنا علىٰ معانٍ عظيمة، ويعلمنا نبينا دروسًا نافعة؛ فليتنا نعي الدرس كما ينبغي!

ليتنا نفهم ونفقه دروس هذه الهجرة ونحولها إلىٰ واقع عملي نسير به، حتىٰ تمتلئ الدنيا بنور الرسالة النبوية، وتنقشع عنها ظلمات الجاهلية، وتزول تلك الحواجز التي تعرقل كثيرًا من الناس عن السير في طريق الهدىٰ.

تعال يا أخي لتعلم من الهجرة ما ينفعك ويرفعك ويعلي في سبيل الحق شأنك.

هيا.. هات يدك وتعال معي...

الهجرة.. لماذا؟

دعوني -أحبتي في الله- أكرر مؤكدًا أنه: لم تكن هجرة المسلمين الأوَل من مكة إلىٰ المدينة فرارًا أو هروبًا من أذىٰ المشركين في مكة -كما يعتقد كثيرٌ من الناسِ-؛ بل إنَّ في الهجرة حِكَمًا أعلىٰ، وغايات أسمىٰ أرادها ربنا ﷻ حين أَذِنَ بهذه الهجرة المباركة، إنها رحلة في عمق الزمن؛ ليسير موكب الحق، وتشع أنوار الهداية علىٰ الناس في كل مكان.

ولعل من هذه الحكم ما يلي:

(١) كانت الهجرة أولاً وقبل كل شيء امتثالاً لأمر الله وطاعة له ﷻ حين أمر بها، فما خرج النبي ﷺ من مكة ولا خرج أصحابه ﷺ إلا بعد أن أذن الله لهم بذلك وأمرهم بهذا الخروج، قال النبي ﷺ لأبي بكر: «**إِنَّهُ قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ**»، لم تكن الهجرة مجرد انتقال من بلد إلىٰ بلد؛ بل هي دليل علىٰ أن المؤمن لا يتملكه تراب ولا تستعبده أرض بل وطنه عقيدته، وراحته حيث يُرْضِي ربَّه، فيتنازل عن كل شيء ويتخلىٰ عن كل شيء مهما عزَّ، إذا أمره ربه بذلك.

(٢) البعد عن مواطن الفتن مطلب شرعي مهم لسلامة السير إلىٰ الله؛ حيث كانت قريش تصبُّ جامَّ غضبِها علىٰ المؤمنين في مكة؛ لتفتنهم عن دينهم وتصرفهم عنه، فكان بُعْدُ الصحابة عن هذا الجو الملبد بغيوم الكيد والانتقام إلىٰ بيئة أخرىٰ نقية الأجواء هادئة الأحداث، كان في ذلك حفاظ علىٰ إيمانهم، وسلامة لهم من بلاء متواصل لا يدري المؤمن ما سيؤول إليه، فانتقلوا حينئذ إلىٰ البلدة الجديدة؛ ليستطيعوا من خلالها إقامة العبودية لله وإعلاء كلمته.

فكانت هذه الهجرة هجرة إلىٰ عودة، ونقلة إلىٰ رجعة، ومخرجًا من ضيق إلىٰ سعة.

فَتَعَلَّم يا أخيَّ من ذلك أن أسلم طريقة للنجاة من الفتن البعد عنها، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ»[1]، وقال ﷺ: «إِنَّ السَّعِيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ -ثَلَاثًا- وَلَمَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهًا!»[2].

(٣) في الهجرة نجاة لقريش من الإهلاك والإبادة، فقد حاول المشركون فتنة رسول الله ﷺ ليردوه عن الدعوة وعن إيمانه بالله؛ ولكن الله عصمه منهم، وامتن الله على رسوله ﷺ أن ثبته على ما أوحى إليه، وَعَصَمَهُ من فتنة المشركين له، ووقاه الركون إليهم ولو قليلًا وَرَحِمَهُ من عاقبة هذا الركون، وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفًا، وفقدان المعين والنصير، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وعندما عجز المشركون عن استدارج الرسول ﷺ إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه من الأرض -أي مكة- ولكن الله أوحى إليه أن يخرج هو مهاجرًا، لما سبق في علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة، ولو أخرجوا الرسول ﷺ عَنْوَةً وَقَسْرًا لَحَلَّ بهم الهلاك: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، فهذه هي سنة الله النافذة: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]، فكانت الهجرة إنقاذًا لقريش أيضًا من البطش والاستئصال؛ فتأمل.

(٤) تهيئة المجال أمام رسول الله ﷺ لنشر الدعوة وتربية النفوس وإعدادها للمهام الشاقة التي تنتظرها في مواجهة العالم بأسره، فبعد أن أصبحت مكة

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٨٠٤)، ك: الجهاد والسير، باب: لا تمنوا لقاء العدو، ومسلم (١٧٤٢)، ك: الجهاد والسير، باب: كراهية تمني لقاء العدو.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٦٣)، ك: الفتن والملاحم، باب: في النهي عن السعي في الفتن، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٥).

صلبة صلدة لا تثمر إلا العداء للدعوة والمكر بالمؤمنين ؛ كان من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أن يأمر النبي ﷺ بالتحول إلىٰ بيئةٍ أخرىٰ عاطشة إلىٰ الهدىٰ متطلعة إلىٰ الحق ؛ وليتمكن الرسول ﷺ من التربية والتوجيه الكامل ليصنع من نفوس أصحابه شُمُوسَ هدىٰ تنطلق بنور الرسالة ، وقد أُشربت من الفقه والفهم ما يكفي لزلزلة مبادئ الكفر وصدع العناد في القلوب .

وقد كانت المهمة الأولىٰ للرسول ﷺ التربية وبناء الإيمان في النفوس وتطهيرها من أوضار الوثنية ، قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] .

٥ تخطي العقبات والتخلص من العوائق التي في طريق الدعوة ؛ فقد كان معظم الصحابة شبابًا تجري في عروقهم حميَّةُ الشباب ، وتتحرك في دمائهم الحماسة والنخوة وتأبىٰ نفوسهم قبول الظلم ، وقد يثور غضبهم وينفذ صبرهم فيردون العدوان فتقع الفتن العمياء التي تُعرقل الدعوة وتُقَيِّد سيرها ، كما وقع في قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث كان يصلي مع بعض إخوانه مختفين ، فاطلع بعض المشركين عليهم فعيروهم بترك دين آبائهم ، وعابوا عليهم اتباع محمد ﷺ واستهزؤوا بهم ، فلم يطق سعد صبرًا فضرب رجلًا منهم بِلَحْيِ جمل (عظم الفك الذي تنبت فيه الأسنان من الدابة) فَشَجَّهُ شَجَّةً منكرة أدماه بها ، فكان أول دم أُهريق في الإسلام ، وكادت الفتنة تتسع ويتصل القتال ، وهذا مما يضر الدعوة ويضعفها ، فقد كان في ذلك شغل رسول الله ﷺ وأصحابه عن سير الدعوة وانتشارها وانتقالها في مراحلها .

٦ تخفيف الأزمات النفسية ، فقد كان القتال محرمًا علىٰ الصحابة في أيام الاستضعاف في مكة ، كما قال تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧] .

فبقاء الصحابة ﷺ في مكة مع ذلك يضيف أعباء جديدة على عاتق رسول الله ﷺ إضافة إلى الأعباء التي يتحملها في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة، والإنذار وهو يرى أصحابه يعذبون أشد العذاب ولا يستطيع منعهم ولا حمايتهم مما يواجهون.

٧ كانت أحداث الهجرة ابتلاء وتمحيصًا للصحابة ليُضَحُّوا بأعز ما يملكون في سبيل هذا الدين، فيخرجون من ديارهم وأموالهم وأهليهم في سبيل الله وحده؛ لتنهدم كل الأواصر وتبقى آصرةُ الانتماء لهذا الدين والولاء لله ورسوله ﷺ.

ولماذا المدينة؟

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ فَأُمِرَ بِالْهِجْرَةِ، وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠][١].

وقد كان من الحكمة في هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وبقائه بها أن الأشياء إنما تتشرف بالنبي ﷺ وليس هو الذي يتشرف بها، فلو بقي في مكة طيلة حياته لتوهم الناس أنه قد تشرف بمكة التي شرفها الله من قَبْلُ بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وبوجود بيته الحرام بها، وأراد الله عز وجل أن يظهر شرف نبيه ﷺ فأمره بالهجرة إلى المدينة التي لم يكن لها ذكر في التاريخ قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها؛ فلما هاجر النبي ﷺ إليها صارت حرمًا آمنًا، وصارت دار الإسلام التي انطلقت منها وفود الإيمان إلى أرجاء الأرض، وفاض على العالمين نورُ الإسلام منها.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٥٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: حديث صحيح.

ولماذا المدينة بالأخص؟

(١) لأنها امتازت بتحصن طبيعي حربي ، فكانت حَرَّةُ الوَبَرَةِ مطبقة علىٰ المدينة من الناحية الغربية ، وحَرَّةُ وَاقِم مطبقة علىٰ المدينة من الناحية الشرقية ، وكانت الجهة الأخرىٰ من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة لا يمر منها جيش .

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلىٰ هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة : «**إني أريتُ دارَ هجرَتِكُم ، ذَاتَ نَخيلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ**» وهما الحَرَّتان ، فهاجر من هاجر قِبَل المدينة[1] .

(٢) كان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة ، ألفوا الحرية ، ولم يخضعوا لأحد ، ولم يدفعوا إلىٰ قبيلة أو حكومة إتاوة أو جباية ، يقول ابن خلدون رحمه الله : «ولم يزل هذانِ الحيَّانِ قد غلبوا علىٰ يثرب ، وكان الاعتزاز والمَنَعَةُ تُعْرَف لهم في ذلك ، ويدخل في مِلَّتِهِم من جاورهم من قبائل مُضَر» .

(٣) وكان بنو عدي بن النجار أخوال النبي ﷺ ؛ فأم عبد المطلب بن هاشم ابن عدي بن النجار إحدىٰ نسائهم ، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية ، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل النبي ﷺ في داره في المدينة .

(٤) وكان الأوس والخزرج من قحطان ، والمهاجرون ومن سبق إلىٰ الإسلام في مكة وما حولها من عدنان ، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة وقام الأنصار بنصره اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسد واحد ، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية ، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلىٰ قلوبهم لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة .

التمهيد والإعداد للهجرة:

ولتعلم أخي الحبيب أيضًا أن الهجرة إلىٰ المدينة سبقها تمهيد وإعداد وتخطيط من النبي ﷺ ، وكان ذلك بتقدير الله تعالىٰ وترتيبه ، وكان هذا الإعداد في اتجاهين : إعداد في شخصية المهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجَر إليه .

أولاً: إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة يُرَوِّحُ فيها الإنسان عن نفسه ، ولكنها مغادرة الأرض والأهل ، ووشائج القربىٰ ، وصلات الصداقة والمودة ، وأسباب الرزق ، والتخلي عن كل ذلك من أجل العقيدة ؛ ولهذا احتاجت إلىٰ جهد كبير في إعداد النفوس حتىٰ وصل المهاجرون إلىٰ قناعة كاملة بهذه الهجرة ، ومن تلك الوسائل :

(١) التربية الإيمانية العميقة للصحابة بوصف الجنة والوعد بالنصر وطلب الآخرة .

(٢) الاضطهاد الذي أصاب المؤمنين حتىٰ وصلوا إلىٰ قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر .

(٣) تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة ، ولفت النظر إلىٰ أن أرض الله واسعة ، قال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ، ثم تلىٰ ذلك نزول سورة الكهف ، وتحدثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم وعن هجرتهم من بلدهم إلىٰ الكهف ، وهكذا استقرت صورة من صور الإيمان في نفوس الصحابة وهي تترك أهلها ووطنها من أجل عقيدتها .

ثم تلىٰ ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل ، قال تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢]، وفي أواخر السورة يؤكد المعنىٰ مرة أخرىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وكانت الهجرة إلى الحبشة في البداية تدريبًا عمليًا على ترك الأهل والوطن.

ثالثًا، الإعداد في يثرب،

نلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يسارع بالانتقال إلىٰ المدينة بعد لقائه مع الأنصار ودعوتهم لرسول الله ﷺ بالانتقال إلىٰ المدينة مباشرة؛ وإنما أَخَّرَ ذلك لأكثر من عامين، حتىٰ تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًا، كما كان في الوقت نفسه يتم إعداد المدينة في أجواء القرآن الكريم وخاصة بعد انتقال مصعب بن عمير إلىٰ المدينة، ثم تابعه بعبد الله بن أم مكتوم، اللذان أقاما في المدينة يعلمان الناس القرآن وينشران الدعوة ويهيئان الأرض لاستقبال الرسول ﷺ وتهيئة الناس قبل لقاء الرسول ﷺ.

ثم تأكد أن الاستعداد لدىٰ الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم، كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة الثانية تؤكد الحرص الشديد من الأنصار علىٰ تأكيد البيعة والاستيثاق للنبي ﷺ بأقوىٰ المواثيق علىٰ أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا علىٰ أهل منىٰ ممن آذىٰ رسول الله ﷺ بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم ﷺ بذلك، ولكنه قال لهم: «لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ»، فظهر بذلك قوة إيمانهم وثباتهم ويقينهم، وأيضًا استسلامهم للدين وطاعتهم المطلقة للرسول ﷺ.

وهكذا تم الإعداد لأهل يثرب؛ ليكونوا قادرين علىٰ استقبال المهاجرين وما يترتب علىٰ ذلك من تبعات.

مقدمات الهجرة:

لمَّا تمت بيعة العقبة الثانية بين رسول الله ﷺ والأنصار أمر رسول الله ﷺ من كان معه من المؤمنين بالهجرة إلىٰ المدينة .

الْمُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ:

① كَانَ أَوَّلَ مَنْ هَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ : أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ بْنِ هِلَالِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ ، هَاجَرَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ قَبْلَ بَيْعَةِ أَصْحَابِ الْعَقَبَةِ بِسَنَةٍ ، وَكَانَ قَدِمَ رضي الله عنه مَكَّةَ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، فَلَمَّا آذَتْهُ قُرَيْشٌ وَبَلَغَهُ إِسْلَامُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الأَنْصَارِ ، خَرَجَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا ، هاجر مستعلنًا تحت سمع وبصر قومه الذين كانوا ينالون منه ويؤذونه ، ويمنعه إسلامه من أن يرد عليهم عدوانهم ؛ لأن السابقين إلىٰ الإسلام كانوا قد مُنِعُوا من الانتصاف من خصومهم وأُمِرُوا بالصبر ، ثم تبعته زوجته أم سلمة بعد أن احْتُجِزَتْ عنه سنة .

هِجْرَةُ أَبِي سَلَمَةَ وَزَوْجِهِ وَحَدِيثُهَا عَمَّا لَقِيَا

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ : لَمَّا أَجْمَعَ أَبُو سَلَمَةَ الْخُرُوجَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ رَحَلَ إِلَيَّ بَعِيرَهُ ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهِ وَحَمَلَ مَعِي ابْنِي سَلَمَةَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فِي حِجْرِي ، ثُمَّ خَرَجَ بِي يَقُودُ بِي بَعِيرَهُ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ رِجَالُ بَنِي الْمُغِيرَةِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ مَخْزُومٍ قَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا : هَذِهِ نَفْسُكَ غَلَبْتَنَا عَلَيْهَا ، أَرَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ هَذِهِ؟ عَلَامَ نَتْرُكُكَ تَسِيرُ بِهَا فِي الْبِلَادِ؟ قَالَتْ فَنَزَعُوا خِطَامَ الْبَعِيرِ مِنْ يَدِهِ فَأَخَذُونِي مِنْهُ ، قَالَتْ : وَغَضِبَ عِنْدَ ذَلِكَ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ ، رَهْطُ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالُوا : لَا وَاللَّهِ لَا نَتْرُكُ ابْنَنَا عِنْدَهَا إِذَا نَزَعْتُمُوهَا مِنْ صَاحِبِنَا ، قَالَتْ : فَتَجَاذَبُوا بُنَيَّ سَلَمَةَ بَيْنَهُمْ حَتَّىٰ خَلَعُوا يَدَهُ وَانْطَلَقَ بِهِ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ ، وَحَبَسَنِي بَنُو الْمُغِيرَةِ عِنْدَهُمْ وَانْطَلَقَ زَوْجِي أَبُو سَلَمَةَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ .

قَالَتْ : فَفَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجِي وَبَيْنَ ابْنِي ، قَالَتْ : فَكُنْتُ أَخْرُجُ كُلَّ غَدَاةٍ فَأَجْلِسُ بِالأَبْطَحِ فَمَا أَزَالُ أَبْكِي حَتَّىٰ أُمْسِي ، سَنَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّىٰ مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمِّي ، أَحَدُ بَنِي الْمُغِيرَةِ فَرَأَىٰ مَا بِي فَرَحِمَنِي فَقَالَ لِبَنِي الْمُغِيرَةِ : أَلَا تُخْرِجُونَ هَذِهِ الْمِسْكِينَةَ ؟ فَرَّقْتُمْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ زَوْجِهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا ، قَالَتْ : فَقَالُوا لِي : الْحَقِي بِزَوْجِك إنْ شِئْت ، قَالَتْ وَرَدّ بَنُو عَبْدِ الأَسَدِ إلَيّ عِنْدَ ذَلِكَ ابْنِي .

قَالَتْ : فَارْتَحَلْتُ بَعِيرِي ثُمّ أَخَذْت ابْنِي فَوَضَعْته فِي حِجْرِي ، ثُمّ خَرَجْت أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ ، قَالَتْ : وَمَا مَعِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللّهِ ، قَالَتْ : فَقُلْت : أَتَبَلّغُ بِمَنْ لَقِيت حَتّىٰ أَقْدَمَ عَلَىٰ زَوْجِي ، حَتّىٰ إذَا كُنْت بِالتّنْعِيمِ لَقِيت عُثْمَانَ ابْنَ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدّارِ فَقَالَ لِي : إلَىٰ أَيْنَ يَا بِنْتَ أَبِي أُمَيّةَ ؟ قَالَتْ : فَقُلْت : أُرِيدُ زَوْجِي بِالْمَدِينَةِ ، قَالَ : أَوَ مَا مَعَك أَحَدٌ ؟ قَالَتْ : فَقُلْت : لَا وَاَللّهِ إلّا اللّهَ وَبُنَيّ هَذَا ، قَالَ : وَاَللّهِ مَا لَك مِنْ مَتْرَكٍ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِ الْبَعِيرِ فَانْطَلَقَ مَعِي يَهْوِي بِي ، فَوَاَللّهِ مَا صَحِبْت رَجُلًا مِنْ الْعَرَبِ قَطّ ، أَرَىٰ أَنّهُ كَانَ أَكْرَمَ مِنْهُ ، كَانَ إذَا بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَنَاخَ بِي ، ثُمّ اسْتَأْخَرَ عَنّي ، حَتّىٰ إذَا نَزَلْتُ اسْتَأْخَرَ بِبَعِيرِي ، فَحَطّ عَنْهُ ثُمّ قَيّدَهُ فِي الشّجَرَةِ ، ثُمّ تَنَحّىٰ إلَىٰ شَجَرَةٍ فَاضْطَجَعَ تَحْتَهَا ، فَإِذَا دَنَا الرّوَاحُ قَامَ إلَىٰ بَعِيرِي فَقَدّمَهُ فَرَحَلَهُ ثُمّ اسْتَأْخَرَ عَنّي ، وَقَالَ : ارْكَبِي ، فَإِذَا رَكِبْت وَاسْتَوَيْت عَلَىٰ بَعِيرِي أَتَىٰ فَأَخَذَ بِخِطَامِهِ فَقَادَهُ حَتّىٰ الْمَدِينَةَ ، فَلَمّا نَظَرَ إلَىٰ قَرْيَةِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ قَالَ زَوْجُك فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ -وَكَانَ أَبُو سَلَمَةَ بِهَا نَازِلاً- فَادْخُلِيهَا عَلَىٰ بَرَكَةِ اللّهِ ، ثُمّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إلَىٰ مَكّةَ .

فَكَانَتْ تَقُولُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : وَاَللّهِ مَا أَعْلَمُ أَهْلَ بَيْتٍ فِي الْإِسْلَامِ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَ آلَ أَبِي سَلَمَةَ ، وَمَا رَأَيْتُ صَاحِبًا قَطّ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ .

رضي الله عن آل أبي سلمة، كم قاسوا في سبيل هذا الدين!

أبو سلمة يخرج وحده ولا يصده عن الهجرة شيء لا زوجة ولا ولد ؛ بل ينطلق بعزمه وإيمانه ويترك أرضه التي بها زوجه وولده ويخرج مهاجرًا إلىٰ الله .

ثم يُفَرَّقُ بين أم سلمة وزوجها وابنها الذي خلعوا يده أمام عينيها ، وتتلظىٰ من الألم سنة كاملة ، ثم تواجه رحلة الهجرة الشاقة وحدها .

وكم عجبتُ ولا زلت أعجب من هذه الأخلاق العالية .. من عثمان ابن طلحة والذي كان لا زال علىٰ الشرك ، تحمله النخوة والنجدة ألا يترك امرأة تمشي وحدها في صحراء مقفرة ، مظلمة مهلكة ، فيوصلها إلىٰ المدينة وتبدو منه عفة الرجولة في مدة السفر ، ثم بعد أن يصل بها إلىٰ قباء يشير إلىٰ القرية ثم يرجع دون انتظار ثناء أو أجر أو شكر .

مثل هذه الأخلاق تتعهد صاحبها حتىٰ تقوده إلىٰ الإسلام ، وبالفعل منَّ الله عليه بالإسلام ؛ فأسلم عثمان بن طلحة في هدنة الحديبية ، وكان أحد الأبطال الثلاثة الذين هاجروا إلىٰ رسول الله ﷺ وهم خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ، وعثمان بن طلحة ، فاستبشر النبي ﷺ بإسلامهم وهجرتهم ، وقال : «**أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ مَكَّةُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا**»[1] .

(٢) ثم هاجر عامرُ بْنُ ربيعة ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي حَثْمَةَ بن غانم ، وهي أول ظَعِينَةٍ دخلت إلىٰ المدينة من المهاجرات .

(٣) ثم عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش ، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم ، فعدا أبو سفيان علىٰ دارهم فتملكها .

(٤) هجرة عمر الفاروق:

وتواعد عمر بن الخطاب ، وعَيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ابن وائل موضعًا اسمه التَّنَاضُب فوق سَرِف يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلىٰ المدينة ، فاجتمع عمرُ وعَيَّاش ، وَحُبِسَ عنهما هشام .

وهاجر عمر بن الخطاب في عشرين راكبًا منهم زيد بن الخطاب أخوه ، وعبد الله بن عمر ابنه ، اتفقوا وعياش بن أبي ربيعة .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٢١٦٤) .

قال علي ﷺ: ما علمت أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا ؛ إلا عمر بن الخطاب ؛ فإنه لما هَمَّ بالهجرة تَقَلَّدَ سَيْفَهُ ، وَتَنَكَّبَ قَوْسَهُ ، وانتضىٰ في يده أسهمًا ، واختصر عَنَزَته ، ومضىٰ قِبَل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا ، ثم أتىٰ المقام فصلىٰ متمكنًا ، ثم وقف علىٰ الحِلَق واحدة واحدة ، وقال لهم : شَاهَتِ الوجوه (قبحت) ، لا يُرْغِمُ الله إلا هذه المَعَاطِسَ (الأنوف) ، من أراد أن تثكله أمه ، ويُيَتِّم ولده ، وتُرَمِّلَ زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ، قال علي : فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين عَلَّمَهُمْ وأرشدهم ومضىٰ لوجهه .

ولكن حدث حادث عجيب بعد الوصول يحدثنا عنه عمر ﷺ نفسه فيقول :

فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ نَزَلْنَا فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِقُبَاءٍ ، وَخَرَجَ أَبُو جَهْلِ ابْنُ هِشَامٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ إِلَىٰ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَكَانَ ابْنَ عَمِّهِمَا وَأَخَاهُمَا لِأُمِّهِمَا ، حَتَّىٰ قَدِمَا عَلَيْنَا الْمَدِينَةَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ فَكَلَّمَاهُ وَقَالَا : إِنَّ أُمَّكَ قَدْ نَذَرَتْ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهَا مُشْطٌ حَتَّىٰ تَرَاكَ ، وَلَا تَسْتَظِلَّ مِنْ شَمْسٍ حَتَّىٰ تَرَاكَ ، فَرَقَّ لَهَا ، فَقُلْتُ لَهُ : يَا عَيَّاشُ ، إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ يُرِيدَكَ الْقَوْمُ إِلَّا لِيَفْتِنُوكَ عَنْ دِينِكَ فَاحْذَرْهُمْ ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ قَدْ آذَىٰ أُمَّكَ الْقَمْلُ لَامْتَشَطَتْ ، وَلَوْ قَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهَا حَرُّ مَكَّةَ لَاسْتَظَلَّتْ ، قَالَ : فَقَالَ : أَبَرُّ قَسَمَ أُمِّي ، وَلِي هُنَالِكَ مَالٌ فَآخُذُهُ ، قَالَ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنِّي لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالاً ، فَلَكَ نِصْفُ مَالِي وَلَا تَذْهَبْ مَعَهُمَا ، قَالَ : فَأَبَىٰ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مَعَهُمَا ؛ فَلَمَّا أَبَىٰ إِلَّا ذَلِكَ قُلْتُ لَهُ : أَمَا إِذْ قَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ ، ؛ فَخُذْ نَاقَتِي هَذِهِ فَإِنَّهَا نَاقَةٌ نَجِيبَةٌ ذَلُولٌ فَالْزَمْ ظَهْرَهَا ، فَإِنْ رَابَكَ مِنْ الْقَوْمِ رَيْبٌ فَانْجُ عَلَيْهَا ، فَخَرَجَ عَلَيْهَا مَعَهُمَا ، حَتَّىٰ إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : يَا ابْنَ أَخِي ، وَاللَّهِ لَقَدْ اسْتَغْلَظْتُ بَعِيرِي هَذَا ، أَفَلَا تُعْقِبُنِي عَلَىٰ نَاقَتِكَ هَذِهِ ؟ قَالَ : بَلَىٰ ، قَالَ : فَأَنَاخَ وَأَنَاخَا لِيَتَحَوَّلَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا اسْتَوَوْا بِالْأَرْضِ عَدَوْا عَلَيْهِ فَأَوْثَقَاهُ وَرَبَطَاهُ ثُمَّ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ ، وَفَتَنَاهُ فَافْتُتِنَ .

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَحَدَّثَنِي بِهِ بَعْضُ آلِ عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ : أَنَّهُمَا حِينَ دَخَلَا بِهِ مَكَّةَ دَخَلَا بِهِ نَهَارًا مُوثَقًا ، ثُمَّ قَالَا : يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، هَكَذَا فَافْعَلُوا بِسُفَهَائِكُمْ كَمَا فَعَلْنَا بِسَفِيهِنَا هَذَا .

قال عمر ﷺ: فكنا نقول : ما الله بقابلٍ ممن افتتن صَرْفًا ولا عَدْلاً ولا توبة ، قوم قد عرفوا الله ثم رجعوا إلىٰ الكفر لبلاء أصابهم ، قال : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم[1] .

وكان الرسول ﷺ يدعو لعياش وللوليد بن الوليد وسلمة بن هشام في القنوت فيقول : «اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الوَلِيدَ بْنَ الوَلِيدَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ»[2] .

⑤ وقال رسول الله ﷺ وهو بالمدينة : «مَنْ لِي بِعَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَهِشَامِ بْنِ العَاصِ ؟» ، فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة : أنا لك يا رسول الله بهما ، فخرج إلىٰ مكة فقدمها مستخفيًا ، فلقي امرأة تحمل طعامًا فقال لها : أين تريدين يا أَمَةَ الله ؟ قالت : أريد هذين المحبوسين - تعنيهما - فتبعها حتىٰ عرف موضعهما ، وكانا محبوسين في بيتٍ لا سقف له ، فلما أمسىٰ تسوَّر عليهما ، ثم أخذ مَرْوَةً (حجارة حادة تقطع) فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما ، فكان يقال لسيفه ذو المروة لذلك ، ثم حملهما علىٰ بعيره وساق بهما فعثر فدميت إصبعه فقال :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ

ثم قدم بهما علىٰ رسول الله ﷺ المدينة[3] .

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١/ ٤٧٤ - ٤٧٥) بإسناد صحيح .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٦٠٣٠) ، ك : الدعوات ، باب : الدعاء علىٰ المشركين ، ومسلم (١٥٧٢) ، ك : المساجد ، باب : استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة .

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٤٧٦) .

⑥ هجرة طلحة وصهيب:

ثم قدم طلحة بن عبيد الله فنزل هو وصهيب بن سنان على خبيب بن إساف ، وحين أراد صهيب ﷺ الهجرة إلى المدينة ، قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكًا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت ما بلغت ثم تريد أن تخرج بنفسك ومالك ، والله لا يكون ذلك ، فقال لهم : أرأيتم إن أعطيتكم مالي أتخلُّون سبيلي؟ فقالوا : نعم ، فقال : أُشهدكم أني قد جعلت لهم مالي ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : «رَبِحَ صُهَيْبٌ ، رَبِحَ صُهَيْبٌ»[(١)].

ثم تبعه نفرٌ من المشركين ، فَنَثَلَ كنانته وقال لهم : يا معشر قريش ، تعلمون أني من أرماكم ، ووالله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه ، قالوا : فدلّنا على مالك ونخلي عنك ، فتعاهدوا على ذلك ، فدلهم عليه ، ولحق برسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : «أبا يَحْيَى ، رَبِحَ البَيْعُ»[(٢)] ، فأنزل الله ﷻ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

⑦ ونزل عثمان بن عفان ﷺ على إسحاق بن ثابت ﷺ في بني النجار ، ونزل العُزَّابُ على سعد بن خَيْثَمَةَ ﷺ وكان عزبًا ، ولم يبق بمكة أحدٌ من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي ﷺ .

⑧ وهاجر خباب بن الأرت ، وهاجر زيد بن حارثة وأبو رافع ﷺ ، وكان المؤمن يفر بدينه إلى الله مخافة أن يفتن عليه .

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٠٨٢) ، وقال شعيب الأرناؤوط : رجاله ثقات رجال الشيخين وهو مرسل ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح فقه السيرة» (١/ ١٥٧) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٧٠٠) ، ك : معرفة الصحابة ﷺ ، باب : ذكر مناقب صهيب بن سنان الرومي ﷺ مولى النبي ﷺ ، وهذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

مؤتمر قريش لإبادة الدعوة:

وهكذا فتح القرشيون يومًا أعينهم علىٰ مكة وقد أقفرت من المسلمين، لقد غادروها صوب المهمة التي تنتظرهم مُخَلِّفين وراءهم أموالاً وبيوتًا ونساءً وأطفالاً وشيوخًا ومتاعًا كثيرًا؛ وذلك لأن الهدف الذي تحركوا من أجله أغلىٰ وأعلىٰ وأسمىٰ وأثمن من هذه الأموال والبيوت ومتع الدنيا الرخيصة الفانية، إنهم مستعدون حقيقة وواقعًا إلىٰ بذل أرواحهم ودمائهم في سبيل الله، ومن كان حاله كذلك هانت عليه التضحيات.

الجُودُ بِالمَالِ جُودٌ فِيهِ مَكْرُمَةٌ وَالجُودُ بِالنَّفْسِ أَسْمَىٰ غَايَةِ الجُودِ

وعلىٰ الرغم من كل محاولات الكفار لمنع الهجرة، والتنكيل بكل من تقع عليه أيديهم مهاجرًا، خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضًا، وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرىٰ لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما -أقاما بأمره لهما- وإلا من احتبسه المشركون كرهًا، ولهم أجر المهاجرين بما كانوا عليه من حرصهم علىٰ الهجرة، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متىٰ يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر رضي الله عنه جهازه.

جاء في الحديث أن رَسُولَ اللهِ ﷺ لمَّا قَالَ: «قَدْ أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ» (وَهُمَا الْحَرَّتَانِ)، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ الْمَدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَجَعَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إِلَىٰ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَىٰ رِسْلِكَ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ -كَانَتَا عِنْدَهُ- وَرَقَ السَّمُرِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢)، ك: المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

ونظر المشركون ، فإذا ديارٌ بمكة بعدما كانت عامرة بأهلها قد أقفرت ، ومحالٌ طالما كانت مؤنسة قد أَمْحَلَتْ (أجدبت) .

ولما رأىٰ المشركون أن أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا ، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلىٰ الأوس والخزرج أصابتهم الكآبة والحزن ، وساورهم القلق والهم بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد تجسد أمامهم خطر حقيقي عظيم ، أخذ يهدد كيانهم الوثني والاقتصادي :

❁ فقد كانوا يعلمون ما في شخصية النبيِّ محمد ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد ، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء في سبيله ، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من القوة والمنعة ، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح ، والتداعي إلىٰ نبذ الأحقاد ، ولا سيما بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر .

❁ كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلىٰ المَحَجَّةِ (الطريق) التجارية التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلىٰ الشام ، وقد كان أهل مكة يتاجرون إلىٰ الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنويًا ، سوىٰ ما كان لأهل الطائف وغيرها ، ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان علىٰ استقرار الأمن في تلك الطريق .

❁ وبات لا يخفىٰ علىٰ قريش الخطر البالغ في تمركز الدعوة الإسلامية في يثرب ، ومجابهة أهلها ضدهم .

❁ وشعرت قريش أيضًا بأن الإسلام أضحت له دار يَأْرِزُ إليها وحصن يحتمي به ، وَتَوَجَّسَتْ خيفة من عواقب هذه المرحلة الخطيرة في دعوة النبيِّ محمد ﷺ .

وهاجت في دمائها غرائز الشبح المفترس حين يخاف على حياته!!

إن محمدًا ﷺ لا يزال في مكة ، وهو - لابد - مدركٌ أصحابه اليوم أو غدًا ، فلنعجل به قبل أن يستدير إليها .

وحين شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي صار يهدد كيانهم ، فباتوا يبحثون عن أنجح الوسائل لدفع هذا الخطر الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام رسول الله محمد ﷺ .

ولما هال هذا الأمر قريشًا وأفزعها وأقلق سادتها ، راحوا يدبرون ويخططون لسحق الدعوة الإسلامية قبل أن تفلت الفرصة من أيديهم ، وفي دار الندوة اجتمع أساطين الكفر وسدنة الطغيان يطرحون الآراء لمكافحة هذه الدعوة .

ففي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر في السنة الرابعة عشر من النبوة ، أي بعد شهرين ونصف تقريبًا من بيعة العقبة الكبرىٰ ، في «دار الندوة» في مكة ، في أوائل النهار عقد المشركون أخطر اجتماع في تاريخهم ، وتوافد إلىٰ هذا الاجتماع جميع رؤساء القبائل القرشية ؛ ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعًا علىٰ حامل لواء الدعوة الإسلامية ؛ وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائيًا .

اجتمعوا ليأخذوا قرارًا حاسمًا قاطعًا لمواجهة رسول الله ﷺ ، وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول ، ودار النقاش طويلاً وكان كالتالي :

❁ قال بعضهم : نخرجه من بين أظهرنا وننفيه من بلادنا ، ولا نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، فقد أصلحنا أمرنا وأُلفتنا كما كانت .

❁ وقال بعضهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه بابًا ، ثم تربصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيرًا والنابغة - ومن مضىٰ منهم ، من هذا الموت ، حتىٰ يصيبه ما أصابهم .

ولكن هذا الرأي وذاك قد تم رفضهما ؛ لأنه في الحالتين ستصل دعوته ، وستجتاز الحواجز .

وبعد أن رفض المؤتمرون هذين الاقتراحين، قُدِّم اقتراحٌ آثم وافق عليه جميع الأعضاء، تقدم به أبو جهل بن هشام، ولا ريب أن الشيطان قد أوحىٰ به إليه؛ فإنما هو وليٌّ من أوليائه، فقام أبو جهل يُبدي هذا الرأي الخبيث ويقول: والله إن لي فيه رأيًا ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرىٰ أن نأخذ من كل قبيلة فتىً شابًا جلدًا نسيبًا وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتىً منهم سيفًا صارمًا، ثم يَعْمِدُوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تَفَرَّقَ دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف علىٰ حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم.

ووافق المؤتمرون بالإجماع علىٰ قول شيطانهم أبي جهل، وانصرفوا وهم عازمون علىٰ تنفيذ ذلك، قال الله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن طبيعة أمثال هذا الاجتماع: السرية التامة للغاية، وألا يبدو علىٰ السطح الظاهر أي حركة تخالف اليوميات، وتغاير العادات المستمرة، حتىٰ لا يشم أحد رائحة التآمر والخطر، ولا يدور في خَلَدِ أحدٍ أن هناك غموضًا يُنبئ عن الشر، وكان هذا مكرًا من قريش؛ ولكنهم ماكروا بذلك الله ﷻ، فخيبهم من حيث لا يشعرون.

فقد نزل الأمين جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ بوحي من ربه ﷻ فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة، وَبَيَّنَ له خُطة الرد علىٰ قريش فقال:

«لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه».

التخطيط للهجرة،

إن قدرة الله غالبة، وأمره ﷻ نافذ، وكان من اليسير أن يُزيل الكفر والكافرين بـ «كن»؛ لكن قضىٰ الله بجريان أمور الدعوة علىٰ عادة البشر وسُنَنِ الحياة؛ لِيَتَمَلَّىٰ المسلمون إرادة الله ﷻ لعز هذا الدين بالأخذ بالأسباب وبذل الجهد البشري والطاقة، ثم يأتي العون والنصر من الله ﷻ، ولينظروا أيضًا في مسار الأمور اعتبارًا وعظة؛ ولذلك كانت الهجرة عملاً بشريًا، رُوعِيَتْ فيه كافةُ الاحتمالات، ورسمت منهجًا للحركة الصحيحة، وقد أعان الله تعالىٰ رسوله والمسلمين علىٰ النجاح، وقدر لهم أن يتم أخطر عمل في حياة المسلمين بفكر البشر بعد توفيق الله ﷻ؛ ليكون دليلاً للمستقبل ومبدأً للتأسّي.

الصحبة..

ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الهَاجِرَةِ - حِينَ يَسْتَرِيحُ النَّاسُ فِي بُيُوتِهِمْ - إِلَىٰ أَبِي بَكْرٍ ؓ لِيُبْرِمَ مَعَهُ مَرَاحِلَ الهِجْرَةِ.

قَالَتْ عَائِشَةُ ؓ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ.

قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ ﷺ: «نَعَمْ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ إِحْدَىٰ رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢)، ك: المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة.

ثم أَبْرَمَ معه خطة الهجرة ، ورجع إلىٰ بيته ينتظر مجيء الليل ، وقد استمر في أعماله اليومية حسْبَ المعتاد حتىٰ لم يشعر أحد بأنه يستعد للهجرة ، أو لأي أمر آخر اتقاءً مما قررته قريش .

علي ﷺ يبيت في فراش النبي ﷺ .

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد سرًا لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرموها في «دار الندوة» صباحًا .

وكان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام في أوائل الليل بعد صلاة العشاء ، ويخرج بعد نصف الليل إلىٰ المسجد الحرام ، يصلي فيه قيام الليل ، فأمر عليًا ﷺ تلك الليلة أن يضطجع علىٰ فراشه ، ويَتَسَجَّىٰ بِبُرْدِهِ الحضرمي الأخضر ، وأخبره أنه لا يصيبه مكروه ، فكان أول من شَرَىٰ نفسه في الله ، وباعها فداءً لدين الله .

فلما كانت عتمة من الليل وساد الهدوء ، ونام عامة الناس جاء المذكورون إلىٰ بيته ﷺ سرًا ، واجتمعوا علىٰ بابه يرصدونه ، وهم يظنونه نائمًا حتىٰ إذا قام وخرج وثبوا عليه ، ونفَّذوا ما قرروا فيه .

وكانوا علىٰ ثقةٍ ويقينٍ جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنيئة ، حتىٰ وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء ، وقال مخاطبًا لأصحابه المطوِّقين ببيت النبي ﷺ في سخرية واستهزاء : إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه علىٰ أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بُعثتم من بعد موتكم ، فجُعلت لكم جِنان كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها !! ثم يضحك ويتضاحكون ساخرين .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل في وقت خروجه ﷺ من البيت ، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر ؛ ولكن الله غالبٌ علىٰ أمره ، بيده ملكوت السماوات والأرض ، يفعل ما يشاء ، وهو يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه .

خرج النبي ﷺ في موعده المعتاد على رُغم أنوفهم، وقد أخذ الله على أبصارهم؛ فلم يره أحد منهم، ونثر رسول الله ﷺ على رءوسهم كلهم ترابًا وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ١-٩].

ثم انصرف رسول الله ﷺ حيث أراد وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تَجلَّتْ لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا، قال: خبتم وخسرتم، قد واللهِ مَرَّ بكم، وذَرَّ على رءوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رءوسهم.

ولكنهم تطلعوا من صِيرِ (شَقّ) الباب فرأوا عليًا، فقالوا: والله إن هذا لمحمد نائمًا، عليه بُرْدُهُ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، وقام عليٌّ عن الفراش، فَسُقِطَ في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به، فما أصاب رجلًا منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافرًا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، قَالَ: تَشَاوَرَتْ قُرَيْشٌ لَيْلَةً بِمَكَّةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِذَا أَصْبَحَ فَأَثْبِتُوهُ بِالْوَثَاقِ -يُرِيدُونَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلِ اقْتُلُوهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ أَخْرِجُوهُ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ عز وجل نَبِيَّهُ ﷺ عَلَى ذَلِكَ، فَبَاتَ عَلِيٌّ عَلَى فِرَاشِ النَّبِيِّ ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى لَحِقَ بِالْغَارِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ يَحْرُسُونَ عَلِيًّا يَحْسَبُونَهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ثَارُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَوْا عَلِيًّا رَدَّ اللَّهُ مَكْرَهُمْ، فَقَالُوا: أَيْنَ صَاحِبُكَ هَذَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، فَاقْتَصُّوا أَثَرَهُ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْجَبَلَ خُلِّطَ

عَلَيهِمْ فَصَعِدُوا فِي الْجَبَلِ فَمَرُّوا بِالْغَارِ ، فَرَأَوْا عَلَىٰ بَابِهِ نَسْجَ الْعَنْكَبُوتِ فَقَالُوا : لَوْ دَخَلَ هَاهُنَا لَمْ يَكُنْ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ عَلَىٰ بَابِهِ ، فَمَكَثَ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ[1] .

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾

إنها صورة عميقة التأثير ؛ ذلك حين تتراءىٰ للخيال ندوةُ قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون . . والله من ورائهم محيط ، يراهم ويسمعهم وهو عليهم قدير ، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون !

فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة . . قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب علىٰ أمره ، وهو بكل شيءٍ محيط ؟!

وخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وَوَدَّعَ بلد الله التي أحبها وأحبته ، وَلَكَمْ تَمَنَّىٰ أن يبقىٰ في ربوعها ، ولكن الجاهلية العمياء الصمّاء حالت بينه وبينها ، فلم يستطع البقاء بين جدرانها ، فحملها في قلبه وارتحل ، ولكنه يقف ليطبع وثبة حب علىٰ جبين الزمن ، فيخاطب مكة مودعًا ، يَقُولُ لِمَكَّةَ : «**وَاللَّهِ إِنَّكِ لَأَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَىٰ اللَّهِ** عز وجل **، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»[2] ، وقال ﷺ لمكة : «**مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ**»[3] .

وهكذا مضىٰ رسول الله ﷺ عن مكة ، لم يستبدل حبًا بحب ، بل أضاف حبًا إلىٰ حب ، وهذا هو وفاء النبي محمد ﷺ !

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٤٨) ، وقال ابن كثير في «التفسير» : إسناده حسن ، وهو أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت علىٰ فم الغار (٢/٢٣٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجة (٣١٠٨) ، ك : المناسك ، باب : فضل مكة ، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجة» (٢٥٢٣) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٢٦) ، ك : المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب : في فضل مكة ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٣) .

إنه يتجه الآن إلىٰ بلدٍ آخر، سيتشرف هذا البلد بحلول نور الرسالة به، سيحفه المجد، وسيخلد ذكره في التاريخ، وسيكون منبرًا كبيرًا تنطلق منه دعوة الإسلام، وتسري من خلاله ينابيع الهدىٰ؛ لتغسل البشرية من أدران الشرك، وتطهرها من أقذار الكفر، وتغرس فيها الأمن والإيمان، فطابت طَيْبَةُ وطاب ساكنوها، واستضاءت المدينة وأضاءت أرجاؤها، بل ورمالها وجبالها وصحاريها بحلول ذلكم الموكب المنير والسراج المنير.. رسول الله ﷺ.

فإذا عزمت فتوكل على الله:

إن كل خطوة وكل وقفة وكل حركة يقوم بها النبي ﷺ في حياته إنما يعلِّم بها أمته دروسًا يتأسون بها ويتربون عليها، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، فقوله سبحانه: ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾ يعني في كل حركة في حياته، فلم تكن رحلة الهجرة بدون تخطيط أو إعداد.

نعم هو يعلَم ﷺ أن الله سبحانه سيحفظه.

نعم هو علىٰ يقين أن الله ﷻ سيخذل كل أعدائه.

لكن لابد من الأخذ بالأسباب، لابد من استنفاذ الجهد في التخطيط البشري، وبعد ذلك يكون التوكل علىٰ الله ﷯؛ لتتعلم الأمة وليتربىٰ مُتَّبِعُوهُ ﷺ.

وتعالَ لنرىٰ هذه الخطوات:

(١) استبقىٰ رسول الله ﷺ عليًا في مكة؛ ليؤدي عنه الأمانات التي كان المشركون قد أودعوها عند رسول الله ﷺ، وأمره النبي ﷺ أن يبيت في فراشه ويتغطىٰ ببرده الحضرمي؛ ليظن المشركون أن رسول الله ﷺ هو النائم علىٰ السرير، فكان نومه لمهمتين: تمويهًا علىٰ المشركين، وأداء للأمانة؛ لتظل الدعوة وفيَّة، ويعلو الإسلام ويظل فوق المصالح.

(٢) إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق ؛ فجاء إلىٰ بيت الصديق متلثمًا ؛ لأن التلثم يقلل من إمكانية معرفة الإنسان ، وجاءه في نحر الظهيرة ووقت لم يكن يأتي فيه .

(٣) كان الخروج ليلًا ومن باب خلفي في دار أبي بكر ﷺ، وهذا مبالغة في الاستخفاء .

(٤) اتخذ رسول الله ﷺ راحلتين عند أبي بكر ﷺ وأعدهما للسفر ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : «**فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ**» ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصَّحَابَةُ (الصحبة والمصاحبة) بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**نَعَمْ**» ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَىٰ رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**بِالثَّمَنِ**»[1] .

ولعلك تسأل : لماذا لم يقبلها النبي ﷺ إلا بالثمن ، وقد أنفق عليه أبو بكر من ماله ما هو أكثر من هذا فَقَبِلَ ؟ فالجواب : إنما فعل النبي ﷺ ذلك ؛ لتكون هجرته إلىٰ الله بنفسه وماله رغبةً منه ﷺ في استكمال فضل الهجرة إلىٰ الله ، وأن يكون علىٰ أتم الأحوال ، ولأن البذل في الهجرة ضربٌ من العبادة ينبغي الحرص عليه وتستبعد النيابة فيه ، وقد قال ﷺ لصاحبيه عند غزوة بدر : «**مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَىٰ مِنِّي عَلَىٰ السَّيْرِ ، وَلَا أَنَا بِأَغْنَىٰ مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ**»[2] .

(٥) استأجر النبي ﷺ دليلًا خبيرًا خِرِّيتًا ماهرًا ، عالمًا بدروب الصحراء وطرقها وهو عبد الله بن أُرَيْقِط ؛ ليستعين النبي ﷺ بخبرة هذا الخِرِّيت علىٰ مغالبة المطاردين ، ونظر في ذلك إلىٰ الكفاية والمهارة والأمانة حتىٰ ولو كان مشركًا ، قالت عائشة ﵂ : وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا -وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ-

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٢) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٤١١) ، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وَهُوَ عَلَىٰ دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ .

(٦) تَخَيَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الغارَ الذي سيَكْمُن فيه أيامًا حتىٰ تهدأ ثورة البحث ، واختاره جنوبًا في اتجاه اليمن لتضليل المطاردين ، والتعمية عليهم : فسلك طريقًا غير مأهولة ، وغير مسلوكة ؛ لأن الباحثين والمطاردين سيكون أول بحثهم في هذه الطرق المعهودة إلىٰ المدينة ، وكَمَنَ النبي ﷺ في هذا الغار - غار ثور - ثلاثة أيام .

(٧) حدد ﷺ مهمة لكل شخص ليقوم بها :

❁ فعبد الله بن أبي بكر بمثابة جهاز مخابرات يبيت في مكة يلتقط الأخبار ثم يأتي ليخبر بها رسول الله ﷺ ، قالت عائشة : يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ .

❁ وعامرُ بنُ فُهَيْرَةَ يرعىٰ عليهما مِنْحَةً من غنم ليصيبا من لبنها ، قالت عائشة : وَيَرْعَىٰ عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَىٰ أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا حَتَّىٰ يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ (ظلام آخر الليل) ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ .

❁ وأسماء تحمل الطعام إليهما ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَىٰ فَمِ الْجِرَابِ ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ .

والآن أحضر قلبك ؛ لتهاجر به مع حبيبك ﷺ ...

أحداث الهجرة:

أخي الحبيب، تعالَ عش معي هذه الأحداث وتأمل وافقَهْ لتعمل، تعالَ لنسير مع رسول الله ﷺ في رحلة الهجرة خطوة بخطوة:

الخروج:

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مُتَقَنِّعًا فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ، قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِحْدَىٰ رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ».

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الْجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَىٰ فَمِ الْجِرَابِ؛ فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ.

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشًا ستَجِدُّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيس المتجه شمالاً، سلك الطريق الذي يضاده تمامًا، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن، سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال حتىٰ بلغ إلىٰ جبل يعرف بجبل ثَوْر وهو جبل شامخ، وَعِرُ الطريق، صعب المرتقىٰ، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشي في الطريق علىٰ أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه، وأيًا ما كان فقد حمله أبو بكر رضي الله عنه حين بلغ إلىٰ الجبل، وطفق يشتد به حتىٰ انتهىٰ به إلىٰ غارٍ في قمة الجبل عُرف في التاريخ بغار ثَوْر.

ولما انتهيا إلىٰ الغار قال أبو بكر : والله لا تدخله حتىٰ أدخل قبلك ؛ فإن كان فيه شيءٌ أصابني دونك ، فدخل فكسحه ، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدها به ، وبقىٰ منها اثنان فألقمهما رجليه ، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادخل ، فدخل رسول الله ﷺ ، ووضع رأسه في حجره ونام ، فَلُدِغَ أبو بكر في رجله من الجحر ، ولم يتحرك مخافة أن ينتبهَ رسول الله ﷺ ، فسقطت دموعه علىٰ وجه رسول الله ﷺ ، فقال : «مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟» قال : لُدِغْتُ ، فداك أبي وأمي ، فتفل رسول الله ﷺ علىٰ رجله ومسحها ؛ فذهب ما يجده .

قَالَتْ عائشة : ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ .

وَيَرْعَىٰ عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَىٰ أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا ، حَتَّىٰ يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ[1] .

أما قريش فقد جن جنونها حينما تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة ؛ فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًا ، وسحبوه إلىٰ الكعبة ، وحبسوه ساعة ، علهم يظفرون بخبرهما ، ولما لم يحصلوا من عليّ علىٰ جدوىٰ جاءوا إلىٰ بيت أبي بكر وقرعوا بابه ، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر ، فقالوا لها : أين أبوك؟ قالت : لا أدري والله أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدها لطمة طرح منها قُرْطها .

وقررت قريشٌ في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض علىٰ الرجلين ، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة في جميع الجهات

(١) حديث الهجرة أخرجه البخاري (٣٦٩٢) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ .

تحت المراقبة المسلحة الشديدة ، كما قررت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحدٍ منهما لمن يعيدهما إلىٰ قريش حيىٍ أو ميتين ، كائنًا من كان .

وحينئذ جَدّت الفرسان والمُشاة وقصّاص الأثر في الطلب ، وانتشروا في الجبال والوديان ، والوهاد والهضاب ، لكن بحثوا دون جدوىٰ وعادوا بغير عائدة .

وقد وصل المطارِدون إلىٰ باب الغار ؛ ولكن الله غالبٌ علىٰ أمره ، فعَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ ، فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا ، قَالَ : «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ ، اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»[1] .

وقد كانت معجزةً أكرم الله بها نبيه ﷺ ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة .

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وحين خمدت نار الطلب ، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش ، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوىٰ ؛ تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلىٰ المدينة .

وَكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قد اسْتَأْجَرَا رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالْخِرِّيتُ الْمَاهِرُ بِالْهِدَايَةِ - قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وَهُوَ عَلَىٰ دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٧٠٧) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة ، ومسلم (٢٣٨١) ، ك : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبي بكر ﷺ .

إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا ، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ وَالدَّلِيلُ ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ .

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن ، ثم اتجه غربًا نحو الساحل ، حتىٰ إذا وصل إلىٰ طريق لم يألفه الناس ، اتجه شمالاً علىٰ مقربة من شاطئ البحر الأحمر ، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا .

وهاك بعض ما وقع في الطريق :

❁ قال أبو بكر ﷺ: أَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَمِنَ الْغَدِ حَتَّىٰ قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ ، وَخَلَا الطَّرِيقُ لَا يَمُرُّ فِيهِ أَحَدٌ ، فَرُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ طَوِيلَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ فَنَزَلْنَا عِنْدَهُ ، وَسَوَّيْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ مَكَانًا بِيَدِي يَنَامُ عَلَيْهِ ، وَبَسَطْتُ فِيهِ فَرْوَةً وَقُلْتُ : نَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا أَنْفُضُ لَكَ مَا حَوْلَكَ ، فَنَامَ وَخَرَجْتُ أَنْفُضُ مَا حَوْلَهُ ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ مُقْبِلٍ بِغَنَمِهِ إِلَىٰ الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ : لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ ، قُلْتُ : أَفِي غَنَمِكَ لَبَنٌ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : أَفَتَحْلُبُ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَخَذَ شَاةً ، فَقُلْتُ : انْفُضِ الضَّرْعَ مِنَ التُّرَابِ وَالشَّعَرِ وَالْقَذَىٰ ، (قَالَ الرَّاوِي : فَرَأَيْتُ الْبَرَاءَ يَضْرِبُ إِحْدَىٰ يَدَيْهِ عَلَىٰ الْأُخْرَىٰ يَنْفُضُ ، فَحَلَبَ فِي قَعْبٍ كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ) ، وَمَعِي إِدَاوَةٌ حَمَلْتُهَا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَرْتَوِي مِنْهَا يَشْرَبُ وَيَتَوَضَّأُ .

فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُ ، فَوَافَقْتُهُ حِينَ اسْتَيْقَظَ ، فَصَبَبْتُ مِنَ الْمَاءِ عَلَىٰ اللَّبَنِ حَتَّىٰ بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَقُلْتُ : اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَشَرِبَ حَتَّىٰ رَضِيتُ ، ثُمَّ قَالَ : «أَلَمْ يَأْنِ لِلرَّحِيلِ؟» ، قُلْتُ : بَلَىٰ ، قَالَ : فَارْتَحَلْنَا بَعْدَمَا مَالَتِ الشَّمْسُ .

وَاتَّبَعَنَا سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكٍ ، فَقُلْتُ : أُتِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فقال : «اللَّهُمَّ اصْرَعْهُ» ؛

فَارْتَطَمَتْ بِهِ فَرَسُهُ إِلَىٰ بَطْنِهَا أُرَىٰ فِي جَلَدٍ مِنَ الْأَرْضِ ، فَصَرَعَهُ الفَرَس ثُمَّ قَامَتْ تُحَمْحِمُ ، فَقَالَ : إِنِّي أُرَاكُمَا قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ ، فَادْعُوَا لِي ؛ فَاللَّهُ لَكُمَا أَنْ أَرُدَّ عَنْكُمَا الطَّلَبَ ، فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَنَجَا ، فقال : يا نبي الله ، مرني بما شئت ، قال : «فَقِفْ مَكَانَكَ لَا تَتْرُكَنَّ أَحَدًا يَلْحَقُ بِنَا»[1]، قال : فكان أول النهار جاهدًا على نبي الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحَةً له ، فَجَعَلَ لَا يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلَّا قَالَ : قَدْ كَفَيْتُكُمْ مَا هُنَا ، فَلَا يَلْقَىٰ أَحَدًا إِلَّا رَدَّهُ ، قَالَ : وَوَفَىٰ لَنَا[2] .

وإليك قصة سراقة من أولها :

ملاحقة سراقة بن مالك الرسول ﷺ وصاحبه :

قامت قريش بالإعلان عن مسابقة لقتل رسول الله ﷺ ، وأن من جاء به حيًّا أو ميتًا فله مائة ناقة ، وانتشر هذا الخبر بين العرب في أرجاء مكة ، وكان ممن طمع في هذه الجائزة سراقة بن مالك ، فبذل كل جهده لينال ذلك ؛ ولكن الله ﷻ الذي بيده قلوب العباد يحوله من طالب لدم رسول الله ﷺ إلى مدافع عن رسول الله ﷺ ، كيف تم ذلك ؟ وما هي أحداث هذه المطاردة ؟

دع سراقة يحكي لك القصة بنفسه ، يقول :

جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيْشٍ يَجْعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ مَائة ناقةٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْ قَتَلَهُ أَوْ أَسَرَهُ ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّىٰ قَامَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ جُلُوسٌ ، فَقَالَ : يَا سُرَاقَةُ ، إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ آنِفًا أَسْوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ ، قَالَ سُرَاقَةُ : فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ هُمْ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِهِمْ ، وَلَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلَانًا وَفُلَانًا انْطَلَقُوا بِأَعْيُنِنَا .

ثُمَّ لَبِثْتُ فِي الْمَجْلِسِ سَاعَةً ، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فَأَمَرْتُ جَارِيَتِي أَنْ تَخْرُجَ بِفَرَسِي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٩)، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة .

(٢) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٤١٩) ، ك : المناقب ، باب : علامات النبوة في الإسلام ، ومسلم (٢٠٠٩) ، ك : الزهد والرقائق ، باب : في حديث الهجرة .

وَهِيَ مِنْ وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحْبِسَهَا عَلَيَّ ، وَأَخَذْتُ رُمْحِي فَخَرَجْتُ بِهِ مِنْ ظَهْرِ الْبَيْتِ ، فَحَطَطْتُ بِزُجِّهِ الْأَرْضَ وَخَفَضْتُ عَالِيَهُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُهَا ، فَرَفَعْتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّىٰ دَنَوْتُ مِنْهُمْ ، فَعَثَرَتْ بِي فَرَسِي ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ، فَقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ يَدِي إِلَىٰ كِنَانَتِي فَاسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا الْأَزْلَامَ فَاسْتَقْسَمْتُ بِهَا أَضُرُّهُمْ أَمْ لَا ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي وَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ تُقَرِّبُ بِي ، حَتَّىٰ إِذَا سَمِعْتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ ، وَأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفَاتَ ، سَاخَتْ يَدَا فَرَسِي فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْنِ ، فَخَرَرْتُ عَنْهَا ثُمَّ زَجَرْتُهَا فَنَهَضَتْ ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْهَا فَلَمَّا اسْتَوَتْ قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ الدُّخَانِ ، فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ ، فَنَادَيْتُهُمْ بِالْأَمَانِ ، فَوَقَفُوا فَرَكِبْتُ فَرَسِي حَتَّىٰ جِئْتُهُمْ .

وَوَقَعَ فِي نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِنَ الْحَبْسِ عَنْهُمْ أَنْ سَيَظْهَرُ أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَخْبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِمْ ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الزَّادَ وَالْمَتَاعَ ، فَلَمْ يَرْزَآنِي وَلَمْ يَسْأَلَانِي ، إِلَّا أَنْ قَالَ : «أَخْفِ عَنَّا» ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ لِي كِتَابَ أَمْنٍ ، فَأَمَرَ عَامِرَ ابْنَ فُهَيْرَةَ ، فَكَتَبَ فِي رُقْعَةٍ مِنْ أَدِيمٍ ، ثُمَّ مَضَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ[1] .

ثم كان من أمر سراقة بن مالك أنه اشتهر بين الناس ، فقد قال النبي ﷺ لسراقة : «كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَىٰ ؟» ، فلما فتحت الفتوح أُتِيَ عمرُ بسواري كسرىٰ ، فدعا سراقة وألبسه إياهما ، وكان سراقة رجلًا أَزَبَّ كثير شعر الساعدين ، وقال له : ارفع يديك ، وقل : الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرىٰ بن هرمز ، الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة رجلًا أعرابيًا ، من بني مُدْلِج ، ورفع عمر صوته ، فقال سراقة : الله أكبر ، سوارا كسرىٰ بن هرمز ، في يدي سراقة بن جُعشم ، أعرابي من بني مدلج ، اللَّهُمَّ إني أعوذ بك أن تكون إنما أعطيتني هذا لتمكرَ بي ، وجعل يبكي .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٣) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة .

أدب الصديق مع المصطفى:

كان من أدب أبي بكر ﷺ أنه كان يركب رِدْفَ النبي ﷺ ، وكان شيخًا يُعرف ، ونبيُّ الله ﷺ شابٌ لا يعرف ، فيلقىٰ الرجل أبا بكر فيقول : من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول : هذا الرجل يهديني الطريق ، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق ؛ وإنما يعني سبيل الخير[1] .

وفي اليوم الثاني أو الثالث بعد حادثة سراقة مرا بخيمتي أم مَعْبَد الخزاعية .. وهنا قصة!

المرور بخيمة أم معبد:

كانت أم معبد امرأة بَرْزَةً جَلْدَةً تحتبي بفناء الخيمة ، ثم تطعم وتسقي من مر بها ، فسألاها : هل عندها شيء؟ فقالت : والله لو كان عندنا شيء ما أَعْوَزَكُمْ القِرَىٰ ، والشاءُ عازِبٌ ، وكانت سَنَةٌ شَهْباء .

فنظر رسول الله ﷺ إلىٰ شاة في كسر الخيمة ، فقال : «**مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمَّ مَعْبَدٍ؟**» قالت : شاةٌ خَلَّفَهَا الجَهْدُ عن الغنم ، فقال : «**هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟**» قالت : هي أجهد من ذلك ، فقال : «**أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا ؟**»[2] قالت : نعم ، بأبي وأمي إن رأيت بها حلبًا فاحلبها ، فمسح رسول الله ﷺ ضَرْعَهَا ، وسمىٰ الله ودعا ، فتَفَاجَتْ عليه ودَرَّتْ ، فدعا بإناء لها يَرْبِض الرهط ، فحلب فيه حتىٰ علته الرغوة ، فسقاها ، فشربت حتىٰ رويت ، وسقىٰ أصحابه حتىٰ رَوُوا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانيًا ، حتىٰ ملأ الإناء ، ثم غادره عندها فارتحلوا .

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافًا يتساوكن هزلاً ، فلما رأىٰ اللبن عجب ، فقال : من أين لك هذا؟ والشاة عازب ، ولا حلوبة في البيت؟ فقالت : لا والله ؛ إلا أنه مر بنا رجلٌ مبارك كان من حديثه كَيْتَ وكيت ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٩) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة .
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٧٤) ، ك : الهجرة ، وقال الذهبي في التلخيص : صحيح .

ومن حاله كذا وكذا ، فقال لها زوجها : إني والله أراه صاحب قريش الذي تطلبه ، صِفِيه لي يا أم معبد ، فوصفته بصفاته الكريمة وصفًا بديعًا كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه ، فقال أبو معبد : والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلىٰ ذلك سبيلاً .

في الطريق:

❁ روىٰ البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ .

❁ وفي الطريق لقي النبي ﷺ بُرَيْدَة بنَ الحُصَيْب الأسلمي ومعه نحو ثمانين بيتًا ، فأسلم وأسلموا ، وصلىٰ رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلوا خلفه ، وأقام بريدة بأرض قومه ، حتىٰ قدم علىٰ رسول الله ﷺ بعد أُحُد .

❁ وعن عبد الله بن بريدة أن النبي ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير ، فركب بريدة في سبعين راكبًا من أهل بيته من بني سهم ، فلقي النبي ﷺ ، فقال له : «مِمَّنْ أَنْتَ ؟» قال : من أسلم ، فقال لأبي بكر : «سَلِمْنَا» ، ثم قال : «مِنْ بَنِي مَنْ ؟» قال : من بني سهم ، قال : «خَرَجَ سَهْمُكَ»[(١)] .

❁ ومر رسول الله ﷺ بأبي أوس تميم بن حَجَر ، بقحداوات بين الجُحْفَة وهَرْشَىٰ - بالعَرْج - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره ، فكان هو وأبو بكر علىٰ جملٍ واحد ، فحمله أوس علىٰ فحل من إبله ، وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود ، وقال : اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما ، فسلك بهما الطريق حتىٰ أدخلهما المدينة ، ثم رد رسول الله ﷺ مسعودًا إلىٰ سيده .

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ١٨٥) ، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٤١١٢) .

ولما أتىٰ المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هُنَيْدَة من العَرْج علىٰ قدميه إلىٰ رسول الله ﷺ يخبره بهم، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يسكن العرج.

ومكث علي بن أبي طالب ﷺ بمكة ثلاثًا حتىٰ أدىٰ عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشيًا علىٰ قدميه حتىٰ لحقهما بقباء، ونزل علىٰ كلثوم بن الهَدْم.

الوصول:

وبعد طريق شاق طويل، بعد أيامٍ وليالٍ في دروب الصحراء المهلكة بين الشعاب والأودية والجبال والرمال، بعد مكابدة الحر والجوع والعطش دنا الموكب الكريم من المدينة، اقترب انبثاق نور الهدىٰ، وحان تفجر ينابيع الإيمان في تلك البلدة المباركة الميمونة.

كان أهل المدينة في شوق شديد لرؤية رسول الله ﷺ، كانت قلوبهم ترتجف من الفرح لرؤية الحبيب المصطفىٰ، فطوبىٰ لمن اكتحلت عيناه برؤية رسول الله ﷺ، طوبىٰ لمن رآه!! طوبىٰ لمن جالسه!! وطوبىٰ ثم طوبىٰ لمن أحبه واتبعه وسار علىٰ نهجه، ليكون في الجنة معه.

ولما سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، كانوا يغدون كل غداة إلىٰ الحرَّة، فينتظرونه حتىٰ يردهم حَرُّ الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلىٰ بيوتهم، أوفىٰ رَجُلٌ من يهود علىٰ أُطُم (كالحصن) من آطامهم؛ لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين (عليهم ثياب بيض)، يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلىٰ صوته: يا معاشر العرب، هذا جدُّكم (حظكم وصاحب دولتكم) الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلىٰ السلاح، وخرج الناس في الطرق وعلىٰ البيوت، والغلمان والخدم يقولون:

الله أكبر! جاء رسول الله ﷺ، الله أكبر! جاء محمد ﷺ[1].

فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة؛ فعدل بهم ذات اليمين، حتىٰ نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول.

فقام أبو بكر رضي الله عنه للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يُحَيِّي أبا بكر رضي الله عنه، حتىٰ أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتىٰ ظَلَّلَ عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام: من الاثنين إلىٰ الخميس أو الجمعة علىٰ الأشهر من اختلاف أهل السير والتاريخ في مدة مقامه ﷺ ما بين يومين إلىٰ اثنين وعشرين ليلة، وأسس النبي ﷺ مسجد قباء في تلك الأيام وصلىٰ فيه، وهو المسجد الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، فكان أول مسجد بني في الإسلام بالمدينة؛ بل أول مسجد جعل لعموم الناس.

فلما كان يوم الجمعة ركب رسول الله ﷺ بأمر الله عز وجل له، وأبو بكر رضي الله عنه ردفه، وأرسل إلىٰ بني النجار - أخواله - فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة وهم حوله، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في المسجد الذي ببطن الوادي: وادي رانوناء، وكانوا مائة رجل، وهي أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ في المدينة، بل قيل: هي أول صلاة جمعة صلاها مطلقًا؛ لأنه لم يكن يتمكن في مكة من الاجتماع بأصحابه حتىٰ يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان وموعظة؛ لشدة مخالفة المشركين له وإيذائهم إياه وأصحابه.

وفي هذه الجمعة خطب رسول الله ﷺ المسلمين خطبة بليغة مؤثرة تفيض بالإيمان واليقين، والمواعظ والزواجر، والترغيب والترهيب:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٢)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

«الحَمْدُ للهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ وَأَسْتَغْفِرُهُ وَأَسْتَهْدِيهِ، وَأُومِنُ بِهِ وَلَا أَكْفُرُهُ، وَأُعَادِي مَنْ يَكْفُرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالهُدَىٰ وَالنُّورِ وَالمَوْعِظَةِ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَقِلَّةٍ مِنَ العِلْمِ، وَضَلَالَةٍ مِنَ النَّاسِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَدُنُوٍّ مِنَ السَّاعَةِ، وَقُرْبٍ مِنَ الأَجَلِ، مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَىٰ وَفَرَّطَ وَضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا.

وَأُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّهَا خَيْرُ مَا أَوْصَىٰ بِهِ المُسْلِمُ المُسْلِمَ أَنْ يَحُضَّهُ عَلَىٰ الآخِرَةِ وَأَنْ يَأْمُرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ، فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ نَصِيحَةً وَلَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ذِكْرًا، وَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ عَلَىٰ وَجَلٍ وَمَخَافَةٍ مِنْ رَبِّهِ عَوْنُ صِدْقٍ عَلَىٰ مَا تَبْغُونَ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ، وَمَنْ يُصْلِحِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ مِنْ أَمْرِهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، لَا يَنْوِي بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَ اللهِ؛ يَكُنْ لَهُ ذِكْرًا فِي عَاجِلِ أَمْرِهِ، وَذُخْرًا فِيمَا بَعْدَ المَوْتِ حِينَ يَفْتَقِرُ المَرْءُ إِلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَمَا كَانَ مِنْ سِوَىٰ ذَلِكَ ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وَالَّذِي صَدَّقَ قَوْلَهُ وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ لَا خُلْفَ لِذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فَاتَّقُوا اللهَ فِي عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وَآجِلِهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا، وَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ يُوَقِّي مَقْتَهُ، وَيُوَقِّي عُقُوبَتَهُ، وَيُوَقِّي سَخَطَهُ، وَإِنَّ تَقْوَىٰ اللهِ يُبَيِّضُ الوُجُوهَ وَيُرْضِي الرَّبَّ وَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ.

خُذُوا بِحَظِّكُمْ وَلَا تُفَرِّطُوا فِي جَنْبِ اللهِ، قَدْ عَلَّمَكُمُ اللهُ كِتَابَهُ، وَنَهَجَ لَكُمْ سَبِيلَهُ؛ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَيَعْلَمَ الكَاذِبِينَ، فَأَحْسِنُوا كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمْ، وَعَادُوا أَعْدَاءَهُ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَسَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ؛ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ، وَاعْمَلُوا لِمَا بَعْدَ اليَوْمِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُصْلِحْ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ يَكْفِهِ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يَقْضِي عَلَىٰ النَّاسِ وَلَا يَقْضُونَ عَلَيْهِ، وَيَمْلِكُ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ، اللهُ أَكْبَرُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَظِيمِ».

روىٰ هذه الخطبة الإمام محمد بن جرير، وفي السند إرسال، وقد حرصت علىٰ ذكرها كلها؛ لأن فيها قبسًا من نور الوحي، وحكمًا من حكم النبوة، وهي نموذج رائع من كلمه الجوامع، وحكمه النوابغ، وفيها القدوة لمن يحب أن يقتدي بالرسول ﷺ في خطبه ويحتذي به في مواعظه.

وكان يومًا مشهودًا في تاريخ الدنيا يوم دخل النبي ﷺ المدينة راكبًا ناقته القصواء، وأبو بكر رضي الله عنه ردفه، وملأ بني النجار حوله متقلدين سيوفهم يُرْهِبُونَ بها أعداء الله ورسوله، ومن تُسَوِّلُ له نَفْسُهُ من اليهود والمشركين أن ينال من رسول الله ﷺ، وليُعْلِموهم أنه إذا كان ترك أهله ووطنه إلىٰ الله، فلا يزال في عزة ومنعة من أخواله وأتباعه وأنصاره، إنه لمشهد معبر يُغْني عن الكلام والخطب!

وخرجت المدينةُ كلُّها بشبابها وشيبها، وصبيانها ونسائها وولائدها؛ لتشارك في استقبال القادم الكريم، وليملأوا عيونهم من هذا الذي أصبح ذِكْرُهُ علىٰ كل لسان ﷺ، وأنصاره في كل بيت.

روىٰ الإمام أحمد في وصف هذا المشهد الحافل: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: إِنِّي لَأَسْعَىٰ فِي الْغِلْمَانِ يَقُولُونَ: جَاءَ مُحَمَّدٌ، فَأَسْعَىٰ فَلَا أَرَىٰ شَيْئًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: جَاءَ مُحَمَّدٌ، فَأَسْعَىٰ فَلَا أَرَىٰ شَيْئًا، قَالَ: حَتَّىٰ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، فَكُنَّا فِي بَعْضِ حِرَارِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ بَعَثَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِيُؤْذِنَ بِهِمَا الْأَنْصَارَ، فَاسْتَقْبَلَهُمَا زُهَاءَ خَمْسِ مِائَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ حَتَّىٰ انْتَهَوْا إِلَيْهِمَا، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: انْطَلِقَا آمِنَيْنِ مُطَاعَيْنِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبُهُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَخَرَجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، حَتَّىٰ إِنَّ الْعَوَاتِقَ لَفَوْقَ الْبُيُوتِ يَتَرَاءَيْنَهُ يَقُلْنَ: أَيُّهُمْ هُوَ أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَمَا رَأَيْنَا مَنْظَرًا مُشْبِهًا بِهِ يَوْمَئِذٍ، قَالَ أَنَسُ ابْنُ مَالِكٍ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَوْمَ دَخَلَ عَلَيْنَا وَيَوْمَ قُبِضَ فَلَمْ أَرَ يَوْمَيْنِ مُشْبِهًا بِهِمَا[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٢٢)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ[(١)].

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة، وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا دَعَوْهُ، ثم أتاه رجال من بني سالم بن عمرو بن عوف فقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، ويتشبثون بزمام الناقة -ناقته القصواء- فيقول لهم: «**خلُّوا سَبِيلَهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»[(٢)]، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، وكلما مر بدار من دور الأنصار في الطريق عرضوا عليه أن ينزل عندهم في العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ، فيقول لهم مثل قولته الأولىٰ.

حتىٰ وصلت الناقة إلىٰ موضع مسجده الشريف فبركت عنده، والنبي ﷺ راكب عليها لم ينزل، ومكان المسجد يومئذ مِرْبَدٌ لغلامين يتيمين من بني النجار في حجر معاذ بن عفراء يقال لأحدهما سهل وللآخر سهيل ابنا عمرو بن عَبَّاد ابن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، ثم ثارت الناقة وسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم التفت خلفها ورجعت إلىٰ مبركها أول مرة، فبركت فيه وألقت بجرانها (عنقها)، فقال النبي ﷺ: «**هُنَا المَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[(٣)].

فأمر به رسول الله ﷺ أن يُبنىٰ مسجدًا، ونزل علىٰ أبي أيوب حتىٰ بنىٰ مسجده ومساكنه، وقيل: إن رسول الله ﷺ اشترىٰ موضع مسجده ثم بناه، قال ابن القيم رحمه الله: والصحيح عندنا في ذلك عن أنس بن مالك قال: كان موضع مسجد النبي ﷺ لبني النجار وكان فيه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهلية

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦١٨)، ك: المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: فضل النبي ﷺ، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في «صحيح الترمذي» (٢٨٦١).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٤٩٤).

(٣) «سبل الهدىٰ والرشاد في هدي خير العباد» (٣/ ٢٧٣).

فقال لهم النبي ﷺ : «ثَامِنُونِي بِهِ» فقالوا : لا نبتغي به ثمنًا إلا ما عند الله[1] .

فنزل النبي ﷺ فتنازعه الملأ أيهم ينزل عليه ، فقال : «**إِنِّي أَنْزِلُ عَلَىٰ بَنِي النَّجَّارِ أَخْوَالِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أُكْرِمُهُمْ بِذَلِكَ**» .

وفي رواية أنس رضي الله عنه عند البخاري ، قال نبي الله ﷺ : «**أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟**» فقال أبو أيوب رضي الله عنه: أنا يا رسول الله ، هذه داري ، وهذا بابي ، قال : «**فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلًا**» ، قال : قوما على بركة الله[2] .

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سَوْدَة ، وبنتاه فاطمة وأم كلثوم ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ، ومنهم عائشة ، وبقيت زينب عند أبي العاص ، لم يمكِّنها من الخروج حتىٰ هاجرت بعد بدر .

ثم جاء أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ليلة العقبة الثانية ، وقد فاته شرف نزول رسول الله ﷺ عنده ، فأخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ فكانت عنده ، واعتبر هذا شرفًا وكرامة له .

وكان نزول رسول الله ﷺ بدار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه منقبة عظيمة له ولبني النجار جميعًا ، وقد كان في المدينة دُورٌ كثير تبلغ تسعًا ، كُلُّ دارٍ مَحِلَّةٌ مستقلة بمساكنها ونخيلها وزرعها وأهلها ، كل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في مَحِلَّتِهِمْ ، وهي كالقرىٰ المتلاصقة ، فاختار الله عز وجل لرسوله ﷺ دار بني مالك بن النجار تكريمًا لهم لخؤولتهم لرسول الله ﷺ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٣٤٤) ، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢) ، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩٩) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة .

أدب أبي أيوب رضي الله عنه مع النبي ﷺ.

وأقام رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب معززًا مكرمًا سبعة أشهر ، حتىٰ بنىٰ المسجد وبنيت دور أهله ونسائه فانتقل إليها ، ونزل رسول الله ﷺ أول ما نزل في سفل دار أبي أيوب ، وقد آلم أبا أيوب أن يكون رسول الله ﷺ في السفل ، وألح عليه أن يكون في العلو ، حتىٰ بيّنَ النبيُّ ﷺ له أن ذلك أرفق به وبمن يأتيه من المسلمين والزائرين ، فقد كانت دار أبي أيوب منتدىٰ يجتمع فيه المسلمون لملاقاة النبي ﷺ .

وبالغ أبو أيوب في إكرام رسول الله ﷺ ، وما كانت تطيب نفسه أن يأكل حتىٰ يأكل رسول الله ﷺ ، فكان يهيئ الطعام ويرسله إلىٰ النبي ﷺ ، فإذا عادت القصعة سأل عن موضع أصابع النبي ﷺ فيأكل حيث أكل ، وذات مرة صنع طعامًا وكان فيه ثوم لم تذهب رائحته ، فسأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له : لم يأكل منه ، ففزع وذهب إليه وقال : أحرام هو يا رسول الله ؟ قال : «**لَا ، وَلَكِنَّنِي أَكْرَهُهُ**»[1] .

وفي مرة أخرىٰ كسرت لأبي أيوب جرة فيها ماء ، ففزع أبو أيوب رضي الله عنه والسيدة أم أيوب زوجه رضي الله عنها ، وأسرعا إلىٰ قطيفة لهما كانا يعتزان بها ، فأخذاها وصارا يجففان بها الماء خشية أن يسيل الماء إلىٰ أسفل البيت ؛ فيتأذىٰ منه رسول الله ﷺ أو زواره .

وقد بلغ من أدب أبي أيوب وأهله رضي الله عنهم - لما امتنع رسول الله ﷺ أن يصعد إلىٰ العلو - أنهم كانوا لا ينزلون في المكان المسامت لرسول الله ﷺ من العلو استحياء من الله ورسوله .

---

(١) أخرجه مسلم (٥٤٧٩) ، ك : الأشربة ، باب : إباحة أكل الثوم ، وأنه ينبغي لمن أراد خطاب الكبار تركه .

وهكذا فليكن الأدب ، والقيم الروحية العالية ، ومع اعتذار رسول الله ﷺ عن الصعود إلىٰ العلو لم يزل به أبو أيوب يرجوه ويلح في الرجاء حتىٰ قَبِلَ رسول الله ﷺ أن يكون في العلو ، إذ قد خَفَّ الزوار ولم يعد هناك من حرج .

وتسابق الأنصار في إكرام وفادة رسول الله ﷺ ، فما من ليلة إلا وتجد علىٰ دار أبي أيوب القِصَاع والجِفَان يأكل منها مَنْ يشاء ، ويدع مَنْ يشاء .

حبيبي في الله . . رجل العقيدة يسير طوعًا لها ، ويجد طمأنينته حيث تقر عقيدته ، والناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به هممهم ، وحلمت به أمانيهم ، وكلما كانت الغاية أسمىٰ كان البذل في سبيلها أعظم وأعلىٰ .

وهكذا انتهت الهجرة...

وهكذا كانت الهجرة النبوية بكل ما حملت من تعب وجهاد وضغطٍ علىٰ الأعصاب ، وهكذا وصل الحبيب محمد ﷺ بسلام من ربه ليسعد بهجرته ويسعد به محبوه وأنصاره ، وهكذا يلتقي إِخْوَةُ العقيدةِ الواحدة والطريق الواحد والمشاعر الواحدة . .

وإنه إذا كان تذكر مكة وما فيها يُبْكي ، فإن رؤية المدينة وما فيها يجفف ذالكم الدمع . . . مشاعر عاشها المهاجرون مع رسول الله ﷺ . . وكيف لا وقد ذاقوا ألوان العذاب والاضطهاد . . نعم : إنها الهجرة بكل دروسها وعبرها . .

وهكذا تمت الهجرة...

وطاب لرسول الله ﷺ المقام ، ولكن الزمن زمان عمل وجد واجتهاد ، فالوصول إلىٰ المدينة ليس غاية ؛ وإنما هو البداية لعمل كبير وجهد طويل وبذل عظيم ، ولذلك لم يكد رسول الله ﷺ يضع رحله حتىٰ بدأ العمل . .

ما العمل؟!

إنما الحياة الجديدة.. الحياة في المدينة...

دروس وثمرات من الهجرة

المقصود -حبيبي في الله- من دراستنا للهجرة أن نسير بها في ظل أحداثها، ونتخذ منها مسارًا دعويًا، ومنهجًا تربويًا، وسلوكًا أخلاقيًا؛ ففيها ما نعيش به في منعطفات الحياة المادية؛ فَهَلُمَّ حبيبي أَتْرِعْ فؤادك من معين دروسها، وطهر قلبك بعذب سلسبيلها، وربِّ نفسك بجليل نفعها، تعال لنعمل، ودعك من الكلام؛ فأسعدُ الناس من علم ليعمل، ومن تفقه ليتعبد، فخذها إليك مذللة القطوف تنعم، وعض عليها بالنواجذ تغنم..

ومن أهم دروس هذه الهجرة المباركة:

(١) البذل والتضحية بكل شيء في سبيل الدين سمة الصادقين وعلامة بارزة لعباد الله المفلحين، وعلى قدر الحب يكون البذل.

(٢) العقيدة أغلى من كل شيء، ولو خسر الإنسان كل شيء وسَلِمَ له اعتقاده لكان من الفائزين حقًا في الدنيا والآخرة، فأغلى ما تملك دينك، وأثمن شيء تعيش به إيمانك، وقيمتك عقيدتك؛ فالعقيدة إذًا أولاً وآخرًا.

(٣) طريق الدعوة مليء بالعقبات والأشواك، ولابد للمسلم الصادق أن يفقه طبيعة الطريق، ويفقه كيفية السير بين هذه الظلمات الحالكة، وكيف يتعامل مع المشوِّشات والمعوِّقات؛ فافهم الطريق تسعد بسلوكه.

(٤) أسلم طريقة للنجاة من الفتن والتخلص من آثارها البعد عنها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه؛ فاهجر ما فيه شبهة، وابتعد عن مواطن الفتن تسلم.

(٥) أثمن زاد يمتلكه المؤمن: الصبر والحلم، تَحَمَّلَ النَّبِيُّ ﷺ وَتَحَمَّلَ أصحابُه في سبيل الله ما لا تتحمله الجبال، وما خرج النبي ﷺ من مكة حتى هم المشركون بقتله منعًا له من الدعوة، وعلى قدر الصبر يكون الأجر.

⑥ إنما تَشْرُفُ الأماكن وتتفاضل فيما بينها بقدر ما فيها من طاعة لله ، فأينما حل الطائعون في بلد فقد حلت فيه الرحمة والبركة ، وما اكتسبت المدينة تلك المكانة السامقة إلا بهجرة الرسول ﷺ إليها ، وإن أولياء الله هم الذين إذا رُءُوا ذُكِرَ الله ، فما بالك برسول الله محمد ﷺ ؟ ! ولهذا كانت المساجد خير بقاع الأرض ، وكانت الأسواق شر بقاع الأرض ، فإذا أردت أن يَشْرُفَ بكَ مكانٌ فاملأه بطاعة الرحمن ، واعلم أن الأرض لا تقدِّسُ أحدًا ؛ إنما يقدس الإنسان عمله .

⑦ الإيمان الصحيح بالله إذا دخل القلوب ، وخالطتها بشاشته لابد أن يثمر الأعمال الصالحة والتضحيات العظيمة والجهاد بالمال والنفس ؛ فاغنم الإيمان تغنم سعادة الدنيا والآخرة ، وليكن نهجك وشعارك في حياتك :

« اجلس بنا نؤمن ساعة » .

⑧ لا ينبغي أبدًا أن تكون قلة المال أو التعلل بالأهل والأولاد مانعًا من العمل لله وفي سبيله ؛ بل يُتْرَكُ كلُّ هذا لله ، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩-١١] .

⑨ أبو بكر الصديق ﷺ أعلى الناس مكانةً بعد الأنبياء والمرسلين :

❁ فهو صاحب الرسول ﷺ في الهجرة وجليسه في الغار .

❁ وهو الفائز بمعية الله له وللنبي ﷺ ؛ إذ قال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، وقال له النبي ﷺ : « اثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا »[1] .

---

(١) متفق عليه ، أخرجه البخاري (٣٧٠٧) ، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، ومسلم (٢٣٨١) ، ك : فضائل الصحابة ، باب : من فضائل أبي بكر ﷺ .

❀ وهو الذي استخلفه النبي ﷺ حين مرض للصلاة بالناس فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»(١)، وصدق الفاروق عمر ﷺ إذ قال عن الصديق أبي بكرٍ ﷺ: رَضِيَكَ رسول الله ﷺ لديننا؛ أفلا نرضاك لدنيانا.

قال رسول الله ﷺ: «أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ إِلَّا النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ»(٢).

(١٠) الأخذ بالأسباب مع حسن التخطيط والإعداد من أهم عوامل النجاح، والأخذ بالأسباب يكون أولاً، ثم يكون صدق التوكل والاعتماد على الله ﷻ، والطعن في الأسباب طعنٌ في الشرع، وتعلق القلب بالأسباب شرك؛ فخذ بالأسباب ولا يتعلق قلبك بها؛ وإنما ليتعلق قلبك بالملك الوهاب، هكذا خطط رسول الله ﷺ للهجرة، ثم حين وقف المشركون على باب الغار فَوَّضَ الأمر إلى الله ﷻ وقال: «إِنَّ اللهَ مَعَنَا» فحفظه الله ودافع عنه.

(١١) حِفظُ الله لأوليائه لا يفارقهم؛ فالله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الرحمين، وعلى قدر بَذْلِكَ وتضحيتك يكون حفظ الله لك «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تِجَاهَكَ»(٣)؛ فانفض عنك غبار السلبية، واطرد عن جفونك نوم الغفلة المقيت، وأشعل في القلب حماسة البذل للدين، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، ومن العجز أن تموت جبانًا؛ فابذل لله ولاتتأخر؛ فإن قومًا ظلوا يتأخرون حتى أخرهم الله ﷻ، ابذل لله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٣٣)، ك: الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ومسلم (٤١٨)، ك: الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض أو سفر.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦٥)، ك: المناقب عن رسول الله ﷺ، باب: في مناقب أبي بكر وعمر ﷺ، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٩٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٢٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(١٢) القائد اللبيب يكسب قلوب أتباعه، فيلتفون حوله، يضحون بأنفسهم من أجله، وفي طاعة القائد طاعة لله وحبه، وطاعة أمره في غير معصية من تعظيم شعائر الله، وبحسن الخلق تكسب وُدَّ إخوانك، وَأَحْسِنْ إلى الناس؛ تكسب قلوبهم.

(١٣) من أهم سمات القائد المسلم اليقين والثبات، تأمل هذا المعنى عندما قال الصديق ﷺ للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ النبي ﷺ بكل ثباتٍ ويقين: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!»[1]، وفي الطريق كان أبو بكر يكثر الالتفات والنبي ﷺ لا يلتفت.

(١٤) الهجرة سُنَّة الأنبياء قبل نبينا، فقد هاجر الخليل إبراهيم عليه السلام، وهاجر عيسى بن مريم عليه السلام؛ ولهذا قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا[2].

(١٥) انقطعت الهجرة من مكة؛ لأنها صارت دار إسلام، والنبي ﷺ يقول: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»[3]؛ لكن الهجرة من المعصية إلى الطاعة باقية، ومن البدعة إلى السُّنَّة باقية،

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٧٠٧)، ك: المناقب، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ومسلم (٢٣٨١)، ك: فضائل الصحابة، باب: من فضائل أبي بكر ﷺ.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٥٨١)، ك: التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي والرؤيا الصالحة، ومسلم (١٦٠)، ك: الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٦٣١)، ك: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، ومسلم (١٣٥٣)، ك: الإمارة، باب: المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير.

ومن الشرك إلىٰ التوحيد باقية ، قال رسول الله ﷺ : «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ»[1] .

وكذلك هي باقية إذا أسلم إنسان بين أناس مشركين كلهم ، فمثل هذا يجب في حقه أن يهاجر إلىٰ بلاد المسلمين ، قال رسول الله ﷺ : «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ أَقَامَ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ» ، قالوا : يا رسول الله ، لِمَ ؟ قال : «لَا تَرَاءَىٰ نَارَاهُمَا»[2] ، وقال ﷺ : «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»[3] .

١٦ قد يتساءل بعض الناس : لماذا هاجر عمر ﷺ مستعلنًا بالهجرة ، وهاجر النبي ﷺ مستخفيًا؟

والجواب : إن النبي ﷺ مُشَرِّعٌ ، فأعماله شرعٌ متَّبع ، فهو يَخُطُّ لأمته السبيل الأمثل ، والنهج الأكمل في الأمور ؛ ثم إن النبي ﷺ هو رأس الدعوة إذا قُتِلَ قُتِلَت ؛ أما عمر فهو فرد من المسلمين ، لا يُحْسَبُ تصرفُهُ إلا علىٰ نفسه ، وإذا قتل فهو فردٌ من مجموع أمة .

١٧ أُرِّخَ التاريخ الإسلامي بالهجرة وليس ببداية الدعوة ؛ لأن الهجرة هي الحدث الكبير الذي تكوَّن به الكيان الدعوي المتكامل ، وفي التاريخ الهجري حفاظٌ علىٰ استقلالية الأمة وتميزها .

١٨ للإيمان بيئات صالحة تطيب به ، ويقوىٰ هو بها ، كما أن هناك بيئات ونفسيات صلبة صلدة لا تَقبل هُدًىٰ ولا تُنبت خيرًا ؛ ولكن القلوب بين يدي الرحمن يقلبها كيف شاء .

---

(١) أخرجه البخاري (١٠) ، ك : الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٠٤) ، ك : السير عن رسول الله ﷺ ، باب : ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين ، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (١٣٠٧) .

(٣) أخرجه أبو داود (٢٧٨٧) ، ك : الجهاد ، باب : في الإقامة بأرض الشرك ، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢٤٢٠) .

١٩ سبحان مقلب القلوب ! خرج سراقة بن مالك من مكة وهو عبدٌ للمال ، طامع طامح للجائزة التي يطلبها ، خرج يريد قتل رسول الله ﷺ ، ثم يغلب أمر الله فلا يرجع إلا وهو مدافعٌ عن رسول الله ﷺ مدافع عن دين الإسلام ؛ فالأعمال بالخواتيم ؛ فلا تغتر بعملِ عاملٍ حتىٰ تنظر بِمَ يُختم له .

٢٠ ليست العبادة مجرد صلاة وصيام فحسب ، بل العبادات أشمل من ذلك ؛ فهي كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال والأحوال ؛ فهناك عبادات قلبية كالحب والخوف والرجاء ، وهناك عبادات مالية كالصدقة والزكاة والكفارات ، وهناك عبادات بدنية كالصلاة والهجرة ، وهناك عبادات قولية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلىٰ الله ؛ فالهجرة عبادة من أَجَلِّ العبادات ، وهي باقية بالمفهوم الذي ذكرناه من قبل .

٢١ لا إيثار في الطاعة ؛ بل سابِقْ إلىٰ الطاعة متىٰ وَجدتَ إلىٰ ذلك سبيلاً ؛ وإنما اشترط النبي ﷺ علىٰ أبي بكر ﷺ أن يأخذ الناقة بالثمن حتىٰ يَحصُلَ كل ثواب الهجرة كاملاً ، وهو الذي قال في غزوة من الغزوات لصاحبيه اللذين كانا يعتقبان معه علىٰ بعيرٍ حين قالا : اركب أنت يا رسول الله ونحن نمشي ، فقال : «مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَىٰ مِنِّي عَلَىٰ السَّيْرِ ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَىٰ مِنْكُمَا عَنِ الأَجْرِ»[1] .

٢٢ ينبغي أن يكون المؤمن حَذِرًا تمام الحذر من كيد الكافرين والظالمين ، فهم كما قال الله ﷻ : ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]، ولله دَرُّ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول : «لا تأمنن فاسقًا أبدًا ؛ فإنه خان أول منعمٍ عليه» فإن من خان أول من أنعم عليه لا يفي لك أبدًا .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٤١١) ، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط .

٢٣ لا يهدأ أساطين الكفر أبدًا عن الكيد لهذا الدين ؛ فهم ينفقون أموالهم وأوقاتهم للصد عن سبيل الله ؛ ولكن الله غالبٌ علىٰ أمره ، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فلا ينبغي أبدًا أن يَهِنَ الدعاة أو يستكينوا أو يرهبهم اجتماع الكافرين وتآمرهم علىٰ هذا الدين ؛ لأنهم لا يتصدون للكفر بقوتهم هم ؛ بل بحول الله وقوته ، وإذا كان الله معنا فمعنا القوة التي لا تُغْلَبُ ، قال تعالىٰ لنبيه موسىٰ عليه السلام : ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]، لا تخف فربُّك الأعلىٰ ، لا تخف فعقيدتك أعلىٰ وحجتك أعلىٰ ويقينك أعلىٰ : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٢٤ الحرب خُدْعَة ، ومن حالات إباحة الكذب : عند الحروب ، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب ؛ فإن رسول الله ﷺ خالف الطريق ، وكَمَنَ في الغار ثلاث ليال ، ووظَّف من يأتيه بالأخبار ، وأبو بكر رضي الله عنه عندما سئل عن النبي ﷺ قال : هادٍ يهديني الطريق[1].

٢٥ يجوز المعاملة مع المشركين كالبيع والشراء ، وتأجيرهم للاستفادة من خبراتهم التي لا يوجد مثلها عند المسلمين ؛ ولكن يستعان بالمشرك علىٰ قدر خبرته وفي إطارها ، لا أن يستعان به علىٰ مسلم ، أو أن يستعان به في جهادٍ في سبيل الله ، استعان النبي ﷺ بعبد الله بن أُريقط لأنه كان هاديًا خِرّيتًا أمينًا لا يفشي السر ؛ وإلا لَمَا استعمله رسول الله ﷺ ، وقال للمشرك الذي أراد أن يجاهد معه في غزوة : «فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٩)، ك : المناقب ، باب : هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة .
(٢) أخرجه مسلم (٤٨٠٣)، ك : الجهاد والسير ، باب : كراهة الاستعانة في الغزو بكافر .

٢٦ من فطنة الداعية ومن ذكاء المربي أن يوظف كل شخص في عملٍ يوافق إمكانياته وقدراته ، وانظر كيف جعل النبي ﷺ لكل واحد من آل بيت أبي بكر رضي الله عنه دورًا لإنجاح الهجرة ؛ فعبد الله بن أبي بكر كان بمثابة جهاز المخابرات النبوي ، وأسماء بمثابة وزارة التموين ، وعامر بن فهيرة يأتيهما بشراب الماء واللبن ، وليعفي آثار الأقدام بأغنامه .

٢٧ مكانة الأنصار عند الله عظيمة ، وآية الإيمان حُبُّ الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار ، وهم الذين قال الله تعالىٰ فيهم : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] .

٢٨ للمسجد في الإسلام دورٌ عظيم ؛ ففيه تتربىٰ النفوس ، وتتآلف الأرواح ، ويذكر فيه اسم الله ، وليتك تبتني في بيتك مسجدًا ؛ ليكون مَهبِطًا لرحمة الله علىٰ بيتك .

٢٩ الأُخوة الصادقة تثمر الإيثار ، وانظر إلىٰ عمر رضي الله عنه وحرصه علىٰ عَيَّاش بن ربيعة ، وكيف يعطيه ناقته النجيبة الذلول (السريعة السهلة الركوب) حتىٰ يتمكن بها من الهرب من مكر الكافرين ، وسعد بن الربيع يعرض علىٰ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما نصف ماله وإحدىٰ زوجتيه -كما سيأتي معنا إن شاء الله- تلك هي أسمىٰ معاني الأخوة التي لا يعرفها دينٌ إلا الإسلام .

٣٠ إنما يكون البناء التربوي في بيئة هادئة ونفوس متآخية ، أما النفوس المتناحرة المتنافرة فمن الصعب تربيتها قبل التأليف وتهيئة الجو الأخوي ، وتصفية ما يعكر الجو الدعوي .

٣١ تعلمنا في طريق الهجرة سنة الطريق إلىٰ الله ، فلابد من صاحب ودليل ، وانظر كيف كان اختيار رسول الله ﷺ للصاحب الموافق الذي يستسلم ويتأدب

ولا يعترض ، والدليل الحاذق الأمين العليم الخريت الذي يبصر الدروب ويعرف المسالك وله خبرة التصرف عند الأحداث ، فتخير في طريقك إلى الله دليلاً على علم وصاحبًا موافقًا أليفًا .

(٣٢) تأمل في صحبة أبي بكر ﷺ لرسول الله ﷺ :

❁ الإيثار في دخول الغار قبله .

❁ القوة والشجاعة والاحتمال في كثرة تلفته .

❁ الحنكة والحكمة والفقه في قوله : هو دليل يهديني الطريق .

❁ الحب والفداء والأدب في طول الرحلة في تهيئة الأماكن للنوم والشرب والأكل .

(٣٣) تأمل في قوله ﷺ لأبي بكر : ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ :

❁ قول فصل في كلمات معدودات تصلح شعارًا للحياة في جميع المواقف .

❁ هذه القوة الفاصلة هي التي ألهمت أبا بكر الثبات بلا تردد ولا تلون ولا اهتزاز للثقة ولا بحث عن مخرج أو سبيل ؛ بل هو الرضا .

(٣٤) وتأمل موقف أبي بكر أنه لم ينزعج بعدها ولم يكرر إظهار خوفه ؛ بل رضي وتابع .

(٣٥) الجنود التي ينصر بها الحق ويخذل بها الباطل ليست مقصورة على نوع معين من السلاح ولا صورة خاصة من الكرامات أو خوارق العادات ، إنها أعم من أن تكون مادية أو معنوية ، وإذا كانت مادية فإن خطرها لا يتمثل في ضخامتها ، فقد تَفْتِكُ جُرْثومة لا تراها العين بجيش ذي لجب ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ، ومِنْ صُنْعِ الله لنبيه أن تُعمىٰ عنه عيون أعدائه وهو منهم على مد الطرف .

٣٦ انظر كيف كان أبو بكر ﷺ في خدمة رسول الله ﷺ هو وكل ما يملك ، فبنفسه وماله خرج مهاجرًا ، وابنته تحمل الطعام ، وابنه يأتي بالأخبار ، وخادمه يسوق أغنامه ليسقي منها النبي ﷺ ، حتى أغنام أبي بكر ﷺ كانت في خدمة الدعوة ؛ فهي تمحو آثار الأقدام ، وعائشة ﷺ رغم صغر سنها تختزن هذه الأحداث في ذاكرتها ، وتدرك أهميتها ؛ لترويها للأمة بعد ذلك .

أخيرًا لابد أن نستفيد من الهجرة وبيقين ووضوح هذه الجوانب الثلاث ، لتكون ذخيرة حياتنا :

أولاً : علينا أن نستفرغ الوسع ونبذل أقصى الطاقة البشرية في الأخذ بالأسباب في نصرة الدين ورفع راية الإسلام وخدمة الدعوة .

ثانيًا : أن يكون توكلنا واعتمادنا وثقتنا وتعلق قلوبنا بالله وحده لا بالأسباب التي ارتأيناها وأخذنا بها .

ثالثًا : أن نقبل قضاء الله وقدره ونفوض الأمر إلى الله فيما هو فوق طاقتنا ونطمئن إلى أنه خير للإسلام والمسلمين .



تم الجزء الأول من مدرسة السيرة ،

الذي اشتمل على السيرة من الميلاد إلى الهجرة ..

ويليه بإذن الله عز وجل الجزء الثاني بعنوان :

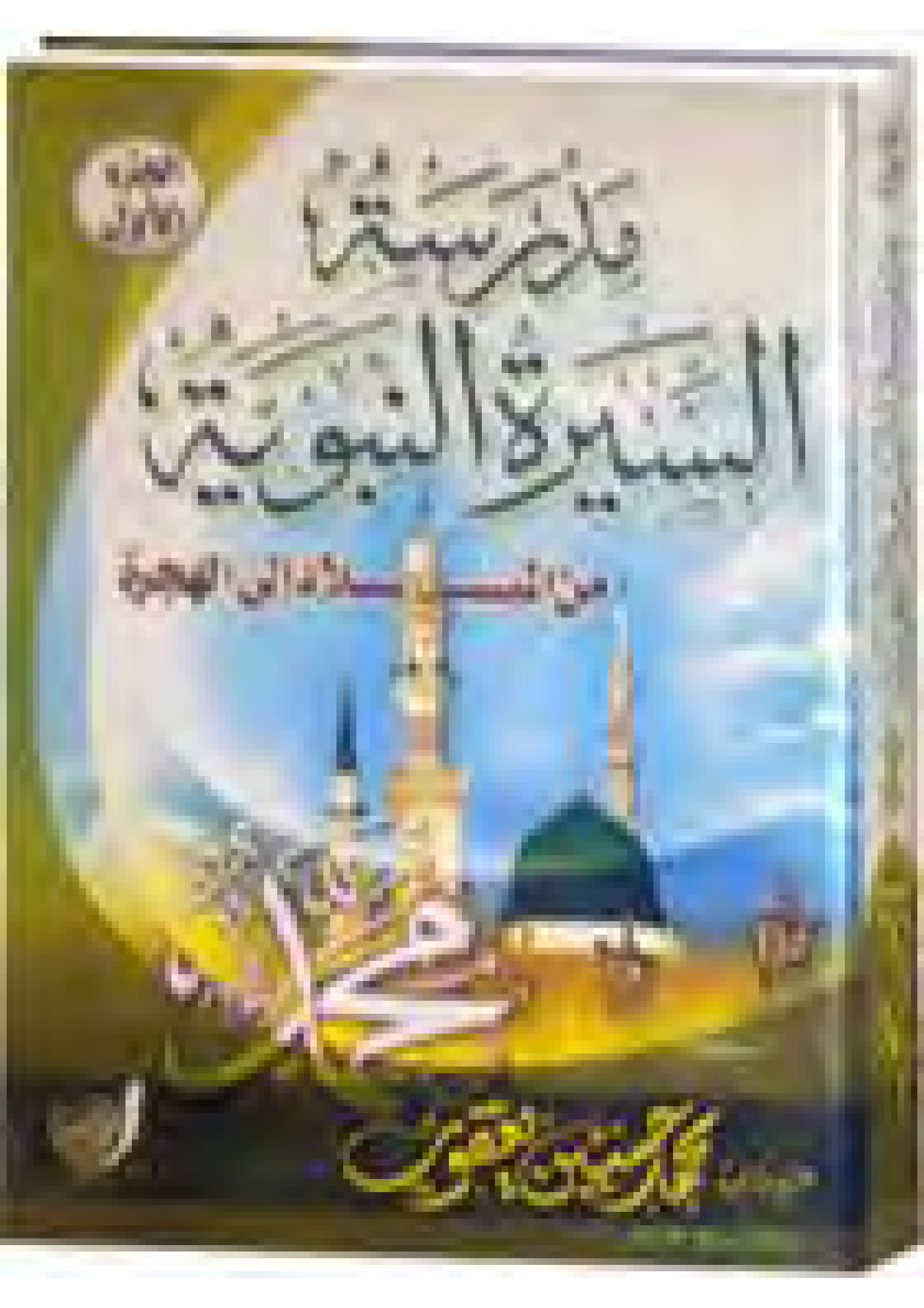
« الحياة في المدينة »

المحتويات

الموضوع **الصفحة**



الجزء الأول
مدرسة
السيرة النبوية
من الميلاد إلى الهجرة
محمد رسول الله
جمع وترتيب
محمد حسين يعقوب


السيرة النبوية